دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد 16

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الإخوة كارامازوف 1

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد السادس عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً
ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي
الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧
الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bortini, 34 - 20154 Milano

الإخـــوة كارامازوف

١

تقديم

لم يبارح المرض دوستويفسكي ، فنوبات الصرع ما تنفك تزداد ، وقد أضيف اليها احتقان الرئتين وعسر التنفس مع تقدمه في السن • على أن الفترة التي تمتد من سنة ١٨٧١ الى يوم وفاته سنة ١٨٨١ ، يمكن أن تعد سعيدة اذا قيست بالفترات التي سبقتها ، وهي على كل حال خصبة الى أقصى حدود الخصوبة • هي سعيدة من الظاهر : ففيها تعاظم مجد دستويفسكي حتى انتخب عضوا في الأكاديمية سنة ١٨٧٧ ، وحتى ألقى خطابه عن بوشكين سنة ١٨٨٠ ، فأصبح الناس يؤلهونه تأليها ، وأصبح يعترف له بأنه «الكاتب العبقري لروسيا كلها» ، تعترف له بذلك السلطات رغم جرأته واستقلاله ، وتعترف له به الشبيبة الليبرالية رغم « الجن » ورغم المقالات «الرجعية» التي تضمها «يوميات كاتب» • والى جانب المجد هناك سعة الرزق ، فلئن كان ما يزال يتقاضى من الناشرين سلفا على انتاجه ، فانه يملك الآن منزلا صغيرا في ستارايا روسا ، وان حقوقه في الملزمة الواحدة من كتاباته تبلغ ثلاثمائة روبل ، وان كتبه يعاد طبعها مرة بعد مرة ، فهو الآن لا يكتب والسكين على عنقه ان صح التعبير • وأكثر من هذا كله أنه ينعم بحياة عائلية رضية بهيجة : ان آنا جريجوريفنا امرأة مثال ، كزوجة ومديرة أعمال وسكرتيرة ، ودوستويفسكي يحبها ويحب أولاده ، فاذا قرأت رسائله اليها حين كان يضطر الى الغياب عن بيته ، رأيت هذه الرسائل تفيض رقة وعطفا وحنانا • والنازلة الوحيدة التي ألمت به في هذه السنين انما هي موت ابنه ألكسي عام ١٨٧٨ من نوبات الصرع الموروثة عن الأب • وحياته سعيدة في الباطن أيضا ، أو هي حادثة نوعا من الهدوء في أقل تقدير : لقد تخلص دوستويفسكي بجهد الارادة من داء القمار ، وسكن وجدانه بعض السكون فليس يعيث فيه ما كان يعيث فيه من تمزق • صحيح أن القلق مايزال يهز روحه ولكنه ليس قلق الحياة اليومية ، بل قلق المشكلات الفلسفية والمسائل الانسانية التي أوحت اليه بأمهات آثاره • ففي تلك الفترة انما كتب دوستويفسكي رواياته الثلاث: «الجن» ، و «المراهق» و «الاخوة كارامازوف» •

ان هذه الروايات الثلاث أفكار تحيا في أشخاص ٠

ان دوستويفسكي لا يعرض مذهبا فلسفيا جامدا يدعو اليه ويتعصب له ٠ ان تعدد الاشخاص الذين يصورهم دوستويفسكي يتيح عرض تلك الأفكار في مختلف جوانبها ويتيح ابرازها بمزيد من الوضوح في تعارضها ، ويتيح اظهار الفروق الدقيقة بينها وتقليب الرأى فيها على شتى وجوهها ، فلا يضع القارىء امام حلول حاسمة او قناعات قاطعة ٠ ومن هنا يجىء اختلاف الاجتهاد في تحديد موقف دوستويفسكي ، وتفاوت الرأى في تعيين اتجاهه وتعارض التفسير في تعريف الحل الذى ينتهى اليه ٠ فمن قائل : ان دوستويفسكي قد صار الى المحافظة ، ومن قائل : بل انه عاد يتعاطف مع الثوريين ، ومن زاعم انه قد مضى الى أقصى التطرف القومى الروسى ، ومن زاعم انه ، على عكس ذلك ، قد فتنته أوروبا فتنكر لروسيا ، ومن مدع انه قد ارتد الى أشد التعصب المسيحى الاورثوذكسى ، ومن مدع انه على خلاف ذلك ما يزال يساوره الشك ، وينازعه الالحاد ٠

والواقع أن دوستويفسكي قد وصل من جهته الى حلول ، ولكن هذه الحلول مركبة لا بسيطة ، معقدة غير سهلة ، فان طبيعته كانسان ، ووظيفته كروائى قد أملتا عليه مجتمعتين أن يعرض لمناقشة المشكلات أكثر من أن يخلص الى حلها ٠ فما هى تلك المشكلات التى يثيرها دوستويفسكي ، او تثور فى نفس دوستويفسكي ؟

فى قمة هذه المشكلات تقع المشكلة الميتافيزيقية : « كيف يتفق مع وجود الله ، الرحيم القادر ، وجود الشر ؟ » ٠ لقد كتب دوستويفسكي الى زوجته سنة ١٨٧٥ يقول ان سفر أيوب يمرضه : « انني أقرأ فى هذا السفر ثم أدعه ، وآخذ أسير فى الغرفة وانا أكاد ابكى ٠٠ ان هذا السفر، يا آنيا ، فذ ، ولكنه واحد من الأسفار التى أثارت دهشتى منذ أن كنت طفلا صغيرا ٠٠ » ٠ وان الشر الاخلاقى ، ان ارادة الشر لدى الانسان ، هى التى عذبته خاصة ٠ لقد فهم دوستويفسكي أكثر من اى انسان آخر قوة الالحاد الغربى الحديث الذى لا يجحد الله فحسب ، بل يجحد الخليقة أيضا ، ويكفر بعلة وجود العالم والحياة ٠ لذلك نرى دوستويفسكي ، حين يتناول النقاد اللبراليون كتابه «الاخوة كارامازوف» ، فيقولون عن ايمانه بالله انه «رجعة» ، نرى دوستويفسكي يثور عندئذ ويهتف مستاء : «لا ، اننى لم أومن بالله ولم اعترف به كما يفعل طفل ، وانما أنا وصلت الى

هذا الايمان صاعدا من الشك والالحاد بمشقة كبيرة وعذاب اليم» • ليس ايمان دوستويفسكى ايمان العجائز •

والمشكلة الثانية هى مشكلة الانسان : الانسان سر • ان للانسان طبيعته السوية : « ان جميع البشر ، حتى الأوغاد منهم ، هم فى أكثر الحالات ، أسذج وأبسط مما نتصور حين ننظر الى افعالهم ••» • ولكن هذه الطبيعة يمكن أن تنفتح لقوى لا سبيل الى مغالبتها ، تاتى من أسفل أو تهبط من أعلى • فالشر يتشبث بالانسان ويلتهمه التهاما «كحشرة» ، «كعنكبوت» كريه ، « كرتيلاء » قاتلة اللدغ • ولهذا الشر صور شتى مختلفة : هو الشهوانية ، والأنانية ، والبخل ، والرغبة فى السيطرة ، والحاجة الى تعذيب الآخرين والى تعذيب النفس أيضا ، ولو «لمجرد القيام بدور غير متوقع» • ولكن هذه الاندفاعات التى تاتى من غياهب « القبو » تقابلها نداءات سماوية هى التفانى ، والندامة ، والتوبة ، والحب ، وأحلام ملهمة ، وبصيرة نافذة ، ووجد ونشوة • « ان الانسان واسع ، واسع سعة رهيبة» • هو فى حجم الكون بأسره •روحه ميدان قتال «يصطرع فيه الاله والشيطان» • ذلكم هو الاعتقاد الذى انتهى اليه دوستويفسكى بعد تجربة السجن وخبرة الحياة ، غائصا فى قرارة النفس ، نفس الآخرين ، ونفسه هو •••

وهنا تطرح مشكلة العلاقات بين هؤلاء البشر بعضهم وبعض، ومشكلة العلاقات بينهم وبين الله • ما قيمة المجتمع ؟ ان المجتمع يقوم على العدالة• ولكن دوستويفسكى قد بلا عدالة البشر فى ذات نفسه ، وخبر نتائجها فيما حوله • لقد درس دوستويفسكى أساليب القضاء ، وشهد محاكمات ، وتحدث مع قضاة ، وتساءل عن العدالة قلقا، فانتهى الى ان العدالة لا سلطان لها على الانسان • هى تفصل المجرم عن المجتمع ، وتلقى فى نفسه اليأس، ولكنها لا تشفيه • انها خلو من الروح الانسانية • ولا قيمة الا للنفس ، والدين وحده يقيم للنفس وزنا ، الدين وحده يحسب حساب النفس • ليت الدولة تستطيع أن تصبح مسيحية ، ليتها تستطيع أن تنصهر فى الكنيسة ، ليت المجتمع الذى يشبه أن يكون الآن وثنيا يستحيل الى كنيسة ، الى كنيسة واحدة ، عامة ، شاملة ، مسيطرة !•• ولكن الكنيسة فى الغرب ، فى أوروبا ، قد انتزعت من الانسان حريته لتحقق سعادته ، كما ان الاشتراكية تريد أن تقوم على أنقاض الدين ، تريد ان تكون ملحدة لتحقق للانسان رخاءه ورفاهيته • ان النظم الاجتماعية التى تتصارع فى

أذهان الناس تشتمل كلها على مضيعة للانسـان : تستوى فى ذلك الراسمالية البورجوازية ، والاشتراكية المادية الالحادية · افلا يمكن أن يتحقق نظام تتعانق فيه الاشتراكية والمسيحية ؟ ان الابطال الحقيقيين فى نظر دوستويفسكى هم أولئك الذين « يؤمنون بالله والمسيحية ، ولكنهم فى الوقت نفسه اشتراكيون » ، ولعل روسيا مهيأة لان تجيء بحل ، لان الشعب الروسى لايزال مؤمنا بالله ، كما أن الكنيسة الارثوذكسية لم تخضع لاغـراء السلطة والحكم · تلك كانت أمنيـات دوستويفسكى ونبوءاته · أكان رجعيا فى تفكيره ؟ أكان اعمى فيما تنبأ به ؟ ربما ! ولكن دوستويفسكى كان اشتراكيا على طريقته ، ويظل حقا أن المشكلات التى عذبته لم تكن عبثا ، وربما ظل الانسان يطرحها أبد الدهر ·

مهما يكن من أمر ، فتلك هى الآراء التى أراد دوستويفسكى أن يعبر عنها ، فاخذ يبحث لهـا عن اطار روائى · وسرعان ما وافاه ذلك الاطار الروائى : أسرة يمثـل أبناؤها الاتجاهات المختلفة التى يمكن ان تتجهها الشبيبة فى المجتمع الروسى · تلك هى أسرة كارامازوف ·

ان أبناء هذه الأسرة ، «الاخوة كارامازوف» ، يحملون عيوبا وراثية ، ولكن امكانيات جديدة تنضم الى تلك العيوب الوراثية · فاما أحدهم فهو شاب مثقف متحفظ ، فى نفسه بذور أخلاقية (انه ثائر على وجود الشر) ، ولكن نزعته العقلية هى قوة دمار وفناء : « اذا لم يوجد الله ، فكل شيء مباح» ، «انا لم أستطع أن أفهم يوما كيف يمكن أن يحب الانسان قريبه» · ذلكم هو ايفان الذى سيجن · وأما الثانى فهو رجل متدفق الحيوية ثرثار ماجن ، ولكنه كريم طيب القلب ، ليس بذى ادعاء فكرى ، نفسه منفتحة للعـواطف الخـيرة وللتطهر بالألم ، ولـكن ذلك لا يوقيه من الانكسار والانحدار · ذلكم هو دمترى الذى سيتهم بقتل ابيه ظلما · وأما الثالث فهو فتى سليم الفطرة بسيط الفكر طاهر القلب ، يسير فى الطريق القويم ، وينذر حياته لحب البشر وخدمة الناس والولاء للكنيسة · انه ، فى نظر دوستويفسكى ، الحياة والمسـتقبل · ذلكم هو اليوشا ، أصغر الاخوة كارامازوف ·

قال أحد النقاد : « يبدو أن دوستويفسكى قد أراد أن يعبر فى الاخوة الثلاثة عن الجوانب الثلاثة لشخصه ، وعن المراحل الثلاث لحياته : فاما دمترى الشيلرى فهـو يصـور المرحلة الرومانسية التى انتهت بدخوله

السجن ، واما ايفان فهو يمثل السنين التى أوشك فيها أن يستعيض عن الايمان الدينى بالاشتراكية الملحدة ، واما أليوشا فهو خاتمة المطاف ، هو العودة الى الشعب الروسى والى الارثوذكسية » ٠

مهما يكن من أمر ، فان دوستويفسكى قـــد أعطانا فى « الاخوة كارامازوف » خلاصة أدبه وفكره ٠ ففى هذه الرواية نجد التعارض الذى رأيناه فى رواية « المراهق » بين الاب والابن ، ونجد الصراع الذى رأيناه فى « الجن » بين الالحاد والقداسة ، ونجـــد هيكل ما رأيناه فى رواية « الأهبل » من شخوص ومن تنافس بين غريمين : لقد كان اسم اليوشا فى مســـودة «الاخوة كارامازوف» هو «الأهبل» ، وجروشـنكا فى « الاخوة كارامازوف» تذكر بآناستازيا بطلة «الأهبل» ، وايفان يذكر براسكولينكوف « الجريمة والعقاب » ٠ وسمردياكوف يذكر بشخصية فوما فومتش فى « قرية ستيبانتشيكوفو » ٠ والمشكلة التى تطرح فى حلم « المفتش الكبير » قائمة بلورها فى قصة « الجارة » التى كتبها دوستويفسكى فى شبابه ٠

ان « الاخوة كارامازوف » هى عالم دوستويفسكى كله مصغرا ٠ ولكن صورة هذا العـــالم الآن تملك من الشفافية والوضوح وقوة البناء الفنى وتملك حتى من جمال الاسلوب ، مالم يصل اليه دوستويفسكى فى أى أثر من آثاره قبل ذلك ٠ أما الاغوار التى هبط اليهـا فهى الاغوار نفسها ، وما أعمقها !

ولقد شعر دوستويفسكى بســعادة كبيرة حين فرغ من « الاخوة كارامازوف » ، وقد كتب يقول عندئذ : « أريد أن أحيا وان أكتب عشرين سنة أخرى » ٠ كان ذلك فى ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٠ ، ومات دوستويفسكى فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ ٠

« الاخوة كارامازوف » (BRATIA KARAMAZOVY)
نشرت هذه الرواية فصولا في مجلة « الرسول الروسى »
سنتى ١٨٧٩ و ١٨٨٠ ، ثم صدرت أولى طبعاتها
المستقلة سنة ١٨٨٠

الإخـــوة كارامازوف

١٨٧٩ - ١٨٨٠

إهداء

إلى آنا جريجوريفنا دوستويفسكي

« الحق الحق اقول لكم : ان لم تقع حبة الحنطة فى الارض وتمت فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير »(*)

(انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى عشر ، ٢٤)

إلى القارئ

حين أشرع فى قص حياة بطلى ، ألكسى فيدوروفتش كارامازوف ، أشعر بشيء من الارتباك ، وهو ارتباك له ما يبرره له : اننى أسمى ألكسى فيدوروفتش هنا باسم البطل ، وأنا أعرف حق المعرفة أنه رجل عادى لا يمتاز بشيء ، وليس فيه من العظمة كثير ولا قليل ، لذلك أتوقع أن تجيء الأسئلة التى لا بد أن تطرح علىَّ ، من هذا القبيل : « ماذا فى صاحبك ألكسى فيدوروفتش هذا من أمر فذ ، حتى اتخذته بطلاً ؟ ما الذى قام به من أعمال نادرة ؟ بماذا أصبح ذائع الصيت، وأين ؟ ولماذا يجب علىَّ أنا القارىء أن أضيع وقتى فى قراءة ما حفلت به حياته من أحداث وحركات ؟ » .

وهذا السؤال الأخير هو الذى يُربكنى أكثر من سائر الأسئلة ، هو الذى يقلقنى أكثر من سائر الأسئلة ، لأننى لا أستطيع أن أجيب عليه بغير قولى « اقرأوا الرواية ، فلربما تفهمون ». وما عسى أن يكون موقفى اذا قرأ القارىء الرواية ، فلم يوافقنى على رأيى ، ولم يشأ أن يسلم بأن صاحبى ألكسى فيدوروفتش شخصية فذة ؟ اننى مضطر الى ان أتساءل هذا التساؤل ، لأننى أتوقع ، على كثير من الأسف ، أن الأمر سيكون كذلك . فهذا الرجل يبدو لى فذاً ، ولكننى أشك أقوى الشك فى أن أصل الى اقناع القارىء بذلك . بل اننى لأراه بطلاً فعّالاً ،

بمعنى من المعاني ، رغم أن فعله يظل غامضاً ، يصعب تحديده . وهل في وسع المرء ، على كل حال ، أن يطلب الى الناس أن يكون سلوكهم واضحا مفهوما في عصرٍ كهذا العصر الذي نعيش فيه ؟ على أن هناك أمراً يبدو ثابتاً ، هو أن هذا الرجل غريب ، شاذ ! والغرابة والشذوذ تسيئان الى السمعة أكثر مما تدفعان الى العطف والاهتمام ؛ وخاصة في عصر يجهد فيه الناس أن يوحدوا ما اختلف ، وأن يبددوا ما نشز ، التماساً لشيء من الوضوح والفهم في هذه الفوضى العامة الشاملة . والشذوذ ، في أغلب الأحيان ، سبيل الى التميز ، والتفرد . أليس كذلك ؟

مهما يكن من أمر ! اذا كنتم لا توافقون على هذا الرأي الأخير كل الموافقة ، واذا كنتم تجيبون بأن « الأمر ليس كذلك » ، أو بأنه « ليس كذلك دائماً » ، فقد يردُّ اليَّ هذا شيئاً من الثقة ببطلي ألكسي فيدوروفتش . لأن الانسان الشاذ ليس حتما – ليس دائماً – ذلك الذي يبتعد عن القاعدة ؛ حتى لقد يتفق ، خلافاً لهذا ، أن يحمل في ذاته حقيقة عصره ، بينما يكون الناس ، جميع الناس ، من معاصريه ، قد ابتعدوا عن القاعدة الى حين ، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة ...

كان في وسعي ، على كل حال ، أن أستغني عن محاولة هذه التعليلات المربكة التي ليس لها قيمة ، وأن أدخل في الموضوع رأساً بلا مقدمات : فاذا حظيت قصتي برضى القارىء ، قرأها دون ما حاجة الى هذا التمهيد ؛ ولكن مصيبتي في الأمر أنني أعرض تاريخ حياة واحدة بعينها ، في روايتين اثنتين مستقلتين ، الثانية منهما أخطر شأنا من الأولى، لأنني أقصُّ فيها أعمال بطلي في العصر الذي نعيش فيه ، في الأيام التي نجتازها . أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاما ، وليست في

حقيقة الأمر رواية ، وانما هى فصل بسيط يصور حياة بطلى فى صدر شبابه . وكان يستحيل علىّ أن أعدل عن هذه القصة الأولى ، ولو فعلت، لاستحال فهم الأمور فى الرواية الثانية . وهذا ما يفاقم حيرتى الأولى كثيراً : اذا كانت رواية واحدة تبدو لى ، أنا الذى أكتبها ، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من الغموض والابهام ، فكيف أستطيع أن أتقدم الى الناس بروايتين اثنتين ؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعاء العريض ؟

أشعر بأن الجهود التى أبذلها للاجابة على هذه الأسئلة تضيعنى ، لذلك أعدل عدولاً حاسماً عن محاولة أى تعليل . وواضح أن القارىء الذى أوتى نفاذ البصيرة قد أدرك دفعةً واحدة ما أهدف اليه من وراء ذلك ، وفهم أننى لم أزد على أن التمست لنفسى العذر عن ذلك العدول، ولا أشك فى أن تضييعى الوقت الثمين فى كلام لا طائل تحته قد أحنقه. ولكن جوابى على هذه النقطة الأخيرة ماثل فى ذهنى . لقد استرسلت فى كلام عقيم ، وأضعت فى ذلك لحظات ثمينة ، لسببين اثنين : أولهما اللباقة ، وثانيهما المكر . « وبهذا ألفت نظر القارىء الى ضرورة الحذر، فى أقل تقدير » . ثم اننى لا يسوءنى كثيرا أن روايتى تنقسم قسمين، مع الاحتفاظ بما فى « مجموعها من وحدة أساسية » . ان القارىء يستطيع، بعد قراءة القصة الأولى ، أن يعرف بنفسه هل ينبغى له أن يُحمِّل نفسه عناء قراءة الثانية . وواضح أن لكل انسان حريته فى هذا كله ، بل ان فى وسع المرء أن يرمى الكتاب منذ قراءة الصفحات الأولى ، وأن يعقد النية على أن لا يعود اليه أبداً . على أن هنالك قراءً أوتوا حظاً من الرهافة ، فهم يريدون أن يمضوا فى قراءة الكتاب الى آخره ، مهما يكلفهم هذا

من عناء ، وذلك من أجـــل أن يستطيعوا الخـــلوص الى رأى يتصف بالحياد ، ويتفادى الزلل • وهذا هو شأن النقاد الروس عامة ، على وجه التخصيص • واليهم انما أرتاح الآن : لقد قدمت لهم ، رغم ما يتصفون به من قوة الوجدان ومن الحرص على الدقة ، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول •

هذه اذن مقدمتى • وانى لأعترف بأنهـــا زائدة لا محـــلّ لها • ولكننى كتبتها ، ومن أجل ذلك أحتفظ بها • لا بأس •

ولننتقل الآن الى الموضوع •

الجزء الأول

الباب الأول: قصة أسرة صغيرة طيبة

١

فيدور بافلوفتش كارامازوف

كان ألكسى فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث لمالك الأطيان فيدور بافلوفتش كارامازوف* الذي اشتهر جداً فى مقاطعتنا ، وأحدثت نهايته الفاجعة التى ظلت بلا تفسير ووقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة* ، ضجة كبيرة فى الماضى (وما يزال الناس يتحدثون عنها الى يومنا هذا (سأروى قصة نهايته تلك متى آن الأوان ، وسأقتصر مؤقتاً على الاشارة الى أن هذا « البوميستشيك » (كما كان يسمى عندنا ، رغم أنه لم يكد يعيش أبدا فى أراضيه) كان انسانا عجيبا . انه ينتمى الى ذلك النوع من الأفراد الشاذين ـ وهو نوع منتشر انتشارا كافيا والحق يقال ـ الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحطة وبين قدر كبير من السخف ، ولكن سخفهم سخف خاص ، فهم يعرفون حق المعرفة كيف يصرّفون أعمالهم المادية الصغيرة وليس فيهم من قلة العقل الا المظهر . من ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر ان صح التعبير . لقد كان مالكا صغيرا جدا ، يعيش على موائد الناس ، يأكل تارةً عند هذا وتارة عند ذاك ، ويحيا حياة انسان طفيلى تماما ؛ ولكن وُجدت عنده ، حين مات ، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عداً ونقداً . هذا لا ينفى أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذا

وغرابة • أعود فأكرر أن شذوذه لم يكن هو الغباوة ، فان أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر ، وانما الأمر أمر سخف ، سخف خاص ، سخف وطني ان صح التعبير •

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وأنجب ثلاثة أبناء ، فأما الأكبر فهو دمترى فيدوروفتش الذى ولد له من زواجه الأول ، وأما الآخران فهما ايفان والكسى اللذين ولدا له من زواجه الثانى • كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الغنية العريقة في نبالتها التى كان أفرادها ملاكين أيضا فى مقاطعتنا • فاذا سألتنى كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتنعم الى ذلك بذكاء متفوق ـ ذكاء من هذا الذكاء الذى نلقاه كثيرا بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادرا كذلك فى الماضى ـ أقول اذا سألتنى كيف أمكن لفتاة هذه مزاياها أن تتزوج « طرحاً » تافهاً هذه التفاهة (كذلك يلقبه جميع الناس) قلت ان هذا أمر لا أحب أن أحاول تعليله وتفسيره • لقد أتيح لى أن أعرف على كل حال فتاةً ـ هى من الجيل القديم الرومانسى ـ ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياما عجيبا بحب رجل كان فى وسعها أن تتزوجه بسهولة كبيرة ، ولكنها مع ذلك انتهت الى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء التى تحول بينها وبين تحقيق سعادتها ، فاذا هى فى ذات ليلة عاصفة ترمى نفسها من أعلى شاطىء وعر يشبه أن يكون جُرْفاً ، واذا هى تقضى نحبها على هذه الصورة ضحيةً لنزواتها الخاصة ، دون أن يكون لها هدف الا أن تشبه أوفيليا بطلة شكسبير ؛ حتى أن فى وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذى اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس ، لو كان أقل جمالاً وروعة ، ولو كان فى مكانه شاطىء منبسط عادى مبتذل ، اذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا • هذه قصة واقعية صادقة ، وهنالك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد



فيدور بافلوفتش كارامازوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

بأن الأعمال التى من هذا النوع كانت كثيرة فى حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال • فلعل زواج آديلائيد ايفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضا ثمرة مؤثرات غريبة وخيال جامح ؟ لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوى ، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة ، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقربائها • لعل خيالا طيّعاً قد أقنعها ، ولو خلال لحظة قصيرة ، بأن فيدور بافلوفتش ، رغم ما إستقر فى أذهان الناس عنه من أنه انسان طفيلى ، هو واحد من أشجع الرجال وأظرفهم فى عصر التقدم هذا الذى يصارع أخطاء الماضى ، على حين أن الرجل لم يكن فى حقيقة الأمر الا مهرّجاً شريراً حقيرا لا أكثر من ذلك • وقد أضيفَ الى هذا أمر يؤثر فى النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف ، فذلك ما سحر آديلائيد ايفانوفنا وفتنها عن نفسها • أما فيدور بافلوفتش فقد كان متهيئاً تهيؤاً خاصاً ، بحكم وضعه الاجتماعى ، لحل من هذا النوع ، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة فى ذلك الوقت أن تعرض له فرصة نجاح فى الحياة ، بأية وسيلة من الوسائل • فلا شك أن التسلل الى أسرة ممتازة والحصول على بائنة ضخمة كانا يغريانه أيما اغراء • وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أى شأن فى هذا الزواج ، سواء من جهة الخطيبة ومن جهة الخطيب، رغم ما كانت تنعم به آديلائيد ايفانوفنا من جمال لا يُجحد ولعل ذلك كان حالة فريدة فى حياة فيدور بافلوفتش الذى ظل طوال حياته انسانا تلتهب عواطف الحب عنده التهابا شديدا ، لأنه بطبيعته شهوانى يمكن أن يكلف فى طرفة عين أىّ امرأة يقع عليها بصره ، شريطة أن يشجّع• ومع ذلك كانت آديلائيد ايفانوفنا المرأة الوحيدة التى لم تستثر هواه ولا أضرمت عواطفه •

ولم تلبث آديلائيد ايفانوفنا أن أدركت ، بعد الاختطاف رأساً ، أنها

لا تشعر نحو زوجها الا بالاحتقار • ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج فى مثل هذه الظروف أن ظهـــرت • فرغم ان اسرة المراة قد سارعت تذعن للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بائنة الهاربة ، فان حياة الزوجين سرعان ما أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيهـــا المناقشات • وقد قيل ان المرأة عرفت كيف تبرهن فى هذا الظرف على نبل ورفعة لم يبرهن على مثلهما فيدور بافلوفتش الذى استطاع ، كمـا نعرف اليوم ، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعةً واحدة ، وهى ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل ، فما كاد يقبض هذا المبلغ الضئيل حتى كانت الزوجة قد فقدت رأس مالها الى الأبد • أما القرية وأما المنزل الرخى الذى كانت تملكه فى المدينـة ، وهما جزء من البائنة ، فقد ظل الرجـل زمناً طويلاً يحـاول بجميع الوسائل أن ينقلهما الى ملكيته بسند قانونى ، وكان يمكن أن يظفـر بذلك حتما لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز ونفور بتوسلاته الوقحة التى لاحياء فيها ، وبمطالباته المستمرة التى لا تنقطع ، كان قـد حضّها على أن تتنازل له عن القرية والمنزل سأماً وضـجرا ورغبةً فى التخلص منه ، لولا أن أسرة آديلائيد ايفانوفنا قد تدخلت فى الأمر فى الوقت المناسب فوضـعت حداً لهــذه المكائد وحالت دون ذلك التبديد • وقد عُرف من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين ، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر فى تلك المعارك لم يكن فيدور بافلوفتش بل آديلائيد ايفانوفنا ، المرأة السمراء ذات الطبع الحاد والارادة الجريئة والمزاج النزق والجسم القوى قوةً مدهشة • وقد انتهى الأمر بالزوجة الى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلوفتش مع طالب كان يعمـل مربيا ويعيش فى فقر مدقع وبؤس مهلك ، تاركةً لزوجها أمرَ الاهتمام بالصغير ميتيا الذى كان يومئـــذ فى السنة الثالثة من عمـره • وسرعان

ما استغل فيدور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله نساءً من كل نوع ، وأخذ يتعاطى الشراب بغير رادع ولا قصد . وفي أثناء ذلك أخذ يطوف في أرجاء الاقليم متباكيا شاكيا من أن آديلائيد ايفانوفنا قد هجرته ، حاكيا شقاءه لجميع الناس . وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقصَّ عن حياته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمر الزوج خجلاً من قصِّها . وأغرب ما في الأمر أنه كان يجد نوعا من اللذة في أن يمثل أمام الملأ هذا الدور المضحك ، دور الزوج الذي خانته زوجته ؛ وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضع ، فهو يصف النازلة التي ألمت به مضيفا اليها مزيِّنا لها ، حتى لقد كان بعضهم يقول له في معرض السخر منه والتهكم عليه : « لكأنك يافيدور بافلوفتش قد نلت ترقية أو ظفرت بترقيع ، فأنت تبدو مسرورا كل السرور رغم ألمك الشديد . » ؛ وزعم بعضهم أن فيدور بافلوفتش لم يسؤه أن تتيح له هذه المناسبة فرصة العودة الى تمثيل دور المهرِّج ، حتى لقد ألمع هؤلاء الى أنه يتظاهر عامدا بأنه لا يلاحظ ما في وضعه من أمور تبعث على الضحك ، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هذا الوضع من طابع هزلي مضحك . ومن يدري مع ذلك ؟ لعل جانبا من سذاجة كان له شيء من تأثير أيضا ! وقد انتهى الرجل الى اكتشاف أثر امرأته الهاربة . لقد كانت المسكينة في بطرسبرج ، ذهبت اليها مع صاحبها الطالب ، وتحررت فيها تحررا لا يخطر ببالها أن تتراجع عنه . اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطرابا شديدا ، وقرر على الفور أن يسافر الى بطرسبرج حتى دون أن يعرف هو نفسه الهدف الذي يسعى الى تحقيقه بهذا السفر. وكان يمكن فعلاً أن يسافر الى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر أكثر من أي وقت مضى بأن من حقه أن يسكر سكراً قوياً بغية أن يتشجع على القيام بهذه الرحلة.



ام اليوشا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وفيما كان يسكر هذا السكر علمت أسرة زوجته أن الشقية قد قضت نحبها . لقد توفيت المرأة فجأة في غرفة حقيرة تحت السطح من أحد المنازل ، فبعضهم يقول انها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول انها ماتت من البؤس والجوع اللذين هدّماها تهديما . فلما تناهى هذا الخبر الحزين الى مسامع فيدور بافلوفتش كان في حالة سكر شديد ، فأخذ يركض في الشوارع رافعا ذراعيه الى السماء صائحا بأعلى صوته : «الآن حررت عبدك يا رب ! » ذلك ما رواه بعضهم ، ولكن في رواية أخرى أنه حين علم بالنبأ أخذ ينتحب انتحاب طفل صغير ، فاذا رآه الرائي أخذته به شفقة ، رغم ما يوقظه في النفس من اشمئزاز وتقزز . وقد تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال ، فلعل الرجل قد اغتبط بما ظفر به من حرية ، ولكنه في الوقت نفسه بكى صادقا على تلك التي وهبت له هذه الحرية . ان في البشر ــ وحتى في أعتى المجرمين ــ من السذاجة والطيبة فوق ما قد تتخيل . وهذا يصدق علينا نحن أيضا .

٢

كيف تخلص من ابنه الأول

ليس من الصعب طبعا أن نتخيل كيف يتصور مثل هذا الرجل واجباته أباً ومربياً • لقد تصرف، من حيث هو أب ، التصرف الذى يجب أن نتوقعه منه : أى انه لم يعبا قط بالطفل الذى ولد له من آديلائيد ايفانوفنا ، وأنه جهله جهلاً تاما ، لا لأنه يضمر للصغير كرهاً وعداوة ، ولا لأنه يحمل له حقداً وضغينة من حيث أنه زوجْ خانته امرأته ، بل لسبب بسيط جدا هو أنه قد نسى حتى وجود هذا الابن • وبينما كان الأب يزعج الناس بشكاواه ، ويصدّع رءوسهم بندبه حظّه العاثر ، مع اتخاذه منزلة مكانا للفسق والعهر والفجر فى الوقت نفسه، فان خادما وفيا أمينا اسمه جريجورى قد حنا على الصغير ميتيا* الذى كان عمره عندئذ ثلاث سنين ، وضمّه اليه وعنى به، فلولا أن هذا الخادم قد تولى أمر الصبى لما وُجد من يهتم به ، ولما تهيأ له قميص يُستبدل بقميص • زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيت الصبى هى أيضا فى الآونة الأولى • كان جدّ الصبى ، وهو الشيخ ميوسوف ، أبو آديلائيد ايفانوفنا ، قد بارح هذا العالم الى العالم الآخر ؟ وكانت أرملته ،

جدة الصبي، التي انتقلت الى موسكو ، تعاني من آلام المرض ما لم يتح لها أن تتدخل في الأمر . أما أخوات آديلائيد ايفانوفنا فكن قد تزوجن . فكذلك لبث الصبي ميتيا سنةً كاملة مقيما مع الخادم جريجوري في كوخ يسكنه في آخر فناء المنزل . وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه في مناسبة من المناسبات (وهو لا يمكن أن يجهل أن له ابنا على كل حال) لأسرع يطرده الى ذلك الكوخ ، حتى لا يكون الصبي عقبةً في طريق عهره وفسقه وفجوره . ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلائيد ايفانوفنا ، واسمه بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، قد رجع في ذلك الأوان من باريس . ان بطرس هذا ، الذي سيعيش في المستقبل سنين طويلة خارج روسيا ، كان عندئذ شابا في شرخ الشباب ، وكان رجلا من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف : لقد نشأ وترعرع وتربى في العواصم الكبرى ، وأحالته اقاماته في الخارج رجلاً غربياً ، فكان أوروبياً الى أن أصبح في أواخر حياته لبرالياً على طراز ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ؛ وكان على صله بأكثر المفكرين لبرالية وأشدهم تطرفاً في زمانه ، سواء في روسيا وفي خارج روسيا ، حتى لقد عرف برودون وباكونين* معرفة شخصية . فلما بلغ خاتمة المطاف من تجواله وترحاله كان يحلو له كثيرا أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ التي قامت في باريس ، وكان يحلو له كثيرا أن يُفهم سامعيه في هذه المناسبة أنه أوشك أن يشارك في تلك الثورة ، حتى لقد وجد نفسه فوق المتاريس . كان هذا الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر بألف نفس*. وكانت أراضيه العظيمة تقع على مقربة من مدينتنا الصغيرة وتتاخم أراضي ديرنا الشهير الذي أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه ، أي بعد أن آلت اليه هذه الأراضي فورا ، قضيةً طال أمدها فما تنتهي . والقضية تتعلق

بحقوق الصيد في النهر أو حقوق قطع الأشجار في الغابات ، أو غير ذلك مما لم أعد أذكره ، وهي قضية تافهة في ذاتها ، ولكن صاحبنا قدّر أن من واجبه كمواطن صالح وانسان متنوّر أن يقاضي « اكليركيين » . فلما علم بمصير آديلائيد ايفانوفنا التي لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها في الماضي ، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل في الأمر رغم ما كان يحمله لفيدور بافلوفتش من احتقار ، ورغم ما كان يحسه ازاء سلوكه من شعور الاستياء والاستنكار ، وهو شعور طبيعي في شاب . ففي هذه الظروف انما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفتش فأبلغه صراحةً بغير لفٍ ولا دوران أن في نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبي . وقد روى فيما بعد ، خلال سنين طويلة ، كأنما ليبرز أخلاق فيدور بافلوفتش ، أن فيدور بافلوفتش هذا ، حين سمع كلامه ، بدا عليه في أول الأمر أنه لا يفهم أيّ صبيٍ يعني ، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن يسكن في مكانٍ ما من المنزل . وهبنا سلمنا بأن فيما رواه بطرس الكسندروفتش شيئا من غلو ومبالغة ، فمما لا شك فيه أنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيرا . فمن الحقائق الثابتة أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثّل وأن يظهر على حين فجأة في دور ليس متوقعا ، دون أن يكون هنالك داع الى ذلك ، ودون أن يجني من ذلك نفعاً ، بل ربما لحقه منه ضرر في كثير من الأحيان . وتلك صفة تقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء، فليست وقفاً على فيدور بافلوفتش وحده وليست خاصة به دون سواه . وصرّف بطرس الكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة ، فعيّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش) ، لأن هناك بقية من ميراث خلفته الأم هو منزل وأرض صغيرة . هكذا مضى ميتيا يعيش في منزل ابن عم أمه ، الذي لم يكن له أسرة فأسرع يعود الى باريس فيقيم

فيها اقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه ، وعهد بالصبي الى احدى بنات أعمامه وهي سيدة من موسكو • وانتهى به الأمر ، أثناء حياته الباريسية الطويلة ، الى أن ينسى الصبي هو أيضا ، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التي أثرت في خياله تأثيراً كبيراً حتى أصبح فكره مشدودا اليها فلا فكاك له منها • وماتت السيدة الموسكوفية ، فانتقل الصبي الى منزل احدى بناتها المتزوجات • ويظهر أنه غيَّر عشه بعد ذلك مرةً رابعة ، ولكنني لا أريد أن أفيض في ذكر هذه التفاصيل الآن ، لا سيما وأنني سأتحدث كثيرا عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش ، وحسبي أن أسوق بعض الاشارات التي لا غنى عنها ، والتي بدونها يستحيل عليَّ أن أشرع في قصِّ هذه الرواية •

فأقول قبل كل شيء أن دمتري فيدوروفتش هذا قد شبَّ على الاعتقاد ، رغم أن لأبيه فيدور بافلوفتش ثلاثة أبناء ، بأنه يملك ثروة ضخمة سيئول اليه أكثرها فيكفل له الاستقلال • وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه حياةً مضطربة • لم يتم سني دراسته في الكوليج ، ثم دخل مدرسة عسكرية ، وأرسل بعد ذلك الى القفقاس ، ونال هنالك ترقية • ولكنه تورط في مبارزة ، فجرِّد من رتبته ، ثم استرد شاراته ، ثم راح يلهو ويقصف ، فبدد مبالغ لا بأس بها ••• ومع ذلك فانه لم يبدأ بتلقي أموالٍ من أبيه فيدور بافلوفتش الا حين بلغ مبلغ الرجال ، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض • ولم يرَ أباه لأول مرة منذ تركه في طفولته ، ولم يعرفه ان صح التعبير ، الا بعد بلوغه سن الرشد بقليل ، وذلك حين جاء الى مدينتنا يناقش أباه في أمر ميراثه • ويظهر أنه نفر من أبيه دفعةً واحدة ، فلم يمكث عنده الا زمنا قصيرا ، ثم قفل راجعا بعد أن حصل منه على مبلغ

من المال ، وأبرم مع أبيه اتفاقا غامضا على أن يرسل اليه أبوه ريع أرضه تباعا ، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يعيّن له قيمة الأرض وايرادها (هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا) • وقد أدرك فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة ، ومنذ سمع الكلمات الأولى التي قالها ابنه (وهذه أيضا نقطة يجب أن نسجّلها) أن الفكرة القائمة في ذهن ميتيا عن ثروته فكرة مغالية • وسُرَّ الأب بذلك سرورا عظيما ، لأنه بيَّت أمورا تحقق له مصالحه • لقد لاحظ أن الفتى خفيف طائش مندفع تسيطر عليه أهواؤه الجامحة ، وتتحكم فيه رغباته العنيفة ، وأنه نافد الصبر متعجل ، وانه الى ذلك يحب اللهو والقصف • فاستنتج من ذلك ببساطة أن الشيء الذي يهم هذا الفتى خاصةً هو أن يحصل على بعض المال لاشباع حاجاته المباشرة، فمتى تحقق له ذلك هدأ فورا ، ولو الى حين طبعا • أدرك فيدور بافلوفتش الفائدة التي يمكن أن يجنيها من هذه الصفة التي يتصف بها طبع ابنه ، وجنى هذه الفائدة فعلا ، فكان يتحرر من مطالب ابنه بدفعاتٍ زهيدة من المال يرسلها اليه متقطعةً من حين الى حين • حتى اذا نفد صبر ميتيا أخيرا ، عاد الى مدينتنا بعد أربع سنين ، ليسوِّي قضية الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه ، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه أصبح لا يملك شيئا البتة ، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب تحديدها على وجه الدقة ، ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل حال ، فهو المدين لأبيه الآن ، وليس أبوه مديناً له بشيء ؟ وما كان أشد دهشته حين عرف أنه بحكم الاتفاق الذي أبرمه مع أبيه أصبح لا يحق له أن يطالب بشيء البتة ! الخ الخ ••• صُعق الفتى ، وأحسّ بأنه خُدع وغُرِّر به ، وشعر بأن أباه يكذب عليه ، فثارت ثائرته حتى بدا كمن طاش لبه وذهب صوابه وجن عقله • تلكم هي الوقائع التي أدت الى

الكارثة .. الكارثة التي تتألف من سرد قصتها روايتي الأولى التمهيدية، أو قل يتألف من سرد قصتها البناء الخارجي لتلك الرواية . ومع ذلك ينبغي لي قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن ابني فيدور بافلوفتش الآخرين ، ينبغي لي أن أتكلم عن أخوي ميتيا ، وأن أذكر كيف جاءا الى هذه الحياة الدنيا .

٣

الزواج الثاني وابنا الفراش الثاني

بعد أن تخلص فيـــدور بافلوفتش من ابنـــه ميتيـا ولمَّا يكد يبلغ الرابعة من عمـره ، لم يلبث أن تزوج مرةً أخرى . وقـد دام زواجه الثـانى هذا زهاء ثمانى سنين . وكانت امرأته الجديدة، صوفيا ايفانوفنا ، فى هذه المرة أيضا ، شابة فى ريعان الصبا ، من اقليم مجاور ذهب اليه فيدور بافلوفتش فى صحبة يهودى صغير حقير من أجل قضية تتعلق بشراء أرض . ذلك أن فيدور بافلوفتش ، على اسـترساله فى اللهو والقصف والشراب والمجون والفسق ، لم ينقطع أثناء ذلك أبدا عن الاهتمام باستثمار رءوس أمواله، وقد عرف دائما كيف يصرِّف شئونه الصغيرة تصريفا فيه حكمة وتدبر ، ولكن بشىء من النذالة والغش فى كثير من الأحيان كما يُتوقع ذلك من مثله . وكانت صوفيا ايفانوفنا فتاة يتيمة لم تعرف أسرتها يوما . انها ابنة شماس مغمور ، نشأت وترعرعت فى منزل ارستقراطى ثرى هو منزل زوجة الجنرال فوردخـوف ، التى كانت تراقبها بعين يقظى ساهرة فهى تحسن اليها وتربيها وتضطهدها فى آن واحد . لست أعرف جميع التفاصيل ولكننى سمعت من يروى أن هذه البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف الجنرالة وكانت مخلوقة مسكينة عذبة دمثة ، قد وُجدت ذات يوم تحاول أن تشنق نفسها بمسمار

فى شونة ، من فرط ما ضاقت بقسوة الفورات المستمرة والنزوات المتصلة تصبها على رأسها هذه العجوز التى كانت فى الظـــاهر شريرة ، ولكنها كانت فى حقيقة الأمر امرأةً جعلها الفراغ متســلطة تسلطاً لا يطاق ، مستبدة استبدادا أحمق لا يحتمل . وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتــاة فسألوا عنه ، فرفضوه . فما كان منه الا أن فعل ما سبق أن فعله فى المرة الأولى ، فعرض عليهـــا أن يختطفهـــا . وأغلب الظن بل الأرجح أنهـا ما كانت لتوافق على الهروب معه لو عرفت تفاصيل حياته خيراً مما عرفتها. ولكن السمعة السيئة التى نالها فيـــدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت حدود اقليمنا الى الاقاليم الأخرى ، وكانت الفتاة المسكينه لا تعرف الا شيئا واحدا هي أن وجودها فى قاع نهر من الأنهار خير من بقائها فى منزل هذه السيدة المحسنة اليها . هكذا غادرت الشقية بيت محسنة الى بيت محسن . ولم يقبض فيدور بافلوفتش فى هذه المرة قرشا واحداً ، لأن الجنرالة قد غضبت غضبا شديدا فلم تهب للعروسين شيئا عدا اللعنة. على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوَّل على الحصول على مال فى هذه المرة ، وانما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ ، وفتنه ما رآه فى نظرتها من صفاء أحــدث تأثيرا عميقا فى نفس هـــذا الرجل الشهوانى الذى كان لا يحفل الا بملذات الحس ، هذا الرجل الســاقط الذى لم تجتذبه فى المرأة حتى ذلك الحين الا المفاتن الخسيسة . « ان تينك العينين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا الى نفسى عنـــدئذ كسكين » : كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد ، وهو يضحك تلك الضـحكة الساخرة المعهودة فيه . ومن الجائز أيضا أن ذلك الافتتان بالبراءة لم يكن لدى فاسق مثله الا صـــورة من صور اللذة الحسية . وقد اعتقـــد فيدور بافلوفتش ، لأنه لم ينل أى تعويض مالى ، أنه ليس عليه أن يتحرج مع امرأته أى تحــرج ، واستغل شعورها بأنها « مذنبة » فى حقه هو الذى

« أنقذها من الحبل » ، واستغل من جهة أخرى مايتصف به طبعها من عذوبة مفرطة واذعان عجيب ، فركل بقدميه أبسط قواعد اللياقة التى توحيها الحياة الزوجية ، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى منها ، وكان يجيء الى البيت بنساء فاسقات ساقطات • ويجب أن أذكر ، فى هذه المناسبة ، كسمة من السمات التى تميز هذه البيئة ، أن الخادم جريجورى ، الانسان الماحك المتجهم الغبى العنيد ، الذى كان قد كره زوجة سيده الأولى ، آديلائيد ايفانوفنا ، قد انحاز فى هذه المرة الى صف الزوجة الجديدة ، ودافع عنها ، وكثيرا ما اختصم مع فيدور بافلوفتش فى أمرها ، مستعملا فى مخاطبته ألفاظا توشك أن لا تكون مقبولة من فم خادم • حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حدا لحفلة خليعة ، مستعملا القوة فى طرد المخلوقات الفاجرة التى تجمعت فى المنزل • وقد أصيبت هذه المرأة البائسة التى قاست من الارهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها، أصيبت بنوع من المرض العصبى منتشر خاصةً بين أبناء الطبقة الدنيا من الشعب وبين الفلاحات اللواتى يسمَّين بسبب هذه الاصابة «كليكوشى»*• ان هذا المرض الذى تصحبه نوبات رهيبة من نوبات الهستريا ، كان يهوى بالمرأة الشابة فى بعض الأحيان الى حالة من الهذيان والخرف • ومع ذلك أنجبت هذه المرأة ابنين ، ولد أحدهما ، وهو ايفان ، بعد الزواج بسنة ، وولد الثانى ، وهو الكسى ، بعد ولادة الأول بثلاث سنين • وحين ماتت ، كان الصغير ألكسى قد دخل السنة الرابعة من عمره • وانى لأعلم ، مهما يبد لكم هذا الأمر غريباً عجيباً ، أن ذكرى أمه قد بقيت ماثلة فى ذهنه طوال حياته ، ولو فى صورة تشبه أن تكون حلماً • وقد كان مصير هذين الابنين ، بعد موت أمهما ، شبيهاً بمصير أخيهما الأكبر ميتيا : نسيهما أبوهما نسيانا تاما ، وهجرهما هجرا كاملاً ، وضمهما اليه جريجورى فى كوخه مثلما ضمَّ اليه أخاهما من قبل • وهناك ، فى ذلك الكوخ ، انما

اكتشفتهما الجنرالة العجوز المهووسة التي كانت لأمهما محسنة ومنشئة. كانت العجوز ما تزال على قيد الحياة ، ولم تستطع خلال تلك السنين الثماني أن تغفر الاهانة التي ألحقت بها . وكانت طوال تلك الفترة تتسقط أخبار « عزيزتها صوفيا » تفصيلا ، فلما علمت بنبأ المرض الخطير الذي ألم بها ، كما علمت بأنباء البيئة الفاسدة الفاضحة التي اضطرت المسكينة أن تعيش فيها ، قالت مراراً كثيرة ، بصوت عال ، أمام صديقاتها ومحمياتها: « لقد استحقت ذلك ، فان الله هو الذي يعاقبها على نكرانها الجميل وجحودها النعمة . . » .

وبعد موت صوفيا ايفانوفنا بثلاثة أشهر تماما ، ظهرت الجنرالة ذات يوم بشخصها في مدينتنا الصغيرة واتجهت رأساً الى منزل فيدور بافلوفتش . ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة ، ولكنها لم تضع وقتها سدى . كان ذلك في نحو المساء . ان فيدور بافلوفتش الذي لم يرها منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثماني قد هب الى لقائها الآن وهو في حالة سكر لطيف . فما كادت تراه حتى صفعته منذ اللحظة الأولى صفعتين مدويتين ، دون أن يراودها أي تردد ، ثم أمسكته من شعره وهزته في مكانه ثلاث مرات . ذلك ما رواه بعضهم. ثم اتجهت الى الكوخ الذي يوجد فيه الطفلان ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلما لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يُغسلا ويُنظفا ، وأن ملابسهما الداخلية لم تُغيَّر ، أسرعت تصفع جريجوري أيضا ، وأعلنت له أنها ستأخذ الصبيين الى منزلها . ثم خرجت بهما كما كانا ، بعد أن لفتهما بغطاء ، ووضعتهما في عربتها ، وعادت بهما الى مدينتها . لقد تلقى جريجوري هذه الصفعة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع ، دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يخرج عن أدبه ؟ بل لقد رافق السيدة العجوز الى عربتها ، وقال لها وهو ينحني حتى مستوى الحزام ، قال لها في اقتناع

كامل وايمان قوى : « ان الرب سيجزيها جزاءً حسناً بسبب هـــذين اليتيمين • » ، فصرخت الجنرالة تقول له وهى تنصرف : « أنت مع ذلك أبله • » • وبعد أن قلَّب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفـة انتهى الى أن كل شيء قد جرى على ما يرام • ثم لم يضع بعد ذلك أية عقبة تحول دون موافقته الرســمية على أن يُربَّى الصبيَّان فى منزل الجنرالة وذيَّل بتوقيعه جميع الشروط التى اقترحت عليه • أما الصفعات التى تلقاها فقد مضى يتباهى بها فى المدينة كلها •

وحدث أن توفيت الجنرالة بعد ذلك بزمن قصير ، ولكنها أورثت كلاً من الطفلين فى وصيتها مبلغ ألف روبل ، وقد نصت الوصية على أن هذا المبلغ « مخصص لتعليمهما ، فما ينبغى أن ينفق منه شيء الا عليهما ، ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد ، لأن مثل هذا المبلغ الكبير كثير على طفلين مثلهما ، فاذا ظن بعض الناس أن هذا الميراث غـير كاف فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم هم ، الخ الخ » • اننى لم أقرأ وصية الجنرالة ولكن قيل لى انها تضمنت أموراً غريبة من هـــذا القبيل ، وانها قد كتبت بعبارات طريفة عجيبة • ومن حسن الحظ أن الوارث الرئيسى الذى آلت اليه أموال الجنرالة كان رجلاً شريفاً هـو ايفيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة • وقد كتب الى فيدور بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع قرشا واحدا فى سبيل تعليم ابنيه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان ليرفض ذلك رفضاً مباشراً ، وانما هو يقتصر فى مثل هذه الحالة على المماطلة والتسويف ، وربما عمد أحيانا الى التدفق فى أقوال عاطفية) • قرر ايفيم بتروفتش عندئذ أن يهتم باليتيمين شخصيا ، وتعلق تعلقاً خاصاً بأصغرهما ألكسى ، فربَّاه فى أسرته نفسها خلال سنين • أرجو من القارىء أن تظل هذه النقطة ماثلة فى ذهنه • لئن استطاع هذان الشابان أن ينعما فى حياتهما بتربية جيدة

وثقافة مناسبة ، فانما يرجع الفضل في ذلك الى ايفيم بتروفتش هذا الذى كان انسانا يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن نقع على مثلهما فى غيره • انه لم يمسنّ الروبلات الألف التى ورثها كل من الصبيين من الجنرالة ، فلما بلغا سن الرشد كان الألف قد صار بالفوائد ألفين • لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصبيين ، فأنفق على كل منهما أكثر كثيرا من الروبلات الألف طبعا • لن أدخل هنا فى قصّ تفاصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة ، وانما أقتصر مرة أخرى على اشارات لا غنى عنها •

فأما عن الابن الأكبر ايفان فأقول انه أصبح مع الأيام مراهقاً يتصف بشيء من التجهم والانطواء • صحيح أنه لم يكن خجولاً ، ولكن كان يبدو أنه أدرك منـــذ السنة العاشرة من عمـره أنه يعيش هو وأخوه فى أحضان أسرةٍ هى أسرة أجنبية رغم كل شيء ، وأنهما يُربَّيان فى هذه الأسرة من باب الرأفة والاحسان على وجه الاجمـــال ، وأن أباهما انسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه ، الخ الخ •وقد أظهر هذا الصـبى فى وقت مبكّر ـ منذ طفولته الأولى فيما يقال ـ استعدادا عظيما للتعلم وتفوقا واضحا فى الدراسة • انني لم أطلع على التفاصيل ، ولكننى أعلم أن الفتى ترك أسرة ايفيم بتروفتش وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره فيما يبدو ، فدخل مدرسة ثانوية بمـوسكو حيث عاش فى « بنسـيون » عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت فى ذلك الزمان ، كان أحد أصدقاء ايفيم بتروفتش فى طفولته • وقد روى ايفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله انما مردُّه الى « ما يتصف به ايفيم بتروفتش من حماسـة شديدة لأعمال الخير » ، لان ايفيم بتروفتش قد استقر فى ذهنه أن صبياً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مربٍ عبقـــرى • على أن ايفيم بتروفتش والمربى العبقرى كانا قد انتقلا كلاهما الى رحمـة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فانتسب الى الجامعة • وقد تأخر استلام الروبلات الألف

التى أوصت بها الجنرالة المهووسة للطفلين والتى صارت بالفوائد ألفين، تأخر استلامها نتيجةً لسوء تدوين التدابير التى اتخذها ايفيم بتروفتش، وبسبب أنواع كثيرة من الاجراءات الشكلية والآجال الطويلة التى لا بد منها ولا غني عنها فى بلادنا ... لذلك كانت السنتان الأوليان اللتان قضاهما ايفان فى الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات . لقد اضطر الفتى أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة ، مع استمراره على متابعة دراسته. يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله فى لحظة من اللحظات أن يستنجد فى ذلك الظرف بأبيه ، اما عن كبرياء وشمم فى نفسه ، واما عن احتقار وازدراء لأبيه ، واما لأن عقله الهادىء قد حدثه بأنه ليس له أن يعول على الحصول من أبيه على معونة ذات بال . المهم أن المصاعب لم تفت فى عضد الفتى ولا أضعفت عزيمته ، واستطاع أخيرا أن يجد عملا . أخذ فى أول الأمر يعطى دروسا فى المنازل بأجر زهيد ، ثم استطاع أخيرا - بالسعى من ادارة تحرير الى ادارة تحرير - أن يكتب للجرائد اليومية مقالات مقتضبة ، فى حدود عشرة أسطر ، عن حوادث الشارع ، مذيلةً بتوقيع « شاهد عيان » . وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان فيها من الفكر المتوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجاحاً سريعا . بذلك استطاع هذا الشاب أن يبرهن على تفوقه على أولئك الطلاب الكثيرين من الجنسين ، الذين يعيشون دائما فى عوز وفاقة ، ويلم بهم فى عواصمنا البؤس والفقر والشقاء ، ويحاصرون ادارات تحرير شتى الجرائد والمجلات من الصباح الى المساء . انهم فى العادة لا يحسنون أن يبتكروا شيئاً غير تكرار طلبهم الأبدى ، وهو أن يكلفوا بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية ، أو أن يقوموا ببعض أعمال المراسلة . فلما استطاع ايفان فيدوروفتش أن يصل الى ادارات التحرير دبَّر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها ، ونشر أثناء السنين

الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طيبة عرض فيها لأنواع شتى من المؤلفات ، فأخذ يُعرف حتى فى المحافل الأدبية • على أنه لم يظفر ، مصادفةً ، بأن يلفت اليه ، على حين فجأة ، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك ، الا فى نهاية تلك الفترة ، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا ينسونه • كان هذا فى مناسبة طريفة جدا شائقة جـدا • كان ايفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية ، وكان يتهيأ بالألفى روبل التى يملكها أن يسافر الى الخارج ، حين نشر ذات يوم ، فى جريدة من كبرى الجرائد اليومية ، مقـالاً غريبا التفتت اليه حتى أنظار غير المختصين من القراء ؛ والعجيب أن المقال يعالج موضوعا لا يمت بصلة من الصلات الى ما انصرف اليه الشاب من اختصاص علمى (ذلك أنه قد تخصص فى العلوم الطبيعية) • لقـد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركى * الذى كان فى تلك الأيام يهز جميع العقول ويحرك جميع الأذهان • فبعـد أن ناقش كاتب المقـال مختلف الآراء التى وردت فى صدد هذا الموضوع ، أبدى آراء شخصية • وقـد تميز المقال خاصةً باللهجة التى كتب بها ، كما تميز بالنتيجة التى انتهى اليها ، وهى نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة • ومع ذلك فان عددا من أنصار الاكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم ، بينما أخذ أنصـار العلمانية ، وحتى الملحدون ، يعربون عن تأييدهم للكاتب واستحسانهم لما تضمنه مقاله • وأدرك بعض أهل الحصافة والذكاء أخيراً أن المقال ، من أوله الى آخره ، لم يكن الا مزحة وقحة ومهزلة ساخرة • وانمـا أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل بعد ذلك الى الدير الشهير الذى يقع على أبواب مدينتنا ، فاذا بمسألة القضاء الاكليركى تثير اهتماما عاما على حين فجأة • لقد قرىء المقـال فى المدينة فأحدث هزة قوية ؛ حتى اذا عُرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس ، من حيث أن

الكاتب يرجع أصله الى مدينتنا ، ومن حيث أنه ، فوق ذلك ، « ليس الا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه » • وها هو ذا كاتب المقـــال يظهر في مدينتنا بنفسه في تلك الآونة نفسها •

تُـرى ماذا كانت غاية ايفان فيدوروفتش من تلك الزيارة ، ولماذا جاء الى مدينتنا ؟ أذكر جيدا أننى قد ألقيت هذا السؤال على نفسى منذ تلك اللحظة شاعرا بشيء من القلق • ان هـــذه الزيارة المشئومة التى كانت السبب فى وقوع أحداث كثيرة ، قد ظلت فى ذهنى خلال زمن طويل ، بل ظلت فى ذهنى الى الأبد ، أمرا غامضا لم أستطع الى فهمه سبيلاً • انه لشيء غريب ، على وجه العموم ، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر ، فيما يبدو ، أن يقـرر على حين فجأة أن يجيء الى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة ، أن يجيء الى أب كهذا الأب الذى جهله طوال حياته ، ولم يشأ يوما أن يعـــرف شيئاً عنه ، حتى نسى وجوده ذاته • والفتى يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذى كان سيرفض قطعاً فى أى ظرف من الظروف أن يعطى ابنـه شيئاً من مال لو سأله ذلك ، كان فى خوف متصل من أن ينتهى الامر بابنيه ، ايفان والكسى ، أن يطلبا منه بعض المال واحدا بعد آخر • ورغم ذلك فهذا هو ايفان يسكن منزل أب كهذا الأب ، ويقضى فيه شهرا بعد شهر ، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم ! ان هذا الأمر لم يدهشنى وحدى ، بل أدهش عددا آخر من الناس أيضا • وكان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف ، قريبُ زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، كان فى ذلك الحين يقيم عندنا فى الأرض التى يملكها بضواحى مدينتنا • فلقد رضى أن يترك باريس الى حين ، بعـد أن اتخذها مقراً له • ان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب ايفان ، فاهتم به وأصبح يحس

بالمنافسة بينه وبينه فى شئون العلم والثقافة العـامة ، على شىء من ألم يستشعره خفياً . كان يسر الينا فى كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه ، قائلا : « هذا رجل ذو كبرياء . ولن يصعب عليه أن يجنى رزقه . ماذا جاء يفعل هنا ؟ واضح أنه لم يأت الى أبيه ليحصل على مال، لأن أباه لن يعطيه شيئاً . أما أن يسكر وأن يسترسل فى المجون فذلك ليس من أذواقه وميوله ، ومع ذلك فان الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه ، من شدة تعلقه به ! » . هذا صحيح . ولقد كان واضحا أن الشاب يؤثر فى أبيه بعض التأثير ، وكان يبدو أن أباه يطيعه فى بعض الأحيان، رغم أن طبعه ليس بالطبع الاجتماعى كثيراً ، ورغم أنه يكون فى بعض المناسبات شرساً ، حتى لقد أخذ الأب يحتشم فى سلوكه قليلاً ...

ولم يعلم أحد الا بعد ذلك بزمن طويل ان ايفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الاكبر دمترى قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحه . وفى هذه الفترة بعينها ، أثناء اقامته تلك بمدينتنا ، انما عرف ذلك الأخ الذى لم يكن قد رآه من قبل فى يوم من الايام ، رغم أنه قد أخذ يراسله قبل سفره الى موسكو فى موضوع قضية هامة تتعلق خاصةً بدمترى فيدوروفتش . وسأشرح للقارىء ماذا كانت تلك القضية ، حين يجىء أوان الكلام عليها . ومع ذلك يجب أن أقول اننى حتى بعد أن اطلعت على هذه الظروف الخاصة ، ظللت أجد سلوك ايفان فيدوروفتش سراً محيِّراً ، وظللت أعد زيارته لمدينتنا أمراً لا أجـد له تعليلاً ولا تفسيراً .

أضيف الى هذا أن ايفان فيدوروفتش كان يُشعر النـاس بأنه يتدخل وسيطاً فى النزاع الناشب بين أبيه وأخيـه الاكبر دمترى الذى ساءت علاقته بالأب الى حيث أقام عليه دعوى قضائية .

أعود فأقول ان هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع فى تلك اللحظة لأول مرة ، فاذا ببعض أفرادها الذين لم يسبق لهم أن التقوا يوما ، يتعارفون فى هذه المناسبة . ان الابن الاصغر ، ألكسى فيدوروفتش ، هو الوحيد الذى كان يقيم منذ سنة فى مدينتنا التى وصل اليها قبل أخويه . ما أصعب أن أتحدث عن ألكسى هذا فى هذه القصة التى هى تمهيد للرواية ، قبل أن أبرزه الى المكان الأول من الأحداث ! ومع ذلك لا بد أن أعزم أمرى على قول بضع كلمات تكون مقدمة للدخول فى موضوعه أيضا ، ولو لأوضح ، منذ الآن ، طابعا غريبا جدا تتصف به هذه القصة : اننى مضطر فى الواقع الى أن أقدم بطلى للقارىء فى مسوح فتى يتأهب للترهب . انه يعيش فى ديرنا منذ قرابة سنة ، متهيئاً لأن يعتكف فيه الى آخر حياته فيما كان يبدو .

٤

اليوشا، الابن الثالث

لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقد دخل أخوه ايفان في الرابعة والعشرين ؛ أما أخوهما دمتري فهو يشارف على الثامنة والعشرين) • أريد أن أقول على وجه الاجمال ان الفتى اليوشا لم يكن فيه شيء من تعصب ديني في رأيي ، لا ولا كان صوفياً ؛ واذا شئت أن أكشف عن جوهر رأيي فيه قلت : انه ، بكل بساطة ، انسان يفيض قلبه حباً للبشر ، وذلك منذ السنين الأولى من حياته •فلئن اختار طريق الاعتكاف في الدير ، فما ذلك الا لأن هذا الطريق كان يبدو له في تلك الآونة السبيل الوحيدة التي يجب أن تسير فيها حياته ، والملاذ المثالي لنفس مفتونة بالنور والمحبة ضد ظلمات الكره والبغض في هذا العالم • أضف الى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه الا بفضل التقائه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا ، وهو الشيخ زوسيما*، الذي عده الشاب انساناً فذاً وتعلق به عندئذ تعلقا شديدا فيه كل الحرارة الأولى التي تتدفق في قلبه الظامىء • على أنني لن أنكر أن هذا الشاب كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً ، حتى لقد كان كذلك منذ المهد • سبق أن ذكرت ، في هذا الصدد ، أنه بعد أن فقد أمه في السنة الرابعة من عمره ، قد ظلت ذكراها ماثلة في خياله طوال حياته ، فهو

يرى وجهها ويرى ملاطفاتها « كأنها حاضرة فى هذه اللحظة نفسها أمامى » . ذلك ما كان يقوله . انكم تعلمون أن ذكريات من هذا النوع قد ترسخ فى النفس ، حتى فى سن أصغر ، وحتى منذ السنة الثانية من العمر ، ولكنها لا تكون فى مثل هذه الحالة الا نقاطاً مضيئة مبعثرة تبرز من وسط الظلام ، أو أجزاءً منفصلةً من لوحة كبيرة انطفأ سائرها وبلعته الظلمات ، باستثناء تلك التفاصيل التى بقيت وحدها ساطعة. وذلك بعينه ما حدث له : لقد احتفظ الفتى بذكرى أمسية ساجية من أماسى الصيف ، ونافذة مفتوحة ، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغاربة (وهذه الأشعة المائلة هى ما يتذكره خيراً مما يتذكر أى شىء آخر) ، وصورة مقدسة فى ركن من الغرفة ، وسراج صغير يشتعل أمام الصورة ، والأمَّ راكعةً على ركبتيها ناشجةً منتحبة قد ألم بها نوع من الهستريا وأخذت تطلق صرخات حادة وأنات موجعة ، ثم اذا هى تمسكه بذراعيها على حين فجأة وتشدها الى صدرها شداً قوياً يؤلمه ، وتبتهل الى السيدة العذراء أن تحميه ، وأن ترعى هذا الطفل الذى كانت الأم تمده الى الأيقونة كأنما لتضعه فى حمى أم الرب ... وتظهر خادمة الطفل فجأة فى الغرفة ، فيبدو فى وجهها ذعر شديد ، وتسارع تنتزع الطفل من بين يدى أمه . يا لها من لوحة ! لقد انحفرت صورة وجه الأم فى ذاكرة أليوشا فى تلك اللحظة . وهو يؤكد أن الوجه كان مروَّعاً ولكنه كان جميلاً جداً ، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره . ولكن كان يندر أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى . لقد كان أليوشا أثناء طفولته ومراهقته قليل الافصاح عن نفسه ، بل لقد كان صموتاً ، لا عن شك وحذر طبعاً ، ولا عن خجل أو وجل ، ولا عن تجهم فى الطبع والمزاج ... أبداً ... بل بسبب شىء خاص فى نفسه ، بسبب اهتمام داخلى ، شخصى تماما ، لا شأن له بالآخرين ، يبلغ عنده من خطورة

الشأن أنه ينسيه حتى وجود الناس . ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر. وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها في اندفاعة ثقة بالناس ، ومع ذلك لم يعده أحد في يوم من الأيام امرءاً غراً أو ساذجاً . كان في نفسه شيء لا أدري ما هو ، شيء يُشعر الآخرين شعوراً واضحاً بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الانســـان ، بأنه يأبى أن يتهم أو يُدين ، وبأنه لن يرضى بحال من الأحوال أن يلقي اللوم على الملأ . حتى لقد كان يبدو أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه ، ولكن بمرارة حزينة في كثير من الأحيان . ووصل من ذلك الى أن لا يدهشه شيء ، وأن لا يخيفه شيء ، وذلك منذ غضارة صباه . وفي منزل أبيـــه ، الذي كان ماخور فحش وعهر ، كان الفتى يقتصر ، وهو الذي بلغ العشرين من عمره محافظاً على عفته وطهارته ، كان يقتصر على الابتعاد صامتاً اذا شعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك ، ولكن دون أن يظهر عليه شيء من الاحتقار أو النقد لأي انسان . أما أبوه ، الطفيلي القديم الذي كان لهذا السبب سريعا الى ادراك الاهانة والشعور بها ، فقد استقبله في أول الأمر بشك وحذر وريبة ، وشعر نحوه بعواطف ليس فيها ود كثير (« انه مسرف في الصمت تجاهي ، مسرف في التفكير دون أن يقول شيئاً ») ، ولكنه أصبح بعد أسبوعين في أكثر تقدير يعانقه ويضمه الى ذراعيه في كل لحظة . صحيح أنه كان يفعـــل ذلك بدموع السكران وعواطف المخمور . ولكن كان واضحا مع ذلك أنه يحبـه حبا صادقا عميقا ، كما لم يحب رجل من نوعه أحدا ...

وكان جميع الناس يحبون أليوشا على كل حال. لقد أيقظ عواطف المحبة والمودة له في نفوس كل من عرفوه ، وذلك منذ طفولته . وأيام كان يعيش في منزل المحسن اليه والمربي له ، ايفيم بتروفتش بولينوف، بلغ من رضى جميع أفراد الأسرة عنه ومن اعجابهم به انهم كانوا يعدونه

ابنا من أبناء الأسرة تماما ، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلا صغيرا فهو عاجز عجزاً تاما عن أي مكر أو حساب ؛ لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو في سنٍ يجهل فيه الكائن الانساني كل شيء عن فن الممالأة والتملق والارضاء ، أي فن اجبار الآخرين على حبه • لقد أوتي أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه بحكم طبيعته ، فكأن هذه الموهبة قد ولدت معه ، فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم ، دون أن يحتال هو لذلك • هكذا كان شأنه في المدرسة أيضا ، رغم أنه كان في ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقظوا في رفاقهم الحذر والشك ، وأن يجلبوا لأنفسهم سخريات زملائهم ، بل وعداوتهم في كثير من الأحيان • لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاقه في فترات الراحة بين الدروس ، فيغرق في التأمل • كان أليوشا يحب كثيرا ، منذ طفولته ، أن ينزوي في ركن من الأركان يقرأ كتابا من الكتب ؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حباً عظيما ، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثير رفاقه غيرَ منازع • كان لا يتحمس الا نادرا ، بل وكان لا يبدو في العادة مرحاً ، ولكن يكفي أن تنظر اليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع الى نفوره من الناس ، وانما هو انسان ذو نفس هادئة صافية رائقة • وكان لا يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه ، ولعل هذا هو السبب في أنه كان لا يخشى كذلك أحدا • ولكن الصبية لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ولا يُدلُّ بها ، بل يظل بسيطا منطلقا على طبيعته وسجيته ، كأنه لا يشعر بشجاعته وجرأته وجسارته • وكان لا يحتفظ أبدا بذكرى اساءة نالته أو اهانة أُلحقت به • وكثيرا ما كان يتفق له أن يبادر الى مخاطبة الشخص الذي ناله بالاساءة أو ألحق به الاهانة ، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة ، فكان يبدو في كلامه عندئذ من الثقة والهدوء ما يُشعر المرء بأن شيئاً لم يحدث بين الرفيقين • كان لا يبدو عليه ، في مثل تلك المناسبات ، أنه

يريد أن ينسى الاساءة أو يغفرها عامدا ، وانما هو يرى أن الاساءة لم تحدث ، فكان ذلك يفتن الصبية ويسحرهم فورا • ولم يكن فيه الا صفة واحدة أغرت رفاقه ، في جميع فصول المدرسة ، من أولها الى آخرها ، بأن يمازحوه ، لا عن رغبة خبيثة فى السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشيع فى نفوسهم المرح ، ذلك هو حياؤه الشـديد ، وخفره العظيم المرتبط بالحشمة والعفة • ان الأحاديث التى يتبادلها التلاميذ عن النساء، والتعابير التى يستعملونها فى هذا المجال ، كانت أمورا لا يطيق الصبى أليوشا أن يسمعها • ومن المؤسف أن هـذه الأحاديث وهـذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها • ورب تلاميذ أطهار النفس والقلب ، رب تلاميذ ما يزالون أطفالا صغارا ، يجدون لذة كبيرة فى أن يتحادثوا فى هذه الأمور ، بصوت عال فى كثير من الأحيان، وأن يصفوا صورا أو مشاهد قد يستحى حتى الجنود فى الثكنات أن يتكلموا فيها • الجنود ؟ ألا أن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون ، فى كثير من الحالات ، أمورا أصبحت فى أيامنا هذه مألوفة أو شبه مألوفة عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب• والحق أن ذلك لا يجب أن يُعدّ فجورا ، أو حتى استهتارا ، لأنه ليس لديهم صادقا ولا عميقا ، وما هو اذن بالخروج عن الأخلاق حقا ، وانما هو نوع من الاباحية الكلامية الخارجية السطحية التى يحلو للتلاميذ أن يعدوها علامة رهافة فى الذوق ، ودليل جرأة خليقة بأن تُقلَّد • فلما لاحظ التلاميذ أن هذا «الفتى الشهم أليوشا كارامازوف» يسارع الى سدّ أذنيه حين يدور الحديث على « هذه الأمور » ، أصبح يلذ لهم أن يتحلقوا حوله ، ويأخذوا ينطقون بعبـارات بذيئة وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة • فكان الفتى عندئذ يتخبط بينهم ، ويرتمى على الارض ، ويخفى وجهه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يثور ، وانما هو يتحمل

الاساءة صامتا • وانتهى الامر بالتلاميذ الى أن تركوه وشأنه ، وعدلوا عن معاملته معاملة « بنت » ، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد حلّ محلها نوع من الرأفة به والعطف عليه • وكان أليوشا من جهة أخرى تلميذا ممتازا ، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه في يوم من الأيام •

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة سنتين بعد موت ايفيم بتروفتش • ان أرملة ايفيم بتروفتش الحزينة التى لا يجد العزاء الى قلبها سبيلا قد سافرت بعد وفاة زوجها فورا الى ايطاليا ، وأقامت هنالك زمناً طويلاً مع أسرتها كلها التى تتألف من نساء فقط • فانتقل أليوشا الى منزل سيدتين تمتان الى أسرة بولينوف بقربى بعيدة ، ولم يكن قد رآهما قبل ذلك ، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هى الترتيبات التى استقبلته هاتان السيدتان على أساسها • تلك سمة بارزة من سمات طبعه، هى أنه كان لا يهمه أبدا أن يعرف بأى مال يعيش وعلى نفقة من يعيش! كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر ايفان فيدوروفتش الذى عاش حياةً شديدة البؤس والفقر والعوز خلال السنتين الأوليين من دراسته الجامعية ، وعمل عملاً مضنياً من أجل أن يجنى رزقه ، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلة والهوان لأنه كان يأكل خبز البر والاحسان فى منزل الرجل الذى كفله • على أننا لا نستطيع أن نقسو فى الحكم على هذه السمة الغريبة فى طبع ألكسى ، اذ يكفى أن نعرفه قليلاً حتى نقتنع بأنه كان فى شئون المال واحدا من أولئك الشبان المجانين الذين اذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال عرضاً لم يترددوا أن يهبوه لأول قادم متى سألهم ذلك أو أن ينفقوه فى عمل من أعمال الخير ، أو أن يتيحوا لوغد حاذق أن يسطو عليه ويسلبهم اياه • وفى وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال

بوجه عام ، وانما يجب أن نفهم هذا الكلام على المجـــاز لا على الحقيقة طبعا . كان أليوشا اذا أعطى شيئاً من المال ليكون فى جيبه ينفق منه عند الحاجة (وهو لا يطلب شيئا من ذلك فى يوم من الأيام) كان يتفق له اما أن يظل المال فى جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به ، واما أن ينفقه بلا حساب فاذا بكل شيء يختفى فى غمضة عين . ان بطـــرس ألكسندروفتش ميوسوف ، وهو رجل من أكثر الناس دقة فى شـــئون المال ، ومن أشدهم تقديسا للأمانة البورجوازية ، قد قال عن ألكسى يوما بعد أن لاحظه عن كثب : « لعل هذا الفتى هو الانسان الوحيد فى هذا العالم الذى يمكنك أن تتركه وحيدا بلا مورد فى وسط مدينـــة كبرى لا يعرفها ، ثم اذا هو لا يهلك من الجوع والبرد ... انه سيدبر أموره عندئذ بأيسر طريقة ... فسرعان ما سيأخذه أحدهم فيطعمه ويسكنه .. ولن يكلفه ذلك أى جهد ولن يحمّله أية مذلة .. والشخص الذى سيضمه اليه لن يشعر بعبئه ، بل لعله سيجد فى ذلك لذة كبرى . » .

لم يتم أليوشا دراسته فى الكوليج . كان قد بقى عليه أن يقضى فى المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها ، حين أعلن فى ذات يوم للسيدتين اللتين كان يقيم فى منزلهمـا أنه سيذهب الى عنـــد أبيه لأمر يتنويه . ندبت السيدتان حظه كثيرا ، حتى لقد حاولتا أن تصـــداه عن عزمه . ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة ، واذ خشيتا أن يرهن ساعته ـ وهى هدية أهدتها اليه أسرة المحسن اليه قبل سفرها الى الخارج ـ فقد زوّدتاه بمبلغ وافر من المال ، وأعطيتاه ثيابا جديدة وملابس داخلية. ولكنه رد اليهما نصف المبلغ قائلاً انه يحرص حـــرصاً مطلقاً على أن يسافر فى الدرجة الثالثة من القطار . فلما وصـــل الى مدينتنا أبى أن يجيب عن الأسئلة الأولى التى ألقاها عليه أبوه (« ماذا دهاك ، يا بنىّ، حتى جئت الى قبل أن تتم دراستك ؟ ») ، حتى لقد أظهر من الشرود

والتأمل أكثر مما عُهد فيه . ذلك ما قيل . وسرعان ما عُرف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه . وقد اعترف هو نفسه ، على كل حال، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذى دفعه الى المجىء . ولكننى لا أعتقد أن هذا السبب كاف لتعليل رحلته هذه . ولعله كان يجهل هو نفســه فى تلك الآونة الأسباب العميقة التى حملته على المجىء ، ولعله كان لايستطيع أن يقول ما هى تلك القوى التى انبجست فجأة فى كيانه ثم صعدت الى سطح نفسه فدفعته دفعاً لا سبيل الى مقاومته فى هذه الطريق الجديدة التى كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها . لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدله على المكان الذى دُفنت فيه زوجته الثانية . انه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيَّع جنازتها ، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دفنت ...

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش . لقد أقام فيـدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التى نصفها الآن ، أقام مدةً طويلة بعيدا عن مدينتنا . انه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع ، قد سافر الى جنوب روسيا ، واســتقر فى أوديسا حيث عاش عـدة سنين متصلة . وهناك ، فى أوديسا ، تعرف بعدد كبير من « أنواع اليهود » على حــد تعبيره ، حتى أصبح يُستقبل « لا فى منازل يهود فحسب ، بل فى منازل عبريين أيضا » . فمن حقنا اذن أن نقدر أنه فى تلك الفترة من حيـاته انما نمَّى وحسَّن وجوَّد فنه فى تصريف الأعمـال وارباء الأموال . ولم يعد الى مدينتنا ليستقر فيها تماما الا قبل وصول أليوشا بثلاث سنين. وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثـيرا ، رغم أنه لم يبلغ سن الشيخوخة بعـد ؟ كما اكتسب عادات فيهـا مزيد من الاستهتار والوقاحة . من ذلك مثلا أن هذا المهرِّج القديم أصبح يحاول الآن فى كثير من الغطرسة والعجرفة أن يخفض الآخـرين الى هذا المستوى ؟

وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والغش لا كما كان يتعاطى ذلك كله في الماضي ، بل بطريقة أدعى الى النفور وأبعث على الاشمئزاز أيضا . ولم يلبث أن فتح في مديريتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة . وواضح أنه كان يملك رءوس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئا قريبا جدا من ذلك . وسارع كثير من سكان مدينتنا ومديريتنا يقرضونه أموالاً ، لقاءَ فوائد طيبة بطبيعة الحال . وقد ضعف وتضعضع وتغضَّن في الآونة الأخيرة ، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الثقة ما كان يملكه منها في الماضي ؛ وأصبح سلوكه أقل ترويا وتأنيا ووعيا ، حتى لقد برهن في بعض المناسبات على شيء من التبلد والخبل ، فهو ما يكاد يشرع في أمر حتى يتركه الى غيره، وهو يبعثر جهوده يمنةً ويسرة بلا رابط يربط بينها وبلا استمرار يصل بعضها ببعض . وأصبح يسكر مزيدا من السكر ، فلولا خادمه الأمين جريجورى الذى دلف الى الشيخوخة قليلاً هو أيضا ، والذى كان يسهر عليه سهر المربى أو المربية تقريبا ، اذن للقي فيدور بافلوفتش كثيرا من المتاعب والهموم . على أن مجيء ألكسى قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيراً حسنا فيما يظهر ، فكأنه أيقظ في نفس هذا الرجل الذى شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ زمان طويل . كان كثيرا ما يقول لابنه أليوشا : « هل تعلم يا أليوشا أنك تشبه كليكوشا كثيرا ؟ » (كذلك كان يسمى امرأته المتوفاة ، أمَّ ألكسى .) . واستطاع أليوشا أخيرا ، بفضل جريجورى ، أن يهتدى الى قبر كليكوشا . لقد قاده الخادم في ذات يوم الى مقبرة المدينة ودلَّه على صفيحة من الصلب كانت مهجورة في مكان ضائع ، وقد نقش عليها اسم المتوفاة وأصلها وسنها وتاريخ وفاتها ، بل لقد كتبت عليها في أسفل هذه الوقائع بضعة أبيات مقفاة من شعر المناسبات الذى جرت العادة أن تزين بها قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس . والامر المدهش أن هذه

الصفيحة المعدنية انما كانت قد وضعت في ذلك المكان بعناية جريجورى الذى أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه ، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش الى أوديسا • لقد حاول جريجورى أن يذكّر مولاه مرارا بأن المتوفاة ليس لها ضريح ، ولكنه لم يظفر منه بطائل ، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابىء بالقبور ، وغير حافل بالذكريات • لم يظهر أليوشا أى انفعال أمام قبر أمه؛ واستمع بغير اهتمام الى مارواه جريجورى جاداً متعالماً متحذلقاً عن اللوح المعدنى كيف صنعه ؛ وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضا رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة ، ثم لم يعد الى زيارة المقبرة مرةً أخرى ربما خلال سنةٍ كاملة • على أن تذكر الماضى هذا قد أثر فى فيدور بافلوفتش بعضَ التأثير ، فتصرف تصرفاً لم يكن يُتوقع منه• أخذ ألف روبل دون أن ينبىء أحداً بذلك ، ومضى بها الى ديرنا يسأل أن تُتلى صلوات على روح زوجته ، لا زوجته الثانية، أم ألكسى ، المسكينة كليكوشا ، بل زوجته الأولى آديلائيد ايفانوفنا ، تلك التى كانت تضربه • وفى ذلك اليوم نفسه أيضا ، سكر سكراً شديداً وقال بحضور أليوشا كلاما أسوأ من شنق الرهبان • لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل التدين الى أقصى حدٍ ممكن ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعةً بقرشٍ واحد أمام أيقونة • غير أن أفرادا من هذا النوع قد يتفق لهم أن يغزوهم على حين فجأة سيل من عواطف غريبة وآراء عجيبة ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، ولكنه موقت على كل حال •

سبق أن قلت انه قد تغضّن وجهه • والحق أن وجهه كان يحمل فى تلك الآونة آثاراً تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التى عاشها ، وأنواع الأهواء التى عصفت به • فالى الجيوب الطويلة المنتفخة التى كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تظلان دائماً باحثتين مفتشتين

وقحتين ساخرتين ، والى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التى كانت تخدد وجهه الذى كان صغيرا ولكنه ملىء بالشـــحم ، قد أضيفت الآن ، تحت ذقنه الدقيقة ، مخدة من لحم سميك مستطيل كأنها كيس صغير ، تضفى على وجهه سيماء شهوانية حيوانية منفرّة • وكان له أيضا فم كبير نهـم منتفخ الشفتين ، تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد تفتت تماما • فكلما فتح فاه للكلام سال منه اللعاب متناثرا • ولقد كان يحب أن يتندر على وجهه ، ولكنه كان راضيا عنه على كل حال ، فيما يظهر ؛ كان يلح فى كلامه خاصـــة على شكل أنفه الذى كان صغيرا دقيقا جدا ولكنه شديد التقوس • كان يقول : « هو أنف رومانى حقا ، فاذا ضممت اليه ذقنى المزدوجة كنت ترى نبيلا من نبلاء روما فى عصر الانحطاط • » • كان فيدور بافلوفتش يبدو معجبا بوجهه معتزا به •

بعد أن اهتدى أليوشا الى قبر أمه بزمن قصير أعلن لأبيـه فجـأة أنه ينوى أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئاً • وأضاف الى ذلك قوله ان ذلك هو أعظم أشواق نفسه وأحرّ أمنياتها ، وانه فى هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأل أباه بكل احترام أن يأذن له بدخول الدير • وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب العجوز زوسيما الذى انزوى فى الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيراً قويا فى « ابنه الطيب العذب » •

قال بعد أن أصغى مطرقاً صامتا الى شروح أليوشا الذى لم يدهشه قراره هذا مع ذلك :

ــ لا شك أن هذا الشيخ زوسيما* هــو خير أولئك الرهبان ••• هِمْ ! ••• ذلك اذن ما تصبو اليه نفسك يا بنى الطيب اللطيف • (كان

قد شرب ، فهذا فمه يتسع فجأة في ضحكة سكران عريضة لا تخلو من مكر وخبث) ••• هيم ! ••• لقد تنبـأت أنا بأنك ستنتهى الى حيث انتهيت ، هل تعلم ؟ هأنت ذا قد عزمت أمرك الآن • انك تمـلك ألفى روبل هما لك وحدك ••• تلك ذخيرة طيبة ••• أما أنا يا ملاكى فلن أتركك قط ، حتى انني مستعد ، اذا لزم الأمر ، أن أدفع للدير كل ما سيطلبه منى • ولكن اذا لم يطلبوا شيئا ، فلن نجبرهم اجبارا ، لن نزعجهم ••• أليس هذا صحيحا ؟ ثم انك لست بالمتلاف الذى ينفق كثيرا ، ولست تحتاج من المـال الى أكثر مما يحتاج طائر من طيـور الكنارى ••• تكفيك حبتان فى الأسبوع ••• اننى أعرف ديراً يملك ، فى خارج المدينة ، دوراً صغيرة • وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور تضم « زوجات الدير » ••• ذلك هو الاسم الذى تسمى به تلك النسوة هناك ••• ان عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم • لقد ذهبت الى هناك، وأعترف أن الأمر شائق ، فى نوعه طبعا ، من ناحية التنوع • ليس ثمة الا عيب وحيد ، هو التعصب القومى ، فالنساء جميعا روسيات ليس بينهن فرنسية واحدة ، مع أن من السهل استقدام أجنبيات ، لأن المال لا يعوز رهبان الدير ، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن ذرافات ووحدانا ••• أما هنا فلا شيء من ذلك ! ليس للدير زوجات ••• وعـددهم مائتان هؤلاء الرهبان ! لا شيء هنا الا العفة والشرف • هم أناس أطهـار ••• أعترف أن ••• هيم ••• أتريد أن تكون راهبا ؟ اننى أرثى لحـالك قليلا يا أليوشا ، صدقنى ! هل تعلم أننى تعلقت بك ؟ على كل حال ••• رب مصيبة نافعة ، مصائب قوم عند قوم فوائد : سوف تدعو لنا الله على الأقل نحن الضالين ، عسى أن يعفو عنا ويغفر لنا ، ذلك أننا قد أثمنـا كثيرا على هذه الأرض • اننى أتساءل منذ زمن طويل : « ترى من ذا الذى سيصلى لنا فى يوم من الأيام ؟ هل فى العالم كله انسان يمكن أن

يصلى لنا ؟ » • يا ولدى المسكين ، اننى غبى جدا فى هذه الأمور ، لو علمت ••• غبى جدا ، صدقنى ! ••• ولكن مهما أكن غبيا فى هـــذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك ، فكرت فيها طويلا • صحيح أننى لم أفكر فيها أحيانا كثيرة ، ولكننى فكرت فيها • قلت لنفسى : « يستحيل أن تنسى الشياطين انتقاطى بمجارفها حين أموت » ، ثم تساءلت : «مجارف؟ من أين لها المجارف ؟ ومِمَّ صُنعت هذه المجارف ؟ ألعلهـــا صنعت من حديد ؟ فأين صنعت اذن ؟ ألعل عندهم اذن مصنعا ؟ » • ان الرهبـــان ، هناك ، فى الدير ، يؤمنون مثلا بأن فى الجحيم سقفا • أما أنا فلا مانع عندى من أن أعتقـــد بوجود الجحيم ، ولكن شريطـة أن لا يكون له سقف • اننى أوثر على ايمانهم ايمانا ألطف ، ايمانا أكثر ضياء ، ايمـــانا أقرب الى مذهب لوثر بمعنى من المعانى• ثم ألا يستوى أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف ؟ انظر الى مسألة الجحيم هذه ما أسخفها ! ولكن اذا لم يكن ثمة جحيم ، لم يكن ثمة مجارف أيضا ؛ وبدون مجارف لا تجرى الأمور ، فنعود الى ذلك السؤال نفسه ••• من عسى يلتقطنى بعد موتى ، من عسى يحملنى على مجرفة ؟ وما عسى يحدث اذا لم تلتقطنى الشياطين ؟ أين تكون « الحقيقة » عندئذ فى هـــذا العالم ؟ لا بد اذن من اختراعها ، هذه المجارف ، من أجلى أنا خاصة ، من أجلى وحدى ، لأننى مذنب خالع العذار يا أليوشا ، لو علمت ! ••••

قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه بانتباه :

ـ لا ليس فى الجحيم مجارف •

ـ هه ! هى اذن أطياف مجارف فحسب ؟ فهمت ! فهمت ! هـــذا يذكرنى بفرنسى وصف الجحيم كما يلى : « رأيت طيف حوذى * كان ينظف طيف عربة بطيف فرشاة » • من أين عرفت يا طائرى الصـــغير

أن ليس ثمة مجارف ؟ ان عشت عند الرهبان لتقولنّ غير هذا الكلام • اذهب اليهم على كل حال • ستبحث لديهم عن « الحقيقة » ، فاذا وجدتها تعال الىّ فحدثنى عنها ، فيكون الموت بعد ذلك أقل قسوة على ، لأننى أكون قد عرفت ما ينتظرنى فى الآخرة ! ثم ان الدير مكان يناسبك أكثر من منزلى الذى يعيش فيه أب سكير مع هاته النساء ••• رغم أنك بما لك من عفة وطهارة لم تتسخ يوماً بهذه الأشياء ، كما لا يمكن أن يتسخ بها ملاك • لا أدرى هل تستطيع البقاء أيضا مع هؤلاء الرهبان ••• لذلك آذن لك أن تلتحق بالدير ! ••• اننى أعتمد على سلامة حكمك وحصافة رأيك • ليس الذكاء ما يعوزك • ان النار تشتعل ثم تنطفىء • فمتى شفيت رجعت الىّ • لسوف أنتظرك • أنت الانسان الوحيد فى هذا العالم الذى لم يتهمنى ولم يدنّى ، ذلك ما شعرت به ، ذلك ما أعرفه يا صغيرى الطيب الشهم ، وهل كان يمكن أن لا ألاحظه ؟

قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطل • انه عاطفى : هو خبيث وعاطفى معا •

٥

مشايخ الرهبان

قد يميل بعض قرائي الى الاعتقاد بأن الشاب الذي أتحدث عنه انسان مريض شديد الاندفاع ذو طبيعة فقيرة ، وانه واحد من أولئك الحالمين الصفراء وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم . والواقع أن أليوشا كان في تلك الآونة عكس ذلك : انه مراهق في التاسعة عشرة من عمره فياض العافية شديد المهابة مورّد الخدين مضيء النظرة ؟ بل لقد كان جميل الوجه قوي البنية . وهو مربوع القامة بني الشعر ، له وجه متسق القسمات على شيء من الاستطالة، تسطع فيه عينان شهباوان قاتمتان متباعدتان تفيضان حياة . انه يبدو شارد الذهن كثير التفكير ، وهو في الظاهر هادىء هدوءا كبيرا . رب قائل يقول ان تورد الخدين لا ينفي شدة التعصب الديني ولا ينفي الميل الى الصوفية . ولكنني أعتقد أن أليوشا كان واقعيا أكثر من أي انسان آخر . صحيح انه اكتسب في الدير ايمانا بالمعجزات وأنه كان صلبا جدا في هذه الناحية ، ولكن المعجزات لا تستطيع في رأيي أن تزعزع فكر انسان واقعي . ذلك أن المعجزات ليست هي التي تولد الايمان لديه . ان الواقعي الحقيقي اذا كان غير مؤمن يستطيع دائما أن يجد في نفسه القوة والقدرة على انكار معجزة من المعجزات ، فاذا أكدت هذه المعجزة نفسها

بحادثة لا سبيل الى جحودها آثر أن يشك في صـــدق حواسه على أن يسلم بالواقع • حتى اذا قرر أخيرا أن يعترف بهذا الواقع عده ظاهـرة طبيعية كانت الى ذلك الحين مجهولة لا أكثر • ان المعجـــزات لا تولد الايمان لدى الواقعي • بالعكس : فان الايمان هو الذي يستدعي لديه المعجزات • فمتى أصبح مؤمنا سلّم بالمعجـــزات حتما ، بحكم واقعيته نفسها • لقد أعلن الرسول توما * أنه لن يؤمن بشيء قبل أن يرى ، ولكنه حين رأى هتف يقول : « أنت الهي يا رب ! » • فهل المعجزة هي التي أدت به الى الايمان ؟ أغلب الظن أن لا ••• وأنه انمـا آمن لأنه كان يريد أن يؤمن ، بل لعله كان مؤمنا ايمانا عميقا ، من قبل ، في أعماق كيانه منذ كان يقول : « لن أؤمن ما لم أشاهد • »

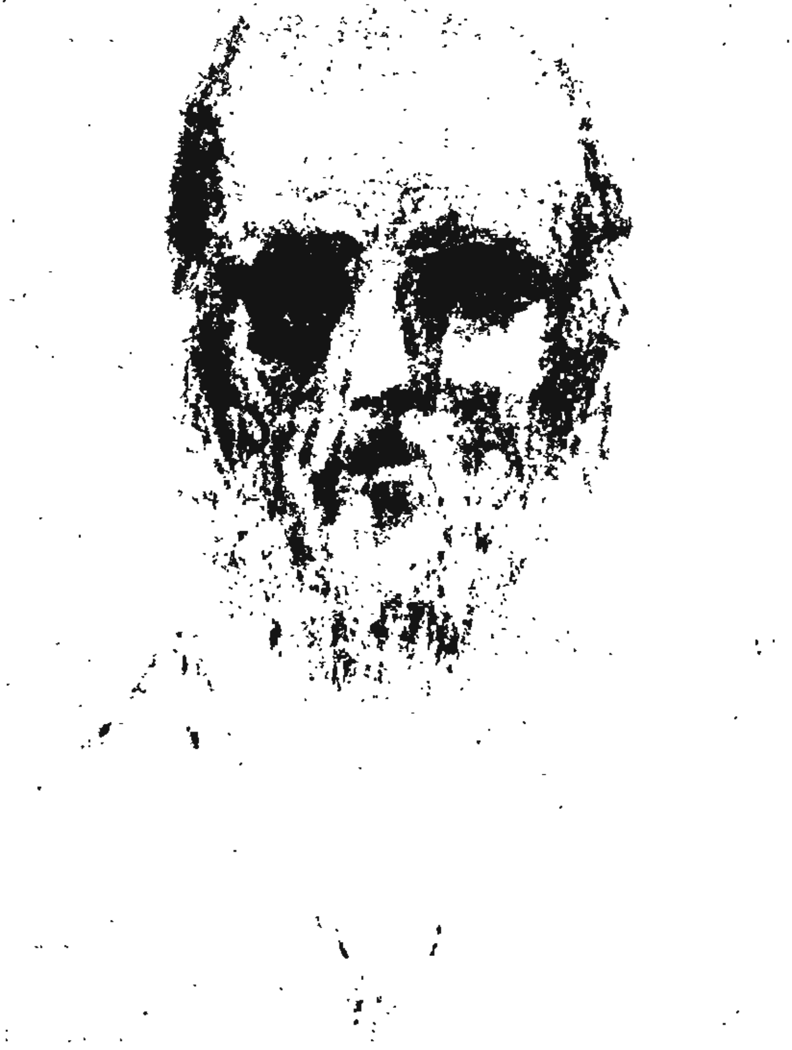
وقد يُظن أن أليوشا كان محدود العقل قليل الذكاء ، بدليل أنه لم يتم دراسته في الكلية ، الخ • فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره ، غير أن حسبانه رجلا غبيا أو محدودا أمر فيه ظلم كبير • ولا أستطيع هنا الا أن أكرر ما سبق أن قلته : وهو أنه لم يختر هذه الطريق الا لأنها الطريق الوحيدة التي كانت تجتذبه في تلك الآونة ، لأنها الطريق الوحيدة التي تتيح له فرصة رائعة هي أن يتمكن مرة واحدة من حـل الصراعات القائمة في نفسه ومن الخلاص من عالم الظلمات والانطـلاق نحو النور • تذكروا أيضا أن هذا الشاب كان من أبناء جيلنا بعض الشيء، أي كان انسانا ذا طبيعة صادقة شريفة تريد « الحقيقة » وتسـعى اليها وتؤمن بها • فلما اهتدى اليها أصبح يرغب رغبة عارمة في أن يقف على خـدمتها كل روحه ، وأن يؤكد ايمانه بأفعال من غير ابطـاء أو تلكؤ ، وأن يثبت عقيدته بالتضحية على الفور ، يحرقه الشوق الى العدول عن كل شيء في سبيلها والزهد بكل شيء من أجلها ، ولو كان هذا الشيء هو الحياة ذاتها • من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع لايدركون

أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع انواع التضحيات أقلها صعوبة في كثير من الأحوال ، وان الزامهم انفسهم ببذل الجهد الشاق خلال خمس سنين أو ستة من الدراسة ـ ولو لمضاعفة وسائل تاثيرهم وأدوات عملهم بالمعرفة المكتسبة ـ بغية أن يخدموا بعد ذلك العقيدة التي يريدون ان ينذروا انفسهم لها ، وبغية أن يحققوا أعمـــالهم التي يحلمـون بها تحقيقا أتم وأكمل ، اقول ان الزامهم انفسهم ببذل هذا الجهد يتطلب شجاعة أكثر من الشجاعة التي تتطلبها التضحية بحياتهم • تلك صورة أخرى من التضحية قد تفوق في كثير من الأحوال قوى هؤلاء الشباب• صحيح أن أليوشا قد اختار طريقا تعارض الطريق التي كان يسلكها في ذلك الزمان أكثر معاصريه ، ولكنه اندفع في هذه الطريق برغبة قوية حارة في الفعل والعمل لا تقل عن رغبة الآخرين • انه منذ فكر تفكيرا عميقا فاقتنع بوجود الله وخلود الروح قال لنفسه على نحو طبيعي تماما : « انني أريد أن أعيش للخــلود ، وانني أرفض التســويات وأنصاف الحلول » • ولو قد انتهى الى نتيجة أخرى فاقتنع بأنه لا وجود لله ولا وجود للخلود لما اختلف الأمر ، ولأصبح على الفور ملحدا واشتراكيا (لأ نالاشتراكية ليست نظرة الى مسألة الطبقة العاملة فحسب أو مايطلق عليه اسم « الدولة الرابعة » ، وانمـا هي قبـــل كل شيء نظرة الحادية وتجسيد حديث للكفر بالدين • انها قصة برج بابل القديمة التي أراد البشر أن يشيدوه بلا اله كما يحاولون ذلك الآن ، لا ليرتفعوا من الأرض الى السماوات ، بل لينزلوا السماء الى الأرض) • ما كان لأليوشـــا أن يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش في الماضي • لقد قيل : « هب كل ما تملك واتبعني اذا أردت أن تبـــلغ الكمال » ، فحـدث أليوشا نفسه قائلا : « هل في وسعي أن أهب روبلين فحسب ، بدلا من أن أهب « كل شيء » ؟ واذا أردت أن أستجيب لنداء « اتبعني » فهل أكتفي بالذهاب الى

الصلاة ؟ » • من الجائز أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكانا في ذكريات طفولته ، وأن تكون أمه قد مضت به الى الدير في الماضي للصلاة ؛ ومن الجائز أن تكون رؤيا الأشعة المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التي كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده اليها ، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد جذبته أيضا • ومهما يكن من أمر فقد جاء الى مدينتنا في ذلك الوقت مفكّراً حالماً ، ربما للاستطلاع وحده ، ربما ليرى هل يعطي « كل شيء » أم يعطي روبلين فحسب • ولكنه التقى في الدير بشيخ الرهبان ذاك •

انه شيخ الرهبان زوسيما ، كما سبق أن أشرت الى ذلك • وقد آن لي أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذي يمثله ، على وجه عام ، شيوخ الرهبان في أديرتنا • سوف أحاول ، رغم انني أشعر ، على أسف ، بأنني لست بالعالم الكفء في هذا المجال ، وبأن معارفي ليست راسخة جدا في هذه الشئون ، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحيا • ويجب أن أذكر قبل كل شيء ان المختصين في هذه الأمور والمطلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التي يمثلونها لم تظهر لدينا في الأديرة الروسية الا في عهد متأخر بعض التأخر ، في عهد لا يكاد يرجع الى أكثر من مائة سنة ، على حين أنها وجدت في الشرق الأرثوذكسي كله ، وخاصة على جبل سينا وجبل آتوس منذ أكثر من ألف عام • ويقال ان شيوخ الرهبان هؤلاء قد وجدوا في روسيا في أزمنة بعيدة ، أو لعلهم وجدوا فيها ، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب ، وما حل بها من الغزو التتري والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية ، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود • ثم لم تقم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك في بلادنا الا في نهاية القرن الماضي على يد أحد كبار

المناضلين منا في سبيل الايمان ، ألا وهو الناسك بائيسى فيلتشوفسكى * (كان يسمى ناسكاً) ، وعلى يد مريديه ، غير أنها لم توجد خلال تلك المدة كلها ، وهي تقارب مائة عام ، الا في عدد صغير من الأديرة ، بل لقد أثارت عداوة شديدة لها وصلت أحيانا الى حد الاضطهاد والتعذيب كما لو كانت بدعة خارقة . ويقال ان هذه المؤسسة قد نمت خاصة (في روسيا) في الصحراء الشهيرة ،صحراء كوزلسكايا أوبتينا * . أما متى دخلت الدير المجاور لمدينتنا ، ومن أدخلها الى هذا الدير ، فذلك أمر اعترف بأنني أجهله ، ولكنى أعرف أن قد تعاقب على هذا الدير ثلاثة شيوخ ، آخرهم زوسيما . كان زوسيما يحس أنه يوشك أن يموت من الضعف والمرض ، وكان لا يُعرف من الذى سيحل محله اذا مات . ان لهذه المسألة شأنا خطيرا بالنسبة الى ديرنا الذى لم يكن يملك شيئا يمكن أن يكفل له الشهرة : فلا رفات قديسين ، ولا أيقونات لها معجزات معترف بها ، بل ولا أساطير جميلة تضمن للدير أن يرتبط بتاريخنا القومى . ان هذا الدير لم يشارك في أى عمل باهر ، ولم يسهم في أي عمل وطنى . انه لم يحصل على المجد ولم يصبح شهيرا في روسيا كلها الا بفضل مشايخه الذين كانوا يجتذبون الحجاج ذرافات من جميع أنحاء البلاد ، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفراسخ ، رغبة في رؤية هؤلاء الرجال والاستماع اليهم . فما هو الشيخ على وجه التحديد ؟ انه السيد المطلق الذى يسيطر على النفوس والارادات ، ويحتوى في ذاته جميع ما تجيش به نفوس مريديه من صبوات وأفكار. فحين يختار المريد شيخا لنفسه يتنازل عن حريته ، ويلزم نفسه بطاعة مطلقة ، ناسيا ذاته كل النسيان . والذى يختار هذا النظام القاسى ، ويرتضى تعلم الحياة على هذه الطريقة الرهيبة ، انما يفعل ذلك بارادته، أملاً في أن يصل ، بعد محن طويلة ، الى التغلب على ذاته ، والى



الشيخ زوسيما
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أن يكتسب هكذا ، بالطاعة المتصلة المستمرة ، الى الحرية الحقيقة : أى يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطوفون فى طريق الحياة دون أن يصلوا الى معرفة أنفسهم ، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم . ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظرى ، وانما نشأ فى الشرق من ممارسة يرجع عهدها الى أكثر من ألف عام ، قبل أن يدخل الى بلادنا . ان الواجبات التى تشد الراهب الى شيخه تمضى الى أبعد من مجرد « الطاعة » التى كانت سائدة على الدوام فى أديرتنا الروسية . فان الرابطة التى تربط الراهب بشيخه فى هذا النظام تفترض ثقة دائمة لا حدود لها ، هى نوع من الاعتراف المستمر للشيخ فى اتصال روحى أصبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحوال . يحكى مثلا أن راهبا مبتدئاً من رهبان هذا النظام ، فى القرون الأولى من المسيحية ، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه ، فترك الشيخ والدير وذهب الى بلد آخر ، ذهب من سوريا الى مصر ، فيما يقال ، فاشتهر فى البلد الجديد الذى مضى اليه بمزايا رفيعة وأعمال عظيمة ، واستطاع أخيرا أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات فى سبيل الدين . وأخذت الكنيسة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين ، فما كاد الكهنة يفرغون من تلاوة الصلوات ، حتى رأوا التابوت التى يضم رفات الشهيد يرتفع فجأة ويخرج من الكنيسة مسرعاً ، وتكرر ذلك ثلاث مرات . وعُرف أخيرا أن هذا القديس الذى استشهد انما خالف فى الماضى أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره ، فلذلك لا يمكن أن ينال الغفران ، رغم جميع أعماله العظيمة ، مالم يأذن بذلك شيخه . واستدعى الشيخ ، ولم يمكن دفن الراهب الا بعد أن أعفاه شيخه من واجب طاعته . تلكم أسطورة قديمة طبعا ، ولكن اليكم قصة حديثة صادقة : اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا * ، اعتكف فى دير بجبل آثوس ، وهذا شيخه

يأمره فجأة بأن يترك جبل آثوس هذا الذى ارتبط به الراهب ارتباطا شديدا وتعلقت به نفسه تعلقا عظيما وأصبح يؤثره على كل ما عداه من أرجاء ، لأنه وجد فيه شاطىء الأمان ؛ أمره الشيخ أن يذهب أولا الى بيت المقدس فيحج الى الأماكن المقدسة ، وأن يعود بعد ذلك الى شمال روسيا ، الى سيبيريا • قال له الشيخ : « هنالك مكانك لا هنا » • حزن الراهب حزنا شديدا ، واستبد به كرب خانق ويأس مضن ، فمضى الى القسطنطينية ، وسعى الى رئيس البطارقة ، وتوسل اليه أن يعفيه من واجب الطاعة • ولكن البطريق أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، رغم رتبته ، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد فى العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب ، الا شيخه الذى فرضه عليه وألزمه به • هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح فى بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود • وذلكم هو السبب فى أن أنصار هذا النظام قد تعرضوا فى كثير من أديرتنا فى أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل الى اضطهاد • ولكن الشعب قد أجل المشايخ اجلالا كبيرا وقدسهم تقديسا عظيما • من ذلك مثلا أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زوارا يتوافدون عليهم حشودا غفيرة من صغار الناس أو من علية القوم ، يظهرون لهم اكبارهم واعجابهم ويُسرّون اليهم ، فى مذلة ، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك ، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام ، وبما يقاسون من عذاب وآلام ، طالبين اليهم أن يسدوا اليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والارشاد • وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الحظوة التى نالوها وهذه الثقة التى اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة بدعة طائشة تفسد قداسة الاعتراف ، مع أن ما كان يبوح به الرهبان المبتدئون أو الأشخاص العاديون لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف• غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر أخيرا فى بلادنا ، وامتد شيئا فشيئا الى

أديرتنا . يجب أن نعترف ، مع ذلك ، أن هذا الأسلوب الذى يرجع عهده الى أكثر من ألف عام ، والذى كان الهدف منه تحقيق اصلاح روحى للانسانية يرفعها من العبودية الى الحرية ، ويحقق لها كمالا روحيا ، يمكن أن يصبح فى بعض الأحوال سلاحا ذا حدين ، وأن يخلق لدى بعضهم ، لا تواضعا وسيطرة كاملة على الذات ، بل غطرسة خبيثة وعنجهية شيطانية ، أى أن يؤدى الى استعباد النفس بدلا من تحريرها .

ان الشيخ زوسيما هو الآن فى الخامسة والستين من عمره ، كان فى سالف الزمان « بوميستشيك » انخرط فى العسكرية فى صدر شبابه، وعمل ضابطا فى القفقاس . لا شك أن شيئا ما كان ينبع من روحه ، فأحدث فى نفس أليوشا تأثيرا قويا . كان أليوشا يعيش فى الحجرة نفسها التى كان يعيش فيها الشيخ ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفا كبيرا ، فارتضى أن يكون له ولياً حميما . يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا ، رغم أنه يعيش الآن فى الدير ، لم يكن قد ارتبط بعد بأية قاعدة ، ولم يكن قد تقيد بأية أصول ، فهو يستطيع أن يغيب عن الدير ما شاء له هواه أن يغيب ، وربما غاب عن الدير أياما بكاملها . ولئن ارتدى مسوح الرهبان، فلقد فعل ذلك بارادته ، حتى لا يتميز عن الرهبان فى شىء . على أن من الواضح أنه كان يجد فى ذلك رضى وغبطة أيضا . ولعل خيال أليوشا المراهق قد افتتن افتتانا قويا بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين كانتا تحيطان بشيخه . ويقال ان زوسيما هذا كان قد اكتسب من طول ما استقبل خلال هذه السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا يجيئون اليه فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قوية عنيفة فى أن يسدى اليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله ، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة النفوس ، وموهبة عظيمة فى النفاذ الى أعماق القلوب ؛ حتى لقد أصبح فيما يقال ، بعد الذى سمعه من اعترافات وعرفه من أسرار وما أفضى به

اليه ذلك العدد الغفير من الناس من شـــجون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستسرة ، قد أصبح قادرا منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التى تجيش فى نفســه وحتى الآلام الخبيئة التى تعذب ضميره ، فكان بهذه القدرة على التنبـؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة ، حتى ليكاد يرمى فى قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحـوا أفواههم بكلمة واحدة • وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه ، من أجل أن يتحدثوا معه حديثا حميما لأول مرة ، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضـــطراب وخوف ، حتى اذا خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريبا يخرج رابط الجأش ثابت الجنان هادىء النفس مطمئن البـــال مشرق الوجه متهلل الأسارير ، وأن أشد الوجوه ظلاماً وجهامة فى أول الأمر كان عندئذ يشع بضياء السعادة • ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسيا البتة • بالعكس : لقد كان حين يتحدث الى الناس أميل الى الفرح والمرح • وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ يحب خاصة أولئك الذين تحمل ضمائرهم عددا أكبر من الآثام ، وأن عاطفته تنصرف الى من هم بين الناس أكثرهم خطايا • صحيح أنه كان بين رجال الدير ، حتى فى نهاية حياة الشيخ ، رهبان يحملون له كرهاً ويشعرون نحوه بحسد ، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة ، وكانوا لاينتقدونه صراحة ، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها فى الدير نفوذ كبير ، كذلك الراهب الذى كان من أقدم رهبان الدير ، والذى اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام • غير أن أكثر الرهبان قـد انحازوا الى الشيخ نهائيا ، وكان بينهم من يحبونه حبا عميقا من صميم القلب ، بل ان منهم من أخلصوا له اخلاصا يوشـك أن يكون تعصباً ،

فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا ، خافضين أصواتهم مع ذلك ، أن هذا الشيخ قديس ، وأنه لا يجوز أن يتطرق الى الأذهان أى شك فى أنه قديس ؟ واذ كانوا يتنبأون بموته قريبا ، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة ، وكانوا يسعدون سلفا للمجد الذى سيناله الدير فى مستقبل قريب ، لأنه سيضم رفات انسان مثله • وكان أليوشا يؤمن ايمانا جازما بما للشيخ من قدرة على المعجزات ، مثلما كان مقتنعا اقتناعا قاطعا بصدق حكاية التابوت الذى اندفع الى خارج المعبد • لقد شهد أليوشا مرارا استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم المقعدين ، جاءوا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم ، فما هو الا زمن قصير قد لا يتجاوز يوما واحدا اذا هم يعودون فيرتمون على قدمى الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم ! لم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل هل تمّ الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحسنا طبيعيا فى حالة أولئك المرضى، لأن ايمانه بما يملكه الشيخ من قدرة فوق الطبيعة كان ايمانا عميقا ، ولأن مجد شيخه قد أصبح فى نظره نصراً شخصيا له •: كان قلبه يشعر بفرح عميق، وكان وجهه يضىء بسعادة عظيمة ، حين كان الشيخ يقترب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك ، حاجّين اليه من جميع أرجاء روسيا ، بغية أن يروه وأن ينالوا مباركته : كانوا ينحنون أمامه ، ويبكون ، ويقبلون يديه ، بل ويقبلون الأرض التى سار عليها ويصيحون صيحات الوجد والنشوة • وكانت النساء تمد اليه أطفالها أو تجيئه برجالها ليشفيهم • فكان الشيخ يحدثهن ، ويتلو دعاء قصيرا ، ويباركهن قبل أن يصرفهن • وقد أصبحت نوبات المرض فى الآونة الأخيرة تبلغ من اضعافه فى بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته ، فكان الحجاج ينتظرون خروجه أياما بكاملها • ان أليوشا يرى أن من الطبيعى أن يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة •

انه يفهم لماذا يرتمون على قدميه ويبكون حناناً حين يرون وجهه • كان أليوشا يشعر شعورا قويا بأن نفساً مذعنة كنفس الشعب الروسى ، نفساً يرهقها العمل والعذاب ، ويضنيها الظلم الأبدى والخطايا اليومية خاصة – خطايا الناس وخطايا هى – كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة اليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك هيكلا أو قديساً تستطيع أن تركع أمامه متعبدة قائلة : « انا نعيش فى الخطيئة والكذب والغواية ، ولكن لا ضير ••• ما دام يوجد فى مكان ما على هذه الأرض قديس وانسان هو خير منا ؟ فهذا الانسان يملك الحقيقة على الأقل ، ويعرف أين هى الحقيقة ، فلا يمكن اذن أن تهلك الحقيقة فى هذا العالم ، ولسوف نعرفها نحن أيضا فى ذات يوم ، لأنها ستسود العالم ، كما جاء فى الكتاب • » • كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكر على هذا النحو ، وكان هو يفهم الشعب • فأما أن الشيخ هو القديس وهو الانسان الذى عهد اليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب ، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة ، وكان يؤمن به ايمانا لا يقل عمقاً عن ايمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن ايمان الفلاحات اللواتى يمددن صغارهن الى الشيخ ؟ ولعل يقينه من أن الشيخ سيهب للدير بعد وفاته مجداً خارقاً كان أرسخ وأقوى من يقين أى راهب آخر • ثم ان قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوما بعد يوم • وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائى فى هذا العالم رغم كل شىء • كان يقول لنفسه : « أى بأس فى هذا ! انه قديس ، وان قلبه يضم سرّ بعث جميع البشر ، فيه تكمن القدرة التى ستكفل انتصار الحقيقة على هذه الأرض بغية أن يصير جميع الناس قديسين وأن يحب بعضهم بعضا ، فلا فقراء ولا أغنياء ، ولا متكبرين ولا مستذلين ، لأنهم جميعا سيصبحون كأبناء الرب ، وسيسود ملكوت

يسوع المسيح ٠ ٠ ٠ ذلك كان الحلم الذى يملأ قلب أليوشا ٠

ويظهر أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين قد أحدث فى نفس أليوشا أثراً كبيرا فى تلك الآونة ٠ لقـــد تفاهم مع أخيه غير الشقيق ، دمترى فيـــدوروفتش ، تفاهما أسرع وأعمـق من تفاهمه مع أخيه الشقيق ايفان فيدوروفتش ، رغم أن ايفان قد وصل قبل دمترى ٠ كان يرغب رغبة قوية فى أن يعرف أخاه ايفان عن كثب ، ولكن رغم أنهما يعيشان تحت سقف واحد منذ شهرين ، ورغم أنهما يلتقيان كثيرا ، لم يحدث بينهما أى تقارب حقيقى : فأما أليوشا فكان يظل صامتاً لا يتكلم ، ويبدو أنه ينتظر شيئاً ما أو ينطوى على نفســه فى نوع من الخشية أو من الحرج الداخلى ؛ وأما ايفان الذى لاحظ أليوشا نظراته الطويلة المتفرسة فى البداية ، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصـبح لا يهتم به ٠ وكان أليوشا يعزو قلة اكتراث أخيه الى ما بينهما من فـرق فى السن والثقافة ٠ غير أن تعليلا آخر كان يساور فكره أحيانا ، فكان يتساءل : ألا يمكن أن تكون قلة اكتراث ايفان ناشئة عن سبب ما يزال يجهله ، عن سبب لا يدركه البتة ؟ لقد كان يبدو له ان ايفان مشــغول البال دائما بشىء ما ، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جدا ، وأنه يتطلع الى بلوغ هدف لعله رفيع جدا وصعب جدا ، فما يتسع وقته كثيرا لأن يلتفت الى أخيه وأن يفكر فيه ٠ أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقى الوحيد لموقفه منه ، وذهوله عنه ؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا : ألا يمكن أن يشتمل هذا الموقف على شىء من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجـاه راهب مبتدىء غبى ؟ لقد كان أليوشا يعلم أن أخاه لا يؤمن بالله ٠ ان مثل هذا الاحتقار ـ اذا وجد ـ قد لا يكدّر أليوشــا ، ومع ذلك كان أليوشا ينتظر ، بقـــلق غامض تخالطه خشـية ، اللحظة التى يقرر فيها أخوه أن يقترب منه ٠ أما دمترى فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه

ايفان بكثير من الاحترام ، ويتكلم عليه بلهجة فيها حماسة عظيمة . ومن دمترى انما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية التى خلقت بين الأخوين فى الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشدت أحدهما الى الآخر شداً وثيقا . وكانت هذه الحماسة التى يظهرها دمترى فى تقدير أخيه ايفان تكتسب مزيدا من الدلالة فى نظر أليوشا لأن دمترى كان بالقياس الى ايفان رجلا لا يكاد ينعم بأى حظ من ثقـــافة ، فاذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يبلغان من عمق اختـــلاف أحدهما عن الآخـــر فى الطبع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصـــور انسانين بينهما من قوة التنافر وشدة التفاوت ما بين هذين الأخوين .

وفى تلك الفترة بعينها انما تم اللقاء العائلى أو قل الاجتماع العائلى فى حجرة الشيخ زوسيما بين جميع أفراد هذه الأسرة المتنافرة ، وذلك حادث كان له فى أليوشا تأثير كبير . الحق أن الحجة التى اتخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة . ان الخلاف الناشب بين دمترى فيدوروفتش وأبيـــه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصـــفية الحساب كان قـــد بلغ فى تلك اللحظة أوجه ، وان العلاقات المتوترة الى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تطاق . وان فيدور بافلوفتش هو الذى اقترح – مازحاً فيما يظهر – أن يُعقد اجتماع فى حجرة الشيخ زوسيما بغيـــة الوصول الى التفاهم بروح أقرب الى المـــودة وأدنى الى الصفاء ، دون اللجوء الى تدخل الشيخ فى الأمر بالضرورة : ذلك أن منزلة هذا الانسان المحترم وشخصيته كفيلتان بأن تؤثرا فى الجميع تأثيرا يهـدىء النفوس ويصالح القلوب . وقد تخيل دمترى فيدوروفتش ، الذى لم يسبق له أن زار الشيخ يوما والذى لم يكن يعرفه حتى بالنظر ، تخيل طبعا أن الغرض من هذا الاجتماع انما هو تخويفه بسلطان هذا الشيخ . ومع ذلك قبل دمترى هذا التحدى ، لأنه كان فى سرِّه يلوم نفسه على الحدة العنيفة

والنزق الشديد فيما كان يوجهه الى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول أحيانا كثيرة فى الآونة الأخيرة . ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن فى منزل أبيه ، كأخيه ايفان فيدوروفتش ، وانما كان يقطن وحيدا فى الطرف الآخر من المدينة . وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بطرس ألكسندروفتش ميوسوف الذى كان يقيم فى مدينتنا آنذاك ، أن تبنى الرأى الذى اقترحه فيدور بافلوفتش . انه ، وهو اللبرالى على طراز سنوات ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ، المتحرر من العقائد الكافر بالأديان ،قد ساهم فى هذه القضية مساهمة فعالة ، ربما عن ضجر وسأم ، وربما عن رغبة طائشة فى السخرية والاستهزاء . وقد اشتهى فجأة أن يرى الدير وأن يرى « قديس » الدير . واذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد طال عليها الأمد ، واذ أن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود أراضيه وحدود أراضى الدير ، وعلى الحقوق الغامضة فى قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر ، لم يكن قد حُسم حتى ذلك الحين ، فقد أسرع ينتهز هذا الظرف متعللا بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان* شخصيا ، فعسى أن يكون ذلك وسيلة لتصفية الخلاف بالود دون احتكام الى القضاء ! وقد ذكر فى تأييد رأيه هذا أنه اذا دخل الدير على هذه النية الحميدة فيمكن أن يُستقبل استقبالا ألطف وأكرم من الاستقبال الذى سيستقبل به ، لو ذهب الى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر . وقد أتاحت هذه الاعتبارات المختلفة تحريك بعض المؤثرات فى داخل الدير ، وفعلت فعلها فى الشيخ المريض الذى أصبح منذ زمن لا يكاد يبارح غرفته ، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا أن يفدوا اليه . لقد وافق الشيخ على الاجتماع ، وحُدِّد موعد للقاء ، واقتصر الشيخ على أن يقول لأليوشا وهو يبتسم : « ما أنا فى الحقيقة حتى يحق لى أن أكون حكماً بينهما ؟ » .

حين علم أليوشا بأمر هـــذا الاجتماع قلق قلقا شديدا واضطرب اضطرابا عظيما . لا شـــك ان أخاه دمترى هو بين سائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات ، هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد . أما الآخرون فلعلهم لا يذهبون الى الدير الا لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسيء الى الشيخ وتجـرح شعوره . كان أليوشا يدرك ذلك حق الادراك . فأخوه ايفان والســيد ميوسوف لن يأتيا الى الدير الا بداعى حب الاستطلاع ، وربمـــا بداعى الفضول الفظ الغليظ . أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون فى نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرّجة . ذلك أن أليوشا ان كان يحسن الصمت ، فلقد كان يعرف أباه ، بل كان يعرفه معرفة عميقة . يجب أن أكرر أن هذا الفتى كان أذكى فؤاداً وأنفذ بصيرة مما كان يتخيل أكثر الناس . لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس . صحيح أنه كان فى قرارة نفسه يتمنى كثيرا أن تنتهى هـــذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء. غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة الى الشيخ، فكان يرتعد قلقاً عليه ، وحرصا على مجده ، وكان يخشى أن يلحقوا به اهانة أو أن يمسوه بسوء ، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهذبة التى يمكن أن يعمد اليها ميوسوف ، وغمزات الاحتقار التى يمكن أن يدسّها أخوه العالم ايفان ، وكان يتخيل هذا كله سلفا . خطر على باله فى لحظة من اللحظات أن ينذر الشيخ ، أن يقول له كلمتين عن أهـــله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته ، ولكنه بعد أن فكر فى الأمر آثر أن يصمت فلا يقول شيئا ، واقتصر فى عشية اليوم المحدّد للزيارة أن يبـــلغ أخاه دمترى بواسطة صديق لهما كليهما أنه يحبه كثيرا وانه يعتمد على وعده . واحتار دمترى فى أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمن التخمينات فى فهم معناها ، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه لأليوشا أى عهد ،

ثم أجاب أخاه فى رسالة مكتوبة بأنه سيبذل قصارى جهوده فى سبيل أن يسيطر على نفسه وفى سبيل أن يتجنب أى « صغار » ، وأضاف الى ذلك قوله انه على احترامه العميق للشيخ وأخيه ايفان ، واثق ثقة عميقة بأن الأمر لا يعدو أن يكون اما فخاً يُراد له أن يقع فيه ، واما مهزلة منحطة يُراد تمثيلها ، وختم رسالته بقوله : « ومع ذلك فاننى أوثر أن أبلع لسانى على أن أقول كلاما يؤذى هذا الانسان المقدس الذى تجله وتعظمه . » . غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيلة بأن تطمئن أليوشا .

الباب الثاني: اجتماع في غير محله

١

الوصول الى الدير

كان ذلك فى صبيحة يوم من أواخر شهر آب (أغسطس) ، يوم مضيء حار . ان لقاء الشيخ قد حُدِّدت له الساعة الحادية عشرة والنصف، بعد نهاية الصلاة الثانية فورا . ولكن أصحابنا الزائرين لم يروا أن من الضرورى أن يحضروا الصلاة ، فوصلوا الى الدير لحظةَ انتهاء القداس . كانوا قد ركبوا عربتين . فأما الأولى فهى مركبة أنيقة من مركبات السادة يجرها حصانان جوادان ، فيها بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، وفتى يصحبه فى نحو العشرين من عمره ، اسمه بطرس فومتش كالجانوف ، وهو يمت الى ميوسوف بقربى بعيدة . ان على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريبا ، ولكن ميوسوف الذى كان الشاب يعيش فى تلك الفترة عنده ، يريد أن يصطحبه الى الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات فى جامعة زوريخ أو جامعة فيينا . لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره بعد . فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلاً . هو فتى قوى البنية طويل القامة حلو الوجه ، ولكن نظرته تجمد فى بعض الأحيان جمودا غريبا : كان يتفق له فى بعض الأحيان ، كما يتفق ذلك لجميع كبار الذاهلين ، أن يحدق الى الناس تحديقا طويلا دون أن يلمح حتى وجودهم . وهو

فى العادة كثير الصمت قليل الكلام ، لا يخلو من شيء من خرافة ، ولكنه يتحمس فى بعض الأحيان ـ اذا خـلا الى صديق ـ فينطلق عندئذ على سجيته ، ويفصح عن نفسه ، ويضحك دون تحرج ، بل ودون سبب ظاهر • على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما شبت بسرعة • والفتى حسن الهندام دائما ، على شيء من تأنق • وهو يملك ثروة حسنة تكفل له الاستقلال منذ الآن ، ولكنه ينتظر مواريث أضخم وأعظم • ولقد كان صديقاً لأليوشا •

وأما العـربة الثانية فقد ركبهـا فيدور بافلوفتش وابنـه ايفان فيدوروفتش ، وهى عربة عتيقة مهترئة مترنحة مقرقعة ، ولكنها فسيحة ، يجرها حصانان عجوزان أشهبان كانا يلقيان عناءً فى اللحاق بمركبة ميوسوف ويتركان لها دائما أن تسبقهما •

أما دمترى فيدوروفتش فقد تأخر ، رغم أنه قد أبلغ يوم اللقاء وساعته ، منذ الليلة البارحة •

ترك الزائرون عربتهما قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب الدير سيراً على الأقدام • يظهر أن أحداً من هؤلاء الزائرين ، باستثناء فيدور بافلوفتش ، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم ؟ أما ميوسوف فانه لم يضع قدميه فى كنيسة من الكنائس منذ ثلاثين عاماً • كان ينظر حواليه بشيء من الاستطلاع ، دون أن يتنازل مع ذلك عن التظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث • ولكن ما من شيء فى داخل هذا الدير كان يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ ، الا تلك المبانى الدينية والمبانى الضرورية لحياة الرهبان المشتركة ، وهى مبانٍ ليست على حظ وافر من جمال فن العمارة • كان أواخـر المصلين يخرجون من الكنيسة ويرسمون اشارة الصليب وهم ينزعون قبعاتهم عن رءوسهم ؟ وهم أناس

من عامة الناس بينهم عدد قليـــل من طبقة اجتماعية أعلى ، وسيدتان أو ثلاث سيدات ، وجنرال عجوز جدا • كان هؤلاء جميعا قد نزلوا فى الفندق • وسرعان ما احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين ، ولكن أحدا لم يهتم بهم ولم يلتفت اليهم ، باستثناء بتروشكا كالجانوف ، فقـد أخرج من حافظه نقوده قطعة عشرة كوبكات ، وسارع يدسها مضطرباً بعض الاضطراب ــ لا أدرى لمـاذا ــ سارع يدسها خلسةً فى يد احدى هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين : « توزعوها جميعا » • لم يُبد له أحد ملاحظةً على ما فعل ، فما كان له اذن أن يضطرب ، ومع ذلك فان صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه •

استغربوا أن أحدا لم يجىء لاستقبالهم فى الدير • يظهر أنهـم كانوا يتوقعون أن يُنتظروا بل وأن يَستقبلوا استقبالاً فيه حفاوة • ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل فى الآونة الآخيرة ؟ أليس الثـانى منهم رجلاً غنياً جداً من أصحاب الأطيان ، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة ، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعا قد يتـــوقف أمرهم عليــه وقد يصبحون رهناً به فيما يتعلق بحقوق الصيد فى النهر اذا جرت القضـية مجرى يتفق ودعواه ؟ ومع ذلك لم تجىء أية شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار ! أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجـاورة للكنيسة ، وهمّ أن يقول ان أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حقّ لهم أن يدفنوا موتاهم فى مكان يبلغ هذا المبلغ من « القداسة » ، ولكنه صمت ولم يقل شيئا ، ثم اذا بالسـخرية الليبرالية تحرك فى نفسه نوعاً من غضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه :

ــ لا يعلم الا الشيطان من الذى سنتجه اليه فى هذه الفوضى •••
وعلينا مع ذلك أن نسرع فان الوقت يمضى •••

وفى تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم فى السن ، أصلع ، متلطف النظرة . انه يرتدى معطفا فضفاضا من معاطف الصيف . رفع الرجل قبعته ، وقدَّم نفسه اليهم جميعا ، بصوت متعاذب مترقق ينطق الجيم زاياً ، قائلاً انه المالك ماكسيموف من اقليم تولا . وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال :

ـ ان الشيخ زوسيما يقطن الصومعة فى مكان منزوٍ على مسافة أربعمائة قدمٍ من الدير . فيجب للذهاب اليه اجتيازُ الغابة الصغيرة ، هذه الغابة الصغيرة ...

فأجاب فيدور بافلوفتش :

ـ أعرف أن منسكه يقع وراء الغابة الصغيرة ، ولكننا نسينا الطريق اليه ، لأننا لم نجيء الى هنا من زمان طويل ....

قال الرجل :

ـ يجب اجتياز هذا الباب ، ثم السير رأساً فى الغابة ... الغابة الصغيرة .. هيَّا بنا .. هل أستطيع أن .. اننى أنا أيضاً ، أنا أيضاً .. الطريق من هنا ، من هنا ! ..

خرج الجميع من الباب وساروا فى الغابة . كانَ مالك الأطيان ماكسيموف ، وهو رجل فى نحو الستين من عمره يسير الى جانبهم ، بل قل يكاد يركض الى جانبهم ركضاً ، وهو يتفرس فيهم بنوع من استطلاع متشنج لا يطاق ، وقد اتسعت عيناه اتساعاً يدعو الى الدهشة .

قال ميوسوف بلهجة قاسية :

ـ يجب أن أقول لك اننا ذاهبون الى هذا الشيخ لأمور تتعلق بنا وحدنا ، وقد فزنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه « الشخصية » ، فلعلك

تدرك اذن أننا مع شـــكرنا لك على أنك تدلنا على الطـريق نسألك أن لا تصحبنا فى الدخول عليه •

ـ لقد كنت عنده ••• كنت عنده ••• هو فارس عظيم ••

قال الرجل ذلك وهو يصفق بأصابعه فى الهواء •

سأل ميوسوف :

ـ من ؟ من هذا الذى تصفه بأنه فارس ؟

ـ الشيخ ، الشيخ العظيم ، هذا الشيخ ••• شرف هـــذا الدير ومجده •• زوسيما •• ذلك الشيخ •

وفى تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة ، شديد النحول ، شاحب اللون جداً ، يرتدى برنساً ، فقطع على مالك الأطيـان حديثه المضطرب المفكك • توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف• وخاطبهم الراهب يقول بأدب عظيم وهـــو ينحنى أمامهم حتى ليكاد يبـلغ رأسه مستوى الحزام :

ـ ان الأب الأكبر يرجوكم ، بكثير من التواضع ، أن تشرفوه ، حين عودتكم من الصومعة ، بالمجىء اليه جميعاً لتناول طعام الغداء •

ثم التفت نحو ماكسيموف ، فأضاف يقول له :

ـ وأنت أيضاً مدعو •

هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار لبه فرحاً بهذه الدعوة :

ـ سأجىء ، سأجىء حتماً ••• لن أتخلف عن المجىء ! اعلم أننا قد تعهدنا جميعا بأن نتصرف هنا باحتشام • هل تجىء أنت أيضا يابطرس ألكسندروفتش ؟

ـ سؤال غريب ! أكنت أجيء الى هنا لولا حرصى على أن أرى جميع عاداتهم ؟ ولكن الشيء الوحيـــد الذى يقلقنى الآن هـو أننى فى صحبتك يا فيدور بافلوفتش !

ـ نعم ! وما رأيكم في دمترى فيدوروفتش الذى لم يتنـــازل أن يصل حتى الآن ؟

ـ ليته لا يصل أبدا ! ألعلك تظن أنه يسرنى أن أجد نفسى مقحماً في جميع هذه القضايا الوسخة ، وأن أحتمل فوق هذا صحبتك ؟

قال ميوسوف ذلك ، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب :

ـ اننا نقبل الدعوة ، اشكر الأب الأكبر باسمنا .

فأجاب الراهب :

ـ أنا باق معكم ، لأننى مكلف باصطحابكم الى الشيخ .

قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقاً :

ـ أما أنا فذاهب أثناء ذلك الى الأب الأكبر رأساً . أنا ذاهب اليه حالاً .

قال الراهب متردداً :

ـ الأب الأكبر مشغول الآن ، ولكن اذا كنت تحرص على أن ...

قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملاك ماكسيموف يتجه نحو الدير بخطاه القصيرة السريعة :

ـ يا للعجوز الصغير المزعج !

فعقب فيدور بافلوفتش فجأة بقوله :

ـ انه يذكرني بفون سون ! *

ـ كل شيء يذكرك بفون سون ؟ أي شبه بينه وبين فون سون ؟ وهل رأيته أنت ، فون سون هذا ؟

ـ رأيت صورة له . قد لا يشبهه بملامح الوجه ، ولكنه يشبهه بشيء يصعب تحديده ... هو نسخة عن فون سون . أنا لا يخطئني الظن أبدا في مثل هذه الأمور . تكفيني نظرة واحدة ألقيها على الوجه ...

ـ طيب . لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل حال . ولكن لا تنس يا فيدور بافلوفتش ما قلته أنت نفسك منذ قليل : لقد قطعنا على أنفسنا عهداً ليكونن سلوكنا هنا محتشماً . تذكر هذا . راقب نفسك. انني أطلب اليك ذلك جازماً قاطعاً. اياك أن تأخذ في تمثيل دور المهرج. انني أرفض أن أؤخذ بجريرتك وأن أحمل وزرك .

قال ميوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب :

ـ أرأيت أي نوع من البشر هو ؟ يميناً انني أخشى أن أذهب في صحبته الى عند أناس محترمين ...

ارتسمت على شفتي الراهب الرقيقتين الذاويتين ابتسامة ناعمة صامتة لا تخلو من بعض المكر ، ولكنه لم يجب بشيء . لقد كان واضحا كل الوضوح أنه انما يتعمد الصمت شعوراً منه بكرامته الشخصية . قطّب ميوسوف حاجبيه مزيداً من التقطيب . وقال يحدث نفسه : «شيطان يأخذ جميع هؤلاء الرهبان مع أوضاعهم الخارجية المدروسة بعناية ، الثابتة منذ قرون ! ما هذا كله الا سخف ودجل ! » .

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ هذه هى الصومعة ! هذا هو المنسك ! لقد وصلنا ! الحديد موصد والباب مغلق !

وأخذ يرسم اشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين التى تزين المدخل فوق الباب وعلى جانبيه • وقال :

ـ لكل دير قواعد تجب مراعاتها • هم هنا خمسة وعشرون قديساً على وجه التقريب ، ينشدون الأمن والسلامة والخلاص فى هذا المنسك، يتفرس بعضهم فى بعض ويأكلون الكرنب المخلل • ولكن ما من امرأة واحدة يُسمح لها باجتياز هـــذا الباب • ذلك أعجب شىء هنـا ، ولكنه حقيقة • فكيف نعلّل ، رغم هذا ، أن الشيخ يستقبل فى هـــذا المكان سيدات فى بعض الأحيان كما قيل لى ذلك ؟

بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه ، متجهاً به الى الراهب•

ـ ان نساء من عامة الشعب توجد هنا فى هذه اللحظة نفســها • تستطيع أن تراهنّ : انهن ينتظرن قرب الرواق جالسات أو راقدات • أما سيدات المجتمع الراقى فقـــد خصصت لهن فى الرواق ، ولكن على الطرف الآخر من السياج ، غرفتان صغيرتان هـــذه نوافذهما تراها من هنا • فالشيخ يذهب اليهن من ممر داخلى متى أحس بأنه قادر على ذلك، دون أن يجتاز السياج طبعاً • وثمة سيدة من مالكات الأطيان هى الآن هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ : انها السيدة هوخلاكوفا • أغلب الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن أنه أصبح لا يكاد يخرج •

ـ هناك اذن ممر يؤدى من المنسك الى السيدات • لا يذهبنّ بك الظن أيها الراهب المحترم الى أن فى كلامى هذا شيئاً من غمز ! حاشا•• فأنا انما أقول هذا الكلام بغير نية البتة ! هل تعلم أن زيارات النســاء ،

في جبل آثوس ، ولا شك أن ذلك قد ذُكر لك ، ليست وحدها ممنوعة ، وانما يُمنع هناك أيضاً وجود الأناث من أى نوع من أنواع الحيوان ... فلا دجاجة ولا أوزة ولا أية عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك ؟ ...

ـ فيدور بافلوفتش ، اذا استمررت فسأنصرف وأتركك وحدك ! ولئن انصرفت أنا ليُخرجُنَّك من هنا جراً من كتفيك ! انني أحذرك ...

ـ وددت لو أعرف ما الذى يزعجك منى يابطرس ألكسندروفتش؟

كذلك قال فيدور بافلوفتش ، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج المنسك :

ـ انظر الى وادى الأزهار هذا الذى يعيشون فيه ! ...

حقاً ... ان الناظر يرى أزهاراً رائعة نادرة ، وان لم ير وروداً في هذا الأوان . لقد زُرعت أزهار فى كل ركن خال . وكان واضحاً أن يداً ماهرة صناعاً هى التى تعنى بالأزهار فى كثير من الحب . ان هناك أحواض أزهار بين القبور وعلى طول الجدران . والبيت الصغير الذى يضم حجرة الشيخ ، والذى كان مبنياً بخشب ومؤلفاً من طابق واحد مع رواق أمام المدخل ، يزدان هو أيضاً بالأزهار تطوّقه من كل جهة .

ـ قل لى : هل كان الأمر على هذه الحال فى عهد الشيخ السابق ، الشيخ فارسونوف ؟ يُقال انه كان يكره الترف وان الأناقة كانت تغضبه كثيراً حتى ليتفق له أن يرفع عصاه على سيدات .

كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يقترب من درجات المدخل .

أجاب الراهب الصغير قائلاً :

ـ كان مظهر الشيخ فارسونوف يوهم حقاً فى بعض الأحيان أنه انسان بسيط ، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التى قيلت فى حقه ورويت عنه ! انه على كل حال لم يرفع عصاه على أحد فى يوم من الأيام ! انتظروا هنا لحظة يا سادة . سأبلغ الشيخ قدومكم .

اتسع وقت ميوسوف لأن يدمدم قائلاً لفيدور بافلوفتش :

ـ أحذرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش ... أحسن التصرف ، والا جعلتك تندم ! ...

فأجابه فيدور بافلوفتش ساخراً :

ـ لا أستطيع أن أفهم ما الذى يجعلك ثائر الأعصاب الى هذه الدرجة .أهى خطاياك تعذب ضميرك ؟ أأنت خائف من قدرة هذا الشيخ ؟ يقال انه يقرأ فى أعين الناس ، ويستشف كل ما يجيش فى الضمائر وكل ما يثوى فى قرارة النفوس . هل يجوز لرجل باريسى تقدمى مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأى هؤلاء الرهبان ؟ الا أن هذا ليدهشنى منك قليلاً ، هل تعلم ؟

لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخريات ، لأنهم قد دعوا الى الدخول . وكان يشعر ، وهو يدخل ، بحنق يلم به وغيظ يغزو قلبه .

قال يحدث نفسه : « اننى أعلم ما سيحدث الآن . أنا أعرف نفسى . سوف تثور أعصابى ، سوف أغضب ... سوف أتحمس ، فبذلك أخفض قدرى وأغض من قيمة آرائى . » .

٢

الهرم العتيق

دخول

الحجرة فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الشيخ على عتبة مهجعه تقريباً • كان فى الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ اليهما • ان أحدهما هو الأب القيِّم على مكتبة الدير ، والثانى هو الأب بائيسى • ان الأب بائيسى رجل مريض جداً رغم انه غير طاعن فى السن كثيراً ، وهو يعد على جانب عظيم من العلم • وكان هنا لك فتى يبدو فى الثانية والعشرين من عمره ، قد وقف فى ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفاً حتى نهاية الاستقبال) • انه طالب سيصبح فى المستقبل لاهوتياً ، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ويشملانه بالرعاية والحماية • هو شاب طويل القامة ، نضر المحيا ، عريض الوجنتين ، تضىء وجهه عينان شهباوان طويلتان ضيقتان تعبران عن ذكاء وانتباه • وكان وجهه يفصح عن كثير من الاحترام والتوقير ، ولكن بغير غضاضة ولا مذلة • انه لم يسلِّم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة ، دالاً بهذا الامتناع على انه لا يعد نفسه نداً لهم ، بل شخصاً ثانوياً مرءوساً •

دخل الشيخ يصحبه أليوشا ومترهب مبتدىء • نهض الراهبان

الكاهنان فسلّما على الشيخ سلاماً عميقاً وانحنيا له حتى لامست أصابعهم الأرض ؛ ثم تبادلا كلمات المباركة وقبلا يدى الشيخ ، فباركهما الشيخ أولاً ثم ردّ عليهما التحية منحنيا أمام كل منهما تلك الانحناءة نفسها لامساً بيديه الأرض . ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة ، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية ، حتى لقد كانت الحركات التى قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية . ومع ذلك أحسّ ميوسوف انهم يسكبون فيها شيئاً من التصنع والافتعال . وكان ميوسوف فى مقدمة صحبه . وكان يقول لنفسه ـ وذلك أمر فكّر فيه طويلاً منذ الليلة البارحة ـ ان عليه من باب اللباقة وحدها ، مهما تكن آراؤه الخاصة ، ان يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السنة قد جرت بذلك فى هذا المكان) ، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبل يده . ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبلات التى طبعها الرهبان على يدى الشيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره ، فاكتفى بأن حيّا الشيخ تحية عميقة منحنياً له الانحناءة الكبيرة التى ينحنيها رجل مهذب من رجال المجتمع الراقى ثم تقهقر نحو كرسيه هادئاً رصيناً وقوراً . واقتفى فيدور بافلوفتش أثره فحاكاه فى كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده تقليداً ، ولعله فعل ذلك عامداً . وسلّم ايفان فيدوروفتش هو أيضا سلاما رصيناً مهذبا ؛ أما كالجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسى أن يسلّم . وأنزل الشيخ يده التى كان قد رفعها مباركاً ؛ وبعد أن حيّاهم مرةً أخرى رجاهم أن يجلسوا . صعد الدم الى خدى أليوشا . لقد كان يشعر بالخجل والخزى من ذويه . ان ما أوجسه وتنبأ به قد تحقق .

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الآكاجو ، قديمة الطراز جداً ، مغطاة بجلد ؛ وأجلس ضيوفه ، باستثناء الراهبين الكاهنين ، صفاً

واحدا أمام الجدار المقابل مشيراً لهم الى مقاعد أربعة من خشب الآكاجو مغطاة بجلد أسود رث جدا • وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين ، أحدهما قرب الباب والثانى أمام النافذة • أما الطالب وأليوشا والمترهب المبتدىء فقد ظلوا واقفين • ان الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تُشعر بأنها عتيقة بالية كل البلى ، والأثاث الذى فيها عادى فقير يقتصر على ما هـو ضرورى لا غنى عنه • وهذان أصيصان للزهر يزينان حافة النافذة ، وهذه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدس فى ركن من الغرفة ، احداها للسيدة العذراء ، وهى أيقونة كبيرة جدا يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق الدينى * • وعلى جانبى العذراء صور مقدسة أخرى فى صناديق من معدن لامع محفور ؛ وبعدها بقليل يرى الرائى تماثيل أطفال لهم أجنحة ، وبيضاً من خزف ، وصليبا كاثوليكيا مع أم محزونة تضم الصليب بذراعيها ، وعددا من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان فى القرون الخوالى ، وهـذا كله قد اختلط بعضه ببعض فوضى ؛ والى جوار تلك الصور الفنية التى لها قيمة كبـيرة يرى الرائى عدة صور ليتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثـل قديسين وشهداء ، هى من تلك الصور التى تباع فى جميع أسواق البلاد بكوبك واحد • وهناك صـور ليتوغرافية أخرى هى وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حاليين تزين الجدران الأخرى من الغـرفة • طاف ميوسوف على هذه « التفاهات » بنظرة سريعة ، ثم حدّق الى الشيخ • ان ميوسوف يعد نفسه ثاقب النظرة نافذ البصيرة ، غير أن ذلك ضعف يمكن أن نغفـره له حتماً اذا نحن تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره ، وهى سن يكون فيها الانسـان الذكى الذى ينتمى الى المجتمع الراقى وينعم بمركز وطيد قد تعود أن يحترم نفسه كثيرا ، على غير شعور منه فى بعض الأحيان •

لم يعجبه الشيخ فى الوهلة الأولى • والحق أن فى وجه الشـيخ

شيئاً يمكن أن لا يرضى غير ميوسوف أيضا • هو رجل قصـــير القامة محدودب الظهر مترنح الساقين ، عمره خمسة وستون عاما فحسب ، غير أنه يبدو أطعن في السن بسبب مرضه الذي يُظهره أكبر من عمـــره بعشر سنين في أقل تقدير • وان وجهه النحيل الضامر المعروق مخدّد كله بغضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة• وليست عيناه بالكبيرتين، غير أنهما واضحتان صافيتان ، فيهما كثير من الحـــركة والسطوع ، بحيث لا يرى المرء منهما الا نقطتين مضيئتين • ولم يبق من شعره الا خصلتان شائبتان على الصدغين • أما لحيته الدقيقة فهي صغيرة قليلة زهيدة ؛ وأما شفتاه اللتان كثيرا ما تعبران عن الدهاء فانهما تبدوان أرقّ من ســيور الجلد ؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول ، يشبه منقار طائر صغير •••

حدث ميوسوف نفسه قائلاً : « ان كل شيء فيـه يدل على ان له طبيعة كالحة شرسة ، وعلى أن فيه زهواً ســخيفا وكبرياء مسكينة » • وأحس ميوسوف باستياء من نفسه •

ودقت الساعة تقطع الصمت • ان ساعةً صغيرة بخسة الثمن كانت معلقةً بالحائط ومزوّدة بنواس ، قد ترجع صوتها يدق اثنتي عشرة دقة متتابعة سريعة ، مؤذناً بحلول بالظهر • فصاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ هو الموعد المحدد ولمّا يصل ابني دمتري فيدوروفتش • أرجو أن تعذرني أيها الراهب المقدس جدا (ارتعش أليوشا حين سمع قـــول أبيه هذا « أيها الراهب المقدس جدا ») • لقد تعودت أنا أن أكون دقيق المواعيد ، فلم أتأخر عن موعدٍ في يوم من الأيام دقيقة واحدة ، لأنني أتذكر أن دقة المواعيد هي أدب الملوك •

ـ ولكنك لست ملكا فيما أعلم •••

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذى كان منـــذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه . فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله :

ـ صحيح . لست ملكا . ثق يا ألكسندر بتروفتش أننى أعلم حق العلم أننى لست ملكا ، لا يراودنْك فى هـذا شك ! ولكن هـذا شأنى دائماً : أقول كلاما فى غير محله ، كلاما لا معنى له .

قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجىء غريب :

ـ يا صاحب القداسة ، ان أمامك رجلا هو مهرِّج عريق . كذلك أقدم اليك نفسى . هذه عادة قديمة راسخة وا أسفاه ! ولكن لئن كنت أكذب فى كثير من الأحيان ، ولئن كنت أكذب عامدا ، ولئن كنت أكذب كذبا لا معنى له ولا داعى اليه ، فاننى لا أفعـــل ذلك الا فى سبيل أن أضحك الناس وأن أبهجهم . أليس من واجب الانســان أن يبهج أخاه الانسان ؟ اسمع ... منذ سبع سنين مثلاً ذهبت الى قرية صغيرة لعقـد بعض الصفقات ، فلم البث أن انعقدت الصلات بينى وبين بعض المهرة من تجار القرية . قـررنا أن نزور الايسبرافنك (رئيس الشرطة) الذى كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه الى الغداء . استقبلنا الايسبرافنك . انه رجـل ضخم طويل أشـقر متجهم المظهر . ان الأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات . ان أكبادهم مريضـة ، نعم أكبادهم ، هل تفهمون ؟ قررت أنا أن أهجم عليه مجابهةً ان صح التعبـــير ، فقلت له بلهجة منطلقة هى لهجة رجل من رجال المجتمع : « هلاَّ تنازلت ياسيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك * بمعنى من المعانى ؟ » ، فما كان منه الا أن أجاب قائلا : « ماذا ؟ كيف ؟ أى نابرافنك ؟ » . فسرعان ما أدركت أن كل شىء قد ضاع . صمت الرجل قاسىَ النظرة كالح الهيئـة صعب المراس . حاولت أن أعتذر . قلت : « لقد سمحت لنفسى بمزاحة بريئة

بغية أن أشيع المرح فى الجو . وأنت تعلم أن نابرافنك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندنا ، ونحن ان كنا فى حاجة الى شىء فالى نوع من رئيس أركسترا يحقق لمشروعنا الاتساق والانسجام ... » . ظننت أننى قدمت له بهذا الكلام تفسيرا معقولاً قائما على تشبيه سليم ، أليس هــذا صحيحا ؟ » . فأجابنى قائلا : « عفواً ، أنا ايسبرافنك ، ولست أقبل أى تلاعب بالألفاظ فى موضوع الوظائف . » . قال ذلك وأدار لى ظهـره وانصرف . ركضت وراءه صائحا : « أنت الايسبرافنك ! أنت ايسبرافنك لا نابرافنك » . ولكنه هزّ كتفيه ببرود وقال : « لا تحاول ... لقــد سميتنى نابرافنك ، فحسبنا هذا ! » . هكذا غرقت صفقتنا فى الماء .. فهل رأيت كيف أنا ؟ ان رغبتى فى أن أكون لطيفا تسىء الىّ دائما فى هذه الحياة . من ذلك أننى قلت فى ذات يوم ، منذ سنين كثيرة ، لشخصية لها نفوذ وتأثير : « زوجتك يا سيدى حسّاسة اذا دغدغت » ، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازى ، كنت أقصد أنها سريعة التأذى اذا أسىء الى كرامتها ، الى مبادئها الأخلاقية . ولكن الرجل أسرع يسألنى فجـأة : « أأنت دغدغتها اذن ؟ » ولم أملك أن أقاوم رغبتى فى المزاح ، فما كان منى الا أن قلت له : « والله ... دغدغتها قليلا ، وهكذا » ... فليتـك رأيت ما أصابنى فى ذلك اليوم من دغدغة ! ... غير أن هذه الحادثة قديمة جدا ، بعيدة العهد جدا ، بحيث لا أستحى الآن أن أرويها . فانظر كيف أسأت الى نفسى دائما فى هذه الحياة !

دمدم ميوسوف يقول باحتقار :

ـ وانك لتستأنف الاساءة الى نفسك فى هذه اللحظة .

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتا ، واحدا بعد آخر .

ـ صحيح يا بطرس الكسندروفتش ... ولكننى أعـرف ذلك ،

وقد تنبأت به منذ فتحت فمي . وكنت أعلم أيضا أنك ستكون أول من يلاحظ هذا . وفي مثل هذه اللحظات ، يا صاحب القداسة ، حين أدرك أن المزحة لم تنجح ، يتصلب خداى فكأنهما يلتصقان بالفكين ، حتى لأشعر من ذلك بتشنجات ! ذلك يرجع عهده الى أيام شبابي ، الى الأيام التي كنت فيها طفيليا أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك ، وألتمس رزقي بتلك المهنة ! أنا مهرج يا صاحب السعادة ، أنا مهرج حقيقي ، مهرج مفطور على التهريج ، وان شئت فقل يا صاحب السعادة انني انسان بسيط أبله ! ... قد تكون الروح التي تحركني غير طاهرة ، أنا لا أجحد ذلك ، ولكنها روح صغيرة . فلو كانت روحا كبيرة قوية اذن لاختارت لها مسكناً أفضل . على أنها ما كانت لتختارك أنت أيضاً يا بطرس الكسندروفتش ، لأنك لست بالمسكن الحسن لها ! ومع ذلك فأنا مؤمن ، مؤمن بالله ، لم يساورني الشك الا في الآونة الأخيرة ، وهأنذا الآن أمامك ، يا صاحب السعادة ، أنتظر كلمة تحررني من اساري . أنا يا صاحب السعادة مثل الفيلسوف ديدرو . لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف ، أيها الراهب المقدس جدا ، قد جاء يوما الى البطريرك افلاطون في عهد الامبراطورة كاترين* ، فما ان دخل عليه حتى أعلن يقول في برود : « الله غير موجود » . فرفع الرجل العظيم المقدس ابهامه وقال له باللغة السلافونية : « الطائش يقول في سره : الله غير موجود » ، فأخذ الآخر بهذه الكلمات فاذا هو يرتمي فجأة على قدمي الكاهن صائحاً : « آمنت ، آمنت ، عمّدوني ! » . وسرعان ما تم تعميده على الفور ، فالأميرة داخكوفا * أمسكته على حوض التعميد ، وبوتمكين كان عرّابه ...

قاطعه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب ، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزاً عن كبح جماح نفسه :

ـ فيدور بافلوفتش ! هذا لا يطاق ! أنت تعلم تماماً أنك تكذب ، وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها ، أنت تعلم ذلك ، ففيم هذا التمثيل ؟ .

فهتف فيدور بافلوفتش يقول في حماسة فرحة :

ـ كنت طول حياتي أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه القصة كاذبة لا أصل لها . والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها . غفرانك أيها الشيخ العظيم ! ان هذه النقطة الأخيرة التي ذكرتها عن تعميد ديدرو انما اخترعتها في هذه اللحظة نفسها ، وتخيلتها وأنا أرويها ، ولم تكن قد خطرت ببالي مرة واحدة من قبل ، وانما أنا أضفتها رغبة في مزيد من الملاحة ... انني أمثّل هذا التمثيل ليرضى عني بطرس السكندروفتش مزيداً من الرضى . ثم انني لا أدري أنا نفسي في بعض الأحيان لماذا أفعل ذلك . أما عن ديدرو ذاك ، وعن قول الأسقف : « الطائش يكفر بالله » ، فتلك نقطة سمعت السادة القرويين في هذه المقاطعة يروونها منذ أكثر من عشرين عاما ، وذلك في شبابي أيامَ كنت أعيش عندهم ؛ حتى أن عمتك نفسها يا بطرس الكسندروفتش ، عمتك المحترمة مافرا فومينشنا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويه من أمور . وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب الى البطريرك أفلاطون ليناقشه في مسألة وجود الله .

نهض ميوسوف نافدَ الصبر ، شاعراً أنه فقد كل سيطرة له على نفسه . لقد جن غضباً ، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكاً هو أيضاً . ان ما يجري في هذه الحجرة لهو في الواقع أمر مستحيل لم يسبق أن جرى مثله من قبل . فمنذ ثلاثين عاماً أو أربعين تتوافد على هذا المكان ، حتى في عهود المشايخ السابقين ، حشود كثيرة من الزائرين ، ولكن أولئك الزائرين جميعا بغير استثناء كانوا يجيئون ممتلئين بروح الاحترام

والخشوع والتقديس . ان جميع أولئك الذين سُمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الحجرة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة ؛ وان عددا كبيرا منهم كان اذا دخلها ارتمى على الأرض راكعاً وظل على هذه الحال الى آخر الزيارة . وان أكثر الزائرين ، حتى أعلاهم مقاماً ، وأغزرهم علماً ـ وقد كان بينهم أناس يتصفون بحب النقد وكثرة المشاكسة والميل الى الالحاد ـ أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون الى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب ، يلزمون أنفسهم بواجب أولى بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم الى الحجرة جماعةً أو عند دخولهم اليها لمقابلة خاصة ، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم في هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة ، وما من أحد منهم أخلّ يوماً بهذا الواجب أو خرج على هذه القاعدة ؛ لا سيما وأن الدير كان لا يطالب بأي مال ، وأن كل شيء فيه يتم محبةً واحسانا من طرف وتوبةً وندامة من طرف آخر ، وبدافع الظمأ الى الحقيقة والرغبة القوية في حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب . كذلك كانت تجرى الأمور دائماً ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأة في تهريج لا يليق بهذا المكان، تهريج لا بد أن يحدث في نفوس من يرون هذا المشهد أو في نفوس بعضهم على الأقل استغرابا شديدا ودهشة أليمة . فأما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقبان ردّ الفعل عند الشيخ بانتباه رصين وقور ، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماماً . وأما أليوشا فقد كان خافضاً رأسه مجاهداً مصابراً باذلاً قصاراه حتى لا يبكي . ان ما يدهشه خاصة هو أن أخاه ايفان فيدوروفتش ، وهو الوحيد الذي كان يمكن أن يتدخل في الأمر ، قد لبث ساكتاً على كرسيه ، غاضاً بصره ، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من

استطلاع ليس فيه اكتراث أو اهتمام ، كأنه غريب عن هـــذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها • وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب) الذى كان أليوشا يعرفه أيضا حق المعرفة ، ويكاد يعـــده صديقا قريبا جدا ، فان أليوشا لم يجرؤ حتى أن ينظر اليه ، لأنه كان يحزر مايدور فى فكره من معان وخواطر (وهو الوحيد الذى يحزرها فى هذا الدير على كل حال •) •

بدأ ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ :

ـ سامحنى ••• لا شك أنك تعدنى شريكا فى هذه المهزلة الحقيرة. ان ذنبى الوحيد هو أننى تصورت أن كل انسان ، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش ، لا بد أن يحرص على أن يسلك سلوكا حسناً لائقا أمام شخص محترم مثلك ••• فلو كنت تنبأت بأننى سيكون علىّ أن أعتذر عن مجرد الدخول الى هذا المكان فى صحبته ، اذن •••

لم يكمل بطـــرس الكسندروفتش جملته ، وكان قـد بلغ ذروة الاضطراب ، فهم أن يخرج من الغرفة ، ولكن الشيخ صده عن عزمه وأوقفه • قال له وهو ينهض على ســـاقيه النحيلتين ويمسك بطـــرس الكسندروفتش من يديه ، ويجلسه على مقعده من جديد :

ـ لا تخش شيئاً ، أرجوك ••• هدىء روعك ، أرجوك ••• ان زيارتكم تسرنى كثيرا وتبهجنى بهجة خاصة •

وبعد أن حيّا مرة أخـــرى ، عاد الى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة •

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

ـ تكلم أيها الشيخ العظيم ، قل : هل تؤذيك حرارتى هذه ، هل يسىء اليك اندفاعى هذا ؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعى المقعد بيديه كمن يستعد لأن ينهض واثباً اذا جاء جواب الشيخ موجبا لذلك ، فقال له الشيخ بصوت قاطع جازم :

ـ أرجوك ملحاً أن لا تقلق وأن لا تتحرج • لا تكره نفسك على شيء ، وتصرّف كما لو كنت فى منزلك ••• واياك أن تشعر بالخزى من نفسك خاصةً ، فان شعورك بالخزى من نفسك هو بعينه أصل البلاء••

ـ أتصرف كما لو كنت فى منزلى ؟ أتريد أن تقول ان علىَّ أن أطلق نفسى على سجيتها وأن أظهر على طبيعتى ؟ ألا ان هذا لكثير ، بل انه لجميل مسرف فى الجمال ، ولكننى أوافق ••• اننى أقبل ما تقترحه علىَّ شاعرا من ذلك بتأثر شديد وانفعال قوى • اسمع أيها الأب المبجل! لا تدفعنى الى حالة الطبيعة ، لا تجازف فتفعل هذا ••• على اننى لن أمضى بعيدا هذا البعد كله ، ولن أصل الى درجة الانطلاق على السجية والظهور على حالة الطبيعة • وليس ما أقوله لك هنا الا تنبيهاً • أما فيما عدا ذلك فان كل شيء ما يزال غارقا فى ظلمات الجهل ، رغم ما قاله بعضهم فى وصف طبيعة نفسى• ان هذه الملاحظة تستهدفك أنت يابطرس الكسندروفتش ! أما أنت أيها الانسان الذى هو ضياء" كله ، فاننى أضع عند قدميك اعجابى مندفعاً بغير حدود •

ثم نهض فرفع يديه الى السماء وقال :

ـ « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك »*، نعم الثديان ••• انك حين نصحتنى منذ هنيهة بأن « لا أشعر بالخزى من نفسى ، لأن هذا هو أصل البلاء » ، قد نفذت الى سريرتى وقرأت فى أعماق قلبى • ذلك بعينه هو ما أحسه • اننى أشعر دائما ، حين أدخل على الناس ، بأننى أخبث من غيرى ، وأن الآخرين جميعا يعدوننى

مهرّجاً ، فأخاطبهم عندئذ بيني وبين نفسي قائلا : « ليكن ٠٠ سأمثل دور المهرج طائعا مختارا ، ولست أخشى رأيكم ، لأنني أعرف أنكم جميعاً شر مني وأجدر بالاحتقار والازدراء ! » ذلك هـــو السبب أيها الشيخ العظيم في أنني أهرّج ٠٠٠ انني أهرج لشعوري بالخزي ، لشـــعوري بمذلة عميقة ! انني لانعدام ثقتي بنفسي اضطرب فأمثل دور المجنون ! آه ٠٠٠ ليتني ، حين أدخل على الناس ، أستطيع أن أكون واثقا من أن كل واحد سيعدني على الفور خير انسان وأذكى انسان في العالم ، اذن لأصبحت عندئذ رجلا من أنبل الرجال ٠٠٠

قال ذلك ثم ارتمى راكعا على حين فجأة يقول :

ـ ماذا يجب عليّ أن أعمل ، يا معلم ، حتى أظفر بالحياة الأبدية ؟

انه ليصعب على المرء أن يقول في تلك اللحظة هل كان الرجـــل ما يزال يمثل ويهرّج ، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير ؟ ٠٠٠

نظر اليه الشيخ وقال له مبتسماً :

ـ تعرف أنت نفسك ، منذ زمن طويل ، ما الذي يجب عليك أن تعمله ، فليس الذكاء هو ما يعوزك ٠ امتنع عن الاسراف في الشراب ، لا تستسلم للفجور ،وتخلَّ خاصةً عن عبادة المال ٠ أغلق دكاكين بيع الخمرة ، أغلق دكانين أو ثلاثة منها على الأقل اذا لم تشأ أن تغلقها كلهاء وقبل هذا وذاك ، لا تكذب ٠٠٠ فذلك أهم شيء ٠٠٠

ـ ألعلك تشير الى ما رويته عن ديدرو ؟

ـ لا ٠٠٠ ليس الأمر أمر ديدرو ٠٠٠ فانما الشيء الأساسي أن لا تكذب على نفسك ٠ ان من يكذب على نفسه ، ويرضى أن تنطلي عليه أكاذيبه ، يصل من ذلك الى أن يصبح عاجزا عن رؤية الحقيقة في أي

موضع ، فلا يعود يراها لا فى نفسه ولا فيما حوله .

لهذا السبب ، الى فقد احترامه نفسَه واحترامه غـيره ،
لا يحترم أحدا ، أصبح لا يحب أحدا ، فاذا هو من أجل أن يلهي نفسه الأمور •
أصبح بغير حب ، يستسلم للأهواء وينـدفع وراء الملذات الخشنة هذه
فيهوى عندئذ الى قاع الرذيلة ، ويصل من ذلك الى درجة الحيوانية ..
وما هذا كله الا لأنه يكذب بغير انقطاع ، يكذب على غيره ويكذب على نفسه • ان من يكذب على هذا النحو يسرع كذلك الى اهانة نفسه • ألا يشعر المرء بكثير من اللذة فى بعض الأحيان حين يحس أنه مهان ؟ وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء ، وانما هو اخترع الاهانة بنفسه اختراعاً فى سبيل التلذذ بها ، وكذب على نفسه ، وبالغ وغالى تزييناً للموقف وزخرفة للوضع ، وحمل كلمة من الكلمات على غير معناها ، جاعلاً من الفأرة جبلاً ••• هو يعلم ذلك ، ولكنه يسارع الى اهانة نفسه ، ويهين نفسه متلذذا تلذذا يبلغ حد الفرح ، فاذا هـو يصل من ذلك آخر الأمر الى الشعور بكره حقيقي ••• ولكن انهض عن الأرض ، أرجوك ••• اجلس فى مكانك ، أرجوك ، تلك كلهـا أوضاع كذب أيضا •••

ـ أيها الانسان المقـدس ، اسـمح لى أن أقبـل يدك العزيزة اللطيفة ! •••

لقد نهض فيـدور بافلوفتش بوثبة ، واقترب من الشيخ بحرارة وقوة ، وطبع قبلة رنانة على يده الضاوية المعروقة •

ـ تماما ، تماما ، هذه هى الحقيقة • ان فى اهانة المرء نفسه لذة• لقد أحسنت الافصاح عن هذه الحقيقة • وتلك أول مرة أسمع فيها هذا الكلام • لقد ظللت طوال حياتى أهين نفسى ، نشداناً للذة ، بل وطلباً للجمال ، لأن الاهانة ليست متعة فحسب ، بل يمكن أن يكون فيها جمال

فنى أيضا • ذلك ما نسيت أن تضيفه الى كلامك أيها الشيخ العظيم ! سوف أدون هذا فى دفترى الصغير • لقد كذبت ، كذبت بغير انقطاع عن الكذب طوال حياتى ، فى كل يوم ، وفى كل ساعة • أنا فى الواقع كذب يحيا ، أنا للكذب أبوه ! لا بل لست للكذب أباه ••• لعل هذا التعبير بقايا جملة قرأتها فبقيت فى ذاكرتى فاستيقظت الآن •• والأولى أن أقول اننى ابن الكذب لا أبوه ••• يكفينى كِبَراً أن أكون ابن الكذب ••• ولكن يا ملاكى الطيب ، أحسب أن كذبة كالكذبة التى قلتها حين تكلمت عن ديدرو ، أمر مباح من حين الى حين ، أليس كذلك ؟ ان كذبة كهذه لا تسىء الى أحد ، لا تؤذى أحداً ، على حين أن هناك أكاذيب ضارّة••• بالمناسبة ، أيها الشيخ العظيم ••• لقد أوشكت أن أنسى ••• اننى أنتظر منذ ثلاث سنين أن تتاح لى فرصة القاء سؤال عليك • كنت أريد أن أتعلم منك ، كنت أريد أن أجىء الى هنا لهذا الأمر خاصة ، كنت أريد أن أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلاً • ولكن أصدر أمرك أولاً الى بطرس السكندروفتش بأن لا يقاطعنى • اليك ما كنت اريد أن أعرفه : هل صحيح أيها الأب المبجَّل ان كتاب أسماء الشهداء القديسين يروى فى موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجزات واستشهد فى سبيل ايمانه ، أى قطعوا رأسه ، فاذا هو ينهض ، فيتناول رأسه من الأرض ، ويعانقه فى حنان ، ثم يسير مدة طويلة ، حاملاً رأسه بيديه ، حانيا عليه ملاطفاً له * • قولوا لى أيها الآباء الطيبون ، أهذا صحيح أم لا ؟

قال الشيخ :

– بل هو غير صحيح •

وقال الراهب قيِّم المكتبة :

– لم يرد ذكر هذه القصة فى أى موضع من مواضع كتاب أسماء

الشهداء • من هو القديس الذى تقصده ؟

ـ أنا لا أعرف عن هذا شيئاً • أنا أجهل كل شيء عن هذه الأمور • لا شك فى انني خُدعت وضُلِّلت • لقد سمعت أحداً يروى هذه القصة • وهل تعلمون من رواها لى ؟ لم يروها لى أحد غير بطرس السكندروفتش هذا الذى ثار علىَّ منذ هنيهة بصدد ديدرو ! هو الذى روى لى هذه القصة ، نعم هو •••

ـ هذا كذب • أنا لم أرو لك هذه القصة ! ثم اننى لا أكلمك أبداً ، ولا أتحدث اليك يوماً !

ـ اعترف بأنك لم تروها لى أنا • ولكنك رويتها فى اجتماع كنت أنا فيه • حدث ذلك منذ ثلاث سنين • ولئن كنت أتذكرها هذا التذكر الواضح فلأنك قد زعزعت ايمانى فى ذلك المساء ، بتلك القصة المضحكة ••• نعم يابطرس الكسندروفتش ! أنت لم تعرف ذلك ، وما كان لك أن تتنبأ به ،ولكننى عدت الى منزلى فى ذلك اليوم وأنا أشعر بأن يقينى قد ترنح ، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيداً من الهبوط • انك يا بطرس الكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقى فى سقوطى الأخلاقى ، وا أسفاه ! ليست القضية الآن قضية ديدرو •••

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثر ، ولكن كان واضحاً لنا جميعاً فى هذه المرة انه عاد يمثل ويهرّج • ومع ذلك شعر ميوسوف بأنه أوذى ايذاءاً شديداً أليماً • فدمدم يقول :

ـ يا للسخف ! انك لاتقول الا حماقات ! من الجائز حقاً أن أكون قد رويت هذه القصة مرة ••• ولكننى لم أكن أخاطبك أنت ! كنت قد سمعت أنا هذه القصة ••• حدث ذلك فى باريس • أكد لى فرنسى أن هذه القصة الواردة فى كتاب أسماء الشهداء تتلى عندنا أثناء القداس •

وكان هذا الفرنسي رجلاً مثقفاً قد تعمق دراسة احصائيات روسيا تعمقاً كبيراً ، وكان قد عاش في بلادنا زمناً طويلاً ••• أنا لم أقرأ كتاب أسماء الشهداء بنفسي ••• ولست أنوى أن أقرأه على كل حال ••• ما قيمة أحاديث تجرى بها الألسن على مائدة طعام ؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء •••

ـ أثناء عشاء ••• ها ••• ها •• يا للعشاء الجميل الذى كلفنى ايمانى ! •••

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً !

فانفجر ميوسوف يصيح :

ـ ما شأنى أنا بايمانك ؟

ولكنه سرعان ما ثاب الى هدوئه فقال بلهجة احتقار :

ـ انك تدنس كل ما تلمسه يداك !

فنهض الشيخ عندئذ مخاطبا جميع الحضور :

ـ معذرةً أيها السادة • اننى مضطر أن أترككم لحظات • هناك زوار ينتظروننى وقد وصلوا قبلكم !

ثم أضاف يقول بمرح وهو يلتفت الى فيدور بافلوفتش :

ـ أما أنت فاترك الكذب ! •• صدقنى •••

وخرج • واندفع اليوشا والمترهب المبتدىء ليمسكاه ويساعداه على هبوط السلم • كان أليوشا قد نفد صبره ، وقد أسعده أن ينصرف ، وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحاً دون غضب • وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك ،

غير أن فيدور بافلوفتش وجد السبيل الى استيقافه عند العتبة . قال بصوت مختلج :

ـ أيها الانسان المقدس جدا ، اسمح لى أن أقبل يدك العـزيزة اللطيفة مرة أخرى . ذلك أن المرء يستطيع أن يتفاهم معك دون أن يفقد حبه للحياة واقباله عليها وميله اليها . لا تظنن أننى أكذب هكذا طـول الوقت وأننى لست الا مهرجاً . الحق أننى فعلت هذا عامداً من البداية الى النهاية ، فعلته عامدا لأختبرك وأمتحنك ! لقد أردت أن أتأكد من أنك رجل انسانى ، ومن أن شخصى الهين يمكن أن يؤكد ذاته دون أن يصدم كبرياءك . فى وسعى الآن أن أشهد لك شهادة جميلة : ان فى وسع الانسان أن يتنفس بحضورك . والآن لن أتكلم قط ، لن أقول كلمة واحدة . سأجلس على هـــذا المقعد ، فألبث ساكناً حتى النهاية . الكلام الآن لك يا بطرس الكسندروفتش ! تستطيع منذ هذه اللحظة أن تمثل دور الشخص الرئيسى .. مدة عشر دقائق .

٣

إيمان نساء الشعب

قرب الرواق الخشبي المتاخم للحاجز الخارجي من السور ، كان يزدحم جمهور ليس فيه هذه المرة الا نساء . ان عددهن نحو من عشرين فلاحة . لقد أُبلغن أن الشيخ سيخرج اليهن ، فاحتشدن ينتظرنه . وقد ذهبت السيدتان هوخلاكوف أيضا الى الرواق ، ولكنهما ذهبتا الى المكان الموقوف على ذوات المكانة من الزائرات . هما أم وابنتها . ان السيدة هوخلاكوف الأم ، وهي امرأة غنية جداً أنيقة الهندام دائماً ، ما تزال تبدو شابة ، وهي لطيفة باشة ، شاحبة الوجه قليلاً ، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على سطوع شديد وحركة قوية . انها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها، وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين . أما ابنتها ، وهي في الرابعة عشرة من العمر ، فهي مصابة بشلل في الساقين . لقد أصبحت الصبية المسكينة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر ، فهي الآن تخرج على كرسي متحرك . ان لها وجهاً رائعاً فتاناً ، قد أضواه المرض قليلاً ، لكنه على جانب عظيم من اللطف والبشاشة ، بل ان شيئا من المكر يتراءى في عينيها الصغيرتين القاتمتين اللتين لهما أهداب طويلة . لقد كانت أمها تنوى

منذ الربيع أن تمضى بها الى الخارج ، غير أن أعمالاً بدئت فى أرضهما فأجبرتهما على البقاء فى روسيا طول الصيف ؛ وهما لا تقيمان فى مدينتنا الامنذ أسبوع ، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الاعمال فى الواقع ، غير أنهما قد جاءتا الى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام ، وهما تعودان الآن الى الدير على غير توقع ، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذى أصبح لا يكاد يستقبل الزائرين بسبب ضعفه وسوء صحته . لقد توسلتا بكثير من الالحاح أن « يمنّ عليهما » بأن تسعدا برؤية هـذا الشافى العظيم مرة أخرى » . وبانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكاناً على كرسى قرب مقعد ابنتها المتحرك ؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجوز لا ينتمى الى ديرنا ، ولكنه كان ماراً بالمدينة . لقد ترك ديره الى حين ، وهو دير غير مشهور يقع فى منطقة نائية بشمال روسيا . ان هذا الراهب العجوز يريد هو أيضا أن يحظى بمباركة الشيخ . ولكن الشيخ الذى ظهر على الرواق فى تلك اللحظة انما اتجه أولاً الى طبقـة الشعب . تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التى لا تزيد على ثلاث ؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث انما يطل على الحقـول الرواقُ الذى لا يرتفع كثيراً عن سطح الأرض . توقف الشيخ على الدرجة العليا من هـذه الدرجات ، وتلفع بجبته وأخذ يبارك النساء اللواتى يزدحمن أمامه . قدمت اليه كليكوشا كانت تجرها امرأتان تمسـكانها من يديها ، فما ان لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة رهيبة تدل على هذيان ، وهى ترتعش ارتعاشاً قوياً من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، كأنها تعانى آلام ولادة . وضـع الشيخ جبته على رأس المريضة ، وتلا دعاءً قصيراً ، فاذا بالمرأة تصمت وتهدأ . لا أدرى ماذا يحدث الآن ، ولكننى فى أثناء طفولتى قد أتيح لى مرارا أن أرى وأن مسمع هاته النسوة المريضات فى قرانا وفى أديرتنا . كان يؤتى بهن الى الصلاة معولات أو

نابحات كالكلاب ، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة • فما ان يقربن من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة ، ويستعدن هدوءهن كاملاً الى حين • لقد كانت المريضات تهدأ بعد الاقتراب من القربان المقدس في كل مرة ، الى أن توافيهن حالة « المس » ثانية • وقد أدهشني ذلك كثيراً في طفولتي وترك في نفسي أثراً قوياً • ولكنني حين سألت عن سر هذا الأمر قال لي بعض الملاكين ، وقال لي معلمو مدرستي خاصة ، ان ذلك كله ليس الا تظاهراً كاذباً ، وأن هاته النسوة كسالى لا يردن أن يعملن ، وان من الممكن دائماً ردهن الى الصواب باظهار شيء من القسوة • حتى لقد رويت حكايات في بيان صحة هذا التفسير • ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين ، على دهشة مني ، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب ، وأن هذا في الواقع مرض رهيب تصاب به النساء ، وأن هذا المرض منتشر انتشارا واسعا في روسيا خاصة ، وأن مرده الى ما تتصف به ظروف حياة المرأة في أريافنا من قسوة شديدة ؟ فهذا المرض يرجع الى أن الفلاحات في بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحتمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطبية بهن ؟ تضاف الى ذلك آلام من أنواع شتى ، جسمية ونفسية ، مردها الى ما ينالهن من ضرب مبرح ، والى ما يصيبهن من سوء المعاملة ، والى مايلم بهن تبعاً لذلك من كمد وكرب ويأس ، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محن قد يعدها غيرهن عادية لا غرابة فيها • فأما ذلك الشفاء العجيب الذي تُنقذ به نساءٌ مصابات بهذا المس متى أدنين من القربان المقدس ـ وهو شفاء يدعي بعضهم تعليله بالتظاهر الكاذب ، وحتى بخداع مقصود يخرجه « رجال الدين » اخراجا مسرحيا ـ فالحق أنه يرجع هو أيضا الى أسباب طبيعية ؟ ثم ان النساء اللواتي يدنين المسوسات من القربان المقدس ، والمسوسات انفسهن خاصة ، مؤمنات ايمانا عميقا



كليكوشـــــا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كايمانهن بحقيقة راسخة ثابتة ، أن الروح الخبيثة التى حلت فيهن لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس ، فاذا هى تبارحهن متى دنون منه وانحنين له • لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوى فى جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبى نفسى مما منذ يُواجهن بالقربان المقدس ؟ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشقاء الذى لا بد منه فى نظرهن ، ولانتظار البرء الذى لا محيص عنه حتما ، وهو نتيجة طبيعية لايمانهن بالمعجزة ايمانا ليس له حدود • فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء ، ولو الى حين قصير • وهذا بعينه هو ما وقع فى الحالة الراهنة حين خلع الشيخ على المريضة جبته وتلا دعاءه •

كان بين الجمهور الذى ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يبكين حناناً وخشوعاًوحماسة •واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأقل • وراحت قلة منهن ترتل بصوت خافت رتيب • باركهن الشيخ جميعاً ، وتحدث مع بعضهن • وكان يعرف الكليكوشاالتى قدمت اليه • انها من قرية مجاورة تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير ؟ وما هذه أول مرة يؤتى بها اليه على كل حال •

قال الشيخ وهو يشير الى امرأة أخرى لم تطعن فى السن بعد ، ولكنها نحيلة ضاوية معروقة ، لها وجه ليس ملوحاً ولكنه مسود اسودادا غريباً (كانت راكعةً على ركبتيها تحدق الى الشيخ بنظرة ساكنة جامدة، وفى وجهها شىء من الوجد والنشوة) :

ـ هذه آتية من مكان أبعد •

فقالت المرأة بصوت كأنه الغناء وهى ترجح رأسها ترجيحاً متواتراً موقعاً ، وقد أسندته الى راحة احدى يديها :

ـ نعم يا أبى ، أنا آتية من مكان بعيد ، من مكان بعيد جداً ، يبعد عن هنا ثلاثمائة فرسخ •

كانت المرأة تتكلم بلهجة هي الى الترتيل أقرب . ان بين أفراد الشعب أناسا يتألمون ألما أخرس مذعناً ، هو الم ينطوي على ذاته ويعتصم بالصمت . غير أن هناك أناسا يتألمون ألماً متفجرا ينطلق انتحابات على حين فجأة ، ثم اذا هو يعتصم بعد ذلك بالترتيل . وهـــذه حالة تلاحظ على النساء خاصة . وليس هذا الألم أقل من ألم الصامتين . ان الترتيـــل لا يخفف عن النفس الا لأنه يحيي جروح القلب بلا انقطاع ، وينكؤها بغير توقف . ان هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسعى الى سلوى ، لأنها تغتذي من الشعور بسعة أبعادها ، فالترتيل انمـا يعبر عن الحاجة الى النزول الى هوة الألم وقاع العذاب .

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها بانتباه :

ـ لعلك من سكان المدن ؟

ـ أنا من المدينة أيها الأب الطيب ، نعـم ... وان أكن قروية الأصل. نحن من سكان المدن لأننا نعيش في المدن. ومن أجل أن أراك انما جئت الى هنا أيها الأب الطيب . لقد حدثونا عنك ، أيها الأب، فرووا أشياء كثيرة . لقد دفنت ابني ، ابني الصغير ... فخرجت أضرب في الأرض حاجـّة ، فمررت بثلاثة أديرة ، فقيل لي هنالك : « اذهبي اليه أيتها المسكينة ناتا سيوشكا* ... اذهبي لرؤيته هو ... يقصدون أنت .. اذهبي لرؤيته ... رؤية الأب العزيز جدا ... » . هكذا جئت اليك . أمس اعترفت وتناولت ، وهأنذا الآن أمامك .

ـ لماذا تبكين ؟

ـ أبكي صغيري أيها الأب الطيب . كان عمـــره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر* . انني أبكي ابني ، أبكي صغيري . ذلك ما يعذبني . كان آخر أبنائي . كان لنا أنا وزوجي المسكين نيكيتوشكا * أربعة أبناء . ان

الأطفال لا يبقون عندنا . انهم يتركوننا يا أبانا المحترم ، انهم يتركوننا. دفنت الثلاثة الأول ، فسرعان ما تعزيت عنهم . أما ذاك ، الأخير ، فانني لا أستطيع أن أنساه . يخيل الىَّ انني أراه ، هنا ، أمامي ، أراه طول الوقت . جفَّت نفسي ، يبس قلبي . أنظر الى ملابسه ، الى قميصه الصغير ، الى حذاءيه ، فآخذ أنشج وأنتحب . أعرض أشياءه أمامي لأتأملها ... أستعرض جميع بقاياه التي تذكرني فأبكي . قلت لعزيزتي نيكيتوشكا ، زوجي : « دعني أمضي ... أريد أن أضرب في الأرض حاجَّةً » . زوجي حوذي . ولسنا فقراء أيها الأب الطيب . عندنا مال. لا ترتبط حياتنا بأحد ، لا نحتاج الى أحد . نملك خيولا وعربة ننفق عليها من مالنا . فيم ينفعنا هذا كله الآن ؟ وقد انحدر عزيزي نيكيتوشكا الى طريق الضلال حين تركته . أخذ يشرب . أنا أعلم ذلك . وما هذه أول مرة . كان يضعف كلما حولت عيني عنه . ولكنني الآن لا أحفل بذلك . استوت عندي جميع الأمور . أصبحت لا أفكر فيه . تركت المنزل منذ ثلاثة أشهر . نسيته . نسيت كل شيء . أصبحت لا أريد أن أتذكره . وما عساني أفعل معه ؟ لقد أنهيت صلتي به ، أنهيت صلتي بجميع الناس . لا أريد أن أرى منزلي بعد الآن يوما ، لا منزلي ولا رزقي ، لا أريد أن أرى شيئا البتة !

قال الشيخ ببطء :

ـ اسمعي أيتها الأم الطيبة ! في يوم من الأيام رأى قديس كبير من قديسي الماضي ، رأى في الهيكل أماً تبكي ابنها الذي فقدته مثلما تبكين ابنك الآن ... كان ابنها طفلا صغيرا كابنك ، وكان ابنا وحيدا أخذه الرب اليه . قال لها القديس : «ألست تعلمين اذن أن جميع الصغار الذين من هذا النوع يملكون جرأة كبيرة أمام عرش الرب ؟ ليس بين الناس في ملكوت السماء كله أحد أجرأ من هؤلاء الصغار ! انهم يقولون

للرب : « لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب ، فما ان رأينا الحياة حتى استرددتها منا ! » هم يكلمون الرب بهذه الجرأة ؟ وهم يتوسلون الى الرب أن يرفعهم فورا الى مصاف الملائكة ، وهم يعرفون كيف يلحون في ذلك • » • وقال لها القديس بعد ذلك : « يا امرأة ! كفى اذن عن البكاء ، وابتهجي وافرحي ، ما دام الأمر كذلك ، لأن ابنك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة ! » بهذا حدث القديس في الماضي المرأة التي كانت تبكي • ولقد كان قديسا عظيما فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة • فاعلمي هذا أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، اعلمي أن ابنك الصغير يسكن الآن قرب عرش الرب ، فهو سعيد ، وهو فرح ••• وصلى للرب من أجله • كفاك بكاءً ••• ابتهجي وافرحي ! •••

كانت المرأة تصغي الى الشيخ مسندةً رأسها الى احدى يديها ، غاضةً بصرها • وتنهدت تنهداً عميقا •

ـ بمثل هذه الأقوال انما كان يعزيني زوجي المسكين نيكيتا ! كان يقول مثلما تقول : « لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة ؟ لا شك في أن ابننا هو الآن قرب الرب مع الملائكة • » • كان يقول لي هذا الكلام ، ويبكي هو نفسه ، وكنت أنا أرى أنه يبكي مثلما أبكي ••• قلت له : « أعلم ذلك يا نيكيتا ••• أعلم أن ابننا هو الآن عند الرب ، وأين عساه يكون ان لم يكن عند الرب ؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا ، ليس معنا ، ليس جالسا الى جانبنا كما كان يجلس الى جانبنا من قبل ! ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر ••• وأن أنظر اليه ، أن أنظر اليه مرة واحدة ، صغيري الحبيب ! لن أقترب منه ، سأختبىء في ركن ، وسأصمت ! آه ••• أن أراه مرة أخرى ، ولو دقيقة واحدة ! ليتني أسمعه يلعب في فناء المنزل ، ثم يناديني بصوته الصغير كما كان يفعل : « ماما ! أين أنت ؟ » • ليتني أسمعه يركض في الغرفة

على قدميه الصغيرتين ، ليتنى أسمع وقع خطواته على الأرض : تك .. تك ... ولقد كان يجىء الىّ ـ اننى أتذكر هذا كثيرا ، كثيرا جدا ـ يجىء الى راكضا صائحا ضاحكا .. آه .. ليتنى أسمع وقع خطواته ، خطواته الصغيرة ، فأعرف أنه هو ... » . ولكن لا ... يا أيها الأب الطيب ... لن أسمعه بعد اليوم قط ... انظر ... هذا حزامه الصغير ... أما هو فقد ذهب ، ولن أراه بعد الآن فى يوم من الأيام ، ولن أسمعه بعد الآن فى يوم من الأيام ! ..

قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبِّها الحزام الصغير المزخرف ، حزام ابنها الغائب ، فما ان رأته حتى هزّها النشيج ، فسارعت تخفى عينيها بيديها ، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على حين فجأة فى كل جهة من الجهات .

قال الشيخ :

ـ هذه راشيل ، راشيل القديمة ، تبكى صغارها ولا يعزيها عن فقدهم شىء * . ذلك هو حظكن فى هذا العالم أيتها الأمهات ! لا تتعزى يا امرأة ، فليس العزاء هو ما أنت فى حاجة اليه . لا تتعزى ... بل ابكى ما استطعت الى البكاء سبيلا . ولكن تذكرى وأنت تبكين ، تذكرى فى كل مرة ، أن صبيك الصغير هو أحد ملائكة الرب ، وانه يراك من علياء السماء ، وأنه ينظر اليك ، ويغتبط لدموعك ، ويلفت اليها انتباه الرب . ستظلين خلال زمن طويل تسكبين هذه الدموع ، دموع الأم المفجوعة بابنها . ولكن بكاءك سيستحيل أخيرا الى فرح هادىء ، وستصير دموع المرارة التى تحسينها الآن الى عبرات حنان وادع ، وعاطفة ساجية ، وتطهر روحى . سوف تتخلصين من الخطيئة . أما ابنك فسأصلى من أجل راحة روحه . ماذا كان اسمه ؟

ـ الكسى ، أيها الأب الطيب .



امرأة مؤمنة في الدين
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ اسم جميل . مولاه هو القديس ألكسى أحد أولياء الله .

ـ نعم يا أبانا ! ألكسى أحد أولياء الله !

ـ ما أعظمه من قديس ! سأذكره فى صلواتى * . وسوف أصلى من أجلك أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، لأنك تتألمين ، وسوف أصلى من أجل زوجك كذلك حتى لايصيبه سوء . ذلك أن هجرك اياه خطيئة، هل تعلمين ؟ عودى الى البيت لتسهرى عليه وتعتنى به . ان ابنك حين يرى من علياء السماء أنك تركت زوجك سوف يبكى عليكما كليكما . فهل تريدين أن تدمرى راحة نفسه وأمن روحه ؟ انه حى ، حى لأن النفس لا تموت . ولئن غاب عن منزلك ، انه لقريب منك ولو لم تريه . فكيف يمكن أن يجىء اليك اذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك ؟ من عساه يزور اذا لم يستطع أن يجد الاثنين ، أمه وأباه معاً ؟ انه يظهر لك فى المنام فتتعذبين ، فعودى الى منزلك يرسل اليك أحلاما تهدىء روعك ! ارجعى الى زوجك أيتها الأم الطيبة ، ارجعى اليه منذ اليوم !

ـ سأعمل بما تقول أيها الأب ، سأرجع الى منزلى ، سأتبع نصيحتك ! لقد قرأت ما فى قلبى ! أواه يا عزيزى نيكيتا ، يا عزيزى نيكيتوشكا ، يا طائرى الصغير ، انك تنتظر أوبتى ، وانى لآيبة ...

عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلا ... ولكن الشيخ كان قد دنا من عجوز قصيرة طاعنة فى السن جدا ، لا ترتدى ما يرتديه الحجاج ، وانما هى تلبس ثوبا عاديا من ثياب المدينة . كان فى وسع المرء أن يرى فى عينيها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور ، وأنها تريد أن تتكلم فى هذا الأمر . قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف فى الجيش . انها تسكن فى مدينتنا غير بعيد . وقد خدم ابنها فاسنكا فى مركز من مراكز الشرطة ، ثم سافر الى ايركوتسك بسيبريا . كتب

اليها رسالتين في البداية ، ثم انقطعت عنها أخباره منذ سنة . أرادت أن تسأل عنه وأن تتقصى أنباءه ، ولكنها لا تعرف الى من تتجه ... قالت :

ـ ان ستيبانيدا ايلينشنا بدرياجينا ، وهى تاجرة غنية ، قالت لى : « هلمِّى فخذى منذ اليوم شيئا من المـــال يا بروخورفنا ، واحمليه الى الكنيسة ، بغية أن تتلى الصلوات على روح ابنك ، فيتذكرك ويحن الى المنزل فيكتب اليـــك . » . ذلك ما قالته لى تلك المـــرأة . وقد أكدت ستيبانيدا ايلينشنا أن هذه وسيلة مضمونة نجحت دائما . » . غير أن فى نفسى شكوكا ... فقل لى ، وأنت ضياؤنا ، أهذا صحيح أم لا ، وهـــل يجب علىَّ أن أتبع نصيحتها ؟

ـ دعيك من فكرتك هذه ! ألا تستحين أن تلقى سؤالا كهذا السؤال؟ كيف يخطر ببالك أن يُصلَّى على روح ابنك وهو ما يزال حياً ؟ أتفعلين هذا وأنت أمه ؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر ! ولكن هـــذه الخطيئة ستُغفر لك بسبب جهـــلك ! والأولى أن تتضرعى الى ملكة السماء ، التى تسارع الى الشفاعة والحماية ، أن تسهر على صحة ابنك، وأن تغفر لك هذه الفكرة الآثمة التى خطرت ببالك ! واسمعى ماسأقوله لك أيضا يا بروخوروفنا : ان ابنك سيرجع اليك قريبا ، أو سيكتب اليك حتما . كونى على ثقـــة . وانصرفى الآن بســـلام . ان ابنك حى . صدقينى .

ـ جزاك الله خيراً أيها المحسن الينا ، الشفيع لنا ، يا من تصلى من أجلنا جميعا ، وتستغفر عن خطايانا .

فى أثناء ذلك لاحظ الشيخ فى الجمهور نظرة حادة شاخصة اليه محدقة فيه ، هى نظرة فلاحة شديدة النحول يبدو عليها أنها مصـــابة بالسل ، على أنها ما تزال شابة . كانت تنظر اليه صامتة ، وكأن عينيهـــا

تسألان شيئا من الأشياء ضارعتين متوسلتين ، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو • سألها الشيخ :

ـ وأنت ماذا تريدين أيتها الأخت الحبيبة ؟

فقالت بصوت بطيء خافت :

ـ أنقذ نفسي أيها الأب الحبيب !

ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الارض •

ـ لقد أثمت يا أبتاه ، وأنا خائفة من الثمن •

قعد الشيخ على الدرجة الدنيا ، واقتربت المرأة منه وهي ما تزال جاثية •

بدأت تقول بما يشبه الهمس ، بينما كان يهزّها نوع من التشنج :

ـ ترملت منذ ثلاث سنين • كنت شقية مع زوجي • كان هرماً وكان يضربني كثيرا • ففي ذات يوم ، بينما كان مريضا متمددا على سريره ، نظرت اليه وقلت بيني وبين نفسي : « ما عسى تكون حياتي اذا شفي من مرضه ونهض من جديد ؟ » • في تلك اللحظة انما برقت في ذهني تلك الفكرة الخبيثة •

ـ انتظري لحظة •

كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفتيها •

تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبلغ من الخفوت أن المرء أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله • ولم تطل مسارّتها •

سألها الشيخ :

ـ أهذا منذ ثلاث سنين ؟

ـ نعم منذ ثلاث سنين . لم أكن أفكر فى الأمر من قبل . أما الآن فقد صرت مريضة . ان خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسى .

ـ أأنت آتية من مكان بعيد ؟

ـ من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا .

ـ هل ذكرت هذا فى الاعتراف للكاهن ؟

ـ نعم .. ذكرته مرتين .

ـ هل قبلوا أن تتناولى القربان المقدس ؟

ـ قبلوا . ولكننى خائفة ، خائفة من الموت .

ـ لا تخشى شيئا ! هدئى روعك ! اطمئنى بالاً ! لا تدعى للخوف أن يستولى عليك ، واطردى الحزن من نفسك . اجعلى الندامة مستقرة فى قلبك قوية عميقة ، فيغفر الله لك كل شيء . ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن يكون على هذه الأرض خطيئة تبلغ من الهول أن الرب لا يمكن أن يغفرها لمن ندم عليها صادقاً . ثم ان الانسان لا يمكن أن تبلغ خطيئته هذا المبلغ ، ولا أن يقترف آثاماً كبيرة الى حيث تستنفد رحمة الرب التى لا حدود لها . أفتظنين أن فى هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق الحب الالهى ؟ اندمى ، اندمى بنفسك كلها ، واطـــردى من قلبك كل خوف . ثقى أن الرب يحبك أكثر مما تستطيعين أن تتصورى ، وأنه يحبك حتى فى خطيئتك ، ورغم هـــذه الخطيئة . ان الآثم الذى يندم ويتوب قد أعدت له فى الآخرة أفراح أكبر من أفراح عشرة لم يأثمــوا فما ندموا * . كذلك قيل من زمان بعيد . امضى . لا تخشى شيئا . ولا تحملى للبشر حقداً . انسى الاساءات . اغفرى فى قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء وما نالك به من أذى ، وصالحيه فى قـــرارة نفسك . أنت تحبين ما دمت تشعرين بالندامة . وما دمت تحبين فأنت لله ... ان الحب

قادر على كل شيء ، انه ينقذ كل شيء • لئن كنت ، أنا الخاطيء ، أشاركك ألمك وأندب حظك ، فما بالك بالرب ! ان الحب غنى عظيم يمكن أن يهب لنا الكون كله ، وأن يجعلنا نكفّر لا عن خطايانا نحن وحدها ، بل عن خطايا الآخرين أيضا • انصرفي الآن بسلام ، وكوني بعد اليوم بلا خوف •

قال الشيخ ذلك ورسم اشارة الصليب عليها ثلاث مرات ، وتناول صورة مقدسة كان يحملها في عنقه فوضعها في عنق الفلاحة • حيته الفلاحة صامتة وانحنت حتى الأرض • ونهض الشيخ ببطء ، وأشرقت نظرته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناء وهي تحمل بذراعيها رضيعاً •

ـ أنا آتية من فيشجوريه يا أبانا الطيب •

ـ من فيشجوريه ؟ قطعت اذن ستة فراسخ حاملة هذا الصبي على ذراعيك ؟ فيم ترغبين ؟

ـ أردت أن أراك فقط • لقد سبق أن جئت اليك ، ألا تذكر ؟ ان كنت قد نسيتني فليست ذاكرتك اذن بالقوية • لقد قالوا عندنا انك مريض ، فأردت أن أراك بعيني • واني لأنظر اليك الآن فما ألاحظ أنك مريض • دعك من هذا ! لتعيشن عشرين سنة أخرى ان شاء الله • ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك ، فكيف يمكن أن تمرض ؟

ـ أشكرك أيتها المرأة الطيبة ، أشكرك من كل قلبي !

ـ لي عندك رجاء آخر ، وان يكن هيناً • اليك خمسين كوبكاً فأهدها يا أبت لامرأة أخرى ، لامرأة أفقر مني • لقد قلت لنفسي وأنا في طريقي

الى هنا : « سأدفع هـذا المـال اليه هو ، فانه أدرى مني بمن يستحق أن يوهب له • • » •

ـ شكراً ، شكراً أيها القلب الطيب • هذا يسرني • سوف أفعل ما تطلبين • هل طفلك هذا بنت ؟

ـ بنت أيها المبارك ! اسمها اليزابيث •

ـ بارك الله فيكما كليكما انت وابنتك اليزابث • لقد أفرحت قلبي أيتها الأم الطيبة • الى اللقاء يا أصدقائي ، الى اللقاء يا أعزائي ، يا أولادي الطيبين •

بارك الشيخ الحجاج وحيّاهم جميعا تحية عميقة •

٤

السيدة الضعيف ايمانها

كانت السيدة الزائرة تبكى بكاءً رقيقاً هادئاً من تأثرها برؤية الشيخ وهو يتحدث الى العامة ويباركها ؛ وكانت تجفف عبراتها بمنديل صغير • انها امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة الطيبة كثيرا • فلما اقترب الشيخ منها أخيرا ، تلقته بكثير من العاطفة المتدفقة قائلة :

ـ ما كان أعمق انفعالى ، وأشد اضطرابى حين رأيت هذا المشهد المؤثر •••

وقطع الاهتياج كلامها فلم تتابعه • ثم استأنفت تقول بعد لحظة :

ـ اننى أفهم أن يحبك الشعب • وأنا أيضا أحب الشعب ، أنا أريد أن أحبه • وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسى الرائع هذا ، كيف لايحب المرء هذا الشعب العظيم الطفل فى آن واحد ؟

ـ كيف حال ابنتك ؟ كنت تريدين حديثاً آخر معى ؟

ـ أوه ••• لقد ألححت فى طلب هذه المنة • توسلت وتضرعت ،

وكنت مستعدة لأن أجثو على ركبتي ثلاثة أيام بلياليها تحت نوافذك في سبيل أن تستقبلني • لقد جئناك ، أيها الشافي العظيم المقدس ، لنعبّر لك عن شكرنا الحار ، لأنك قد شفيت ابنتي ليزا من مرضها ، شفيتها شفاء تاماً ، وبماذا ؟ بأن دعوت لها يوم الخميس الماضي ووضعت يديك عليها ! ان علينا أن نسارع الى تقبيلهما ، هاتين اليدين المباركتين ، وأن نظهر لك تأثرنا ، وأن نعرب عن تبجيلنا وتقديسنا •

ـ شفيتها ؟ كيف هذا ؟ انني ما زلت أراها متمددة في مقعدها •••

ـ ولكن الحمى التي كانت توافيها في الليل قد زالت زوالا تاما ، زالت منذ يومين ، منذ ذلك الخميس تماما (كذلك أسرعت تضيف السيدة قولها هذا بشيء من العصبية) • وأكثر من ذلك أن ساقيها قد اشتدتا وقويتا ، لقد استيقظت هذا الصباح معافاةً تماما ، بعد أن نامت طول الليل • أنظر الى ألوان خديها وبريق عينيها ! كانت قبل الآن ما تنفك تبكي ، وها هي ذي الآن تضحك مرحةً كل المرح سعيدة كل السعادة• أصرت اليوم اصراراً مطلقا على أن تنهض قائمة ، واستطاعت أن تقف على ساقيها ساعة كاملة دون أن تُسند • وقد راهنتني على أنها ستكون بعد خمسة عشر يوما قادرة على أن ترقص • استدعيت طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه ، فهزّ كتفيه وقال : « انني لا أفهم شيئا ! هذا أمر خارق!»• فكيف تريد بعد هذا أن لا نجيئك ونحن نحترق شوقاً الى أن نطير اليك ، وأن نصيح تعبيراً عن عرفاننا بجميلك ؟ أشكري له صنيعه يا ليزا، عبّري له عن عميق امتنانك •••

اكتسى وجه ليزا الجميل الضاحك هيئة الجد ، ونهضت على كرسيها ما استطاعت النهوض ، ونظرت الى الشيخ ضامةً يديها • ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فاذا هي تنفجر ضاحكةً على حين

فجأة . قالت وهي تشير الى أليوشا خجلةً غاضبةً كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك :

ـ هو السبب ، هو السبب !

لو ألقى أحد في تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذى كان واقفاً وراء الشيخ على بعد خطوة منه ، للاحظ الحمرة الشديدة التى اصطبغ بها خداه فجأة . وومضت شعلة في عينيه اللتين سارع يغضهما .

تدخلت الأم قائلة :

ـ عندها رسالة تريد أن تنقلها اليك يا ألكسي فيدوروفتش .

وأضافت الفتاة تقول وهي تلتفت نحو أليوشا بحرارة وتمد اليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أنيق :

ـ كيف حالك ؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة منتبهة . ودنا الفتى من ليزا فمدَّ اليها يده وهو يبتسم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والحرج . وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الجد والوقار والرصانة . وقالت له وهي تناوله رسالة صغيرة :

ـ كلفتني كاترين ايفانوفنا بأن أوصل اليك هذه الرسالة . انها ترجوك كثيرا أن تجيء اليها ، أن تجيء اليها بأقصى سرعة ، ومن غير ابطاء . انها تريد أن تراك حتماً ، وتأمل أن لا تخيب ظنها .

ـ تريد أن أزورها ؟ أنا ؟ ... لماذا ؟

كذلك دمدم يقول أليوشا وقد ظهرت في وجهه دهشة واضحة . وسرعان ما اكتست سحنته تعبيرا عن هم أظلمت له عيناه .

قالت الأم تشرح :

ـ أوه ... الأمر أمر دمترى فيدوروفتش طبعا ... وأمر هـذه الأحداث كلها أيضا ... لقد اتخذت كاترين ايفانوفنا قرارا فى هـذا الشأن . ولكنها تريد أن تراك أولاً ... لماذا ؟ لا أدرى ... ولكنها تصر اصرارا شـديدا على أن تراك بأقصى سرعة . ستزورها ، أليس كذلك ؟ عليك أن تزورها حتما ! ... العاطفة المسيحية نفسها تأمر بذلك .

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها :

ـ ولكننى لم أرها فى حياتى الا مرة واحدة !

قالت الأم :

ـ ولكنها انسانة نادرة المثال ، عظيمة النقاء ، سامية النفس ... ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل ... تذكر ما عانته وما تزال تعانيه.. وفكّر أيضا فيما ينتظرها ... أليس هذا رهيبا ، أليس رهيبا ؟

قال أليوشا بعد أن تصفح الرسالة المقتضبة العجيبة التى لا تشتمل على أى ايضاح ، ولا تزيد على أن تدعوه الى زيارتها بالحاح :

ـ طيب ... سأذهب ...

صاحت ليزا تقول وقد تحمست على حين فجأة :

ـ أوه ! ... ما أجمل هذ منك وما أنبله ... تبا لى ... لقد قلت لأمى : « لن يذهب حتماً ... سوف يرفض قطعاً ... لأنه اعتكف فى الدير » . انك طيب جداً ، نبيل جـدا . لقد قدّرت دائما أن لك نفسا رائعة ، ويسرنى أن أقول لك ذلك اليوم .

تدخلت الأم تقول بلهجة قاسية :

ـ ليزا ! ...

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت ، ثم أضافت تخاطب أليوشا :

ـ لقد تركتنا جميعا نحن أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أصبحت لا تزورنا أبداً ، مع أن ليزا أسرت الىّ مرتين أنها لا تشعر بارتياح الا بحضورك .

رفع أليوشا عينيه اللتين كانتا مطرقتين الى الأرض ، واحمر من جديد، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا ! وكان الشيخ قد انصرف عنه فهو لا يلاحظه . كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينه ، الذى كان كما سبق أن قلنا ينتظر قرب مقعد ليزا . كان واضحا أن هذا الراهب واحد من أولئك الرهبان العاديين جدا الذين ينتمون الى فرقة رهبانية غامضة ، ويملكون أفكارا محدودة جامدة ، ولكن يحركهم ايمان عميق جدا ، ايمان ثابت على طريقتهم الخاصة . ذكر الراهب للشيخ انه آتٍ من منطقة نائية بالشمال ، من مدينة أوبدورسك* ، وأنه ينتمى الى دير فقير جدا بسان سلفستر ، ديرٍ لا يضم الا تسعة رهبان . باركه الشيخ ، ودعاه أن يزوره فى حجرته متى حلا له ذلك .

سأله الراهب فجأة وهو يومىء الى ليزا باشارة رصينة ذات أبهة :

ـ ما تلك القوة التى تتيح لك أن تحقق مثل هذه الأمور ؟

كان الراهب يشير الى « الشفاء » بمعجزة .

فقال له الشيخ :

ـ لم يحن حين الكلام عن الشفاء بعد . ليس التحسن شفاء تاماً وربما كان مرد هذا التحسن الى أسباب أخرى . واذا كان ثمة معجزة مع ذلك ، فليس الأمر الا أمر قوة واحدة هى القوة التى تصدر الينا عن النعمة الالهية . لا شىء يتم الا بارادة الله .

وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام الى الراهب :

ـ تعال زرني أيها الأب ، قبل أن يوافيني أجلي . انني مريض ، وانني أحس أن أيامي معدودات .

صاحت أم ليزا تقول :

ـ لا .. لا ... ان الرب لن يحرمنا منك ! ستعيش طويلاً ، طويلاً جدا . ما عسى يكون مرضك ؟ ان في وجهك كثيرا من الحياة والفرح والسعادة .

ـ صحيح أنني أشعر أن حالتي اليوم أحسن كثيرا مما كانت ، ولكنني أعلم أن هذا لن يدوم . أنا أعرف الآن مرضي معرفة كاملة . تقولين انني أبدو فرحاً . فاعلمي أنه لا شيء يمكن أن يفرحني كما يفرحني أن أسمع منك هذه الملاحظة . لأن الانسان انما خلق للسعادة ، والذي يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول : « لقد حققت ارادة الله في هذا العالم » . ان جميع الأتقياء ، ان جميع القديسين ، ان جميع الشهداء كانوا سعداء في جميع ظروف الحياة .

هتفت الأم تقول :

ـ ما أجمل هذا الكلام الذي تقول ! ما أعظم وما أرفع هذه المعاني التي تعبِّر عنها كلماتك ! ان كل كلمة تقولها تمضي الى القلب رأساً . ولكن أين هي السعادة ؟ من ذا الذي يستطيع أن يقول انه سعيد ؟ يا من تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى ، هلاَّ تحمَّلت أن أفضي اليك اليوم بما سكتُّ عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث عنه في المرة الأولى ! دعني أكلمك فيما يعذبني كثيرا منذ زمان طويل ، منذ سنين . انني أتألم . انني شقية ! آه ... معذرة .

قالت السيدة ذلك وهى تضم يديهـــا أمامه فى سورة مفاجئة من الانفعال .

ـ ما الأمر ؟

ـ اننى أتألم ... من فقدى الايمان ؟

ـ أأنت لا تؤمنين بالله ؟

ـ ليس هذا ... اننى لا أجرؤ حتى أن أفكر فى هذا . وانما أنا أشك فى الحياة الأبدية . ذلك لغز لم أستطع أن أستبينه ! وما من أحد، ما من أحد يستطيع أن يهب لى جوابا عن هـــذه المسألة ، ما من أحـد يستطيع أن يقدم لى حلاً لهذه المشكلة . اصغ الىّ : أنت انســان تشفى المرضى وتعرف أغوار النفوس . لست أطمع طبعاً فى أن أفوز بثقتك ، لست أطمع فى أن تصدّقنى تصديقاً كاملاً ، ولكننى أؤكد لك ، أقسم لك بأعظم ما فى هذه الحياة ، أننى لا أتكلم فى هذه اللحظة طيشاً وخفة. صدقنى : ان فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلمنى الى حد العذاب ، الى حـد الرعب ، الى حد اليأس . لا أدرى الى من يجب أن أتجه ... لقد ظللت مترددة فى هذا الأمر طول حياتى . ولكننى أجازف الآن فأكشف لك عن دخيلة نفسى . يا رب ! ما عساك تظن بى من ظنون ؟ ما عساك ترى فىّ من رأى ؟ (قالت ذلك وهى تصفق يديها) .

أجابها الشيخ قائلاً :

ـ لا تهتمى برأيى . أنا مقتنع بصدق ما تعانين من قلق .

ـ أشكر لك ذلك أعمق الشكر . اننى أغمض عينى وأفكر . أقول لنفسى : « ان جميع البشر يؤمنون ، فما تعليل هذا ؟ ألا يذهب بعضـــهم الى أن الدين قد نشأ من الخوف الذى أحدثته فى نفس الانسان فى الماضى

قوى الطبيعة العاتية ، وأن لا شيء من ذلك موجود فى الواقع ؟ ، ثم أقول لنفسى عندئذ : « واذن فاننى أنا التى آمنت طوال حياتى سأموت فما يبقى منى بعد الموت شيء ، ما يبقى الا قليل من العشب على قبرى ، كما قرأت هـــذا الكلام لكاتب من الكتاب ؟ ذلك أمر مخيف ، ذلك أمر مرعب ! فكيف ، كيف أرتد الى االايمــان ؟ على اننى لم أؤمن الا فى طفولتى ، وكان ايمانى بغير شعور البتة ، بغير تفكير قط ... فكيف ، كيف السبيل الى البرهان على الحقيقة ؟ » . لقد جئت أسألك فى مذلة وتواضـــع أن تنيرنى يا أبتاه ! فاذا أفلتت منى هذه الفرصــة اليوم ، فلن يستطيع أحد أن يجيبنى فى يوم من الأيام . أليس هذا صحيحاً ؟ اننى أريد أن أقتنع. ما أشقانى ! اننى أنظر حولى فما أرى أحداً يقلقه هذا الأمر ، وان جميع الناس ، أو جميع الناس تقريبا ، لا يحفلون به ولا يكترثون له ، واننى الوحيدة التى لا تطيق احتمال هذا الشك . أمر رهيب ، أمر رهيب .

ــ هو رهيب فعلاً . ولكن لا سبيل فى هذا المجال الى برهان . ومع ذلك يستطيع الانسان أن يصل الى اليقين .

ــ كيف ؟ بأية طريقة ؟

ــ بمعاناة الحب الفعال . حاولى أن تحبى أقرانك حباً فعالاً غـير منقطع . فكلما ازددت حباً ازددت اقتناعا بوجود الله ، وازددت اقتناعاً بالحياة الأبدية . متى وصلت الى نسيان نفسك فى حب الآخـرين نسياناً تاماً ، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أى شك . تلك حقيقة من حقائق التجربة ، تلك حقيقة مؤكدة ...

ــ أتقول : الحب الفعّال ؟ هذه مشكلة أيضا ، ويا لها من مشكلة ! انظر يا أبتاه : اننى أبلغ من حبى الانســانية أنه يتفـــق لى فى بعض اللحظات ــ صدقنى ــ أن يخطر ببالى أن أدع كل شيء ، وأن أنفصل

حتى عن ليزا لأصبح راهبة من راهبات المحبـــة ! انني أغمض عيني ، وأفكر ، وأحلم ، فأشعر في نفسي أثناء تلك اللحظات بقوة لا تغالَب • ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفني • أنا أشــعر بأنني مستعدة لأن أضمّدها ، لأن أغسلها بيدي ، وأتمنى لو أصــبح حارسة للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء ، وأن أقبل جراحهم •

ــ انه لحسن جدا وجميل جدا أن ينصرف فكرك الى هذه الأمور بدلا من أن يفكر في أشياء أخرى كثيرة • بدأت أعتقد أنك ستنتهين في يوم من الأيام الى أن تقومي بعمل جليل فعلاً •

تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسةً :

ــ نعم ، ولكن الى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة ؟ ذلك هو السؤال الأساسي ، ذلك هـــو ، بين جميع الأسئلة ، السـؤال الذي يعذبني أكثر من سائر الأسئلة • انني أغمض عيني وأسأل نفسي : «أتراك تستمرين طويلاً في هذا الطريق اذا لاحظت أن المريض الذي ستغسلين قروحه لا يُظهر لك امتنانه ولا يعبِّر لك عن شكره فوراً ، وانما هـو يرهقك بنزواته ، دون أن يقدِّر بل ودون أن يلاحظ اخلاصك للانسانية المعذبة ، وتفانيك في سبيلها ؟ وما عساك تفعلين اذا هو ثار عليك ، وأغلظ لك القول ، أو شكاك الى الادارة (وذلك ما يفعله في كثير من الأحيـان أولئك الذين يعانون آلاماً شديدة) ؟ أتراك تســـتمرين في حبك أم لا تستمرين ؟ » • ولقد أجبت نفسي عن هذا السؤال ، هل تتصور ؟ أجبت نفسي عن هذا السؤال قائلة : « اذا كان هنالك شيء يمكن أن يطفيء جذوة حبي « الفعال » فوراً ، فذلك الشيء انما هو نكران الجميل • • » • معنى هذا على وجه الاجمال انني لا أقبل أن أفعل الا بأجر ، وأنني أطالب بأن يُجزى حبي على الفور مديحاً وحباً • وما لم أنل هذا الجزاء ، لا أستطيع أن أحب أي انسان !

كذلك انهمت المرأة نفسها في سورة صدق جامح ، حتى اذا فرغت من كلامها حدّقت الى الشيخ وقد بدا في وجهها عزم يوشك أن يكون تحدياً .

قال الشيخ :

ــ ذلك بعينه ما حدثني به طبيب منذ زمان طويل . كان رجلاً مسناً ينعم بحظ وافر من الذكاء . وكان يتكلم بصدق واخلاص كما تتكلمين، ولئن تكلم مازحاً ، لقد كان الحزن ظاهراً في مزاجه . قال : « انني أحب الانسانية ، غير أن هناك شيئاً في نفسي يدهشني : كلما ازداد حبي للانسانية جملةً واحدة ، نقص حبي للبشر أفــراداً ، أي أشخاصاً لهــم حياتهم الخاصة » وقال هذا الطبيب يسرُّ اليَّ بدخيلة نفسه : « انه ليتفق لي كثيراً أثناء اندفاعي في الأحلام أن تستبد بي حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة في خدمة الانسانية ، حتى لقد ارتضى أن أُصلب في سبيلها اذا بدا هــذا ضرورياً في لحظة من اللحظات . ومع ذلك لو أريد لي أن أعيش يومين متتاليين في غرفة واحدة مع أي انسان ، لمــا استطعت أن أحتمل ذلك . انني أعرف هذا بتجربة . فمتى وجدت نفسي على صلة وثيقة بانسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتي وتجور على حريتي . انني قادر في مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن انسان : فهــذا يصبح في نظري انساناً لا يطاق لأنه مسرف في البطء في تناوله الطعام على المائدة ، وهذا يصبح في نظري انسانا لا يطاق لأنه مصاب بزكام فهو لا ينفــك يمخط . انني أصبح عدواً للبشر متى اقتربت منهم . . » . وأضاف الطبيب يقول مؤكــداً : « ولكنني لاحظت في كل مرة انني كلما ازددت كرها للبشر أفرادا ، ازدادت حرارة حبي للانسانية جملةً . . » .

ــ فما العمل في هذه الحالة ؟ ما العمل ؟ أليس هذا مدعاة لليــأس تماما ؟

ـ كلا ... انه ليكفى أن تشعرى من ذلك بأنك تعيسة شقية. افعلى ما تستطيعين أن تفعلى ، وسيُحسب لك هذا . ولقد فعلت منذ الآن كثيرا ما دمت قد استطعت أن تقرئى فى قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق كله . واذا كنت لم تحدثينى بمثل هذا الصدق ، حتى فى هذه اللحظة ، الا لتسمعى منى ثناءً على حبك للحقيقة ، كما فعلتُ ذلك ، فانك لن تصلى طبعا الى شيء على طريق الحب الفعال ، وستضيع حياتك فى أحلام لا أكثر. ولكن من المؤكد أنك ستنسين عندئذ قلقك بصدد الحياة الآخرة ، بل وستنتهين الى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر ، بطريقة أو بأخرى .

ـ لقد دمرتنى ! الآن أدركت ، فى هذه اللحظة وحدها ، حين سمعت كلامك ، أننى كنت لا أتوق فى الواقع الا الى سماع ثنائك على صدقى فى الاعتراف لك بعجزى عن احتمال نكران الجميل . لقد نفذت الى دخيلتى ، وكشفت عن قرارة قلبى ، وحملتنى على أن أفهم نفسى بنفسى .

ـ أصحيح هذا الذين تقولين ؟ اننى بعد اعترافك هذا قد اقتنعت بصدقك كل الاقتناع ، وأيقنت بأن لك قلبا طيبا . فاذا لم تبلغى السعادة ، فلا تنسى أنك سائرة فى الطريق السليمة ، فلا تحيدى عنها . واهربى من الكذب قبل كل شيء ، اهربى من جميع أنواع الكذب ، ولا سيما كذب الانسان على نفسه . راقبى ذاتك وافضحى الكذب فى نفسك كل ساعة ، وكل لحظة . وتجنبى الاشمئزاز أيضا ، تجنبى الاشمئزاز من الناس ومن نفسك على السواء : ان ما قد يبدو لك فى طبيعتك شراً انما يصفيه وينقيه ويطهره مجرد شعورك به . حاربى الخوف كذلك ، وما الخوف على كل حال الا ثمرة من ثمرات الكذب . لا يصدنك عن ملاحقة الحب ما قد تثيره فيك عيوبك من رعب أو يأس ، لا تدعى حتى لأفعالك السيئة نفسها أن تهزمك فى هذا الكفاح . يؤسفنى أننى لا أملك أن أقول لك شيئا فيه

مزيد من التشجيع : ان الحب الفعال شيء قاس رهيب اذا قيس بالأحلام التي يحلمها المرء عنه . ان من يحلم بالحب يشعر بظمأ الى عمل مباشر بطولي يحققه بسرعة وينال به اعجاب الناس؛ حتى لقد يصل بهذه الطريقة الى التضحية بحياته راضيا شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلا ، وانما يتم بسرعة ، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن . ولا كذلك الحب الفعال ، فانه يقتضي جهدا ويتطلب صبرا ، وهو بالنسبة الى بعضهم كالعلم يجب تحصيله . وثقي مع ذلك أنك حتى في اللحظة التي ستلاحظين فيها مذعورةً أن جميع جهودك ضاعت سدىً بغير جدوى ، فتعترفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربي منه ، ثقي أنك في تلك اللحظة نفسها تكونين في الواقع قد بلغت الهدف ، وسترين عندئذ بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب في نفسك من فعل هو المعجزة ، فان حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شدّ أزرك وقاد خطاك وأرشدك الى الصواب على نحو لا تعرفين سره . معذرةً اذا كنت لا أستطيع أن أبقى معك زمناً أطول ، فان هناك أناسا ينتظرونني . الى اللقاء .

كانت المرأة تبكي . ثم هتفت تقول كأنما هي ثابت الى نفسها على حين فجأة :

ـ ليزا ، ليزا ، لا تنس أن تباركها . باركها !

فقال الشيخ مازحاً :

ـ هي لا تستحق حتى أن تحب . لقد لاحظتُ كيف أنها لم تزد على أن تتسلى هنا . لماذا كنت تسخرين من أليوشا طول الوقت ؟

كانت ليزا ، فعلاً ، قد انصرفت منذ البداية الى لعب ماكر . لقد لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشا يضطرب ويحاول أن لا ينظر اليها فكان هذا يسليها كثيراً . فهي اليوم ترقب نظرته وتترصدها بالحاح .

واذ لم يستطع أليوشا أن يقاوم نداء العينين اللتين كانتا تحدقان اليه،

فقد كان يرفع رأسه دائماً رغم ارادته ، كأن قوة عليا تحركه ، فينظر الى الفتاة هو أيضاً ، فاذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبتة نظرها عليه ، فيضطرب أليوشا مزيداً من الاضطراب ويغضب • وانتهى أخيراً الى أن أدار لها ظهره واختبأ وراء الشيخ • ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق ، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها ، ليعرف ألا تزال الصبية تراقبه أم هي كفت عن ذلك ، فاذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه ، كانت تنظر اليه من جانب ، منتظرةً بالحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها ، فلما فاجأت نظرته اليها أخيراً انفجرت تضحك في قهقهة بلغت من الاندفاع المبالغ أن الشيخ نفسه لم يحتملها ، فقال للفتاة :

ـ لماذا تحاولين أن تضايقيه أيتها الصبية الشريرة ؟

فاحمر وجه الفتاة على حين فجأة احمراراً لم يكن في الحسبان ، والتمعت عيناها ، واكتسى وجهها هيئة الجد الشديد ، وأجابت بغتةً بلهجة استياء عنيف ، وبعبارات سريعة عصبية ، أجابت تقول :

ـ ولماذا تركني هو ؟ لقد لعبنا معاً حين كنا طفلين صغيرين ، وكان يحملني بذراعيه ، وكان يجيء في الماضي الينا ليعلمني القراءة ، هل تجهل ذلك ؟ ومنذ سنتين فقط ، أكّد لي ، حين ودعنا ، أنه لن ينساني في يوم من الأيام وأننا سنظل صديقين دائما الى الأبد ! وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفا مني كأنني سآكله ! لماذا لا يقترب مني ؟ لماذا لا يكلمني ؟ لماذا لا يجيء الينا ؟ أأنت الذي تمنعه ؟ نحن نعلم مع ذلك أن في امكانه أن يخرج بحرية • وليس عليَّ أنا أن أناديه ، وانما واجبه هو أن يجيء ، اذا كان لا يزال يتذكر • ولكن لا ! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص ، أليس كذلك ؟ ولماذا ألبستموه ثوب الراهب هذا الطويل ؟ ••• انه يتعرض للسقوط على الأرض اذا ركض •••

قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تتمالك نفســها فاذا هي تغطي وجهها بيديها على حين فجأة وتنفجر ضاحكةً ضحكة كبيرة هي ضحكتها الطويلة العصبية التي لا تستطيع مغالبتها والتي تهزها هزاً قوياً دون أن تكون صاخبةً كثيراً . أصغى الشيخ اليها مبتسماً ، ثم باركها في حنان . فتناولت يده لتقبلها ، وشدتها فجأة الى عينيها وأخذت تبكي قائلة :

ـ لا تغضب مني . ما أنا الا حمقاء لا أساوي شيئاً ... ولا شك في أن أليوشا على حق ... انه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية سخيفة هذا السخف كله ...

قال الشيخ بلهجة جازمة :

ـ سأرسله اليكم حتماً .

٥

لتكن مشيئة الرب

طال غياب الشيخ قرابة خمس وعشرين دقيقة . كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولمّا يصل بعدُ دمترى فيدوروفتش الذى عقد هذا الاجتماع من أجله . وكان يبدو أنهم قد نسوه ، حتى أن الشيخ وجد ضيوفه غارقين فى مناقشة حامية جدا . ان المناقشة تدور بين ايفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين . أما ميوسوف فهو يتدخل فى المناقشة فى كثير من الأحيان ، بل وبكثير من الحرارة ، ولكنه لم يحالفه التوفيق فى هذه المرة أيضا ، فهو يظل فى الدرجة الثانية، والمتناقشون يجيبونه ذاهلين ، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه. لقد سبق له أن تنافس مع ايفان فيدوروفتش فى ميدان سعة الاطلاع وغزارة المعرفة. فلم يستطع أن يطيق ذلك الازدراء الخفيف الذى أظهره له ايفان . كان يحدثه نفسه قائلاً : « كنت أعتقد ، حتى الآن على الأقل ، أننى فى مستوى كل ما يشكل التقدم فى أوروبا ، ولكن هذا الجيل الجديد يظهر أنه يتجاهلنا عامدا » . وأما فيدور بافلوفتش فكان قد آلى على نفسه أن لا يتحرك من مكانه ، وأن لا ينطق بكلمة واحدة ، لذلك ظل صامتا بعض الوقت ، ملاحظاً مع ذلك جاره بطرس ألكسندروفتش ، مبتسما ابتسامة

هزء وسخرية ، مبتهجا بما يراه فيه من حنق وغيظ • انه يفكر فى أن يثأر لنفسه منذ مدة طـــويلة ، ولا يريد أن يفوّت فرصة جميلة كهـذه الفرصة • واذ أصبح لا يطيق صبرا ، فقد مال على كتف جاره وعاد يمطره بسخرياته من جديد ، متكلما بصوت خافت :

ــ لماذا لم تنصرف منذ قليل ، بعد تلك القصة التى رويت عن القديس الذى قطعت عنقه والقبلات التى طبعها على رأسه ؟ لماذا رضيت أن تبقى فى صحبة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب ؟ سأذكر لك السبب : انك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة واهانة ، فأنت تنتظر اللحظة التى تثأر فيها لنفسك باظهار مواهبك الفذة وفكرك اللماح • وانى لأراهن على أنك لن تبارح هذا المكان قبل أن تحملهم على الاعجاب بذكائك •

ــ استأنفت ثرثرتك ؟ سوف أنصرف ، بل سوف أنصرف فورا •

ــ دعك من هذا ! لسوف تبقى الى النهاية ، ولن تنصرف الا آخـر المنصرفين ! •••

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا انما رجع الشيخ الى الحجرة •

توقفت المناقشة لحظات ، ولكن الشيخ ، بعـــد أن جلس فى مكانه السابق ، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما ليشجعهم على مواصلة المناقشة • ولاحظ أليوشا الذى كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ ، لاحظ فورا أن الشيخ منهوك القوى وأن يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً فى سبيل أن يتغلب على تعبه • ان المرض قد أحدث للشيخ فى الآونة الأخيرة عدة غيبوبات من شـدة الضعف : وها هى ذى صفرة شبيهة بالصفرة التى تسبق حالات الغيبوبة هذه عامةً ، ها هى ذى تغشى وجه الشيخ الآن ، وها هما شفتاه تبيضّان • وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب فى أن يختم هذا الاجتماع • لا بد أن هناك سبباً يدعوه

الى ذلك . ولكن ما هو هذا السبب ؟ كان أليوشا يلاحظ الشـيخ بانتباه شديد .

قال الراهب الكاهن جوزيف ، وهو قيّم مكتبة الدير ، قال يشرح وهو يشير الى ايفان بتروفتش :

ـ كنا نتكلم عن المقالة الشائقة جداً التى نشرها هذا الشاب . لقد أورد آراء أصيلة فى عدد من النقاط ، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين. والموضوع هو موضوع القضاء الاكليركى ومدى الصلاحيات التى يجب أن يُعطاها . كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً فى هذه المسألة*، فردّ عليه هذا الشاب بمقالة نشرها فى جريدة ...

أجاب الشيخ وهـو يلقى على ايفان فيـدوروفتش نظرة طويلة متفرسة :

ـ يؤسفنى أننى لم أقرأ مقالتك ، ولكننى سمعت عنها .

استأنف الأب قيّم المكتبة كلامه يقول :

ـ ان هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقا ، وكأنه حين يعـالج مشكلة القضاء الاكليركى ، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة .

قال الشيخ يسأل ايفان فيدوروفتش :

ـ هذه فى الحق فكرة شائقة ، ولكن بأى معنى تفهمها ، وما الذى تقصده بها ؟

فأجابه ايفان بعد بضع لحظات من صمت ، فلم يصطنع فى جـوابه ذلك التعالى الذى يشتمل على احترام مهذب ، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة ، وانما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، وفيها تقدير واعتبار ، ولا أثر فيها لأية فكرة ميتة أو حكم سابق . قال :

ـ ان فكرتى هى أن ذلك التوحيد الذى يفرضه هوانا على عناصر متعارضة فى جوهرها كتعارض الكنيسة والدولة ، سيظل قائماً الى الأبد ولا شك ، رغم أنه يخالف طبيعة الأشياء ولا يمكن أن يؤدى الى جعل العلاقات سليمة سوية بين السلطتين بل ولا الى مصالحة بسيطة مهما يكن حظها من الاتساق والانسجام يسيرا • والواقع أن الكذب هو المصدر الذى ينشأ عنه هذا الحل أو هو الأساس الذى يقوم عليه• وعندى أن تسوية بين الدولة والكنيسة فى مسائل كمسألة القضاء مثلاً، أمرٌ مستحيل ولا يمكن تخيله اطلاقاً• ان رجل الاكليروس الذى انتقدت نظرياته قد ذهب الى أن الكنيسة تحتل فى داخل الدولة مكانا معينا واضح الحدود • فأجبته بأننى، من جهتى ، أرى أن الكنيسة يجب ، على عكس رأيه تماماً ، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفى بمأوى بسيط تعتصم به فى داخل التنظيم الاجتماعى • وأضفت الى ذلك قولى انه اذا تعذر الوصول الى هذا الهدف فى الظروف الحالية لسبب من الأسباب ، فيحسن أن ننظر اليه على أنه الغاية الضرورية التى يجب على المجتمع المسيحى أن يتجه اليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل •

قال الأب بائيسى الراهب الكاتن ، العلاّمة الشديد الصمت ، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصبية :

ـ هذا صحيح تماما •

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقا على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر :

ـ ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال *

فانطلق الأب جوزيف قائلا :

ـ دعك من هذا الكلام ! نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال !

ثم استأنف بعد ذلك يقول متجهاً الى الشيخ :

ــ ان هذا الشاب قد أورد الردود التالية ، فيما أورد من ردود على آراء خصمه ــ ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الاكليروس ــ وهي آراء يعدها خصمه « جوهرية وأساسية » : الرأى الأول أو الموضـوعة الأولى : « ما من طائفة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعي لنفسها حق التصرف فى الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها . . » ؛ الموضـوعة الثانية : « ان حق القضاء الجزائى والمدنى يجب أن لا ينتمى الى الكنيسة، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضا مع صفتها كتنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية . . » الموضوعة الثالثة والأخيرة : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم . . » .

فقال الأب بائيسى يتدخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاستياء واضحا :

ــ ذلك لعب بالالفاظ لا يليق فى رأيى بعضو من أعضاء الاكليروس.

ــ لقد قرأت الكتاب الذى رددت عليـــه ، وقد أدهشنى أن أرى مؤلفه يقول : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم . . » . ذلك أنه ان لم يكن ينتمى الى هـــذا العالم فمن البـــديهى أنه لن يمكن عنـدئذ أن يتحقق فى هذا العالم على أية صورة من الصور . وليس هـذا هو المقصود اطلاقاً من التعبير الوارد فى الأناجيل ، القائل بأن «ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » . ان التلاعب بالألفاظ على هذا النحو غير جائز ولا مقبول . ان سيدنا يسوع المسيح انما جاء ليقيم الكنيسة على الأرض. صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمى الى هذا العالم ، لأنه فى السماء ، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون الا عن طريق الكنيسة التى أقيمت فى الأرض . لذلك يجب أن نعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطبغ بالروح العصرية أمرا لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله فى هذا المجال . ان الكنيسة

هى فى الواقع مملكة • وان رسالتها هى أن تسود وأن تحكم ، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً ، وذلك ما جاء فى النبوءة على كل حال •••

قال الأب بائيسى ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً •

وكان ايفان فيدوروفتش يصغى الى كلامه بانتباه فيه كثير من الاحترام ، فاستأنف حديثه متجهاً الى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهجة رصينة باشة طيبة :

ـ ان الفكرة الأساسية التى تجمل مقالتى كلها هى أن المسيحية كانت فى الأزمنة القديمة ، أى طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها ، كانت كنيسة فحسب ، وكانت لا تطمع فى أن تصبح أكثر من ذلك • ولكن حين قررت الدولة الوثنية التى هى الدولة الرومانية أن تعتنق الديانة المسيحية فان الذى حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية فى كثير من النواحى • ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هـذا على كل حال • فان روما من حيث هى دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضارة الوثنية والحكمة الوثنية ، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها • وكان طبيعيا أن لا تستطيع الكنيسة المسيحية حين دخلت فى الدولة أن تضحى بأى مبدأ من مبادئها ، ولا أن تترك أى جزء من الصخرة التى بُنيت عليها • كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع الا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه ، وهى امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعا لذلك • ويترتب على هذا أن الكنيسة ليست هى التى يجب عليها أن تسعى الى احتلال مكان معيَّن فى داخل الدولة ، « ككل طائفة اجتماعية أخرى » أو « ككل تنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية » (وذلك ما يقـوله فى موضوع الكنيسة

مؤلف الكتاب الذى انتقدته) ، بل العكس هـــو الصحيح ، فان الدول الأرضية جميعها هى التى يجب عليها أن تستحيل فى خاتمة المطاف من تطورها الى كنيسة ، وأن لا تصبح الا كنيسة، متنازلةً من أهدافها الخاصة عن تلك التى لا تتفق وأهداف الكنيسة • وهـذا التحول لن يغضَّ من قيمة هذه الدولة ولن ينتقص من شأنها ، ولن يفقدها شيئاً من كرامتها ومجدها من حيث هى دول كبرى ، لا ولن يسىء الى مايتمتع به ملوكها وقادتها من بريق اجتمـاعى نتيجة للوظائف التى يقومون بهـا ، وكل ما هنالك أنه سيُخرج هؤلاء الملوك والقادة من طريق الضلالة والوثنية الذى ساروا فيه ، وسيضعهم فى اتجاه السليم الرشيد ، الاتجاه الوحيـد الذى يمكن أن يؤدى الى تحقيق غاياتهم الأبدية • لذلك أقول ان مؤلف كتاب « أسس القضاء الاكليركى فى داخل المجتمع » كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها ، أن لا يعدها الا تسوية مؤقتة ، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها فى هذا العالم الذى ما يزال فى حالة الخطيئة ولمَّا يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره • أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هـــذه الأسس التى عرضها والتى عدَّد لنا الأب جوزيف بعضها منذ هنيهة هى بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه ، فانه يناقض عندئذ حقيقة الكنيسة ، ويعارض رسالتها المقدسة الأبدية التى يجب أن لا تُمس • ذلك كل ما قلته فى مقالتى التى أوجزتها لكم ايجازا وافيا •

قال الأب بائيسى يتدخل مرةً أخرى مشدِّدا على كل كلمة من كلماته :

ـ الخلاصة اذن أن بعض النظريات الشائعة كثيرا فى قرننا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تتحرك نحو الدولة ، منتقلةً من مرحلة دنيا الى مرحلة عليا ان صح التعبير ، وأن تذوب فى الدولة ، بعد أن أخلت



ايفان كارامازوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

المكان للعلم وروح العصر والحضارة ، فاذا هى رفضت هذا مع ذلك ، وقاومت هذا التحول ، عُرض عليها عندئذ مكانٌ محدود تلوذ به وتأوى اليه ، تحت رقابة الدولة ، كما يحدث اليوم فى أكثر البلاد الأوروبية . أما النظرة الروسية ، أما عقيدتنا فهى ترى أن الكنيسة ليس عليها هى أن تستحيل الى دولة كما يتم الانتقال من صـــورة دنيا الى صورة عليا من صور الوجود ، وانما الدولة هى التى يجب عليها أن تحاول أن تصير أخيرا الى كنيسة وأن لا تكون شيئا غير ذلك . هذا ما يجب أن يكون ! ألا فلتكن مشيئة الرب !

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى ، ولكن فى اتجاه معاكس :

ــ أعترف لك بأنك قد رددت الىَّ شجاعتى : اذا صح فهمى فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول اليه فى زمان مقبل مايزال بعيدا كل البعد ، وربما امتد الى يوم عودة المسيح . لك ما تشاء ! ذلك حلم جميل جدا ، فلا حروب عندئذ ولا دبلوماسية ولا بنوك ، الخ ؛ بل ان هذا يذكّر بالاشتراكية بعض الشىء . لقد كنت أخشى فى البداية أن تكون جاداً فيما تقول ، وأن تطمع للكنيسة ، منذ الآن ، فى أن تمارس السلطة فتقضى فى الأمور الجزائية مثلا فتصدر أحكاما بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالاعدام !

استأنف ايفان فيدوروفتش كلامه هادئاً بغير تعثر ، فقال :

ــ حتى لو كانت المحاكم الاكليركية هى السلطة القضائية الوحيدة المعترف بها اليوم فى العالم ، فان الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالاعـدام أو بالأشغال الشاقة . ان صفة الجريمة وطـــريقة معالجتها تتبدلان عندئذ حتماً ، لا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، بل شيئا فشيئا ، على التـدريج . ولكن هذا التبدل سيتحقق مع ذلك بسرعة كافية ...

قال ميوسوف وهو يحدّق اليه بنظرة نافذة :

ـ أأنت جاد فيما تقول ؟

فتابع ايفان فيدوروفتش كلامه قائلاً :

ـ يوم تحتوى الكنيسة المجتمع بأسره فانها سوف تحـرم الخطاة والعصاة ، ولكنها لن تقتل أحدا . قل لى : ما عسى يصير اليه المحروم ، وأين عساه يعتصم ؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب، بل بالمسيح أيضا . وستجعله جريمته عندئذ عدواً للانسانية وعدواً لكنيسة المسيح . وان الأمر لكذلك منذ الآن ، اذا نحن نظرنا فى أعماق الأمور، ولكننا لا نعترف بهذا صراحةً . ان السيء يجد اليوم ، فى حالات كثيرة جدا ، سبيلا الى ارضاء ضميره ، فهو يقول لنفسه : « صحيح أننى سرقت، ولكننى لم أناصب الكنيسة العداء ... اننى لست عـدو المسيح . » . هكذا يفكر المذنب فى كثير من الأحيان فى عصرنا هذا . أما يوم تحل الكنيسة محلّ الدولة فسوف يصعب على المسيء أن يفكر هذا التفكير والا كان ينكر سلطة كل كنيسة فى هذا العالم ويرفض هذه السلطة رفضاً تاماً ، قائلاً : « البشر جميعا على ضلال ، هم وكنيستهم على ضلال ، وأنا وحدى ـ أنا القاتل أو السارق ـ أنا وحدى الكنيسة المسيحية الحق » . وذلك موقف يصعب جدا اتخاذه ، اللهم الا بتضافر ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر . وانظر الآن من جهة أخرى الى مفهوم الكنيسة للجريمة : أليس هذا المفهوم خليقاً بأن يؤدى الى هجر الأساليب الجزائية الحالية الميكانيكية التى تقضى ببتر العضو المـريض ، كما يُفعل اليوم لحماية المجتمع ، وبأن يكفل الغلبة لفكرة خلق الانسان خلقاً جديدا وبعثه بعثاً جديدا وتحقيق الخلاص والسلام له فى الحياة الواقعية هذه المرة .

قاطعه ميوسوف سائلاً :

ـ الى ماذا تريد أن تخلص من هذا ؟ لقد أصبحت مرةً أخرى لا أفهمك . انك تعود الى الأحلام . هذا الكلام الذى تقوله غامض مبهم، بل لا سبيل الى فهمه . عن أى حرمان تتكلم ؟ ما هذا الحرمان ؟ اننى أتساءل ألست تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك ، يا ايفان فيدوروفتش ؟

هنا انبرى الشيخ فجأة للكلام ، فالتفت الجميع اليه بحركة واحدة، قال :

ـ ولكن هذا هو ما يحدث فى الواقع منذ الآن . ذلك أنه ان لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فان المذنب لن يرتدع عن جريمته ، لا ولن يعاقب بعد جريمته ، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقى لا العقاب الميكانيكى فحسب ، كما قيل منذ هنيهة . فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس فى أكثر الحالات ، أما العقاب الحق ، العقاب الذى يخيف ويهدىء فى آن واحد ، العقاب الوحيد الناجع المجدى ، فهو حكم الضمير على صاحبه .

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف :

ـ كيف هذا ؟ هلا شرحته لنا ؟

قال الشيخ :

ـ انظر . ان ارسال المذنبين الى سجون الأشغال الشاقة ، وما كان يضاف اليه قبل الآن من تعذيب جسدى ، ان ذلك كله لم يُصلح أحدا ، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين ، باستثناء عدد قليل منهم. فعدد الجرائم لم ينقص ، بل انه ليزداد . لا تستطيع أن تعترض علىّ فى هذه النقطة . يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمى المجتمع البتة . فان العضو الضار الذى يُحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل الى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار ، ما يلبث أن يحل محله مجرم

آخر أو مجرمان آخران . فاذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى فى الوقت الراهن ، واذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث انسانا جديدا ، فالفضل فى ذلك انما يرجع هنا أيضا الى قانون المسيح على نحو ما رسخ فى قرارة ضميرنا . ان اعتراف المجرم بذنبه كابن من أبناء المجتمع المسيحى ، أى كابن من أبناء الكنيسة ، هو السبيل الوحيدة الى شعوره بأنه آثم فى حق المجتمع أى فى حق الكنيسة . فازاء الكنيسة وحدها لا ازاء الدولة انما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذنب . فاذا تمت ممارسة حق القضاء باسم الكنيسة ، عــرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهى حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا الى الاندماج فى الحياة الاجتماعية . ان الكنيسة التى لا تملك الآن أى سلطة قضائية فعّالة ولا تملك أن يكون لهـــا تأثير أو نفـوذ الا بالادانة الروحية ، لا يهمها العقاب الفعلى الذى يتم انزاله فى المذنبين . انها لاتطرد هؤلاء الجناة من حضنها ، بل تظل تحدب عليهم حدب الأب على أبنائه ، وأكثر من ذلك أنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التى تشد المؤمنين الى الكنيسة وتربطهم بها؛ انها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا فى الصلاة ولا تضن عليهم بتناول القربان المقدس . انها تتجدهم وتغيثهم، وتعاملهم معاملة تعساء أكثر مما تعاملهم معاملة جناة. وما عسى يقع لهؤلاء المجرمين ، يا رب ، لو أن المجتمع المسيحى ، أى لو أن الكنيسة قد نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر ! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تضربهم هى أيضا ، فتحرمهم كلما حكم عليهم قانون الدولة ، وتضيف عقابها الى عقاب الدولة ؟ انك لا تستطيع أن تتخيل انحداراً الى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحدار الذى يمكن أن يهـوى اليه هؤلاء الجناة فى مثل هذه الحالة ، ولا سيما اذا كانوا من الروس ، لأن الروس ما يزالون محافظين على ايمـانهم ! ومن ذا الذى يضـــمن أن

لا يحدث عندئذ شيء رهيب لدى هؤلاء الجناة ، كأن يزول الايمان من قلوبهم اليائسة ؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم حنون رءوف، وهى تعزف عن معاقبتهم فى الواقع ، لأنهـــا ترى أنهم ، حتى دون أن تعاقبهم هى ، قد نالتهم عدالة الدولة بعقـــاب قاس ، فهم فى حاجة الى أحد تأخذه بهم شفقة على الأقل . وهى تمتنع عن معاقبتهم خاصة لأن عدالة الكنيسة هى العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون معنويا وعمليا مع أى قضاء أجنبى ولو على صورة تسوية مؤقتة . ولا سبيل الى أى تنازل فى هذه النقطة . ان المجرمين لايشعرون فى البلاد الأخرى بالندم والتوبة الا نادرا فيما يقال ، لأن المذاهب الحديثة الرائجة هناك لا تستطيع الا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التى ارتكبوها ليست جرائم ، وانما هى أعمال تمرد على القوى التى تضطهدهم ظلمـــا وعدوانا ، فالمجتمع ينبذهم من حضنه آليا ، ويغلبهم على أمرهم بقـــوته العليا ، وهو يشفع هذا الابعاد للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله فى أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم وينساهم نسيانا تاما مع أنهم اخوتنا على كل حال . فكل شيء يجرى اذن دون أى عطف من الكنيسة ، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها فى عدد من تلك البلاد التى لم يبق فيها الا رجال الاكليروس ومبان دينية رائعة . أما الكنائس بالمعنى الحقيقى فقد سارت منذ زمن طويل فى طريق يجب أن ينقلها من مرحلة يقال انها دنيا ، وهى مرحلة الجماعة الاكليركية ، الى المرحلة التى يزعم أنها عليا وهى مرحلة الدولة ، بغية أن تغرق فيهـــا غرقاً كاملاً . تلك هى على الأقل حالة الشعوب اللوثرية فيما يظهر . أما الكاثوليكيـــة الرومانية فانها منـــذ ألف سنة قد أقامت الدولة مقـام الكنيسة . لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو فى الكنيسة ، فهو حين ينبذه المجتمع يهوى الى قاع اليأس . فاذا اتفق له أن يعود بعد ذلك الى

المجتمع ، فانه فى أكثر الاحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكره يبلغ من القوة أن المجرم هو الذى ينبذ المجتمع فى هذه المرة • وفى وسعكم أن تتخيلوا بسهولة الى أين يؤدى هذا • قد يتراءى ان الامور تجرى على هذا النحو غالبا فى بلادنا أيضا • ولكن الفرق بين بلادنا والبلاد الأخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها ، عدا المحاكم النظامية ، كنيسة لا تفقد اتصالها أبداً بالمجرم ، لأنها تعده ابناً عزيزاً ما يزال جديرا بالحب • هذا الى أننا احتفظنا بالعدالة الاكليركية ولو فكرياً ، ولئن أصبحت هذه العدالة الآن غير فعالة ، فهى ما تزال موجودة للمستقبل على الأقل ، من حيث هى أمل على كل حال ، والمجرم نفسه يعترف بسلطتها فى قرارة نفسه حتماً • وانه لصحيح كل الصحة أيضا ، كما قيل هذا منذ هنيهة ، أنه اذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها فى الواقع بكل قوتها ، أى اذا استحال المجتمع كله الى كنيسة ، فان المحاكم الاكليركية ستساهم فى اصلاح المجرمين اصلاحا لا تُعرف حدوده حتى الآن ، بل ربما نقص عدد المجرمين كذلك نقصا كبيرا • ان الكنيسة نفسها ـ وهذا أمر مؤكد ـ ستستطيع عندئذ أن تكشف عن الشخص الذى سيرتكب ذنبا فى المستقبل ، وأن تعرف الجريمة التى تتهيأ ، أكثر كثيرا مما تفعل اليوم ذلك فى أكثر الأحوال ، وسيكون فى وسعها أن تهدى الضالين ، وأن تُبقى فى طريق الرشاد أولئك الذين ينوون أن يقارفوا عملاً سيئاً ، وأن تُنهض أولئك الذين سقطوا •

وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة :

ـ صحيح أن المجتمع المسيحى ما يزال حتى الآن غير مهيأ ، وأنه غير باقٍ الا بفضل الصالحين السبعة ؛ ولكن هؤلاء لايمكن أن يزولوا ، والمجتمع المسيحى يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة وطيدة بانتظار أن يتحول تحولاً كاملاً ، فلا يبقى مجتمعا أى تنظيما انسانيا يشبه أن يكون

وثنيا حتى الآن ، وانما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع . هذا ما يجب أن يكون ، هذا ما يجب أن يكون ، ولو فى آخر الزمان ، لأنه قد أريد وحُدِّد منذ الأزل . وما ينبغى أن يقلقنا طول الانتظار وبطء الزمن ، ما دام مفتاح العصور بيد الرب ، وما دام الرب يرتب تعاقبها بحكمته وطيبته وسابق علمه . ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيدا جدا فى تقدير البشر قد يكون فى بعض الأحيان على وشك أن يتحقق بحكم المشيئة الالهية ، وقد يكون على عتبة حياتنا يوشك أن يدخلها . لذلك أقول : فلتكن مشيئة الرب ، فلتكن مشيئة الرب .

قال الأب بائيسى مؤيدا فى رصانة ووقار :

ـ فلتكن مشيئة الرب .

قال ميوسوف بحرارة فيها استياء شديد :

ـ هذا غريب ، غريب الى أبعد حدود الغرابة !

فسأله الأب جوزيف قائلاً بحذر :

ـ ما هو الشىء الذى تراه فى هذا الكلام غريبا هذه الغرابة كلها ؟

فهتف ميوسوف يقول منفجرا على حين بغتة :

ـ شىء عجيب كل العجب ! شىء لم أسمع به من قبل ! يزيلون الدول القائمة ليشيدوا فى مكانها الكنيسة كدولة ! ليس هذا من عقائد ما وراء الجبال فحسب ، بل هو تطرف فى الأخذ بعقائد ما وراء الجبال ! ان البابا جريجوار السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشىء من هذا القبيل!*

قال الأب بائيسى بصوت خشن :

ـ الأمر نقيض ما ترى تماما . نحن لا نعتقد أن الكنيسة هى التى يجب أن تستحيل الى دولة ، فافهم رأينا حق فهمه . ان ذلك الحلم هو حلم روما حقا ، وهو ثالثة غوايات الشيطان ! وانما رأينا عكس هذا

الرأى ، فالدولة هى التى يجب أن تتحول الى كنيسة ، هى التى يجب أن ترتقى الى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الارض ، وذلك نقيض ما تراه روما ، نقيض عقيدة ما وراء الجبال ، نقيض التأويل الذى تؤوله أنت ، وهو بعينه الرسالة الحقيقية الكبرى التى تحملها الارثوذكسية • أن نجمة هذا الايمان المظفر ستطلع فى سماء الشرق •

كان ميوسوف صامتا صمتا وقورا • ان شخصه كله يعبر فى هذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته • وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع • وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها ، خافق القلب • لقد هزّت هذه المناقشة جميع جوارحه • ووقع بصره عرضا على راكيتين الذى لم يكن قد تحرك من مكانه والذى كان ما يزال واقفا قرب الباب يلاحظ كل شىء بانتباه ، ويسمع كل شىء باصغاء ، رغم أنه غاضٌ بصره • ومع ذلك فان أليوشا اذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطرابا لهذه المناقشة ، وحزر الخواطر التى كانت تبث فيه هذا الاضطراب •

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة ، وهيئة فيها تعاظم :

ـ اسمحوا لى أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة • حين كنت فى باريس منذ بضع سنين ، بُعيدَ الانقلاب الذى وقع فى شهر كانون الأول (ديسمبر) ، حدث أن زرت فى يوم من الأيام شخصية ذات نفوذ ، ذات نفوذ عظيم ، كانت تتولى فى ذلك الوقت وظائف حكومية ، وكنت على صلة بها قوية • فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره • لم يكن هذا السيد من رجال الشرطة بمعنى الكلمة ، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازا كبيرا من أجهزة الشرطة السياسية ـ ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة فى بابها • انتهزت الفرصة فدخلت فى حديث مع هذا الرجل ، تدفعنى الى ذلك رغبة قوية فى الاطلاع • واذ

لم يكن عنـد رب الدار عنـدئذ بصفته زائراً بل بصفته مرءوسا يقدم تقريرا ، فانه وقد لاحظ حفاوة رئيسه بي ، قد شرفني بأن أفضى الى ببعض الأمور وباح لى ببعض الأسرار . طبعا لم ينفتح لى الا الى حد ، وكان أقرب الى الملاطفة منه الى المصارحة ، وهي تلك الملاطفة المعهودة في الفرنسيين ، ولا سيما مع الأجانب . ولكنني استطعت أن أرى ما في نفسه واضحا كل الوضوح. لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين، الذين كانوا يضطهدون في ذلك الوقت على كل حال . ولست أحب أن أتعرض لموضوع الحديث الذي دار بيني وبينه ، بل أدع هذا الموضوع جانبا وأقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جدا أفلتت من لسان هـذا السيد الصغير على حين فجأة ، قال يسر الى : « الحق أننا لا نخشاهم كثيراً ، هؤلاء الاشتراكيين الفوضويين الملحدين الثوريين . نحن نراقبهم من كثب ونعرف أعمالهم وحركاتهم . غير أن بينهم رجالاً من طـراز خاص ، وان لم يكن عددهم كبيرا جدا : أولئك هم المؤمنون، المسيحيون، الذين يربطون الاشتراكية بايمانهم الديني . نحن نخشى هؤلاء أكثر من أي شيء آخر . هؤلاء أناس خطرون جدا . ان رجلا يجمـع بين الاشتراكية والمسيحية معا لهو أخطر كثيرا من اشتراكي ملحد . » . لقد فجأتني هـذه الفكرة كثيرا في تلك اللحظة ، وقد تذكرتها الآن حين سمعت كلامكم ، أيها السادة ، لا أدري لماذا ...

سأله الأب بائيسي فجأة بغير لف أو دوران :

ـ هل تريد أن تقول ان هذه الفكرة تصدق علينا واننا في نظـرك اشتراكيون ؟

ولكن قبل أن يهتدي بطرس الكسندروفتش الى جـواب يقوله ، فتح الباب وظهر دمتري فيدروفتش بعد تأخر طويل جدا . كان الجمع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله ، حتى أن وصوله المفاجيء هذا قد أحدث فيهم شيئا من دهشة .

٦

لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل

إن دمترى فيدوروفتش ، وهو شاب فى الثامنة والعشرين من عمره ، قصير القامة لطيف الوجه، يبدو فى الواقع أكبر من سنه • انه نامى العضلات ، فاذا رآه الرائى أدرك أن له قوة جسمية كبيرة ، ومع ذلك فان فى قسمات وجهه شيئا مرضياً • هو نحيل المحيا خاسف الخدين ، فى لونه انعكاسات عليلة ضاربة الى صفرة • وان فى عينيه القاتمتين الواسعتين الجاحظتين تعبيراً غامضا مبهما ، رغم أن نظرته تبدو حازمة واثقة • وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجاً فان نظرته تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية ولا تجاريها وانما هى تفصح فى كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة فى بعض الأحوال • « ان من الصعب على المرء أن يعرف مايدور فى فكره » ، كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين الى حين • وكان الناس اذ يلاحظون نظرته القاتمة الواجمة يدهشهم فى أحيان كثيرة جداً أن يروه ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ضحكاً كبيراً يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها ويستسلم لها فى نفس اللحظة التى تتجهم فيها عيناه • على أن ما يظهر فى سحنته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحداً : ان جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التى يعيشها

بمدينتنا فى الآونة الأخيرة « لاهياً قاصفاً مستهتراً » ، أو هم قد سمعوا عن ذلك ، وما من أحد يجهل أيضا درجة الاهتياج المرضى الذى وصل اليه فى خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال ؟ حتى أن الناس فى مدينتنا قد تناقلوا عن ذلك قصصاً وحكايات • والحق أنه بطبيعته غضوب، وأنه « مندفع مشوش » ، كما وصفه بذلك صادقاً كلّ الصدق قاضى الصلح سيميون كاتشالنيكوف أثناء أحد الاجتماعات • ولقد كان فى ذلك اليوم يرتدى صدرة ذات أزرار أنيقة أناقة لا مأخذ عليها ، ويلبس قفازين أسودين ، ويحمل بيده قبعة عالية • وكما يفعل كل عسكرى محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة ، فقد أطال شاربه وحلق لحيته ، ودفع شعره القصير الى أمام على الصدغين • وهو يمشى مشية حربية حازمة واسعة الخطى •

توقف على العتبة لحظة قصيرة ، وبعد أن أجال بصره على الحضور، اتجه نحو الشيخ قُدُماً ، لأنه أدرك أنه رب المنزل ، فحيّاه منحنياً له انحناءة كبيرة ، وطلب بركته ، فنهض الشيخ وباركه ، وقبّل دمترى فيدوروفتش يد الشيخ باحترام ، ثم قال مضطرباً اضطراباً شديدا بصوت يدل على الحنق والاستياء ، قال يشرح :

ـ أرجو أن تتفضلوا فتغفروا أننى جعلتكم تنتظرون هذه المدة الطويلة كلها • ان الخادم سمردياكوف الذى أرسله «باتيوشكا» * قد أجاب عن أسئلتى الملحة مرتين بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حُدّدت له الساعة الواحدة بعد الظهر • وهأنذا أعلم الآن أن •••

قاطعه الشيخ قائلا :

ـ اطمئن • ليس الأمر بذى بال • لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ليس لهذا التأخر من خطورة •••

ـ أشكر لكم تسامحكم • ولقد كنت أعوّل على هذا التسامح لما أعرفه عنكم من طيبة •••

قال دمترى فيدوروفتش ذلك وحيّا مرة أخرى ، ثم التفت نحو أبيه (« باتيوشكا ») فجأة ، فحيّاه تحية فيها ما كان فى تحيته للشيخ من انحناء شديد واحترام عظيم • واضح أنه كان قد هيأ هذه التحية سلفاً ، وأعدّها مقدماً ، وأنه فعل ذلك صادقاً مخلصاً ، لأنه يرى أن من واجبه أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نياته • وقد بوغت فيدور بافلوفتش وبهت ، ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاذا هو يهب واقفاً فيرد تحية ابنه بمثلها • لقد اكتسى وجهه على حين فجأة تعبيرا رصيناً مفرطاً فى التصنع ، فما زاده ذلك الا خبثاً وشراً • وبعد أن حيا دمترى فيدوروفتش سائر الحضور فى الحجرة بانحناءة واحدة صامتة ، اتجه نحو النافذة سائراً بخطاه الواسعة الحازمة ، وجلس قرب الأب بائيسى ، على المقعد الوحيد الذى كان لا يزال خاليا • ومال بصدره الى أمام ، متهيئاً لمتابعة المناقشة التى قطع حبلها •

ان وصول دمترى فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين، وكان لا بد أن تُستأنف المناقشة بعد ذلك فوراً• ولكن ميوسوف لم يرَ فى هذه المرة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذى طرحه الأب بائيسى والذى يكاد يكون مزعجاً •

قال بشىء من الاهمال الذى يُعرف به أبناء المجتمع الراقى :

ـ اسمح لى أن لا أتعرض لهذه النقطة • ثم ان المسألة معقدة جدا من جهة أخرى • وأنا ألمح أن ايفان فيدوروفتش يبتسم وهو ينظر الينا فلعله يخفى آراء أصيلة طريفة فى هذا الموضوع ، فاتجه بالسؤال اليه ان شئت •

فأجاب ايفان فيدوروفتش على الفور قائلا :

ـ ليس لدى شيء خاص أقوله ، الا ملاحظة ثانوية . ان اللبراليين في أوروبا ، كسائر هـــواة اللبرالية في روسيا ، يخلطون في كثير من الأحيان ، ومنذ زمن طويل جداً ، بين الأهداف القصوى التي ترمي اليها الاشتراكية وبين الغايات التي ترمي اليها المسيحية . وهذه النتيجة الغريبة العجيبة هي مع ذلك الصفة التي تتميز بها طريقتهم في التفكير . ويبدو من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفــرد به اللبراليون وهواة اللبراليـــة ، وانما هو يحــــدث كثيرا في أذهان رجال الشرطة، أقصد رجال الشرطة فيالبلاد الأجنبية . وان حكايتك الباريسية هي من هذه الناحية ذات دلالة هامة يا بطرس ألكسندروفتش .

فكرر بطرس الكسندروفتش كلامه الأول قائلاً :

ـ أرجوكم مرة أخرى أن تعفوني من معالجة هـــذا الموضوع ، وانما أنا أؤثر أيها السادة أن أقص عليكم حكاية أخـــرى شائقة جدا ومميَّزة جداً ؛ والحكاية في هذه المرة تتصل بايفان فيدوروفتش . لقد كان ايفان فيدوروفتش منـــذ ما لا يزيد على خمسة أيام ، في مجتمع يتألف خاصةً من سيدات من هذه المدينة ، فأعلن صراحةً أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم ، وأنه ما من قانون طبيعي يفرض على الانسان أن يحب الانسانية ،فاذا كان قد وجد وما يزال يوجد على هذه الأرض شيء من الحب ، فليس مرد ذلك الى قانون طبيعي ، بل الى سبب واحد هـو اعتقاد البشر بأنهم خالدون . حتى لقد أضاف ايفان فيدوروفتش الى ذلك عابراً أن هذا الاعتقاد هو في الواقع الأساس الوحيد لكل قانون أخلاقي طبيعي ، فاذا فقدت الانسانية هـذا الاعتقـاد بالخلود فسرعان ما ستنغيض جميع ينابيع الحب ، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة

حياتهم فى هـــذا العالم . أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شىء يعـــد منافيـاً للأخلاق ، وســـيكون كل شىء مباحاً ، حتى أكل لحوم البشر . بل لقد مضى الى أبعد من هذا أيضاً فقال أخيراً ان القانون الأخلاقى للطبيعة يتغير وجهه فوراً فى نظر كل فرد ـ فى نظرنا نحن مثلاً ـ متى كان هذا الفرد لا يؤمن بالله ، وان القانون الأخلاقى للطبيعة يأمر عنـدئذ بنقيض ما سلـّم به الدين من قبل وما جاء فى تعاليم الدين من قبل ، فاذا بالأنانية التى تمضى الى حد الجـــريمة لا تصبح مباحةً للانســان فحسب ، بل تصبح كذلك مشروعة وضرورية من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول، بل والمخرج الوحيد النبيل . ففى وسعكم اذن أيها السادة أن تحكموا بهذه المفارقة على الآراء الأخرى التى يراها عزيزنا الخيالى الكبير والسفسطائى العظيم ايفان فيدوروفتش ، سواء آراؤه التى سبق أن أعلنها وآراؤه التى لعله ما يزال ينوى أن يعلنها .

هتف دمترى فيدوروفتش يقول دون أن يكون هذا فى حسبان أحد البتة :

ـ اسمح لى ! هل ما سمعته منك هو « أن الجريمة يجب أن لا تعد مباحةً فحسب ، بل يجب أن تعدَّ كذلك ، فى نظر كل ملحد ، هى المخرج المعقول الذكى من وضعه ؟ » .

قال الأب بائيسى :

ـ تماما .

فقال دمترى فيدوروفتش :

ـ اننى أسجل هذا .

وبعد أن نطق دمترى فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة ، كما تكلم فجأة . فنظر اليه جميع الحضور بكثير من الفضول .

واتجه الشيخ فى تلك اللحظة الى ايفان فيدوروفتش يسأله :

ـ هل يمكن أن يكون في تقديرك ان زوال اعتقاد الناس بخلود الروح ستكون له هذه النتائج ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش :

ـ نعم ، ذلك هو الرأى الذى ذهبت اليه ، فعندى أنه لا فضيلة بلا خلود •

ـ ان الذى يفكر على هذا النحو هو أحد اثنين : فاما سعيد جدا واما شقى جدا •

فسأله ايفان فيدوروفتش مبتسما :

ـ ولماذا أكون شقيا جدا ؟

فقال له الشيخ :

ـ لأن أغلب الظن عندى انك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود الروح ولا بشيء مما كتبته عن الكنيسة وعن المسألة الاكليركية •

فقال ايفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف الغريب وقد احمر وجهه على حين فجأة :

ـ قد تكون على حق ••• ولكننى لم أعبث الا نصف عبث ، لم أمزح الا نصف مزاح !

ـ أعلم أنك لم تمزح الا نصف مزاح • فان هذه المسألة لمّا تُحلَّ في قلبك حلاً حاسماً بعد ، وهى ما تزال تعذبك • ان الذين يعانون هذا العذاب يحبون أحياناً أن يعبثوا بعذابهم ، وتلك طريقة فى التعبير عن كربهم ويأسهم • وهذا ما تفعله أنت • فانك ليأسك تلهو الآن بكتابة

مقالات فى الجرائد ، أو بالاندفاع فى مناقشات فى الصالونات ، دون أن تكون مؤمناً بجدلك نفسه ، حتى أنك تسخر من هذا الجدل فى سرّك متألماً ... ان هذه المسألة لم تحسم فى نفسك بعد . وذلك هو مصدر عذابك الكبير ، لأن هذه المسألة تقتضى الحل حتماً ...

فقال ايفان فيدوروفتش يسأل الشيخ وقد تغيرت سحنته تغيراً غريباً وحدّق الى الشيخ مبتسماً ابتسامة لا يُعرف معناها :

ـ وهل من سبيل لى الى حلّها ؟ هل يمكننى أن أحلها ايجاباً ؟

ـ اذا لم تتوصل الى حسمها ايجاباً ، فلن تتوصل كذلك الى حلها سلباً ، وذلك بسبب قانون فى قلبك تعرفه حق المعرفة : وذلك هو بعينه عذابك . اشكر لله مع ذلك أنه وهب لك نفساً سامية قادرة على أن تعانى ألماً كهذا الألم : « ان الذكاء المتفوق يبحث عن الحقيقة فى الأعالى ، لأن وطننا فى السموات » . أسأل الرب أن يهب لك القدرة على أن تجد فى قلبك حلاً لهذا الصراع أثناء حياتك على هذه الأرض ، وأن ترافقك بركته طوال طريقك .

قال الشيخ ذلك ومدّ يده يريد أن يرسم ، وهو فى مكانه ، اشارة الصليب على ايفان فيدوروفتش ، ولكن ايفـــان نهض فجأة فاقترب من الشيخ وتلقى مباركته ، ثم قبل يده وعاد يجلس فى مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة . كان وجهــــه فى تلك اللحظة يعبر عن صـــلابة وجد ورصانة. ان هذه البادرة التى قام بها وان تلك الكلمات التى تبادلها مع الشيخ والتى كانت لا تُتوقع أبداً من ايفان فيدوروفتش ، ان ذلك كله قد أحدث فى جميع الحضور أثراً قوياً ، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر ويشيع فيه من أبهـــة . ساد الصمت بضع لحظات ، بينما كان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعاً . ولكن ميوسوف

بدد فجأة هـــذا الجو الأخّاذ اذ رفع كتفيه مستهزئاً ، ثم اذا بفيـــدور بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مشيراً الى ايفان فيدوروفتش :

ـ أيها الشيخ المقدس الرباني ! هذا ابنى ، هذا فلذة كبدى ، هذا ولدى الحبيب ! انه أعلى أبنائى قدراً وأكثرهم احتراماً ؛ هــو من نوع كارل مور قليـــلاً ان شئت ... أما الذى وصـــل الآن ، أما دمترى فيدوروفتش هذا الذى جئت أستعين بك عليه ، فانه أدناهم قدراً وأقلهم احتراماً ، انه صنو فرانتس مور ومنافسه . انك تعرف هذين البطلين من أبطال مسرحية شيلر « قطاع الطرق » ، وأنا من جهتى أشبِّه نفسى فى هذه القصة بجراف فون مور * . فانظر فى الأمر واقض فيه ! انقذنا ، فنحن فى حاجة لا الى دعواتك وصلواتك فحسب ، بل الى نبوءاتك أيضا .

قال الشيخ بصوت ضعيف منهك مكدود :

ـ لا تتكلم كما يتكلم انسان طائش العقل ، دعك من التهريج ، ولا تهن أهلك قبل أية مناقشة !

كان واضحاً أن التعب يستولى على الشيخ ، وأن قواه تبارحه شيئاً بعد شىء .

هتف دمترى فيدوروفتش واثباً عن كرسيه بحركة استياء واستنكار، هتف يقول :

ـ هذه مهزلة كريهة ! لقد كنت أوجس هذا وأنا آت الى هنا . مغفرةً أيها الأب المحترم ! (كذلك قال دمترى بافلوفتش للشيخ) . أنا امرؤ ضئيل الحظ من التعليم ، حتى اننى أجهل اللقب الذى يجب أن أناديك به . لقد خـــدعوك وغرروا بك ، فكنت ضحية طيبة نفسك وصفاء سريرتك حين أذنت بأن تجمعنا هنا . ان أبى لا يسعى الا الى الفضيحة والجرسة ... أما هدفه من ذلك ، فلا بد أنه يعرفه ... ان

فى كل عمل يقوم به حساباً يجريه • وأظن مع ذلك اننى أحزر مايضمر من نيات خفية فى هذه الساعة !

صاح فيدور ايفانوفتش هو أيضا يقول :

ـ انهم جميعا يتهموننى • هم جميعا يناصبوننى العداء • وبطرس الكسندروفتش يتهمنى أيضا •••

أضاف ذلك وهو يلتفت نحو ميوسوف ، مع أن ميوسوف لم يخطر بباله أن يقاطعه ، وتابع كلامه يقول مخاطبا ميوسوف :

ـ نعم يا بطرس الكسندروفتش ! لقد اتهمتنى • هم يأخذون علىّ أننى سلبت أولادى ثروتهم ، واغتنيت على حسابهم • أليس هنالك اذن محاكم ؟ اننى ألقى عليكم هذا السؤال • هلا اتجهت الى المحاكم يادمترى فيدوروفتش فتقول لك عندئذ ، بالاستناد الى الايصالات التى وقعتها ، والرسائل التى أرسلتها ، والاتفاقات التى أبرمتها ، ما هو مقدار ميراثك ، وما هو المبلغ الذى بددته ، وكم بقى لك ؟ لماذا يرفض بطرس الكسندروفتش أن يقضى فى خلافنا هذا ؟ ليس دمترى فيدوروفتش شخصاً أجنبياً عنه ، فلماذا يرفض ؟ سأقول لكم لماذا يرفض : لأنهم جميعاً يناصبوننى العداء ، مع أن دمترى فيدوروفتش ما يزال مديناً لى بمال فى آخر الحساب ! هو المدين لى ، وليس دينى عليه مبلغاً زهيداً بل هو ألوف الروبلات ، أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق فى يدى ! ان حياة القصف واللهو والتبذير التى يعيشها ترجع أصداء اشاعتها فى مدينتنا كلها ؛ وهو منذ كان فى الجيش قد تعود أن يرمى ألف روبل أو ألفين فى سبيل أن يقضى على عفاف البنات الشريفات ! هه ••• اننى أعرف هذا يا دمترى فيدوروفتش ••• اننى أعرف أدق التفاصيل الخفية ، وأستطيع أن أبرهن على ذلك عند الحاجة ! ••• فاعلم هذا اذن أيها

الأب المقدس جدا : لقد أفسد دمترى فيدوروفتش أخلاق أنبل فتاة من الفتيات ، فتاة تنتمي الى أسرة كريمة غنية كان أبوها رئيسه ، وهو كولونيل شهم شجاع مُنح لمزاياه وساماً رفيعاً هو صليب القديسة حنا مع سيوف ! لقد أفسد دمترى فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة اذ خطبها ، وها هي ذى الآن تقيم في مدينتنا كيتيمة مع أنها خطيبته ، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء « الساحرات » يعرفها الناس عندنا حق المعرفة . ولكن هذه المرأة الساحرة ، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدنى مع رجل محترم جدا ، هي قلعة حصينة لا يمكن الوصول اليها ـ كزوجة شرعية تماما ـ لأنها امرأة فاضلة ، نعم فاضلة ... يمينا انها لفاضلة ! هي الفضيلة بعينها أيها الآباء المبجلون ! غير أن دمترى فيدوروفتش يريد أن يقتحم هذا الحصن بمفتاح من ذهب ، وذلك هو السبب في هجومه عليّ الآن ، لأنه يأمل أن يسلبني مالاً . وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالاً بعد مال . انه يستدين ، وهل تعلمون ممن يستدين ؟ تخيلوا ! أأقول يا ميتيا ؟

قال دمترى فيدوروفتش بصوت مدوٍ :

ـ صه ! انتظر حتى أخرج من هنا ، لأنني لن أسمح لك بأن تدنس أثناء وجودي سمعة أنبل فتاة ! ان تجرؤك وحده على الالماع اليها اهانة لشرفها ... لا لن أطيق هذا !

كان دمترى فيدوروفتش يختنق غضباً وحنقاً .

قال فيدور بافلوفتش فيما يشبه الأنين وهو يحاول أن يمنع انسكاب دموعه :

ـ ميتيا ، ميتيا ! ورضى الأب على ابنه ، ما عساك فاعلاً به ؟ ما عسى يحدث لو لعنتك ؟



دیمتری کارامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

فزأر دمترى فيدوروفتش يقول وقد جُن جنونه غيظاً :

ـ ممثل هزلى وقح !

فقال فيدور بافلوفتش :

ـ انظروا كيف يعامل أباه ! انظروا كيف يعامل أباه ! وهو فى معاملة الآخرين أسوأ من ذلك أيضاً . اسمعوا هذا أيها السادة : فى مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم ؛ هو رائد (كابتن) محال على التقاعد . لقد نزلت بهذا الرجل مصائب ، واضطر أن يستقيل من الجيش ، غير ان كل شىء قد جرى مجرى رفيقاً ، فلا تشهير به ولا حكم عليه ، وظل شرفه سليماً لم يمسسه أذى ولم ينله سوء . وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة . فهل تعلمون ما صنع به دمترى فيدرووفتش منذ ثلاثة أسابيع ؟ لقد أمسكه من لحيته فى احدى الخمارات ، وجرّه الى الشارع وهو ما يزال ممسكاً لحيته ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على مرأى ومسمع من جمهرة الناس ! كل ذلك لأننى عهدت الى هذا الرجل سراً ببعض الأمور فى قضية صغيرة ! ...

قال دمترى فيدوروفتش وقد أخذ جسمه كله يرتعش حنقاً :

ـ هذا كذب ! هذا كله كذب ! هو حقيقة فى الظاهر كذب فى الباطن ! اننى لا أحاول أن أسوّغ هذا العمل الذى قمت به ، بل اننى تصرفت مع هذا الكابتن تصرف حيوان كاسر مفترس ، واننى نادم على ما بدر منى كل الندم ، واننى أشعر بالخزى والعار من ذلك الغضب المسعور الذى استبد بى . ولكن ذلك الكابتن ، ذلك الرجل الذى تقول انك عهدت اليه ببعض الأعمال، انما ذهب الى تلك التى وصفتها منذ هنيهة بأنها ساحرة ، فكلمها باسمك ، وعرض عليها أن تشترى السندات التى وقعتها لك ، وأن تلاحقنى لدى القضاء ، من أجل أن أودَع السجن

متى أصبحت أزعجك بمطالبي فيما يتعلق بتصفية حساباتنا . فكيف تجرؤ أن تأخذ عليّ اليوم أنني أميل الى هذه المرأة على حين أنك سألتها أنت نفسك أن تجتذبني اليها ! ثم انها لا تجد أي حرج في أن تقص هذا على جميع الناس ، ولقد روته لي أنا أيضا ، ساخرةً منك متهكمة عليك ! ولئن كنتَ تريد أن تُدخلني السجن فليس لهذا الا سبب واحد على كل حال ، هو أنك تغار مني ، لأنك حاولت أن تزعج هذه المرأة بحبك ! ذلك أمر أعرفه أيضا ! هي التي روته لي ضاحكةً عليك، هل تسمع ؟ ضاحكةً عليك ، مستهزئةً بك ! تلكم هي ، أيها المباركون، حقيقة هذا الرجل ، تلكم هي حقيقة هذا الأب الذي يظهر امتعاضه من سوء سلوك ابنه ! أيها السادة الذين شهدتم هذا المشهد ، اغفروا لي ما أظهرت من عنف ! لقد أوجست سلفاً ، وا أسفاه ، أن هذا العجوز الوقح انما جمعكم كلكم هنا من أجل أن يحدث وقيعة وأن يثير مشاجرة أما أنا فلقد جئت على نية الصفح والمغفرة اذا مدَّ اليَّ يده ، وعلى نية نسيان الاساءة التي ألحقها بي ، والشر الذي نالني به ، وعلى نية طلب الصفح والمغفرة كذلك . أما وأنه أهانني الآن ثم لم يكتف بذلك بل تجرأ على أن يهين أنبل فتاة ـ وهي فتاة أتحاشى أن أذكر اسمها في غير طائل ، لأنني أحترمها احتراماً دينياً ـ فقد قررت أن أفضح لعبته الحقيرة على رءوس الأشهاد ، رغم انه أبي ...

لم يستطع دمتري فيدروفتش أن يتابع كلامه . كانت عيناه تقدحان شرراً ، وكان تنفسه صعباً شاقاً . وكان جميع الحضور من جهة أخرى مضطربين أشد الاضطراب . وقد تجهم وجها الراهبين الكاهنين ، ولكنهما ينتظران قرار الشيخ . ولم يكن الشيخ قد تحرك . كان وجهه مصفراً اصفراراً رهيباً ، لا من انفعال ، بل من ضعف مرده الى المرض. ان ابتسامة ضارعة تطوف على شفتيه . وهو من حين الى حين يهمُّ ان

يرفع يده ليهدىء روع هؤلاء الممسوسين ، وكان يمكنه فى الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بحركته . ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما ، فكان يراقب المتحادثين بانتباه مشدود ، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم ، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً فى الموقف ما يزال خافيا عنه مستعصيا على فهمه . وأخيرا شعر بطرس الكسندروفتش ميوسوف بأنه أُذل اذلالاً عميقا ، وأنه جُلّل بالخزى والعار . قال بحرارة :

ـ اننا جميعا نتحمل قسطاً من تبعة هذه الجرسة ! كيف كان يمكننى أن أتنبأ بشىء من هذا حين جئت الى هنا ؟ غير أننى كنت أعرف مَنْ هذا الرجل .. يجب أن ينتهى هذا الأمر فورا ... أيها الأب المبجّل ، ثق أننى لم أكن على علمٍ دقيق بالتفاصيل التى كُشف عنها الآن . لقد كنت أرفض أن أصدّقها ، وانما عرفتها فى هذه اللحظة لأول مرة ... أبٌ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق ، ويتفق مع هذه المخلوقة على زج ابنه فى السجن ... هؤلاء هم الناس الذين اضطررت أن أجىء معهم اليك . لقد غُرِّر بى ، فأريد أن أصرّح علانية أننى قد غُرِّر بى وخدعت كما خُدع غيرى ...

أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه :

ـ دمترى فيدوروفتش ! لو لم تكن ابنى لناديتك الى المبارزة فورا .. بالمسدس .. على مسافة ثلاث خطوات .. والأعين معصوبة ...

ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه :

ـ نعم ، والأعين معصوبة ! ...

ان الكذابين العريقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثّلون يبلغون أحيانا من عمق تشبعهم بالدور الذى يمثلونه أنهم يرتعشون انفعالاً

ويبكون ، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم فى الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق) : أنت تكذب أيها الكاذب العريق ! أنت تمثل حتى فى هذه اللحظة ، رغم غضبك « المقدس » ورغم هذه الدقيقة « المقـدسة » من الحماسة والاندفاع • • •

قطّب دمترى فيدوروفتش حاجبيه ، وأظلم وجهـه ، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف • ثم قال بصوت رفيق مكظوم :

ـ ما كان أغبانى حين اعتقدت ، حين أمّلت وأنا أعود الى مدينتى التى رأيت فيها النور ، بصحبة هذه الملاك ، خطيبتى ، أننى سأستطيع أن أجمّل أيامه الأخيرة ، فاذا أنا لا أرى فيه الا رجلاً فاسقاً فاجراً ، وممثلاً دنيئاً خسيساً !

زأر العجوز يقول من جديد ، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها :

ـ الى المبارزة ! أما أنت يا بطرس الكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتنا كلهـا لعلها لم تضم ولن تضم فى يوم من الايام امرأة أنبل ولا أشرف ـ نعم ولا أشرف ، هل فهمت ؟ ـ من هذه المرأة التى وصفتها أنت فى غير تحرج ولا حياء بأنها « مخلوقة » ! وأما أنت يا دمترى فيدوروفتش ، فقد هجرت خطيبتك فى سبيل هذه «المخلوقة» وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التى هى خطيبتك لا ترقى الى مستوى كعب حذائها • تلكم هى المرأة التى سميتموها « مخلوقة » !

صاح الأب جوزيف يقول فجأة :

ـ هذا خزى وعار !

وانبرى الفتى كالجانوف الذى لم يفتح فمه بكلمة واحـدة حتى ذلك الحين ، انبرى يقول فجأة بصـوته المراهق وهو يرتجف امتياءً وامتعاضا واستنكارا :

ـ يا للفظاعة ! يا للشناعة !

وكان الفتى قد احمر احمرارا شديدا .

وزأر دمترى فيدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفع كتفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحدب الظهر ، زأر يقول فى نوع من التخفف :

ـ لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل ؟ هلاّ قلتم لى ، هلا قلتم لى هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول ؟

سأل دمترى فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر الى جميع الحضور واحداً بعد واحد ، مومئاً الى أبيه بيده . وكان يتكلم ببطء مقطّعاً ألفاظه .

هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب جوزيف :

ـ هل سمعتم أيها الرهبان ، هل سمعتم ما يقوله قاتل أبيه ؟ ذلك هو جوابه على قولك « هذا خزى وعار ! » . هلاّ قلت لى أين الخزى والعار ؟ ان هذه « المخلوقة » ، ان هذه « المرأة السيئة الخلق » ربما كانت أقدس منكما أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون فى الدير بالسلامة والخلاص ! صحيح أنها سقطت فى شبابها ضحيةَ بيئتها ، ولكنها « أحبت كثيراً » ، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التى أحبت ... *

قال الأب اللطيف جوزيف صابراً :

ـ المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب !

ـ بل من أجل ذلك الحب ، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان ... نعم ، من أجل ذلك الحب نفسه . تحسبون أنكم تحققون

لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرنب الحامز ، وتظنـــون أنفسكم بررة تقاةً صالحين . تغتذون بالأسماك ، تغتذون بسمكة صغيرة في اليوم، وتتخيلون أنكم تخدعون الله بأسماككم هذه التي تأكلونها ! ...

ـ هذا لا يحتمل ولا يطاق ، هذا لا يحتمل ولا يطاق ... هذا لا يغتفر بحال من الأحوال .

كذلك أخذ الحضور يقولون في كل جهة من الجهات .

غير أن هذا المشـــهد الذي بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على نحو لم يكن في الحسبان : نهض الشيخ فجأة ، فهرع أليوشا الذي كاد يفقد صوابه من شدة خوفه على الشـــيخ وعلى أهله ، هرع يسنده من ذراعه . اتجه الشيخ نحو دمتري فيدوروفتش ، فلما وصل اليه هـوى يركع على ركبتيه . اعتقد أليوشا أن الشيخ قد سقط على الأرض ضعفاً ووهناً ، ولـكن الأمر لم يكن كذلك . فحين صار الشـــيخ راكعا على ركبتيه ، انحنى يحيى دمتري فيدوروفتش عامدا ، وبلغ من شدة انحنائه أن جبينه كاد يلامس الارض . دُهش أليوشا دهشة عظيمة نسي معهـا أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض . وهذه بسمة صغيرة لا تكاد تُدرك ، تحرّك شفتي الشيخ . قال وهو ينحني لجميع ضيوفه في كل جهة من الجهات :

ـ معذرة ، معذرة ...

لبث دمتري فيدوروفتش جامدا من الذهول بضع لحظـــات : لقد ركع الشيخ أمامه ، فما معنى هذا ؟ وهتف يقول بعد لحظة :

ـ يا رب !

ثم أخفى وجهه بيديه ، وأسرع يخرج من الحجرة .

اتجه سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يستأذنوا صاحب الدار بالانصراف • واقترب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته •

ـ لماذا ركع ذلك الركوع ؟ أيكون هذا رمزاً الى شيء ؟

بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يجرى الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخاطب واحدا بعينه منهم (كانوا يجتازون فى تلك اللحظة نطاق الصومعة) •

فسرعان ما أجاب ميوسوف يقول بلهجة غضبى :

ـ لست مسئولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعا• لست أعبأ بحركاتهم ، ولكننى فى مقابل ذلك سأعفى نفسى بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش ، وثق أن هذا سيكون الى الأبد • أين ذلك الراهب الصغير الذى استقبلنا منذ قليل ؟

ولكن « ذلك الراهب الصـــغير » ، وهو الذى كان قد دعاهم الى الغداء عند كبير الرهبان ، لم يدعهم ينتظرونه ، فما ان هبطوا درجات المدخل الذى تطل منه الصومعة على الحقول حتى كان قد اقترب منهم ، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت •

قال له بطرس الكسـندروفتش دون أن يســتطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه :

ـ أيها الأب المحترم ، أرجو أن تنقـــل الى الأب كبـير الرهبان احترامى العميق ، وأن ترجـــو سيادته أن يتفضل بأن يعـذرنى ، أنا ميوسوف ، عن اضطرارى الى التخلف حتما ، بسبب ظروف طارئة لم تكن فى الحسبان ، عن التشرف بتلبية دعوته الى الغداء رغم رغبتى القوية فى تلبية هذه الدعوة الكريمة •

فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلا :

ـ آ ... هذا أنا . الظروف الطارئة التى لم تكن فى الحسبان هى أنا . اعلم أيها الأب الطيب أن بطرس الكسندروفتش قد سئم صحبتى ولولا ذلك للبى الدعوة بغير تردد . ولكنك سوف تذهب الى الدعـوة يا بطرس الكسندروفتش ، ستتشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير الرهبان ، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاما هنيئاً ! أنا الذى سأمتنع عن حضور الوليمة لا أنت ! هيَّا اذهبوا اليه ، أما أنا فأعود الى منزلى ، وآكل فى دارى ، لأننى لن أستطيع أن أبلع شيئا هنا ، هل فهمت يا بطـرس الكسندروفتش ، يا قريبى العزيز جدا ؟

ـ أنا لست قريبك ، ولم أكن قريبك فى يوم من الأيام أيها الانسان الدنىء !

ـ لقد تعمدت أن أقول لك قريبى لأزعجك ، فأنا أعلم أنك تخجل من هذه القرابة وتنكرها . ولكنك قريبى مع ذلك ، وفى وسـعى أن أبرهن على هذا بصكوك الأحوال المدنية وتقـويم القديسين . أما أنت يا ايفان فيدوروفتش فسأرسل اليك العربة لتعيدك الى المنزل فيما بعد ، فابق هنا ان شئت . ان اللباقة توجب عليك يا بطرس الكسندروفتش أن تذهب الى غداء الأب كبير الرهبان ، ولو لتعتذر اليه عن الفضيحة التى شاركنا فيها جميعا ...

ـ أصحيح أنك منصرف ؟ أأنت لا تكذب ؟

ـ كيف أجـرؤ أن أحضر المـأدبة بعد الذى حدث يا بطرس الكسندروفتش ؟ لقد اندفعت اندفاعا طائشا أيها السادة ، لقـد نسيت نفسى ، فاغفروا لى ذلك . هذا الى أننى مضطرب ، وأننى أشعر بالخزى أيضا . أيها السادة ، ان لبعض الناس شجاعة كشجاعة الاسكندر الكبير،

وان لبعضهم الآخر شـــجاعة كشجاعة الكلب الصغير « أمين » . وأنا كالكلب « أمين » أشعر فجأة بخوف ووجل ، فكيف أجرؤ بعد الذى بدر منى أن أشارك فى هذا الغداء وأن ألعق مرق الدير ؟ اننى لا أستطيع ذلك ، ان شعورى بالخزى أكبر من أن أستطيع ذلك ، فاعذرونى !

« الشيطان وحده يعلم أهو يقول الحقيقة أم هو لا يزال يمثـل تمثيلا» بهذا حدّث ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرّج الذى أخذ يبتعد ، بنظرةٍ فيها دهشة وحيرة . والتفت فيدور بافلوفتش الى وراء ، فلما لاحظ أنّ ميوسوف يراقبه أرسل اليه قبلةً باليد .

قال ميوسوف يسأل ايفان فيدوروفتش فجأة :

ـ أأنت ذاهب الى عند الأب كبير الرهبان ؟

ـ ولم لا أذهب ؟ ثم انه قد دعانى أمس دعوة خاصةً ...

ـ المصيبة اننى أشعر بأننى أكاد أكون مضطراً حقاً الى حضور هذا الغداء اللعين ، على الأقل لنعتذر عن الفضيحة التى وقعت ، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعتها . ما رأيك ؟

كذلك قال ميوسوف بلهجة هى تلك اللهجة المرة نفسها ، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذى كان يصغى الى كلامه . فأجابه ايفان فيدوروفتش قائلا :

ـ صحيح . يجب أن نشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن . وعلى كل حال ، لن يكون أبى معنا .

ـ أبوك ؟ ما كان ينقصنا الا أن يكون معنا ! يا للغداء اللعين !

مضى المدعوّن الى الغداء . كان الراهب الصغير يصغى الى حديثهم

صامتاً . واقتصر على أن قال لهم مرة واحدة حين اجتياز الغابة الصغيرة أن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وانهم تأخروا نصف ساعة . ولكن أحداً لم يجبه .

ألقى ميوسوف نظرة على ايفان فيدوروفتش ، وقال يحدث نفسه : « انه يحضر الغداء ، كأن شيئاً لم يحدث ! رأس عنيد ، وضمير كارامازوفي ! » .

٧

طالب اللاهوت

قادَ أليوشا شيخه الى المهجع وأجلسه على السرير . هي حجرة صغيرة جداً لا تضم من الأثاث الا ما لا غنى عنه . السرير صغير من حديد ، عليه قطعة من لباد تقوم مقام فراش . وفي ركن من الأركان ، قرب الأيقونات ، منضدة صغيرة عليها صليب وانجيل . تهالك الشيخ على السرير منهوك القوى . كانت عيناه تلتمعان وكان تنفسه ثقيلاً . فلما جلس ، ألقى على أليوشا نظرة طويلة منتبهة ، كأنه يفكر في أمره ، ثم قال له :

ـ اذهب يا عزيزي ، اذهب . يكفي بروفير لمساعدتي . أسرع . هم في حاجة اليك هناك . اذهب الى الأب كبير الرهبان ، واحضر ذلك الغداء لتخدم على المائدة .

فقال أليوشا بصوت متوسل ضارع :

ـ اسمح لي أن أبقى قربك !

ـ أنت هناك أفيد ! ليس بينهم هناك سلام . سوف تخدمهم ، وقد يكون في حضورك خير لهم . اذا استيقظت الشياطين فاتل دعاءً . واعلم

أيضا يا بنى العزيز جدا (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم • تذكر ما أقوله لك أيها الشاب : متى تفضل الرب فدعانى اليه ، اترك أنت هذا الدير ، واذهب ، اذهب تماما !

ارتعش أليوشا • فقال له الشيخ :

ـ فيم اضطرابك ؟ مكانك ليس هنا الآن • اننى أبارك بدايتك العظيمة فى هذا العالم ، ذلك أن هناك أشياء كثيرة ما يزال عليك أن تعرفها وأن تعانيها فى الحياة • وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة ، يجب أن تتزوج • ان عليك أن تتألم كثيرا وأن تقاسى كثيرا قبل أن تستطيع العودة الى هنا • لن تخلو حياتك من الأثقال والأعباء • ولكننى لا أشك فيك • ومن أجل هذا انما أرسلك • المسيح معك • فاعرف كيف تحافظ عليه فى نفسك ، ليحميك ويحرسك • ان آلاماً كبيرة تنتظرك ، ولكنك ستعرف السعادة فى العذاب • اليك نصيحتى ، اليك وصيتى : ابحث عن الفرح فى التجربة • اعمل ، اعمل بغير هوادة • تذكر ما أقوله لك اليوم ، ذلك أننى أعلم ، ولو أتيح لى أن أتحدث اليك مرة أخرى ، أن أيامى بل ساعاتى أصبحت بعد الآن معدودة •

عبرّ وجه اليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف • وأخذ طرفا شفتيه يرتعشان •

سأله الشيخ وهو يبتسم ابتسامة عذبة رقيقة :

ـ ما بك أيضاً ؟ فليسكب أبناء هذا العالم دموعاً على موتاهم • أما نحن هنا فاننا نغتبط مع الأب الذى يبارحنا الى العالم الآخر ، نبتهج معه ونصلى له • دعنى الآن • يجب على أن أصلّى • هيّا أسرع • ابق قرب أخويك ، لا قرب واحدٍ منهما ، بل قربهما كليهما •

ورفع الشيخ يده ليباركه . كان يستحيل على أليوشا أن يعصى أمر الشيخ مهما تكن رغبته فى البقاء معه قوية . وكان يحترق توقاً الى سؤاله عمَّا تدل عليه أو تعلن عنه تحيته لأخيه دمترى ساجداً . وكان هـذا السؤال على طرف لسانه ، ولكنه لم يجرؤ أن ينطق به . انه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدِّر أن ذلك فى الامكان . أما وأنه لم يفعل ، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل . غير أن تلك التحية قد أحدثت فى نفس أليوشا تأثيراً قوياً جدا : كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية دلالة خفية ومعنى سرياً . ان هذه الحركة التى قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر ، وربما كانت مثقلة بالهول . ولما خرج من نطاق الصومعة حاثاً خطاه من أجل أن يصل الى الدير قبل ابتـــداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر ، طبعا)، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة : لقد عادت تدوِّى فى نفسه كلمات الشيخ التى يعلن فيها أن نهايته قد قربت . ان ما يتنبأ به الشيخ بمثل هذه الدقة وهذا التحديد لا بد أن يقع . هـــذه فى نظر أليوشا حقيقة مقدسة . فما عسى تصير اليه حاله وحيدا بعد موت الشيخ ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه ؟ الى أين عساه يذهب ؟ أيمسك عن البكاء ويترك الدير ؟ يا رب ! ان أليوشا لم يشعر منذ زمن طـويل بمثل الذى يشعر به الآن من حـــزن . أغذَّ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التى تفصل المنسك عن الدير ، واذ أحس بعجـــزه عن احتمال خواطره التى كان ثقلها يسحقه سحقاً ، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التى تبلغ أعمارها مئات السنين ، والتى تنتصب قائمة على جهتى الممر فى الغابة . ليست المسافة بعيدة ؛ هى خمسمائة خطوة فى أكثر تقدير ؛ وفى مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحداً . ولكن ما ان بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة . كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر .

سأله أليوشا حين أدركه :

ـ أتنتظرني أنا ؟

فأجابه راكيتين ضاحكاً :

ـ حزرتَ • أنت ذاهب الى الأب كبير الرهبان ، أعلمُ ذلك • ان عنده وليمة غداء • هل تعرف أنه منذ اليوم الذي استقبل فيه الأسقف الذي كان يصحبه الجنرال باخاتوف ـ هل تتذكر هذا ؟ ـ لم يعدّ مائدة تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من عناية ! لن أحضر أنا الغداء • اذهب اليه وحدك • قدّم المرق للضيوف • هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك يا أليوشا : ما دلالة ذلك الرمز ؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقى عليك هذا السؤال •

ـ أي رمز تعنى ؟

ـ تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمتري فيدوروفتش • لقد بلغ من السجود له أن جبينه صدم الأرض •

ـ هل تقصد الأب زوسيما ؟

ـ طبعا أقصد الأب زوسيما •

ـ صدم جبينه الأرض ؟

ـ أيكون في هـذا التعبير اخـلال بواجب الاحترام ؟ طيب ••• لنفرض أنني أخللت بواجب الاحترام • ولكن ما معنى ذلك الرمز ؟

ـ أجهل معناه يا ميشا •

ـ كنت أعلم أنه لن يشرحه لك • وليس في الأمر شيء من سرٍ طبعا • هي تلك الحركات التقية الجوفاء نفسها تتكرر • ولكن الشيخ

لم يمثل هذه يمثل هذه التمثيلية بغير نية يبيتها • ان جميع الثرثارين والاقليم سيتحدثون الآن فى هذا الأمر وسيتساءلون : « ما دلالة هـذا الرمز على المستقبل ؟ بأى شىء يؤذن هـذا الرمز ؟ » • فى رأيى أن الشيخ لا تعوزه حصافة الرأى ولا يعوزه نفاذ البصيرة • لقد أحس أن هناك جريمة سترتكب ، لقد شم هذه الرائحة • ان الروائح فى منزلكم تنذر بشر مستطير •

ــ أية جريمة تقصد ؟

كان واضحا أن راكيتين يحاول أن يجد السبيل الى الافصاح عما يدور فى رأسه ويجول فى خاطره •

ــ فى أسرتك انما سترتكب هذه الجريمة • ستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك الثرى أبيك • وبسبب ذلك انما صدم الأب زوسيما الأرض بجبينه • فاذا وقع شىء فى ذات يوم قال الناس : « لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس ! » • ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدم المرء بجبينه الأرض ! ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزا ، وسيرفعون الشيخ الى السحاب ، وسيظلون يذكرون بغير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة ، واكتشف المجرم • ان معتوهى القرية لا يفعلون الا هذا ؟ يرسمون اشارة الصليب أمام حانة ، ويرمون المعبد بالحجارة ! ألا ان شيخك ليشبههم : يطرد الصالح طرداً بالعصا ، ويسجد أمام قاتل •

ــ أية جريمة تقصد ؟ أى قاتل تعنى ؟ أأنت مجنون ؟

قال أليوشا ذلك وتوقف ، فتوقف راكيتين أيضا ، وقال يسأل أليوشا :

ــ أية جريمة ؟ أتزعم أنك تجهل الجريمة التى أعنيها ؟ ألا اننى أراهن على أنك فكرت فى هـذا الأمر من قبل • وددت لو أعلم بهذه

المناسبة . اسمع يا أليوشا : انك تقول الحقيقة دائما ، رغم أنك جالس دائما بين كرسيين : أفكرت فى هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه ؟ أخطر ببالك أم لا ؟

أجاب أليوشا بصوت خافت :

ـ خطر ببالى :

فاضطرب راكيتين هو نفسه ، وهتف قائلا :

ـ ماذا ؟ خطر ببالك ؟ أهذا ممكن ؟

فتمتم أليوشا يقول :

ـ أقصد أننى ... لم يخطر ببالى ... ولكننى حين سمعتك تتكلم على هذا النحو الغريب جدا منذ هنيهة ، خيِّل الىَّ أنه خطر ببالى .

ـ أرأيت ؟ لقد عبَّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً . أرأيت ؟ انك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك اليوم قد خطرت ببالك الجريمة ! لم يخطىء اذن ظنى ...

فقاطعه أليوشا يقول قلقاً مهموماً :

ـ انتظر ، انتظر ! من أين أدركت هذا كله ؟ ... ولماذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد ؟ وددت لو أعرف ذلك أولا ...

ـ هذان سؤالان اثنان يتميز أحدهما عن الآخر ، ولكنهما سؤالان مشروعان ، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة . فأما عن السؤال الأول وهو : من أين أدركت هذا كله ؟ فاننى أقول لك اننى ما كان لى أن أدرك شيئاً وما كان لى أن أحزر شيئاً لولا أننى فى لحظة معينة قد نفذت الى سريرة أخيك دمترى فيدوروفتش ، فرأيت ما فى نفسه بمثل

ومض البرق . لقد فهمت كل جوانب نفسه بفضل ســمة من سمات طبعه . هناك بالنسبة الى رجال من نوع أخيك ، وهم رجال شرفاء فى حقيقة أمرهم ، ولكنهم ميالون الى الملذات مقبلون على المباهج ، هنـاك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه فى معاملتهم ، والا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم ! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عربيد لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ، ولم يعرف القصد والاعتدال فى شىء من الأشياء يوما ، فسينجرف الاثنان ، فتقع مصيبة فى يوم من الأيام .

ـ لا يا ميشا ! اذا لم يكن ما تقصده الا هذا ، فأنت مخطىء ، وأنا أسترد تفاؤلى ، لن يمضيا الى هذا الحد .

ـ فلماذا أراك ترتعش اذن كورقة فى مهب الريح ؟ اسمع : ان أخاك ميتيا رجل شريف ، أسلّم لك بذلك (هو غبى لكنه شريف) ، غير أنه يحب الملذات . ذلك أساس طبيعته ، وهو العنصر المسيطر فى نفسه . وقد أخذ هذا عن أبيه الذى أورثه شـهوانيته الخبيثة . اننى لأستغرب فى بعض الأحيان حين أنظر اليك يا أليوشا . كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك ؟ كيف استطعت أن لا تقارب امرأة ؟ انك واحد من أسرة كارامازوف رغم كل شىء ... والميل الجامح الى اللذة قـد أصبح فى أسرتك مرضا فتاكا ، أصبح قرحة ً فى الروح ، أصبح سلاً مفترساً ! فانظر الى هؤلاء الشهوانيين الثلاثة الذين يرقب بعضهم بعضاً الآن ويتربص به مخفياً فى كمه خنجراً . لقد تجابهوا هم الثلاثة أنفاً لأنف ، ولعلك ستصبح رابعهم .

ـ أنت مخطىء فى موضوع تلك المرأة . ان دمترى يحتقرها ... كذلك قال أليوشا فى تشنج . فأجابه راكيتين :

ـ من ؟ جروشنكا ؟ * لا يا صاحبى ... لا ... انه لا يحتقـرها

البتة • يكفى أن تعلم أنه قادر على ترك خطيته فى سبيلها حتى تصبح على يقين من أنه لا يحتقرها ذلك الاحتقار الذى تتصوره ! هناك شيء •• شيء لا تستطيع حتى الآن أن تدركه أيها الأخ ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة ، ويعشقون جسدها ، أو حتى جزءا من جسدها (ويجب أن يكون المرء مترف الذوق ليفهم هذا) ، فانهم يصبحون قادرين على أن يضحوا بأولادهم فى سبيلها ، وأن يبيعوا أباهم وأمهم من أجلها ، وأن يخونوا روسيا ارضاءً لها ، وأن يبيعوا وطنهم لينالوا الحظوة لديها • قد يكونون شرفاء فاذا هم يسرقون ، وقد يكونون رقاقاً لطافاً انسانيين فاذا هم يقتلون ، وقد يكونون أوفياء أمناء فاذا هم ينسون ويغدرون • ان شاعرنا بوشكين الذى تغنى بالمفاتن الجسدية للمرأة ، قد مجّد ساقيها الصغيرتين فى شعر * • وهناك آخرون لا ينظمون شعرا ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا الى هاتين الساقين الصغيرتين الا ويعتريهم من ذلك اضطراب عنيف • وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب • لا أيها الأخ ، ان الاحتقار لا حيلة له فى ذلك ، هذا اذا سلمنا جدلا بأنه يحتقر جروشنكا • قد يكون صحيحا أنه يحتقرها ، ولكنه لن يستطيع بعد اليوم أن ينفصل عنها وأن يتحرر من أسرها •

أفلت لسان أليوشا يقول فجأة :

ـ أنا أفهم هذا !

فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خبيث :

ـ هه ! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا النحو منذ الكلمات الأولى التى نطقت بها • ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك ، وانما زلّ به لسانك • وهذا يجعل لاعترافك قيمة أكبر ، فالموضوع ليس بالجديد عليك ، ولا شك أنك فكرت اذن فى اللذة !

ذلك هو اذن فتانا العف الذى احتفظ بطهارته ! أنا أعلم يا أليوشا أنك انسان رقيق القلب ، أنا أعلم أنك قديس . ولكن مهما تكن فتى نقياً بريئاً هادئاً فان الشيطان وحده يعلم ما الذى فكرت فيه ، وما الذى أصبحت تعرفه منذ هذه السن ! أنت فتى بكر طاهر الذيل ، ولكنك سبرت الأغوار السحيقة ... اننى ألاحظك وأرصدك منذ زمن طويل ! أنت واحد من أسرة كارامازوف ... أنت واحد من هذه الأسرة تماماً كاملاً ... ولا بد أن نؤمن بأن للعرق والوراثة أثراً رغم كل شيء.. أنت شهوانى من جهة أبيك ، بسيط من جهة أمك . مالى أراك ترتعد فجأة ؟ ربما لأننى أقول الحقيقة ؟ هل تعلم ماذا حدث ؟ لقد تضرعت الىّ جروشنكا منذ بضعة أيام قائلة : « جئنى به (كانت تتكلم عنك) ، فأخلع عنه ثوب الراهب الذى يرتديه ! » . ليتك تعرف كم ألحت : « جئنى به ، جئنى به ! » ولقد تساءلت ما الذى يجعلها تهتم بك هذا الاهتمام كله ، ما الذى يشوقها فيك الى هذا الحد ؟ ... هى امرأة خارقة ، صدقنى ...

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة مصطنعة :

ـ بلغها تحيتى ، وقل لها اننى لن أجيء . أكمل ما كنت تريد أن تقوله يا ميشا ، وسأجيبك بعد ذلك .

ـ ما حاجتى الى مزيد من الكلام ؟ ان كل شيء واضح ! اذا كان فيك أنت انسان يحب اللذة والمتعة ، فما بالك بايفان ، أخيك من أبيك ؟ انه كارامازوف هو أيضاً ... ان مشكلة الاخوة كارامازوف جميعاً تكمن هنا : هم أناس شهوانيون ، أناس طماعون ، أناس بسطاء . ان أخاك ايفان يسلّى نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل ، خاضعاً فى ذلك لحساب لا أدرى ما هو ، لأنه فى حقيقته ملحد ، وهو لا يخشى أن يعترف بهذه الخطة وهذا الصغار ، أخوك الطيب ايفان ! ... وعدا

هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتيا خطيبته ، وسيظفر بذلك فيما يبدو • كيف ؟ بموافقة ميتيا ••• ان ميتيا مستعد لأن يتنازل له عنها ، بغية أن يتحرر منها بأقصى سرعة ، وأن ينصرف الى جروشنكا انصرافاً كاملاً • وهذا كله ـ لاحظ ذلك ـ لا يبث شيئا من الاضطراب فى نفسه النبيلة المبرأة من المنفعة ! ان أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً • الشيطان وحده يعلم ماذا يجرى فى نفوسكم • ان أخاك يعترف بحطته وصغاره ، ولكنه يسرع الى هذا الاعتراف فرحاً به كل الفرح • اسمع أيضاً : ان أباك ، العجوز الصغير ، قد وقف الآن يعترض طريق ميتيا • لقد أفقدته جروشنكا هذه صوابه ، وذهبت برشــده ، فمتى لمحها سال لعابه شبقاً • وبسببها وحدها انما أثار منذ قليل تلك الجرسة فى حجرة الشيخ ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة خالعة العذار • ان أباك مجنون جنونَ قط بقطة ••• لقد استخدمها فى الماضى بأجرٍ فى شئون حقيرة من شئون الخمارات التى يديرها • فلما لاحظ ذات يوم أنها جميلة ، اشتعل اشتعالَ نار الهشيم على الفور ، وهو منذ ذلك اليوم يكد ويجهد فى ملاحقتها ، ويحاصرها بعروضه ، عروضه الخسيسة طبعاً ••• ولكن الأب اصطدم على تلك الطريق بالابن • وأما جروشنكا فهى لمَّا تعزم أمرها بعد ، ولا قررت أيهما تختار ، وانما هى تمثل عليهما كليهما ، وتسلى بالهاب نار غرامهما • انها مترددة تساءل أيهما أنفع لها وأجدى عليها • فأما الأب فانها تستطيع أن تسحب منه مالاً ولكنه لن يتزوجها ، وهى تعلم ذلك ، حتى لقد يعود الى بخله بعد أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته • وذلك هو السبب فى أنها لا تهمل ميتيا ولا ترى أن عليها أن لا تحفل به ، فان كان ميتيا لا يملك مالاً فانه قادر على أن يتزوجها ، على أن يتزوجها تماماً ! يدع خطيبته ذات الجمال الذى لا يضاهى ، يدع كاترين ايفانوفنا ذات المحتد النبيل ،

ابنة الكولونيل ، ليصبح زوج جروشنكا التى كان يعيلها فى الماضى تاجر عجوز ، فلاح فاسق ، اسمه سامسونوف ، هو عمدة المدينة • ذلك كله ظرف يمكن ان يؤدى حقاً الى جريمة • وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك ايفان • وهو يجنى من ذلك فائدة من كل ناحية من النواحى : يظفر بكاترين ايفانوفنا التى يتوق اليها ، ويظفر ببائنتها التى تبلغ ستين ألف روبل ، وذلك أمر لايستخفف به رجل صغير مثله لا يملك قرشا واحدا• لاحظ أيضا أنه لا يكون فى هذا كله قد أساء الى ميتيا ، وانما يكون قد أحسن اليه احسانا يعتز به ••• اننى أعلم من مصدر مطلع أن ميتيا ، وقد كان منذ أسبوع فى احدى الخمارات ثملاً يقضى وقته مع نساء غجريات ، قد صرح بصوت عالٍ أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا* ، وأن أخاه ايفان هو الجدير بها حقاً • أما كاترين ايفانوفنا فمن المؤكد أنها لن تصمد مدة طويلة أمام رجل مغوٍ مثل ايفان فيدوروفتش ، حتى أنها منذ الآن مترددة بين الاثنين • ألا اننى لأتساءل ما الذى تجدونه أنتم جميعاً فى ايفان هذا حتى تفتنوا به هذا الافتتان ، وحتى تكونوا أمامه فى حالة تشبه أن تكون وجداً ! صدقنى اذا قلت لك انه يسخر منكم ويضحك عليكم جميعاً •

سأله أليوشا بلهجة جافة وهو يقطب حاجبيه :

ـ من أين عرفت هذه الأشياء كلها ؟ ولماذا تؤكدها هذا التأكيد القاطع الجازم واثقاً من صحتها هذا الوثوق كله ؟

ـ تسألنى هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابى • انك تسلّم اذن، فى قرارة نفسك ، بأننى على حق •

ـ أنت تحمل عداوة لايفان ! ليس ايفان بالرجل الذى يرضى أن يغريه المال •

ـ صحيح ؟ طيب ... وما قولك بجمال كاترين ايفانوفنا ؟ ليست المسألة مسألة مال فحسب ، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مغر .

ـ ايفان يهدف الى ما هو أسمى من ذلك لن يرضى أن تفتنه ألوف الروبلات . انه لا يسعى الى المال والترف والرخاء . ربما كان يتوق الى الألم ويرنو الى العذاب ! ...

ـ ما هذا الحلم أيضا ؟ ألا انهم جميعاً لمتشابهون ، هؤلاء النبلاء !

ـ اسمع يا ميشا ! ان نفس ايفان قلقة عاصفة ، وان عقله مهموم بمسائل خطيرة . ان فكراً عميقاً يقطن فيه ويعذبه . هو من أولئك الذين لا يسعون الى الملايين ، وانما يتطلعون الى حل مشكلات الحياة الروحية .

صاح راكيتين يقول مفصحاً عن كره أصبح لا يخفى نفسه :

ـ ترهات لفظية ! وسرقات أدبية فوق ذلك ... انك لم تزد على أن كررت أقاويل شيخك !

قال راكيتين ذلك ثم تبدل تعبير وجهه ، وتقبضت شفتاه ، وتابع كلامه :

ـ ولكن ليس فيه سر ، ليس فيه لغز ! ما أغبى كلامك ! ما من شيء فيه الا ويمكن حزره بسهولة . يكفي أن تفكر قليلاً حتى تفهم كل شيء . ان مقالته التي نشرها في الجريدة مضحكة سخيفة باطلة ! أما النظريات التي عرضها منذ قليل فهي غبية بليدة ! « لا فضائل بغير ايمان بخلود الروح . كل شيء مباح اذا لم نؤمن بخلود الروح . » (وقد صاح أخوك ميتنكا عندئذ يقول : « انني أسجل هذا الكلام » ، هل تذكر ؟) . هذه نظرية تغري أناساً أوغاداً أوباشاً ـ مالي أصبح فظاً فأنطق بهاجر القول ، هذه بلاهة ! ـ لا ... لا أناساً أوغاداً أوباشاً،

بل مثقفين أدعياء يحملون فى أنفسهم « مشـــكلات عميقة لا تُحل » ! ألا انهم لمتبجحون ! ان جـــوهر تفكيرهم هو ما يلى : « من جهة أولى يستحيل عدم التسليم ، ومن جهة أخـرى يستحيل عدم الانكار ! » . ليست نظريته كلها ، من أولها الى آخرها ، الا سفاهة ! ان الانسـانية ستجد فى نفسها القدرة على أن تحيا للفضيلة ، سواء آمنت بخـلود الروح أم لم تؤمن . لسوف يكفيها من أجل ذلك أن تستلهم معـانى الحرية والمساواة والأخوة ...

لقد أصبح راكيتين عاجزاً عن كبح جماح نفسه ، فالتهب حماسة. وها هو ذا يصمت فجأة كأنه تذكر شيئا ما .

قال وهو يبتسم ابتسامة مصـــطنعة متكلفة أكثر من الابتســـامة السابقة :

ـ كفانا كلاماً فى هذا الموضوع ! لماذا تضحك ؟ أتحسبنى نمـاماً خبيثاً ؟

ـ لا ... ليس يخطر ببالى أن أحسبك نماماً . انت انسان ذكى ... ولكن فلندع هذا الموضوع ... ثم اننى قد ضحكت بغير سبب . أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تندفع هذا الاندفاع يا ميشا . لقد أدركت من اللهجة الجامحة والنبرة العنيفة فى أقوالك أنك أنت أيضا لست تشعر نحو كاترين ايفانوفنا بعدم الاكتراث . انك لا تقف منهـا موقف من لا يبالى بها ... وقد راودنى هذا الظن منذ زمن طويل أيها الأخ . فذلك هو السبب فى أنك تكره ايفان . أنت تغار منه عليها .

ـ لعلنى أغار منه على بائنتها أيضا ؟ هه ؟ ما رأيك ؟

ـ لا ... لن أتكلم عن المال ... لن أهينك !

ـ أصدق قولك ما دمت قد قلته . ولكن فليأخذكما الشيطان ، أنت

وأخاك ايفان ••• ألا يمكنك أن تفهم اذن أن في وسع المرء أن يكرهه بصرف النظر عن كاترين ايفانوفنا ؟ هلاّ قلت لى لماذا يجب على أن أحبه ؟ لقد قال عنى سوءاً منذ أيام ، أفلا يكون من حقى والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضا ؟

ـ لم أسمعه يتحدث عنك يوما ، لا بخير ولا بشر ••• انه لا يهتم بك •

ـ تذكرت الآن مع ذلك أنه ، منذ ثلاثة أيام ، قد قال عنى ، فى منزل كاترين ايفانوفنا ، كلاماً أهون منه الشنق • انه يجهل من أنا ، انه يجهل خادمك المطيع ! أما من منا يغار من الآخر ، فان لى فى هذا رأياً ••• لقد تفضل فقال عنى انتى ان لم أقرر فى مستقبل قريب جدا أن أصبح أرشمندريت ، فسأسافر حتماً الى بطرسبرج ، فأعمل هنالك فى صحيفة يومية كبرى ، كناقد طبعا ••• وأبقى محرراً مدة عشر سنين ، ثم أصبح بعد ذلك صاحب الجريدة ، وأوجه الجريدة فى اتجاه آخر ، فأجعلها جريدة لبرالية ذات ميول الحادية مع صبغة اشتراكية ، مراعياً رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر ••• معنى هذا أننى سألعب على الحبلين ، وسأخدع الناس ! وبعد ذلك ، حين أشارف على نهاية حياتى الصحفية ، أكون قد جمعت ـ فى رأى أخيك ـ رأس مال ضخما رغم الصبغة الاشتراكية ، فأستثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودى صغير ما ، الى أن أبنى عمارة فخمة فى سان بطرسبرج ، فأجعل طابقها الأرضى مقراً لتحرير الجريدة ، وأؤجر باقى العمارة شققاً • حتى لقد حدد أخوك المكان الذى سأبنى فيه العمارة ، فقال اننى سأبنيها قرب الجسر الحجرى الذى سيقام فيما يقال على نهر نيفا بين حى ليتاينى وحى فيبورج •••

- ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا ميشا نقطةً نقطة في أغلب الظن !

كذلك هتف أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع أن يمسك عنه .

- أنت أيضا أصبحت ساخراً يا ألكسى فيدوروفتش !

- لا ... لا ... تلك مزحة ... سامحنى ! وانما كنت أفكر في شيء آخر تماما . ولكن قل لى : من قصَّ عليك هذه التفاصيل ، ومن أين جئت بها ؟ انك لم تكن حاضرا عند كاترين ايفانوفنا فيما أتخيل ، حين دار الحديث عنك !

- لم أكن حاضراً عند كاترين ايفانوفنا حين دار هـذا الحديث عنى ، ولكن دمترى فيدوروفتش كان حاضرا . ومنه انما سمعت هـذا هذا الكلام بأذنىَّ . أو قل ان شئت انه لم يذكره لى أنا ، ولكننى سمعته على غير ارادة منى طبعا ، لأننى كنت في غرفةنوم جروشنكا ، ولم أكن أستطيع الخروج من الغرفة ، لأن ايفـان فيدوروفتش كان متلبثاً في الغرفة المجاورة .

- صحيح ... تذكرت الآن ... هى قريبتك فيما أظن ، أليس كذلك ؟

- قريبتى ؟ جروشنكا قريبتى ؟ أتراك جُننت ؟ أيكون عقـلك مختلاً ؟

كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمرارا شديدا .

- لماذا ؟ ألستما قريبين ؟ لقد سمعت أنكما قريبان ...

- سمعت ؟ أين سمعت هذا ؟ انكم معشر السـادة كارامازوف ،

تصطنعون أوضاع من ينتمى الى الطبقة النبيلة العريقة ، على حين أن أباك كان مهرّجاً على موائد الأغنياء ، وأن هؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً بوجبةٍ يأكلها فى المطبخ ! أنا أعلم أننى لست ابن قس ، وهذا يجعلنى فى نظرك انساناً لا قيمة له ، ولكن هل ذلك سبب كافٍ لتهيننى بهذه الخفة وهذا الطيش اهانة لا داعى اليها ؟ ان لى كرامتى وشرفى أنا أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشنكا ، البنت المبذولة ، فاعلم هذا ! ...

كان راكيتين غاضبا مهتاجا .

ـ معذرة ... سامحنى ... أرجوك ! لم يكن فى وسعى أن أعرف هذا . ثم لماذا تصفها بأنها مبذولة ؟ ألعلها ... واحدة من تلك النساء ... ؟

كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة . ثم أردف يقول :

ـ أعود فأقول لك اننى قد ذُكر لى انها قريبتك . وأنت تراها أحيانا كثيرة ، وقد أكدت لى بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب .. فهل كان يمكننى أن أتصور أنك تحتقرها الى هذه الدرجة من الاحتقار؟ وهل هى تستحق هذا الاحتقار حقا ؟

ـ قد يكون ثمة أسباب تدعونى الى التردد اليها . لن أقول لك أكثر من ذلك . أما القرابة مع جروشنكا فان أخاك ، أو ربما أباك ، هو الذى سيفرض عليك هذه القرابة ، يفرضها عليك أنت لا علىّ أنا ... ها نحن وصلنا الآن . الأفضل أن تمضى رأساً الى المطبخ . آه .. ولكن ما الذى يحدث ؟ أنكون قد تأخرنا الى هذا الحد من التأخر ؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الغداء مع ذلك ! اللهم الا أن يكون الأخوان كارامازوف قد دبرا مقلباه مما عُهد فيهم ! أكيد ... هذا

أبوك يبتعد ، ووراءه ايفان فيدوروفتش • انهما يهربان من عند الأب كبير الرهبان • وهذا هو الأب ايزودور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام • ان أباك يصيح أيضا ، ملوّحاً بيديه • انه يقذف شتائم ، فيما يبدو ••• أنظر ! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته • هل تراه ؟ وهذا ماكسيموف يركض في تلك الجهة ! ألا انها لفضيحة حقاً ! اذن لم يتم الغداء ••• أتراهم ضربوا كبير الرهبان أيضاً ؟ اللهم الا أن يكون الآخرون هم الذين ضربوهم ! ••• وددت لو أرى هذا •••

لم يكن تعجب راكيتين في غير محله • لقد وقعت فضيحة فعلاً •• فضيحة لم تكن في الحسبان ••• فضيحة لم يُسمع بمثلها من قبل ••• وقعت بمجرد « وحي والهام » •••

٨

فضيحة

حين وصل ميوسوف وايفان فيــدوروفتش الى عند رئيس الدير (كبير الرهبــان) ، تغيرت حالة بطرس ألكسندروفتش النفسية تغيراً سريعاً ، بتأثير طبيعته المهــذبة المرهفة : لقد شعر فجأة بالخجل من حنقه . أحس فى قرارة نفسه أنه كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيــدور بافلوفتش مزيداً من الاحتقار ، فما يفقد هدوءه فى حجرة الشيخ بسببه ، الى حيث يفلت منه زمام سيطرته على نفسه . قال لنفسه وهو يصــعد درجات المدخل الى مسكن كبير الرهبان رئيس الدير : « مهما يكن من أمر ، فان الرهبــان لا يتحملون تبعة شيء مما حدث ، فما ينبغى أن أؤاخذهم .. وما داموا هم أيضا أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب نيقولا ، رئيس الدير ، يرجع الى أصل نبيل هو أيضا) ، فلماذا لا أكون فى معاملتهم لطيفا رقيقا مهذبا ؟ لن أتهجم على آرائهم ، بل سأتظاهر بتأييدها ، فأكسب مودتهم ، وسأبرهن لهم أخيرا على اننى لا شيء يجمعنى بهذا الرجل الجافى الغليظ، هذا الايزوب ، هذا المهرِّج ، هذا التافه ، وأننى فى هذه المغامرة كلهــا ضحية مثلهم ! » .

أما حقوق قطع الأشجار فى الغابة ، وحقــوق الصيد فى النهر

(وكان ميوسوف لا يعلم من جهة أخرى على وجه الدقة ما هو الجزء الذى كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه) ، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلا كاملا نهائيا ، وأن يعلن هذا التنازل فى ذلك اليوم نفسه ، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة . سوف يسحب القضية من المحاكم ، ويضع حداً لهذه الدعوى القديمة التى أقامها على الدير .

وقد تعززت نياته الطيبة هذه فى نفسه مزيدا من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير . والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام ، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين . ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ ، فان الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة : هو أثاث من خشب الأكاجو منجَّد بالجلد ، ولكنه من الطراز القديم البالى الذى كان رائجاً فى العقود الأولى من هذا القرن . حتى أن الأرض لم تكن مطلية . ولكن كل شىء كان فى مقابل ذلك يسطع نظافة وزهاءً ، وكانت حافات النوافذ تزدان بأزهار جميلة ثمينة . على أن الشىء الذى كان يجذب الانتباه ويفتن البصر فى تلك اللحظة خاصة انما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة ، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف : غطاء نظيف جدا ، أوان لامعة ، ثلاثة أصناف من الخبز أُحسن خبزها ، زجاجتان من نبيذ ، قمقمان مليئان بشراب العسل اللذيذ الذى عرف به الدير ، ابريق كبير من زجاج فيه شراب التفاح الذى يُصنع بالدير وهو شراب اشتهر كثيرا فى المنطقة كلها . ولم يكن على المائدة كحول . وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام فى ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق : حساءَ سمك ، فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال انها رائعة ، فأضلاعاً من سمك الحفش ، فمثلجات ، فثمارا مسلوقة بالسكر ، فبالوظة فاكهة * . كان راكيتين قد اطلع اطلاعا دقيقاً على كل شىء . انه لم يستطع أن يقاوم فضوله ، فتسلل

حتى الى مطبخ رئيس الدير ، وكان يدخله من حين الى حين ؟ ولقد كانت له علاقات فى كل مكان على كل حال ، وكان يعرف كيف يكلم الناس • ان له نفساً قلقة حسودا • وكان لرضاه العظيم عن كفاءاته الكبرى ومقدراته العظيمة ، يميل الى تضخيمها والمبالغة فيها • وكان واثقا من أنه سيصبح فى المستقبل شخصا مرموقا ، وأنه سيمثل فى الحياة دورا كبيرا • ولكن أليوشا الذى كان يحبه كثيرا كان يؤلمه أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر الى الاستقامة والشرف ، حتى أنه لا يظهر عليه أنه يخطر بباله لحظةً أنه كذلك : ان راكيتين ، لثقته بأنه لايسرق مالاً من دروج الناس ، كان يعدُّ نفسه مثال الكمال الأخلاقى • وما كان لأليوشا، ولا كان لأحد فى العالم كله ، أن يحمله على تغيير رأيه فى هذه النقطة•

ولأن راكيتين شخصية ثانوية فانه لم يكن من الممكن أن يدعى الى وليمة الغداء هذه ، غير أن الأبوين جوزيف وبائيسى قد دُعيا اليها ، كما دُعى كذلك راهب كاهن آخـر • ففى اللحظة التى وصل فيها بطرس ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وايفان فيدوروفتش كان هؤلاء ينتظرون فى غرفة طعام رئيس الدير ، وكان المالك ماكسيموف جالساً كذلك فى أحد الأركان • استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدما اليهم حتى وسط الغرفة • انه شيخ فارع القامة نحيل الجسم ، ما يزال قوى البنية ، له وجه طويل صارم وقور • حيًّا ضيوفه باحترام ، ولكن هؤلاء اقتربوا فى هذه المرة يتلقون مباركته ، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبل يده ، غير أن الرئيس سحب يده فى الوقت المناسب ، فلم يتم تقبيل ••• أما ايفان فيدوروفتش وكالجانوف فانهما أقبلا بغير تردد ، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبيعى بل وشعبى ، وطبعا على يده قبلةً كبيرة سُمع صوتها •

بدأ بطرس الكسندروفتش الكلام وهو يبتسم ابتسامته الودود اللطيفة ، ولكن بلهجة فيها جد ووقار واحترام :

ـ نعتذر الى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا الى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذى تفضلت بدعوته أيضا • لقد اضطر أن يعدل عن حضور الوليمة ، ولهذا أسبابه • لقد سمح لنفسه ، فى حجرة الأب المبجَّل زوسيما ، بأن يندفع فى مناقشات عائلية مؤسفة مع ابنه ، فقال كلاماً فى غير محله ••• أى بدرت منه أقوال غير لائقة أبدا ••• وهذا أمر أظن أن سيادتك قد علمت به (قال هذا وهو ينظر الى الراهبين الكاهنين) • وقد أدرك خطأه ، وشعر بأسف شديد ، وأحس بالخجل والعار ، فرجانا أنا وابنه ايفان فيدوروفتش أن نعرب لك عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق ندمه • وهو يأمل أن يصلح خطأه فى المستقبل ، ويرجوك أن تتكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه ناسياً ما بدر منه•

صمت ميوسوف • انه بعد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه أنه لم يبق فيه أى أثر للحنق الذى ألمَّ به من قبل • أصبح يحب الانسانية من جديد ، حباً صادقاً لا تردد فيه •

أصغى رئيس الدير الى كلامه بوقار ورصانة ، ثم أحنى رأسه قليلا ، وقال يجيبه :

ـ يؤسفنى غياب رفيقكم كل الأسف • فلعله كان سيتعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة ، ولعلنا كنا سنشعر نحوه بمحبة • تفضلوا فاتخذوا أماكنكم الى المائدة أيها السادة •

ووقف أمام الأيقونة ، وأخذ يتلو صلواته بصوت عالٍ ، فخفض جميع الضيوف رءوسهم باحترام ، وخشوع ، وتقدم المالك ماكسيموف الى أمام ضاماً يديه الصغيرتين احداهما الى الأخرى معبراً عن تقوى خاصة .

وفى تلك اللحظة بعينها انما أخرج فيدور بافلوفتش من جعبته آخر مكيدة • يجب أن نذكر أنه قد كان فى نيته حقا أن ينصرف • كان قد أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد سلوكه الشائن الفاضح فى حجرة الشيخ ، حتى لكأن شيئاً لم يكن ، لا لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه ، أو لأنه كان يلوم نفسه ، فربما كان عكس هذا هو الأصح ! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة سيكون خالياً من الاحتشام فى هذه الظروف • ولكن ما كادت عربته المترجحة توصله الى أمام درجات مدخل الفندق ، حتى أحس بتردد مفاجىء ، فتوقف فى اللحظة التى كان يهم أن ينزل فيها من العربة • تذكر أقواله نفسها التى نطق بها فى حجرة الشيخ : « اننى أشعر كلما دخلت على بعض الناس أننى أسوأ من الآخرين ، وأن الجميع يعدوننى مهرجاً ! فأقول لنفسى عندئذ : فليكن ! سأقوم بدور المهرج ، لأنكم جميعا أكثر منى غباوة ، وأخبث سريرة » • تمنى فى تلك اللحظة لو ينتقم من صحبه بحقارته • وتذكر بهذا الصدد ، فى الوقت المناسب تماما ، أنه سئل مرةً عن السبب الذى يجعله يكره فلاناً من الناس ، فأجاب فى اندفاعة من اندفاعات تهريجه الوقح قائلا : « لماذا ؟ سأقول لكم • صحيح أنه لم يسىء الىّ أية اساءة • ولكننى ارتكبت أنا فى حقه حقارة سافرة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة التى ارتكبتها فى حقه ! » فلما راودت هذه الذكرى فيدور ايفانوفتش ضحك ضحكة خبيثة صامتة ، وأخذ يفكر بضع لحظات ، والتمعت عيناه، وارتعشت شفتاه ، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأة : « لقد صُبَّت الخمرة فيجب شربها • سوف أتم ما بدأته • » • ان الشعور الخفى الذى خضع له فيدور بافلوفتش فى ذلك الظرف يمكن التعبير عنه على النحو التالى : « لقد فاتنى أوان رد الاعتبار الى نفسى • فالأولى ما دام الأمر كذلك أن

أمضى الى النهاية ، وأن أهينهم مزيدا من الاهانة ، فسوف يرون عندئذ على الأقل اننى لا أخشاهم ، وأننى لا أحفل بما عدا ذلك ! » • وهاهو ذا يأمر الحوذى بأن ينتظر ، وها هو ذا يعـــود أدراجه الى الدير مستحثاً خطاه ليمضى الى عند كبير الرهبان رأساً • لم تكن فى رأسه أية خطة واضحة معينة ، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يســتطيع السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ، وأن أى أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة الى الحـدود القصوى من الدناءة ـ دون أن يتعرض مع ذلك للمضى الى أبعــد من ذلك ، ودون أن ينجرف الى ارتكاب جريمة أو الى اقتراف أى عمـل يمكن أن يؤدى به الى المثول أمام المحاكم • انه يعرف دائماً كيف يحجم فى اللحظة المناسبة ، بل كثيرا ما كانت تدهشه سيطرته على نفسه فى هذا المجال • ولقد وصل الى غرفة طعام رئيس الدير فى اللحظة التى كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقترب الضيوف من المائدة • وقف ساكنا جامدا على عتبة الغرفة ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم أطلق ضحكة طويلة متقطرسة خبيثة بينما هو يتفرس فى جميع الأشخاص الحاضرين وقـد ظهرت فى وجهه معانى التحدى والاستفزاز • وصاح يقول بصوت دوّى فى الغرفة كلها :

ـ ها ••• لقد ظنوا أننى انصرفت ••• فهأنذا أعود •

اتجهت اليه جميع الأنظار خلال لحظات فى جو من صمت مطبق ، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شىء كريه أهوج طائش ، وأن فضيحة توشك أن تقع • ولم يلبث بطرس ألكسندروفتش أن انتقـل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضى الى حالة غضب شديد وحنق مسـعور • ان الغيظ الذى كان قد هدأ فى نفسه وانطفأ فى قلبه قد اشتعل فى مثـل لمح البصر سرعة ، وانطلق يتدفق تدفقا قويا • صاح يقول :

ـ لا ... هذا كثير فى هذه المرة . لن أطيق ذلك ولن أحتمله . اننى لا أستطيع الصبر على هـذا بأى وجه من الوجوه وأى حال من الأحوال .

ازدحم الدم فى رأسه ، وتعثرت كلمـاته واختلطت أقواله ... ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة ! ... وها هو ذا يتناول قبعته .

قال فيدور بافلوفتش :

ـ ما الذى لا يستطيع أن يحتمله وأن يصبر عليه« بأى وجه من الوجوه وأى حال من الأحوال » ، أيها الأب المبجَّل ؟ أتأمرنى بالدخول أم تأمرنى بالانصراف ؟ أتقبلنى ضيفاً مدعواً الى مائدتك أم لا ؟

فأجابه رئيس الدير كبير الرهبان :

ـ أهلا وسهلا . اننى سعيد برؤيتك .

ثم أسرع يقول للحضور :

ـ أيها السادة ، اننى أسمح لنفسى بأن أرجوكم من أعماق قلبى أن تنسوا خلافاتكم العابرة المؤقتة ، وأن يلتئم شملكم حول هـذه المائدة مصلِّين لله بعاطفة المحبة ووفاق الأخوة .

فأعول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره :

ـ لا .. لا .. هذا مستحيل !

فقال فيدور بافلوفتش :

ـ اذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة اليه ، فهو مستحيل بالنسبة الىَّ أيضا . لن أبقى أنا ما لم يبق هو . فعلى هذه النية انما جئت . لن أترك بطـرس ألكسندروفتش بعـد الآن : فاذا انصرفت أنت يا بطـرس

ألكسندروفتش انصرفت أنا أيضا ، واذا بقيت أنت بقيت أنا . ذلك هو وفاق الأخوة ! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الاخوة هذا أيها الأب الرئيس . انه لا يريد أن يكون أخى ! انه ينكر القرابة التى بيننا ! أليس كذلك يا فون سون ؟ لقد عثرت عليه واهتديت اليه ، صاحبى فون سون ! نهارك سعيد يا فون سون !

تمتم المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً :

ـ أأنا الذى ... تسمينى بهذا الاسم ؟

فقال فيدور ايفانوفتش :

ـ طبعا أنت ! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك ؟ ألعلك تحسب أن الأب الرئيس هو الذى يجب أن يسمى بهذا الاسم ؟

قال ماكسيموف :

ـ ولكننى لست فون سون ، وانما أنا ماكسيموف ؟

ـ بل أنت فون سون ! هل تعرف يا صاحب السيادة من هو فون سون ؟ انه بطل دعوى قضائية شهيرة . لقد قُتل فى ماخور ـ أحسب أن هذا هو الاسم الذى يطلق على تلك الأماكن فى بلادنا ـ قُتل ... وجرِّد من كل ما كان معه ؛ ثم وضع فى صندوق دون مراعاة لتقدمه فى السن ، ثم سمِّر على الصندوق لوح من خشب ، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من سان بطرسبرج الى موسكو بالقطار البطىء . وبينما كان الصندوق يسمَّر كانت المومسات تغنى وترقص على أنغام البسالتريون ، أعنى على أنغام البيانو . ان فون سون ذاك هو الذى ترونه الآن أمامكم . لقد بُعث بعد موته . أليس هذا صحيحا يا فون سون ؟

ـ ما هذا الكلام ؟ ماذا يريد أن يقول ؟

هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة .

صاح بطرس الكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالجانوف :

ـ فلننصرف !

فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم الى الأمام خطوة أخرى :

ـ لا .. لا .. اسمحوا لى .. تحملوا أن أنهى كلامى أولاً . لقد ادُّعى أننى تصرفت تصرفاً خاليا من الاحتشام والاحترام فى حجرة الشيخ منذ قليل . لماذا ؟ لأننى أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة ! ان بطرس الكسندروفتش ، قريبى المحترم ، يؤثر أن يكون فى الكلام من الرفعة أكثر مما فيه من الصدق أما أنا فأقول : فلتذهب الرفعة الى الشيطان ! أليس هذا صحيحا يا فون سون ؟ أيها الأب الرئيس المحترم ! قد أكون مهرِّجاً ، واننى لأقدم نفسى مهرِّجاً ولكننى فارس من فرسان الشرف ، وأحب أن أتكلم هنا بصراحة تامة . نعم ، أنا فارس من فرسان الشرف ، على حين أن بطرس ألكسندروفتش هذا ليس الا حزمةً من غرور جريح ، ولا شىء غير هذا ! لئن جئت الى هذا الدير ، لقد جئت على نية أن ألاحظ وأن أحكم . ان ابنى الكسى يحقق فى هذا الدير خلاصه . وأنا أبوه . فمصيره يهمنى ، ومن واجبى أن أسهر عليه . لقد ظللت أمثّل طول الوقت ، ولكن دون أن تفوتنى كلمة واحدة مما كان يقال . لم يفتنى شىء البتة ، وأحب أن أعرض عليكم الآن الفصل الأخير من تمثيليتى ! اننى أعرف كيف تجرى الأمور عندنا . ما سقط فقد سقط ، أليس هذا صحيحا ؟ ان الخطأ الذى يرتكب يستمر قروناً ! ولكن لا ... اننى لا أقبل هذا ... اننى لا أسلم بهذا ... اننى أثور وأتمرد ! أيها الآباء المحترمون ! ان اراءكم تثير فى نفسى أعمق الاستياء

والاستنكار ! الاعتراف سرٌ مقدس أشعر أنا نفسى تجاهه بتأثر قوى ، وتقوى شديدة ، وعبادة خاشعة ! ولكن الناس فى تلك الحجرة يعترفون جاثين على ركبهم ، متكلمين بصوت عالٍ . فهل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز ؟ ان آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً فى الأذن ، وبهذا الشرط وحده انما يبقى الاعتراف سراً مقدساً . تلك قاعدة قديمة محترمة معظّمة . كيف تريدون منى مثلاً أن أروى بحضـــور جميع الناس أننى فعلت كيت وكيت ـ هل تفهمون ؟ ـ كيت وكيت ... أقصد كيت ... وكيت ... قد لا يكون من الحشمة أحيانا أن يروى المـرء أموراً بعينها . تلك فضيحة أيها الآباء المبجّلون ! من ذا الذى يضـمن أن لا تصيروا من هذا شيئا بعد شىء الى ملة الخلستيس ؟ * ... لسوف أشكوكم الى المجلس الكنسى الأعلى عند أول مناسبة ... أما ابنى ألكسى فقد قررت أن استرده الىّ وأصطحبه الى منزلى ...

هناك ملاحظة يجب علينا أن نذكرها هنا . كان فيدور بافلوفتش قد سمع فى الماضى صدىً ضعيفا عن الخلافات الاكليركية ، فهـــو اذن يعـــرف على أى وتر يجب أن يضرب . ان وشايات خبيثة كانت قـد انتشرت فى الماضى ، فوصلت حتى الى الأسقفية (حدث هذا لا فى مدينتنا وحدها بل حدث كذلك فى أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ) . قيـل فيما قيل ان الاحترام الذى يحاط به الشيخ فيه غلو كثير ، وانه لا داعى اليه ، بل قيل أيضا انه يسىء الى مهابة رئيس الدير ويسىء الى كرامته . وقيل خاصة ان المشايخ يسيئون استعمال سرّ الاعتراف ، وقيلت أيضـا حماقات كثيرة من هذا النوع . ثم سقطت هذه الاتهامات من تلقاء نفسها بعد ذلك ، سقطت عندنا ، كما سقطت فى كل مكان على كل حال . ولكن الشيطان الأحمق الذى ركب فيـــدور بافلوفتش وأخـــذ يهـــوى به متوترَ الأعصاب الى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذى كان

فيدور ايفانوفتش لا يدرك منه كلمة واحـــدة على كل حال ، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة ، لا سـيما وأن أحدا لم يكن قد جثا على ركبتيه أمام الشيخ فى ذلك اليوم ، ولا أعترف بصوت عال ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينه شيئا وانما هو يردد ما كان قد سمعه ، متذكرا أقاويل قديمة • لكنه وقد أخرج هـــذه الحماقة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاما سخيفا فأراد عندئذ أن يبرهن للآخرين ، وأن يبرهن لنفسه خاصة ، أن ما قاله ليس فيه شىء من سخف • ورغم أنه كان يدرك ادراكا كاملا أن كل كلمة أخرى يقولها انما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى فى الطيش والحماقة مزيدا من التردى ، فانه لم يســـتطع أن يتوقف على المنحـــدر ، بل أخذ يهـوى الى القاع منكّس الرأس •

صرخ بطرس السكندروفتش يقول :

ـ يا للحقارة ! يا للصغار !

فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول :

ـ اسمح لى • جاء فى كلام الأقدمين : « قد قيل عنى سوء ، وقـد اتهمت بأشياء منكرة • فلمـا سمعت تلك الأقـوال ، قلت لنفسى : « ان المسيح هو الذى أرسل الىّ هذا الدواء لأشفى ، انه يفرض علىّ هـذه المحنة لأخلص نفسى من غرورها » • لذلك أشكر لك كلامك أجـزل الشكر •

قال كبير الرهبان ذلك وحيّا فيـدور بافلوفتش منحنياً له انحناءة كبيرة •

ـ ته ته ته ! •• نفاق قديم وجمل مهترئة ! •• معروفة هذه الجمل وهذه الحركات ! لا تخدعنى هـذه التحيات ! « قبلة على الشـفتين وطعنة

في القلب » * تماماً كما ورد في كتاب شيللر « قطاع الطرق » ! انني أكره الكذب أيها الآباء ، وأحب الحقيقة ! ولكن الحقيقة ليست في أكل الأسماك الصغيرة ، سبق أن قلت لكم ذلك . هلاّ قلتم لي أيها الآباء لماذا تصومون ؟ لماذا تنتظرون مكافأة في السماء على ما تحتملونه من حرمان ؟ ألا انني مستعد أنا أيضاً لأن أصوم راضياً في سبيل مكافأة من هذا النوع ! دعك من هذا أيها الراهب المقدس ! لأن تمارس الفضيلة في الحياة ، ولأن تكون نافعاً للمجتمع ، خيرٌ من أن تلوذ بدير لتحمي نفسك من الحاجة الى العمل ، ولتنال فوق ذلك مكافأة في الحياة الآخرة ! ولكن لعل هذا يبدو لك أصعب وأشق ... أنا أيضاً أجيد الكلام أيها الأب الرئيس ..

قال ذلك ثم اقترب من المائدة وأضاف :

ـ فلننظر ماذا أعدوا هنالك ! يا سلام ... خمر معتق ، وشراب العسل اللذيذ الذي يباع في متجر الاخوة اليسايف * : فليس الأمر أمر أسماك صغيرة في هذه المرة ، أليس كذلك أيها الآباء الطيبون ؟ هيه ... هيه ... ما أروع هذه الزجاجات التي أخرجوها ! ... ومن ذا الذي أمد الدير بهذه الأشياء ؟ من ؟ الفلاح الروسي الطيب الشهم الذي يعمل ويكد ويجهد ، ثم يدفع الى الدير بالدريهمات التي جنتها يداه المتشققتان، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة ! ألا انكم لتمصون دم الشعب ، أيها الآباء المبجلون !

قال الأب جوزيف :

ـ عيب ما تقول .

أما الأب بائيسي فقد أصرّ على الصمت في عناد . وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة ، وتبعه كالجانوف .

قال فيدور بافلوفتش :

ـ انني أترككم أيها الآباء الطيبـــون ، تماما كما فصـــل بطرس الكسندروفتش ! ولن أجيء بعد اليوم الى هنا ، فلو تضرعتم الىَّ جاثين على ركبكم ما عدت قط ! لقد أهديت اليكم ألف روبل ، فأيقظ هـــذا شهوتكم وأسال لعابكم ، أليس كذلك ؟ انكم تحاولون أن تكونوا لطافا ... هأ هأ ... لا جدوى من هذا ... لن أعطيكم بعد الآن شيئاً .

ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده ، وقد عصفت به ســـورة عنف مقصود :

ـ لشـــبابي انما أنتقم الآن ... ان هـــذا الدير قد لعب في حياتي دوراً ... جعلني أسكب سيولاً من دموع مرة ! أهجَم عليَّ زوجتي الكليوكوشا . أثقلتموني باللعنات في جميع معابدكم ، وأسأتم الى سمعتي في المنطقة كلها ! كفى كفى أيها الرهبان ! اننـــا نعيش في عصر لبرالي ، اننا نعيش في عصر ســـفن البخار وسكك الحديد . لن أعطيكم لا ألف روبل ولا مائة روبل ، ولا مائة كوبك ... لن أعطيكم شيئاً البتة .

ملاحظة أخرى : ان الدير لم يحتـــل في حياته مكاناً في يوم من الأيام ، ولا جعله يسكب دموعاً مرة . ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه في التمثيل أنه أوشك أن يصدِّق هو نفسه ، خلال لحظة قصيرة ، الألم الذي كان يتظاهر به ، حتى لقد كاد يبكي اشفاقاً على نفسه مما عاناه من هذا الألم المزعوم . ومع ذلك أحس في تلك اللحظة أنه قد آن له أن يتوقف .

أما كبير الرهبـــان فانه لم يردَّ على أكاذيبـــه الخبيثة التي نطق بها الا بأن انحنى برأسه انحناءة خفيفة ، وقال بصوت رصين :

ـ لقد قيل أيضاً : «افرح للاهانة الظالمة التي تُلحق بك على رءوس

الأشهاد ، دون أن تضطرب ، ودون أن تغضب ممن أهانك » . وذلك ما سنفعله .

ـ ته ته ته ... سفاسف وترهات ! لكم ما تشاءون أيها الآباء الطيبون ! ... أما أنا فذاهب . وسآخذ ابنى من هذا المكان الى الأبد ، بحكم ما لى عليه من سلطة الأب على ابنه . يا ايفان فيدوروفتش ، يا بنى المطيع ، هلاّ تحملت أن آمرك بأن تتبعنى . وأنت يا فون سون ، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً ! تعال الىّ بالمدينة فى غير ابطاء ! ان المرء ليتسلى هناك ويروّح عن نفسه . وليست المسافة بعيدة . هى فرسخ صغير . وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل ينسيك مطبخ الدير . سوف تتغذى عندى . وسيكون على المائدة كونياك وخمور شتى . عندى خمرة رائعة من فاكهة التوت . هيه ! فون سون ! لا تفوّت هذه الفرصة ، والا كنت تجهل سعادتك !

قال ذلك وخرج وهو يصرخ محركاً يديه . وفى تلك اللحظة انما لمحه راكيتين منصرفاً ، ودلّ عليه أليوشا .

فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد :

ـ ألكسى ! عد الى البيت فى هذا اليوم نفسه ... عد الى البيت نهائياً ... خذ وسادتك وفراشك ، ولتغب عن هذا المكان الى الأبد ، فما يراك أحد فيه بعد اليوم !

توقف أليوشا مذهولاً ، ينظر الى المشهد بانتباه أخرس . كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه فى عربته ، وكان ايفان فيدوروفتش يتهيأ لأن يتبعه مظلم الوجه صامتا ، حتى دون أن يلتفت الى وراء ليودّع أليوشا . وفى تلك اللحظة انما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل ، مشهد تهريجى عجيب ، كان لا بد أن يختم آخر ذلك النهار . ان

المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربة . كان يلهث لهاثاً شديدا بعد أن ركض ركضاً سريعا حتى لا يصل متأخرا . كان راكيتين وأليوشا قد رأياه يندفع راكضاً . وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربة بينما كانت قدم ايفان فيدوروفتش ما تزال عليها ، وتمسك بهيكل العربة وأخذ يبذل جهودا كبيرة ليثب الى داخلها .

صاح يقول بصوت نحيل وهو يقفز الى العربة ويطلق ضحكة صغيرة فرحة ، وقد أشرق وجهه وبدا عليه أنه مستعد لكل شيء :

ـ جئت ، جئت معكم .

فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر :

ـ ألم أقل انه فون سون ؟ انه فون سون الأصلي رجع من عند الأموات ! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك ؟ بأي واجب من واجبات الأدب أخللت ، وما الذي دعاك الى العدول عن غدائهم ؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية ! ان لي جبهة أنا أيضا ، ولكن لا يسعني أيها الأخ الا أن أعجب بجبهتك ! هيّا اقفز ، اقفز بسرعة ! دع له أن يمر يا فانيا * ... سيكون هذا مضحكا ... سوف يجد مكانا بين أقدامنا. أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون سون ؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذي ؟ اقفز الى المقعد بجانب الحوذي يا فون سون !...

ولكن ايفان فيدوروفتش الذي كان قد استقر في العربة ، لم يلبث أن أرسل الى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة، فاذا بمكسيموف يطير مسافة ثلاثة أمتار ! وكانت معجزةً أنه لم يسقط .

وصرخ ايفان فيدوروفتش يأمر الحوذي بصوت غاضب :

ـ امش !

فسأله فيدور بافلوفتش :

ـ ما بك ؟ لماذا ضربته ؟

ولكن العربة كانت قد سارت • ولم يجب ايفان فيدوروفتش •

أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت ، وهو يختلس النظر الى ابنه :

ـ عجيب أمرك ! انت الذى تخيلت هذه الزيارة للدير ، ودفعتنى اليها ، وشجعتنى عليها ، فما لى أراك الآن غاضبا ؟

فقاطعه ايفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس :

ـ كفَّ عن قول هذه السخافات ! أَوْلى بك الآن أن ترتاح !

وصمت فيدور بافلوفتش من جديد ، دقيقتين ، ثم قال فى تفخم :

ـ قليل من الكونياك لن يضر الآن •••

ولكن ايفان فيدوروفتش لم يستجب •

قال الأب :

ـ ستشرب معى قليلا من الكونياك فى المنزل •

وظل ايفان فيدوروفتش صامتا •

فأردف فيدور بافلوفتش يقول :

ـ أما أليوشا فسأخرجه من الدير مع ذلك ، رغم أن اخراجه قد لا يرضيك كثيرا أيها الابن المطيع جدا ، كارل فون مور •

ولم يزد جواب ايفان فيدوروفتش على أن هز كتفيه احتقارا • ثم أشاح بوجهه ، وأخذ يتأمل الطريق • ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة الى أن بلغا المنزل •

الباب الثالث: الشهوانيون

١

في الخدمة

أن منزل بافلوفتش ، رغم أنه بعيد جدا عن وسط المدينة ، لم يكن مع ذلك فى أقصى الضاحية . هو مبنى أميل الى القدم ، لكنه حسن المظهر : طابق أرضى واحد ، رمادى اللون ، يغطيه سقف من صفيح أحمر ؛ قد أُحسن بناؤه جدا ، ففى امكانه أن يصمد لأذى الزمن طويلا ؛ مريح واسع ، يضم حجرات مظلمة متعددة ، وأركانا منعزلة كثيرة ، وسلالم صغيرة تباغتك هنا وهناك ؛ الفئران فيه كثيرة ، ولكن فيدور لا يقلقه وجودها ، حتى لقد كان يقول : « ان المرء لا يحس بالعزلة كثيرا فى المساء ، اذا كان هنالك فئران . » . ذلك أنه قد تعود عند هبوط المساء أن يصرف خدمه الذين يسكنون فى مبنى ملحق ، فيحبس نفسه بالمنزل طول الليل . وكان ذلك المبنى الملحق ، وهو مبنى واسع متين ، يقع فى الفناء ، وهناك انما كان فيدور بافلوفتش قد أقام مطبخه . صحيح أن المبنى الرئيسى كان يضم مطبخا ، غير أن فيدور بافلوفتش كان يمقت الروائح الكريهة ، فكان يؤتى اليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاء وصيفا على السواء . ويمكن أن نقول على وجه العموم ان هذا المنزل قد تصوره بانيه على أساس أن يضم أسرة كبيرة العدد ، وكان يمكن أن يسكنه عدد من السادة والخدم

يساوى خمسة أضعاف العدد الذى يقيم فيه منهم الآن • ومع ذلك لم يكن يقطنه فى الآونة التى جرت فيها حوادث هذه القصة الا فيدور بافلوفتش وايفان فيدوروفتش ، ولم يكن الخدم الذين يعيشون فيه الا ثلاثة : جريجورى العجوز ، وامرأته العجوز مارفا ، والخادم سميردياكوف ، وهو رجل ما يزال شابا • يحسن أن نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة • الحق أنه ليس هنالك أشياء كثيرة نضيفها الى ما سبق أن قلناه عن جريجورى فاسيلفتش كوتوزوف الذى أسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية • انه رجل صلب العزيمة متشدد الرأى ، يمضى الى هدفه فى عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل الا جحودها (وذلك لأسباب كثيرا ما تدهشك قلة المنطق فيها) • وفى وسعنا أن نقول عنه انه رجل شريف عنيف نزيه • لقد ألحت عليه امرأته مارفا اجناتفنا ، رغم أنها كانت طوال حياتها خاضعة لارادة زوجها خضوعا أعمى ، ألحَّت عليه الحاحاً قوياً ، ولا سيما غداة تحرير الأقنان ، أن يترك فيدور بافلوفتش فيسافر الى موسكو فيفتتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئا من مال ادخراه) • ولكن جريجورى أيقن عندئذ يقينا نهائيا أن امرأته تقوده الى الخطأ والضلال، لأن « كل امرأة ناقصة العقل » ، وأضاف الى ذلك قوله انه لا يليق بهما أن يتركا مولاهما القديم ، مهما تكن عيوبه « لأن ذلك هو الواجب الذى يقع على عاتقهما الآن » • وسأل الرجل زوجته مارفا قائلا :

ـ هل تفهمين أن هنالك واجبا لا يجوز التخلى عنه ؟

فأجابته مارفا تقول جازمة :

ـ أنا أعرف ما معنى الواجب ، ولكننى لا أفهم أبدا ما هو الواجب الذى يلزمنا بالبقاء هنا •

فقال لها :

ـ سيان أن تفهمي وأن لا تفهمي . وعليك بعد الآن أن تسكتي !

وكذلك كان . بقي جريجوري ومارفا . ولقد حدَّد لهما فيدور بافلوفتش أجراً ليس بالأجر المرتفع طبعا ، ولكنه كان يدفع لهما هذا الأجر في مواعيده بغير تأخير . وكان جريجوري يشعر من جهة أخرى أن له على مولاه نفوذا لا يُنكر . كان جريجوري يحس ذلك ، وكان على حق في احساسه هذا : ان فيدور بافلوفتش المهرِّج ، الماكر ، العنيد، الذي يعرف كيف يكون صلبا في « بعض شئون الحياة » على حد تعبيره، كان ضعيفا الى أقصى درجات الضعف في « شئون أخرى من شئون الحياة » . وكان يعرف أنواع ضعفه ، وكان لمعرفته بها محاصرا بمخاوف شتى . كان يرى أن على المرء « في بعض شئون الحياة » أن تكون أذناه دائما بالمرصاد ، وأن يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح الحياة بدونه صعبة جدا . وكان جريجوري شخصا موثوقاً حقاه حتى لقد اتفق لفيدور بافلوفتش مرارا (أثناء حياته) أن أوشك أن يضرب ، وأن يُضرب ضربا مبرحا يلحق به أذى شديدا ، ولكن جريجوري كان ينقذه دائما من المأزق ، مع ازجاء النصح له بخطاب طويل وموعظة مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات . على أن الخوف من الضرب ما كان له أن يكفي وحده لافقاد فيدور بافلوفتش شجاعته في بعض الأحيان . ان هناك ظروفا أخطر من ذلك كثيرا ، وان هناك ضروبا من القلق أشد ، وان هناك حالات نفسية دقيقة معقدة كان فيدور بافلوفتش يعانيها دون أن يستطيع تفسيرها هو نفسه ، هي حاجة مفاجئة قوية صارمة عارمة الى الاحساس بأن الى جانبه شخصا قريبا منه مخلصا له . تلك لحظات يمر بها فيدور بافلوفتش وتشبه أن تكون مرضاً : انه وهو الفاجر العاهر الى أقصى حدود الفجور والعهر ، انه وهو الرجل القاسي في

شهوانيته قسوةَ حشرة رهيبة ، كان يحس فى بعض لحظات من السكر بنوع من خوف سرى وتضعضع نفسى يرهقانه جسمياً ان صح التعبير ، حتى لقد كان يصف ذلك أحيانا بقوله : « يبدو لى فى تلك اللحظات أن روحى تندفع خارجةً من أحشائى » • ففى تلك اللحظات انمـــا كان يجب أن يوجد على مقربة منه ، فى المبنى الملحق على الأقل ، ان لم يكن فى غرفته نفسها ، رجل موثوق أمين مخلص ، رجل يختلف عنـــه كل الاختلاف ، رجل ليس فيه من الفجور والعهر شىء ، لكنه رغم معرفتـه بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على أسراره ، يغفرها له من باب الاخلاص ولا يعارضه فيها ، ولا يلومه عليها خاصةً ، ولا يهدِّده بعقوبات مقبـلة لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر ••• رجل يمكن أن يحميه عند الحاجة ••• ممَّن يحميه ؟ من انسان مجهول ، ولكنه رهيب خطر •• كان لا بد له حتماً فى مثل تلك الساعات من أن يوجد على مقربة منـــه كائن « آخر » ، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل ، يمكن أن يعده صديقا ، حتى يستطيع أن يناديه اليه فى لحظة من كآبة ، وأن يستدعيه لا لشىء الا أن يرى وجهه ، وربما بادله عنـــدئذ بضع كلمات فى أى موضوع من المواضيع : فاذا أظهر له هذا الرجل شيئا من لطف وتسامح ولم يؤنبه ولم يقرِّعه أصبح حزنه أقل ثقـلاً فى قلبه ، واذا تجهَّم له وقسا عليه ثقلت كآبته مزيدا من الثقل • حتى لقد كان يتفق لفيـــدور بافلوفتش (فى النادر القليل على كل حال) أن يذهب الى جريجورى فى المبنى الملحق ، فيوقظه من نومه ليلاً ، ليطلب اليه أن يلحق به • وكان الخادم يجىء عندئذ الى مولاه الذى يأخذ يُجرى معه حديثاً تافهاً يدور على تفاصيل لا قيمة لها ولا شـــأن ، ثم ما يلبث أن يصرفه ؟ ويعود الى سريره فينام فى هذه المرة نوما هادئا بعد أن أفرغ ما فى جوفه • ولقـد مرَّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا الى منزله•

ان هذا الفتى قد « طعن قلبه » لأنه « يعيش معه ، ويرى كل شيء » ثم هو لا يُدين شيئا من الأشياء » • وأكثر من ذلك أن أليوشا قد حمل الى حياة أبيه عنصراً جديداً كل الجدة ، عنصراً لا عهد للأب بمثله من قبل، هو أن أليوشا لم يحتقره البتة ، حتى لقد حنا عليه وشعر نحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال ، دون أن يكون أبوه جديرا بها • ان موقفا كهذا الموقف خليق بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذى كان يعيش بغير أسرة ويركض وراء النساء ويعتز بأنه قليل الاحساس ولا يسعى الا الى خسيس الملذات • ذلك موقف ما كان لهذا العجوز أن يتوقعه • وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا بأنه أدرك فى ذاته أشياء لم يشأ أن يقبلها وأن يسلّم بها قبل ذلك •

سبق أن ذكرت فى مطلع هذه القصة أن جريجورى كان يكره آديلائيد ايفانوفنا زوجةَ فيدور بافلوفتش الأولى ، أمَّ ابنه دمترى ؛ وأنه فى مقابل ذلك قد تعلق بزوجة فيدور بافلوفتش الثانية ، صوفيا ايفانوفنا، الكليكوشا ، وأنه تحيَّز لها ضد كل من يمكن أن تسوّل له نفسه أن يقول فى حقها كلمة سوء ، عن خبث أو عن طيش • وقد استحالت هذه المودة التى محضها تلك المرأة ، استحالت فى نفسه مع الزمن الى عاطفة مقدسة بلغت من القوة أنه أصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاما على موتها لا يطيق أن يسمع من أى انسان ، كائناً من كان ، أية اشارة تسيء الى المتوفاة ، فلو فعل أحد ذلك أمامه لهب يهاجم من هاجمها على الفور • وكان جريجورى فى مظهره رجلا هادئاً وقورا رصيناً ، وكان قليل الكلام ، فاذا تكلم تكلم عن دراية ، شاعرا بوزن كل لفظ من ألفاظه ، لايلقى الحديث على عواهنه، ولا يقول قولا خفيفا ولا ينطق بكلمة لاداعى اليها ولا محل لها • وكان يستحيل عليك أن تعرف من النظرة الأولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطيعة أم هو لا يحبها • ولكن الحقيقة هى أنه

كان يحبها ، وكانت هي لا تجهل ذلك • ولم تكن مارفا اجناتفنا هذه بالمرأة الغبية ، ولعلها كانت تملك من الذكاء أكثر مما كان يملك منه زوجها ، ولقد كانت على كل حال أصدق منه حكما وأصوب منه رأيا في شئون الحياة العملية • ومع ذلك خضعت له منذ أن تزوّجا ، فلم تجحد سلطته عليها ، وكانت تحترم احتراما أعمى ما كان ينعم به من تفوق أخلاقي • يجب أن نذكر أنهما كانا ، طوال حياتهما ، قلّما يتبادلان الكلام ، فاذا اتفق أن دار بينهما حديث جرى الحديث على المسائل التي لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية • لقد تعود جريجوري الوقور الرصين المهيب أن يفكر في أموره وحده ، فكان لا يفضي الى أحد بمشاغله ولا يشرك أحدا في همومه ، وقد بلغ من هذا أن امرأته أدركت نهائيا أنه في غير حاجة الى نصائحها • وكانت تحس أن زوجها يقدّر لها صمتها ، وأنه يرى فيه دليلا على ذكائها • ولم يضربها زوجها في حياته الا مرة واحدة ـ وكان ضرباً خفيفاً على كل حال • واليكم كيف حدث هذا : أثناء السنة الأولى من زواج فيدور بافلوفتش بآديلائيد ايفانوفنا ، فان نساء القرية وبناتها ، ولم يكنّ قد تحررن من القنانة في ذلك العهد ، اجتمعن ذات يوم في فناء منزل السادة يغنين ويرقصن ، فبينما كانت الفلاحات تغني أغنية « في المروج » ، اذا بمارفا اجناتفنا التي كانت ما تزال في ميعة الصبا وريعان الشباب ، اذا بها تندفع فجأة الى أمام جوقة المغنيات ، فتأخذ ترقص رقصاً خاصاً ليس هو الرقص الذي تعودت الفلاحات أن ترقصه ، وانما هو الرقص الذي تعلمته أيامَ كانت ما تزال تعمل خادماً في منزل أسرة ميوسوف الثرية ، فكانت ترقص على المسرح الذي أقامته تلك الأسرة في أملاكها والذي استدعت له من موسكو أستاذ باليه يعلم ممثلاته الرقص • رأى جريجوري زوجته تندفع في ذلك اللهو فرحةً كل الفرح ، فما ان عادا الى البيت بعد ساعة حتى أدّبها التأديب

الذى تستحقه وهو يشدها من شعرها . تلك هى المرة الوحيدة التى ضرب فيها جريجورى امرأته ، ثم لم يتجدد شىء من هذا فى حياتهما بعد ذلك . ثم ان مارفا اجناتفنا قد تابت منذ ذلك اليوم عن حبها هذا للرقص وميلها اليه .

لم يهب الرب للزوجين أولادا ، الا واحدا لم يعش طويلا . ومع ذلك كان جريجورى يحب الأطفال ، ولا يخفى هذا الحب ، أى أنه كان يعترف به ويجاهر به فى غير خجل . فلما هربت آديلائيد ايفانوفنا احتضن الصغير دمترى فيدوروفتش الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره ، قرابة سنةٍ ، يعنى به ويعطف عليه ويحبه ، متوليا بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه ، وتلكم ، على كل حال ، تفاصيل سبق أن أتيت على ذكرها . أما ابنه هو ، فانه لم يذق الا فرحة انتظاره مدةَ حبل أمه به . حتى اذا وُلد الطفل امتلأ قلب أبيه هولاً وحزناً . ذلك أن الصبى قد جاء الى هذا العالم بست أصابع فى كل يد . وقد بلغ جريجورى يومئذ من الانصعاق أنه أصر لا على أن يصمت فما ينطق بحرف الى حين التعميد فحسب ، بل أصر على أن ينزوى فى الحديقة طوال تلك المدة ليغرق فى الصمت مزيدا من الاغراق . كان ذلك فى الربيع . وقد قضى الرجل الأيام الثلاثة التى سبقت التعميد ، قضاها يعزق الأرض فى بستان الخضار . فلما حل اليوم الثالث الذى سيُحتفل فيه بتعميد الصبى كانت فكرة جريجورى قد اختمرت فى رأسه . فهذا هو يدخل على مسكن الخدم حيث اجتمع القسس والمدعوون ، وحيث جاء فيدور بافلوفتش أخيرا ليكون للصبى عرّابه ، هذا هو يدخل فيقول فجأة : « الأفضل أن لا يُعمَّد الطفل البتة » . لم يقل ذلك بقوة كبيرة ، ولم يسترسل فى كلام لا داعى اليه ، وانما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحةً ، وقاله وهو يلقى على الكاهن نظرة قاتمة عنيدة .

سأله الكاهن مدهوشاً ضاحكاً من كلامه :

ـ لماذا ؟

فتمتم جريجورى يجيبه :

ـ لأنه ... تنين !

ـ ماذا ؟ أى تنين ؟

صمت جريجورى بضع لحظات . ثم دمدم يقول مضطربا أشد الاضطراب ، ولكن وجهه كان يعبر عن الحزم ، وكان واضحا أنه لا يريد أن يدخل فى شروح أوسع ، دمدم يقول :

ـ اختلط الأمر على الطبيعة !

ضحك الحضور ، وتم تعميد الصبى المسكين مع ذلك . صلّى جريجورى بحرارة وخشوع أمام جرن التعميد ، ولكنه لم يغيّر رأيه فى الوليد . على أنه لم يخلق أية صعوبة بعد ذلك ، وانما اكتفى ، خلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهزيل ، بأن يصر على أن لا يراه ، متظاهرا بأنه يجهل وجوده، قاضيا أكثر وقته فى خارج مسكنه. ولكن حين مات الصبى بعد أسبوعين بمرض القُلاع ، تولى هو نفسه ارقاده فى تابوته الصغير وتأمله طويلا بحزن شديد . وحين أهيلت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التى دفن فيها الصبى ، وهى حفرة لم تكن عميقة ، جثا على ركبتيه ، وحيّا القبر منحنيا حتى الأرض . ومنذ ذلك اليوم ، خلال سنين طويلة ، لم يجىء جريجورى على ذكر هذا الصبى مرة واحدة ، كما أن مارفا اجناتفنا لم تذكره بحضور زوجها فى يوم من الأيام . فاذا اتفق لها أن تكلمت مع أحد عن « صغيرها » ، تكلمت هامسةً همساً حتى فى غياب جريجورى فاسيلفتش . وفى رأى

مارفا اجناتفنا أن هذه الجنازة هى أصل الاهتمامات الدينية التى أصبحت تُلاحَظ عند جريجورى الذى انصرف منــذ ذلك الحين الى دراسة « الأمور الالهية » ، فهو يكب على قراءة كتاب أسماء الشهداء صامتا معتزلا فى كثير من الأحيان ، واضعا على عينيه لهذه المناسبة فى كل مرة نظارتيه الضخمتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة • كان ينــدر أن يقــرأ جريجورى فى هذا الكتاب جهراً ، الا فى أيام الصــيام الكبير • وكان يحب أن يقرأ « سفر أيوب » خاصــةً ، كما استطاع أن يحصــل من مكان ما على كتــاب يضــم أفكار ومواعظ « أبينا حبيب الله ، اسحاق السورى » * ، فكان لا ينى يقرأ هذا الكتاب ويعيد قراءته سنين طويلة ، دون أن يفهم منه شيئا بطبيعة الحال ، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يقدِّر هــذا الكتــاب مزيدا من التقــدير ويحترمه مزيدا من الاحترام • وقد عنى فى الآونة الأخيرة بآراء ملة الفلاجلان ، فدرس ، من كثب ، هذه الحركة التى التقى ببعض المنضمين اليها فى القــرى المجاورة ، فاهتزت نفســه من ذلك اهتزازا واضحا ، ولكنــه رأى أن الانضــمام الى العقائد الجــديدة ليس بالأمر المستحسن • وطبيعى أن العكوف على قراءة « الكتب الدينية » قد أضفى على تعبير وجهه مزيدا من الخطورة والرصانة والوقار •

لعل جريجورى كان ميالا الى الصوفية • وهذا حادث من أغرب ما يمكن أن يقع من حوادث ، حادث لم يكن فى الحسبان قط ، يحدث كأنما على عمد ، فى تلك الآونة نفسها التى شهدت ميلاد ابنه ذى الأصابع الست وشهدت موته السريع ؟ وهــو حادث خلَّف فى نفسه ، خلال سنين طويلة بعد وقوعه ، كما رضى أن يعترف هــو نفسه بذلك مرةً ، خلف فى نفسه « أثراً لا يندرس » وألقى عليهــا « طابعا لا يندثر » • اليكم ما حدث : فى الليلة التى أعقبت دفن الصبى الصغير ، استيقظت

مارفا اجناتفنا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء آتياً من بعيد ، بكاء يشبه بكاءَ وليد • ذعرت مارفا اجناتفنا ، فايقظت زوجها • وأصاخ الرجل بسمعه فقال ان الأصوات التى يسمعها هى أصوات أنين • كأنه أنين امرأة • • ونهض فارتدى ملابسه • هى ليلة حلوة من ليالى شهر أيار (مايو) • خرج جريجورى الى درج المدخل ، فأدرك ادراكا واضحا أن أصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديقة • فدهش واستغرب : ان الحديقة تُغلق فى الليل من جهة الفناء بقفل قوى، وليس يمكن الدخول اليها من ممر آخر ، لأنها محاطة بسياج عالٍ قوى • عاد جريجورى الى بيته ، فأشعل سراجا ، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، غيرَ عابىء بذعر امرأته الهسترى التى أكدت أنها تسمع سماعا واضحا أصوات بكاء طفل وليد ، وأن هذه الأصوات لا يمكن أن تكون الا أصوات ابنهما يبكى فى الحديقة ويناديها هذا النداء • وأدرك جريجورى عندئذ أن أصوات الشكوى آتية من الحمامات القامة فى الحديقة على مقربة من الباب الحديدى ، وأنها أنّات امرأة ما فى ذلك ريب • فلما فتح باب الحمامات جمد فى مكانه دهشةً من المنظر الذى رآه : ان معتوهة المدينة التى تجوب الشوارع كل يوم والتى يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة ـ وقد أطلقوا عليها لقب اليزابث سمردياستشايا * ـ قد تسللت الى الحمامات ، فولدت هنالك ولداً • وكان الصغير راقدا قرب أمه التى تحتضر • لم تنطق المعتوهة بكلمة واحدة ، لسبب بسيط ، هو أنها لا تعرف أن تتكلم • يحسن مع ذلك أن نتحدث عن هذه المرأة بمزيد من التفصيل •

٢

اليزابث سمردياستشايا

هذا الحادث فى قلب جريجورى اضطرابا عميقا ، وذلك بسبب تفاصيل ذكَّره هذا الحادث بها ، وعزَّز فى نفسه شبهة أليمة مقزِّزة كانت قد ساورته من قبل • اليزابث سمردياستشايا بنت قصيرة القامة جدا « لا يزيد طولها كثيرا عن ذراعين » كما أصبح يحلو لعجائز النسوة التقيات فى مدينتنا بعد موتها أن يقولوا • وكان وجه هذه المرأة الشابة التى تبلغ العشرين من العمر معافى عريضا ملونا ، ولكنه يفصح عن العته والبلاهة افصاحا تاما : ان نظرتها جامدة ، وهى نظرة تشتمل رغم هدوئها على شىء يؤلم النفس • وكانت تسير حافية القدمين منذ ولدت ، فى الشتاء وفى الصيف لا يستر جسمها الا قميص من قنب • وكان شعرها ، الأسود تقريبا ، الكثيف جدا ، المتجعد كأنه جزائز شاة ، يتكوم على رأسها كطاقية ضخمة ؛ وهو على كل حال ملطخ دائما ، زاخر بالتراب وأوراق الأشجار والغصينات والأقذاء والنشارات ، لأنها اعتادت أن تنام على الأرض فى الغبار والوحل • وكان أبوها ايليه وهو رجل من سكان المدينة مسكين مدمَّر مريض لا مأوى له قد أدمن على الشراب ، وأصبح منذ عدة سنين يعيش فى دار رجل من أهل مدينتنا

حصل عنده على وظيفة غامضة مبهمة هى وظيفة عامل • أما أم اليزابث فكانت قد ماتت منذ زمن طويل • وكان ايليا ، المريض الممرور الشرس يضرب اليزابث ضربا مبرحا بلا رحمة ولا شفقة اذا هى جاءت الى الدار • على أن اليزابث كانت لا تجيء الى الدار الا نادرا ، لأن جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هى امرأة « مجنوبة » يحبها الرب • وقد حاول سادة ايليا ، كما حاول ايليا نفسه أيضا ، وكما حاول عدد كبير من المحسنين فى مدينتنا ولا سيما رجال ونساء ممن يعملون فى التجارة ، حاولوا مرارا أن يكسوا اليزابث بما هو أقرب الى الحشمة من قميص القنب وحده ، فكانوا يدثرونها كل عام ، فى أوائل أيام البرد، بمعطف من جلد الخروف ، وكانوا يلبسون قدميها حذاءين • فكانت اليزابث تدع لهم أن يفعلوا بها ذلك طائعة بغير احتجاج ، ولكنها ماتلبث أن تبتعد عنهم ، وتمضى الى مكان ما بالمدينة ، هو فناء الكاتدرائية فى أغلب الأحيان ، فتخلع عن جسمها جميع الثياب التى أُلبستها ـ اللفعة والتنورة والمعطف والحذاءين ـ فتدعها هنالك ، ثم تمضى كما كانت ، حافية القدمين لا يستر جسمها الا قميص • وقد حدث مرةً أن حاكم اقليمنا الجديد مرَّ بمدينتنا فى جولة تفتيشية ، فلما رأى اليزابث هذه صدم منظرُها أفضل عواطفه ، ورغم أنه أدرك أن المرأة هى «يوروديفايا» * ، وقد ذُكر له ذلك فورا على كل حال ، فقد أصر على أن منظر فتاة شابة تجوب الشوارع بقميص شيء يؤذى الأخلاق العامة ، وأمر بوضع حدٍ لهذه الفوضى • ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم أحد بعد انصرافه باليزابث وتُركت تعيش كما يحب لها هواها أن تعيش • ومات أبوها أخيرا ، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم ، فكان من شأن ذلك أن جعلها أقرب الى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب الى نفوسهم ؛ بل يبدو أن جميع الناس كانوا يحبونها حبا صادقا ، حتى الصغار الذين

كانوا يمتنعون عن مشـــاركتها ويعفون عن تنكيدها ، مع أن الأطفال في مدينتنا ، ولا سيما أطفال المدارس ، كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة. كانت اليزابث تدخل بيوتا لا تعرفها ، فما يخطر ببال أحد أن يطردها. بالعكس : كان كل واحد يسرع الى تدليلها ، ويعطيها قرشا أو قرشين ، فكانت تأخذ هـــذه الاعطيات الصــغيرة من النقود ، ولكنها ماتلبث أن تلقيها في صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس أو سجن من السجون. فاذا أعطاها أحد في السوق رغيفا من أرغفة الخبز الطرية الصغيرة التي تسمى « بوبليك » أو « كالاتش » ، لم يفتها أن تهبها لأول طفل تلقاه في طريقها أو هي تستوقف في الشارع سيدةً من أغنى سيدات مدينتنا فتعطيها الرغيف ، فتقبله السيدة منها فرحةً . كانت لا تريد أن تتغذى الا بخبز أسود وماء . وكانت في بعض الأحيان تدخل دكانا من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه : ان كل شيء في متناول يدها ، البضاعة الثمينة والمال الوفير ، ولكن أصحاب المتاجر لا يخطـر ببالهم أن يراقبوها لثقتهم بأنها لن تسرق شيئا في يوم من الايام ، ولن تمتد يدها الى كوبك واحد ولو صفت أمامها ألوف الروبلات ثم نُسيت . وقلّما كانت تُرى في الكنيسة ، ولكن كان يحلو لها أن تقضي ليـــالي بأسرها مضطجعةً في فناء معبد من المعابد ، حين لا تتسلل الى بستان من بســاتين الخضار من خلال سياج (ما تزال الأسيجة التي تقوم مقام الحواجـــز كثيرة في منطقتنا) . وكانت تذهب الى الدار ـ أعني دار أسياد أبيهـا المتوفى ـ مرة في الاسبوع تقريبا أثناء الصيف ، وفي جميع الأيام أثناء الشتاء ، ولكنها لا تذهب الى هناك الا لقضاء الليل ، فهي تلطو عندئذ في دهليز من الدهاليز أو تقبع في الاســطبل . والناس يستغربون كيف تستطيع اليزابث أن تتحمل هذا النوع من الحياة ، ولكن اليزابث كانت

قد تعودت ذلك ، وهي رغم ضآلة جسمها قوية البنية شديدة الاحتمال • صحيح أن بعض الأشخاص الذين خصتهم الأقدار في مدينتنا بحظ وافر من الهناء كانوا يؤكدون أن اليزابث انما تتصرف هذا التصرف من باب الكبر والزهو والخيلاء • ولكن هذا التفسير يصعب على المرء أن يصدقه، لأن هذه الفتاة كانت لا تعرف حتى الكلام ، فهي لا تزيد على أن تحرك لسانها من حين الى حين بأصوات مبهمة لا تبين • فهل يمكن الحديث بصددها عن كبر أو زهو أو خيلاء ؟

ففي ذات ليلة من ليالي شهر ايلول (وقد حدث هذا منذ زمان بعيد جدا) ، ليلةٍ مضيئة دافئة يغمرها القمر البدر بنوره ، كانت عصبة فرحة مرحة من اللاهين العابثين من أصحاب اليسار في مدينتنا عائدة من النادي بعد افراط في الشراب والطعام ، فهي تعود قاطعة أفنية الدور وبساتين المنازل • كان الوقت ساعةً متأخرة من الليل بالنسبة الى عاداتنا ، وكانت العصبة خمسة رفاق أو ستة • ان الشارع الصغير الذي يجتازونه الآن محفوف بسياج من كل جهة ، ووراء السياج تمتد بساتين لخضار في المنازل المطلة على الشارع ، والشارع يفضي الى الجسور الضيقة الممدودة عرضاً على غديرنا الطويل الآسن الذي اعتاد الناس أن يسموه في بعض الأحيان نهرا • وان العصبة لتسير اذا هي تلمح اليزابث على حين فجأة نائمةً قرب السياج بين نباتات القرّاص والأرقطيون • توقف العابثون القاصفون يضحكون لهذا المشهد في قهقهة مجلجلة مدوية ، وأخذوا يطلقون الأمازيح البذيئة في غير حياء • وفجأة خطرت ببال أحد أبناء الأسر فكرة عجيبة هي أن يطرح سؤالا من طبيعة خاصة جدا فقال : « هل يمكن أيّ انسان أن يرى في هذه البهيمة امرأة ، في هذه اللحظة نفسها مثلا ؟ الخ •••• » • فضج الجميع يظهرون اشمئزازا متكبرا ونفورا مستعليا ، مؤكدين أن ذلك غير وارد • ولكن فيدور بافلوفتش الذي كان

أحد أفراد العصبة تقدم فورا فقال : « بالعكس : ذلك شيء يمكن فعله جدا ، وان في وسع المرء تماما أن يسد هذه المخلوقة امرأة ، بل وان ذلك قد يكون فيه كثير من الاثارة اللذيذة ، الخ الخ ... » . يجب أن نذكر أن فيدور بافلوفتش كان في ذلك الأوان يغالى في ابراز دور المهرِّج الذى يمثله ، ويسعى الى انتهاز جميع المناسبات التى يتاح له فيها أن يلمع نجمه فى هذا المجال وأن يسلّى رفاقه وأن يضحكهم ، على قدم المساواة بينه وبينهم فى الظاهر ولكن بروح العبودية الدنيئة لهم فى حقيقة الأمر . وقد حدث هذا فى الآونة التى كان قد تلقى فيها من سان بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلائيد ايفانوفنا ، فكان وقد وشّح قبعته بشريط أسود يسترسل فى السكر ويرتكب من الأعمال الفاجرة ما كان يثير الاشمئزاز ويبعث الاحساس بالفضيحة فى نفوس كثير من الناس ، حتى أشدهم انحلالا وأكثرهم دعارة . طفقت العصبة الفرحة تضحك طبعا لهذا التصريح الذى لم يكن فى الحسبان . وقد مضى أحد العابثين الى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على أن يفعل ، ولكن الآخرين أكدوا اشمئزازهم بقوة متزايدة ، وان فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشتد قوة . وأخيرا تابع الجميع طريقهم . وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد أنه انصرف مع رفاقه فى وقت واحد . وقد يكون ما قاله صحيحا ، فان أحدا لم يعرف حقيقة الامر ، لا ولن يعرفها أحد يوما على وجه اليقين . غير أن ما حدث هو أن المدينة كلها أصبحت بعد خمسة أشهر أو ستة لا تتحدث الا عن اليزابت التى صار واضحا أنها حبلى ، وأن المدينة تتحدث عن هذا الأمر باستياء صادق واستنكار عميق ، وأن السؤال الذى تلقيه جميع الشفاه هو هذا السؤال : « من الآثم ؟ من الجانى ؟ » . وفى تلك اللحظة انما انتشرت فى مدينتنا شائعة رهيبة تقول ان الآثم ليس الا فيدور بافلوفتش نفسه . فكيف ولدت هذه الشائعة ؟ ان العصبة

الفرحة التى كانت عائدة من النادى فى تلك الليلة من ليالى شهر ايلول، لم يبق منها فى مدينتنا الا واحد هو رجل مسن ، محترم جدا ، برتبة مستشار دولة ، متزوج وله ابنتان كبيرتان . ومن المحقق تماما أنه لم يقصص شيئاً ، حتى ولو كان يعـرف شيئا . أما اللاهون الآخـرون ، وعددهم خمسة تقريبا ، فكانوا قد بارحوا مدينتنا أثناء تلك المدة . ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه اتهاما ملحا عنيدا. والحق أن فيدور بافلوفتش قد استاء من الامر . ولو قد سئل فيه يومئذ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى أولئك الصغار من سكان المدينـة . لقد أصبح فيـدور بافلوفتش فى ذلك الوقت متكبرا ، فهو لا يصاحب الا أنداده ، لا يصاحب الا الموظفين والسادة الذين كان يحاول له كثيرا أن يسلـّيهم ويضحكهم . ولقد تحيز جريجورى لمولاه ، ودافع عنه بقوة واقتناع ، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتى من قوة ؛ حتى لقد طفق يشتم الواشين ويهينهم ؛ كما أنه اندفع يقيم الأدلة الطويلة ويدلى بالحجج الدامغة والبراهين القاطعـة ، بحيث أن عـددا كبيرا من الأشخاص تبددت شكوكهم وزايلتهم شبهاتهم . كان جريجورى يؤكد قائلا بلهجة جازمة : « ان هذه البنت السيئة هى وحدها مسئولة ، وان الجانى لا يمكن أن يكون أحدا غير قاطع الطريق كارب » . (بهـذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جدا عندنا ، هرب فى تلك الآونة من سجن الاقليم ، واختبأ فى مدينتنا) . لقد بدا هذا الافتراض مقبولا، لأن الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا ، ولم ينسوا أنه فى تلك الليلة نفسها من ليالى شهر ايلول قد حام فى شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارة فنهبهم . على أن هذا الحادث وما أثاره من ثرثرات كثيرة لم يحرم اليورودينايا المسـكينة من عطف الناس عليهـا . بالعكس : أصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيدا من الاهتمام ويرعونها مزيدا

من الرعاية ويعملون على حمايتها قصاراهم . حتى أن التاجرة كوندراتيفا وهي أرملة ثرية جدا ، قد قررت في نهاية شهر نيسان (أبريل) أن تضم الشقية الى منزلها وأن تحتفظ بها عندها الى أن تضع طفلها . وقد روقبت اليزابث بيقظة شديدة ، ولكنها رغم هذه المراقبة اليقظة المستمرة استطاعت في آخر يوم أن تهرب مع المساء من عند السيدة كوندراتيفا لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش . أما كيف استطاعت وهي في حالتها تلك أن تجتاز الحاجز العالي المتين ، فتلك مسألة ظلت بغير حل الى حد ما . فبعضهم يزعم أن هناك « أناساً » نقلوها الى هناك نقلا ، وبعضهم يذهب الى أن « قوى خفية سرية » قد أعانتها على اجتياز الحاجز . وأغلب الظن أن الامر قد تم على نحو طبيعي تماما ، ولو بمهارة عظيمة : ان اليزابث ، الماهرة في تسلق الأسيجة للتسلل الى بساتين الخضار ، لا بد أنها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش ، ثم قفزت الى الحديقة رغم حملها ، فآذت نفسها بذلك طبعا .

هرع جريجوري الى مارفا اجناتفنا فكلفها بأن تمضي الى اليزابث لتعنى بها ، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز تسكن من حسن الحظ في قرية قريبة من المدينة . ولقد أمكن انقاذ الطفل . أما الأم فقد فاضت روحها عند الفجر .

وأخذ جريجوري الطفل فحمله الى مسكنه ، وأجلس مارفا فوضع الوليد على ركبتيها وأسنده الى صدرها ، وقال لها : « ان اليتيم ابن الله ، فهو قريب جميع البشر ، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين أكثر مما يصدق على غيرنا . ان صغيرنا الميت هو الذي أرسله الينا ! ان هذا الطفل قد ولد من أم صالحة وشيطان رجيم ، فأطعميه ، ولا تبكي بعد الآن . . » . هكذا تولت مارفا اجناتفنا تربية الصغير . وقد عُمِّدَ وسُمِّيَ بافل ، أما الاسم الأبوي الذي كان يجب أن يسمى به فقد تم الاجماع بغير كلام

وبغير شرح أو تعليل أو تفسير ، على أن يكون اسم « فيدوروفتش » •
ولم يعترض فيدور بافلوفتش أى اعتراض على ذلك ، حتى لقد وجـد
الأمر داعيا الى الضحك جدا ، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر انكارا قاطعا
أنه هو الفاعل • وتخيّل فيدور بافلوفتش فيما بعد أن يسمي الصـبى
باسم أسرة ، فأسماه سمردياكوف مشـتقا ذلك من لقب أمه ، اليزابث
سمردياستشايا •

ان سمردياكوف هذا هو الذى أصبح فيما بعد الخادم الثانى لفيدور بافلوفتش ، وكان يعيش فى بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذى يقيم فيه العجوزان جريجوري ومارفا • وقد جُعل سمردياكوف طباخاً •

قد يكون ضروريا أن أتحدث عن سمردياكوف هـنا بمزيد من الافاضة ، ولكننى أشعر بوخز فى ضميرى اذا أنا صرفت انتباه القراء مدةً طويلة الى الحديث عن خدمٍ مبتذلين ، فهأناذا أعود اذن الى سرد قصتى، آملاً أن تعـرض لى من تلقـاء نفسها فرصة الكلام مرة أخرى عن سمردياكوف فى باقى الرواية •

٣

اعتراف قلب حار شعراً

حين تلقى أليوشــا الأمر الذى أصــدره اليه أبوه صائحاً من عربته عند مغادرته الدير ، لبث جامدا في مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة شديدة . على أن أليوشا لم يكن جامدا كتمثال، ذلك أنه لا يفقد أبدا ما يتصف به من حضور الذهن وسرعة البديهة . حتى لقد اتسع وقته ، رغم الخــواطر التى هزّت نفســه وبثت فيها الاضطراب ، لأن ينزل الى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به أبوه من أعمال في غرفة الطعام . ثم مضى في طريقه الى المدينة آملاً أن يهتدى أثناء الطريق الى جواب عن الأسئلة التى كانت تدور في رأسه وتعذبه وتقلقه. ويجب أن أذكر فورا أن الأقوال التى صاح بها أبوه والأمر الذى أصدره اليه بالعودة الى المنزل « مع وسادته وفراشه » ، أن ذلك كله لم يوقظ في نفس أليوشا شيئا من خوف. فهو يدرك حق الادراك أن هذا الأمر بالعودة الى المنزل ، الذى ألقاه اليه أبوه بذلك الصوت القوى وتلك الطريقة الجازمة ، انما هو ثمرة « اندفاع » عابر ، بل هو نتيجة رغبتــه في الاخراج التمثيلى والتزيين المسرحى ... وقد ذكّره هذا بما حدث في مدينتنا منذ زمن قصير ، حين احتفل أحد سكانها بعيد ميلاده ، فلمـا

أسرف فى الشراب أكثر مما اعتاد أن يسرف ، غضب على حين فجأة غضبا شديدا واندفع اندفاعا رهيبا ، وذلك فى منزله نفسه وبحضور ضيوفه، لأنه منُع من أن يصب له مزيد من الفودكا ، فاذا هو يأخذ يكسر الأطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته ، ويحطم الأثاث ، ثم انتهى الأمر الى أن أخذ يهشم زجاج النوافذ ، كل ذلك فى سبيل حسن الاخراج وجمال التأثير ... فلا شك أن أباه حين ألقى اليه أمره كان يقوم بعمل من هذا النوع . ذلك ما حدث به أليوشا نفسه . وقد ثاب الرجل الذى احتفل بعيد ميلاده ، ثاب الى رشده منذ الغد ، وبكى طبعا على أطباقه وصحونه وأوانيه التى تحطمت . كان أليوشا يعلم اذن أن أباه سيأذن له فى الغداة أن يرجع الى الدير ، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه . ولقد كان واثقا على كل حال من أن أباه لن يحب يوما أن يحزنه ، أن يحزنه هو على الأقل ! ثم انه ليس هناك أحد ـ كان أليوشا مقتنعا بذلك ـ ليس هناك أحد فى العالم يمكن أن يريد أن يحزنه ، وما من أحد يمكن أن يبلغ منه ذلك ولو أراد . تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا تقبل نقاشا . لذلك سار قُدماً لا يتردد ولا يلوى على شىء .

أما الخوف الذى كان يساوره فى تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، خوف يثقل على نفسه خاصة لأنه لا يستطيع أن يستبين طبيعته وأن يجلو كنهه واضحا : انه خوف من المرأة ، بل هو خوف من امرأة بعينها هى كاترين ايفانوفنا تلك التى توسلت اليه بكثير من الالحاح ، فى البطاقة التى أرسلتها اليه مع السيدة هوخلاكوفا منذ بضع ساعات ، أن يجىء اليها ، دون أن تشير الى الهدف من هذه الزيارة التى تلح فى طلبها . ان رجاءها ذاك ، واضطراره الى تلبية هذا الرجاء اضطرارا لا فكاك منه ولا محيد عنه ، ان ذلك كله قد

ملأ نفسه منذ البداية بضيق غامض وهم مبهم ، وجعله يشعر بنوع من خوف يعذّبه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئا بعد شيء حتى غدا ألماً واخزاً كاوياً لا يطاق ، دون أن تستطيع كبته الأحداث التى تعاقبت بعد ذلك فى الدير ، والمشاهد والوقائع التى تلاحقت فى حجرة الشيخ وفى مسكن كبير الرهبان • وليس مرد هذا القلق الى أنه يجهل ماستقوله له هذه المرأة ، وما سيجيبها به • فليست المرأة بوجه عام هى ما كان يخشاه فيها ويخافه منها ، فانه وان تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك ، قد عاش طول الوقت فى صحبة النساء وحدهن تقريبا ، منذ طفولته الأولى الى حين دخوله الدير • وانما هو خائف من هذه المرأة بعينها ، من كاترين ايفانوفنا بذاتها ، ولقد خاف منها منذ اللحظة الأولى التى رآها فيها ؟ وهو مع ذلك لم يلقها الا مرة أو مرتين ـ وربما ثلاثا ـ وبادلها بضع كلمات عرضاً فى مناسبة من المناسبات • ان الصورة التى بقيت فى خياله منها هى صورة فتاة بارعة الجمال ، شديدة الكبرياء ، قوية السطوة • ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه ، وانما كان يعذبه شيء آخر لم يستطع له تعليلا ، فكان جهله هذا يفاقم عذابه مزيدا من المفاقمة فى تلك الساعة • لا شك أن هذه الفتاة تسعى الى أنبل الأهداف • ذلك أمر يعرفه : انها تحاول انقاذ أخيه دمترى الذى أذنب فى حقها ، وهى لا ترغب فى ذلك ولا تتمناه الا شهامة منها وأريحية • ولكن أليوشا رغم ما فى هذه العواطف من نقاء ورفعة لا يملك الا أن يمجدهما ولا يملك الا أن ينصفهما ، لم يستطع أن يتغلب على الضيق الذى كان يغزو نفسه ويثقل على صدره كلما ازداد اقترابا من منزل الفتاة •

وقدّر أليوشا أن أخاه ايفان الذى توثقت الصداقة الحميمة بينه وبين كاترين ايفانوفنا ، قد لا يكون الآن عندها ، لأنه لا بد أن يكون مع أبيه • أما دمترى فان أليوشا أكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضا ، وهو

يوجس سبب ذلك. معنى هذا أن الحديث بينه وبينها سيجرى فى خلوة. ألا ليته يستطيع ، على الأقل ، أن يرى أخاه دمترى قبل هذا الحديث المحتوم ! خطر ببال أليوشا أن يسرع الى أخيه بوثبة ليراه . ترُى أليس ممكنا أن يتناقش معه أولا ، دون أن يظهره على رسالتها طبعا ؟ ولـكن دمترى يقيم فى مكان بعيـــد ، وأغلب الظن أنه ليس فى منزله الآن . توقف أليوشا لحظة ليفكر ، ثم عزم أمره أخيرا . رسم على نفسه اشارة الصليب بحركة سريعة ، ولم يلبث أن ابتسم بدون سبب ظاهر ، ثم اتجه يسير بخطى حازمة نحو منزل السيدة « الرهيبة » .

كان يعرف أين تقطن . ولكن الاتجاه الى « الشارع الكبير » ثم عبور الميدان ، ثم ... الخ ... كل ذلك يجعل الطريق اليها طويلا . ان مدينتنا الصغيرة مبعثرة جدا ، والمسافات فيها شاسعة أكثر الأحيان * أضف الى ذلك أن أباه ينتظره ، فلعله لم ينس الامر الذى ألقاه اليه ، وقد ينفد صبره وتعود اليه نزواته . وقرر أليوشا ، بعد تقليب الامر على وجوهه المختلفة هذه ، أن يسلك الطرق المختصرة عبر الأفنية والحدائق، فهو يعرف الشوارع الصـغيرة والمخـارج المختلفة فى مدينتنا كما يعرف راحة كفه . كان عليه أن يقطع الشوارع قطعـا ، فيمر بأراض بور ، ويجتاز فى أماكن شتى أسيجة تحيط بأملاك خاصة ، ويعبر أفنية منازل أناس غرباء يعرفه كل واحد منهم ، ويحييه عند مروره . فعلى هذا النحو يبلغ « الشارع الكبير » بنصف الوقت الذى يحتاج اليه لو سلك السبيل العادى . فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه فى لحظة من اللحظات قريبا من منزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه ، تابع لمنزل صغير عتيق بال ليس له من النوافذ الا أربع وكأن القدم قد شقق جدرانه. ان صاحب هذا المنزل هو ، كما كان أليوشا يعرف ذلك ، امرأة متواضعة من سكان المدينة ، عجوز ليس لها الا ساق واحدة ، تسكن فى المنزل

مع ابنتها • وكانت ابنتها هـــذه قد عملت في الآونة الأخيرة بالعاصمة ، خادمةً رئيسية ، لدى جنرالات في الغالب • ولكنها رجعت منذ مايقرب من سنة ، بسبب مرض أمها ، فهي الآن تظهر في مدينتنا بأثواب أنيقـة جدا • وكانت العجوز وابنتها تعيشان مع ذلك حياة فاقة شديدة وعـوز كبير ، حتى لقد كانتا تذهبان كل يوم الى مطبخ فيدور بافلوفتش ، من حيث هما جارتان ، تلتمسان شيئا من حساء وخبز تصـــدقه عليهما مارفا اجناتفنا راضية مسرورة • ولكن الفتاة رغم أنها تقتات من البر والاحسان لم تقبل أن تبيع أي ثوب من أثوابها التي كان بينها ثوب سابغ الذيل • وكان أليوشا قد عرف هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقـه راكيتين الذي كان على علم بكل شيء في المدينة حتما ، ثم لم يلبث أن نسيها طبعا ، ولكنه وقد بلغ الآن حديقة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ على حين فجأة ، فاذا هو يرفع رأسه بعد أن كان مطرقا الى الارض طوال المدة التي قضاها مفكرا متأملا أثناء سيره • وعندئذ انما وقع بصره على ما لم يكن في حسبانه قط •

لقد لمح أخاه دمتري فيدوروفتش وراء سياج الحديقة ، قاعدا على شيء من الأشياء مشرئباً برأسه متجاوزاً الحاجز بصدره ، يومىء اليـــه بحركات عريضة من يده ، ويناديه مهيبا به بالاشارات أن يجيء اليـه ، متحاشيا أن يصرخ ، بل ومتجنبا أن يقول كلمة واحدة بصوت عالٍ ، مخافة أن يُسمع • فسرعان ما هرع اليه أليوشا •

ـ من حسن الحظ أنك رفعت رأسك ، والا لكنتُ اضطررت أن أصيح •

كذلك همس يقول دمتري فيدوروفتش لأخيه مسرعاً وقد بدا عليه فرح شديد برؤيته • ثم أضاف :

ـ تسلق من هنا ... هيا أسرع ! ما أحسنها فكرة أنه خطر ببالك أن تجيء . لقد كنت أفكر فيك ...

سُرّ أليوشا هو نفسه سرورا عظيما أيضا ، مع تساؤله عما يجب أن يفعله حتى يجتاز الحاجز . ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية ليساعده على أن يقفز ، فشمر أليوشا ثوبه الرهبانى ، ثم اذا هو يصير فى داخل الحديقة بوثبة كوثبة صبى صغير من الصبية الذين يسيرون حفاة الأقدام .

همس ميتيا يقول له بحماسة :

ـ والآن فلنسر !

فسأله أليوشا بصوت هامس أيضا ، وهو ينظر الى جميع الجهات فيرى أنهما وحيدان فى الحديقة تماما فلا يمكن أن يسمعهما أحد :

ـ الى أين ؟

لم تكن الحديقة واسعة طبعا ، ومع ذلك فان المنزل الصغير الذى تمكله العجوز وابنتها يبعد خمسين خطوة على الأقل .

ـ نحن وحيدان ، فلماذا تتكلم همساً ؟

ـ لماذا أتكلم همساً ؟ لا يعلم الا الشيطان لماذا !

هكذا صاح دمترى فيدوروفتش بأعلى صوته ، وتابع يقول :

ـ حقا ... فعلا ... لماذا تكلمت همساً ؟ انظر كيف تحلو السخافات للطبيعة فى بعض الأحيان ! أنا موجود هنا سراً ، ويجب أن أكون كتوما . سأشرح لك الامر فيما بعد . اننى لشعورى بضرورة الحفاظ على السر ، أخذت أهمس بغباوة ، مع أن ذلك لا داعى اليه البتة . هيا ... سأشرح لك الأمر . والى أن أشرحه لك ، اياك أن تقول كلمة واحدة . هل تعلم ؟ وددت لو أقبلك ...

المجد للخالق في الخلق *
المجد للخالق في نفسي

لقد كنت أردد هذين البيتين من الشعر هنا ، لحظة وصلت أنت ..

ان الحديقة التي تبلغ مساحتها قرابة هكتار كانت خالية من الأشجار الا في محيطها على طول الأسوار الأربعة ؛ وهي أشجار تفاح وقيقب وزيزفون . أما داخل الحديقة فلم يكن فيها الا مرج أعشاب يعطي في كل صيف حوالى ثلاثين كيلو من العلف . وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات . وهناك شجيرات من توت العليق وثمر الريباس وعنب آذار متناثرة على طول الأسوار . وقد زُرع قرب المنزل الصغير شيء من خضار ، ولكن ذلك لم يتم الا منذ زمن قصير .

قاد دمتري فيدوروفتش ضيفه الى ركن من أنأى أركان الحديقة بعيد عن المنزل . فهناك ، وسط أجمة كثيفة من أشجار الزيزفون وشجيرات الكشمش الهرمة وأشجار البيلسان والقيراء والأزدلخت ، يرى المرء بقايا « كشك » قديم جدا ، قد سوّده الزمان ولواه ، جدرانه متباعدة ، ولكن سقفه ما يزال سليما ، فيمكن الاحتماء به اذا هطل مطر . لقد بنى هذا « الكشك » منذ زمن بعيد ، منذ نصف قرن فيما يقال ، بناه أحد المالكين السابقين الذى تعاقبوا على هذا المنزل الصغير ، رجل يسمى الكسندر كارلوفتش فون شميدت ، ليوتنان كولونيل محال على التقاعد . كل شيء في هذا « الكشك » منخور مسوّس : أرضه خربة نتنة ، أخشابه متزعزعة مترنحة ، رائحته عفنة رطبة . وفي داخله كانت توجد مائدة خضراء من خشب ، قد غاص نصفها في التراب ، وأحاطت بها مقاعد هي أيضا خضراء ، وما يزال يمكن الجلوس عليها .

كان أليوشا قد لاحظ فورا حالة الحماسة التى كان عليها أخوه ، فلما دخل الآن « الكشك » رأى على المائدة زجاجة كونياك ممتلىء نصفها، والى جانبها قدح صغير .

قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكا :

ـ هو كونياك يا عزيزى ! لا شك أنك تقول لنفسك : « انه ثمل من جديد » . ألا فاطرد هذه الأشباح من خاطرك !

أكاذيب يروجها اناس لا خلاق لهم *

فلا تسمع لها ابدا ، وبدد كل اوهامك .

ـ لا .. اننى لا أسكر .. ولكننى «أتلذذ» ، كما يقول صديقك، ذلك الخنزير راكيتين ... الذى سيصبح فى يوم من الأيام مستشار دولة ، دون أن يكف عن أن يتكلم كما يتكلم رجل من الأرياف . اجلس هنا . وددت لو أضمك الى صدرى ، يا صغيرى أليوشا ، وددت لو أضمك الى صدرى ضما قويا حتى لأكاد أحطمك ، هل تعلم هذا ؟ ذلك أنك فى الواقع ... فى الوا ... قع ... (افهمنى جيدا ، افهمنى جيدا) ... ذلك أنك فى الواقع ... الانسان الوحيد ... فى العالم ... الانسان الوحيد ... الذى أحبه ... فى العالم ...

نطق دمترى فيدوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشوة والوجد .

ـ أنت الكائن الوحيد الذى أحبه ، أنت وكائن آخر ، هو «مخلوقة بائسة» عشقتها لأضيع وأهلك ... ولكن العشق شىء آخر غير الحب . فان من الممكن أن يكون الانسان عاشقا ، مع شعوره بالكره . احفظ هذا الكلام ! اننى أتكلم الآن فى فرح ومرح . اجلس هنا ، قربى ، الى هذه

المائدة • وسأجلس أنا الى جانب حتى أراك رؤية أوضح• سأقول لك كل شيء• وستصمت أنت طول الوقت، بينما سأتكلم أنا، لأنه قد آن الأوان!... بالمناسبة ، أنا أرى أن الأفضل أن تتكلم هنا همساً ••• ذلك أن من الجائز ••• هل تعلم ؟ ••• من الجائز أن توجد هنا آذان مختبئة ••• آذان لا نتوقع وجودها ••• سأشرح لك ••• اتفقنا على هذا • تابع كلامي ••• لماذا كنت أحرص على أن أراك بغير ابطاء ، لماذا كنت في مثل تلك الحاجة القوية اليك خلال تلك الأيام كلها وفي هذه اللحظة بعينها (لقد ألقيت مرساتي هنا منذ خمسة أيام) لماذا ؟ لأنك الوحيد الذي يمكن أن أركن اليه ركونا تاما ، لأنك الوحيد الذي يمكن أن أفضي اليه بما في نفسي ، ولأن هذا ضروري لا مناص منه ، ولأنك لا غنى لي عنك• هل شعرت يوما ، في المنام مثلا ، بأنك تنحدر من جبل في هاوية ؟ فاعلم انني الآن أتدحرج الى هاوية ، وليس هذا حلماً• ولكنني لست خائفا ، وليس عليك أن تخاف من شيء أنت أيضا • أقصد ••• أنا أشعر بخوف، ولكنه شعور عذب جدا ، بل ليس شعورا عذباً ، وانما هو شعور رائع•• لا يدري الا الشيطان ماذا ••• جني قوي ، جني ضعيف ، جني المرأة ••• ليس هذا بذي بال على كل حال ! ••• ألا فلنمجِّد الطبيعة : ما أكثر الشمس في كل مكان ، ما أصفى السماء الآن ! لا شيء الا الخضرة ••• نحن في قلب الصيف ، والساعة لم تكد تبلغ الثالثة بعد • صمت شامل مطبق ! الى أين كنت ذاهبا ؟

كنت ذاهبا الى أبينا ، ولكنني كنت أنوي أن أمرّ أولا بكاترين ايفانوفنا •

ـ اليها واليه ؟ أوه ••• يا للمصادفة العجيبة ! ••• هل تدري لماذا كنت أنتظرك فارغ الصبر الى ذلك الحد ؟ هل تدري لماذا كنت ظامئاً الى رؤيتك ظمأ الصحراء الى المطر ؟ هل تدري لماذا كنت أناديك

من جميع مسام روحي وجسمي ؟ هل تدرى لماذا ؟ لأننى كنت أريد أن تذهب الى الأب رسولاً منى ، وأن تذهب بعد ذلك الى كاترين ايفانوفنا، بغية أن أصفّى الأمر معهما كليهما ، معه ومعها ... كان لا بد لى أن أرسل اليهما ملاكاً . كان في وسعى أن أكلف بهذا أى انسان ، ولكننى كنت أريد ملاكاً . وهأنت ذا تذهب اليها وتذهب الى الأب .

ـ أهذا ممكن ؟ هل كنت تريد أن ترسلنى حقا ؟

كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبىء عن ألم شديد يوشك أن يكون ألم مرض . فقال له دمترى :

ـ اذن كنت تعلم هذا . اننى أرى أنك قد فهمت كل شيء دفعة واحدة . عليك بالصمت خاصةً ، لا تقل كلمةً واحدة الآن . لا تأسف على شيء ، ولا تبك قط .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم نهض ، وفكّر بضع لحظات واضعاً ابهامه على جبينه ، ثم سأله :

ـ هى التى استدعتك ، أليس كذلك ؟ لا بد أنها كتبت اليك ، أو فعلت شيئاً من هذا القبيل ، والا لما ذهبت اليها من تلقاء نفسك فيما أظن ؟

أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها اليه :

ـ هذه بطاقتها .

قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة ، ثم قال له :

ـ وسلكتَ طرقاً مختصرة لتذهب اليها . أيتها الآلهة المحسنة .. شكرا على أنك وجهته فى هذا الطريق فقدت خطاه نحوى ، كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التى تروى الحكاية أنك أرسلتها الى ذلك الصياد العجوز الغبى . اسمع يا أليوشا ! اصغ الىّ يا أخى ! لقد قررت

الآن أن أقول لك كل شيء . لا بد لى من أن أفتح نفسى لانسان ما ، أليس كذلك ؟ لقد سبق أن أفضيت بما في نفسى الى ملائكة السماء ، ولكنني كنت أريد أن أبوح بسرى الى ملاك من ملائكة الأرض أيضا . وأنت أنت الملاك على هذه الأرض . ستصغى وتفهم عنى ، وتغفر لى .. ان بى حاجة قوية الى ن يغفر لى انسان أعلى وأسمى . اسمع : اذا تحول اثنان عن جميع مشاغل الارض وهمومها ، واندفعا أو اندفع أحدهما على الأقل نحو العالم الرائع ، فاذا هو ، فى اللحظة التى يهمُ فيها أن يبلغ السعادة أو يهوى الى الحضيض ، يلقى انسانا آخر فيقول له : « قدِّم لى هذه الخدمة ، اعمل من أجلى هذا الامر الذى لا يمكن أن يطلبه أحد من أحد ، اللهم الا وهو على فراش الموت ... » فهل يمكن أن يرفض هذا الشخص الآخر طلبه ... اذا كان صديقه ، اذا كان أخاه ؟

فأجابه أليوشا :

ـ سأفعل ما تطلبه منى ، ولكن ما هـو الأمر ؟ أسرع فى ذكره مزيدا من الاسراع !

ـ مزيدا من الاسراع ؟ هِمْ ... لا تتعجل هـذا التعجل كله يا أليوشا ! انك تستعجل الأمور وتضطرب فى غـير طائل . لكل شيء أوانه ! انها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى الى حيث تبلغ الحماسة ! ولكن لماذا آخذ عليه هذا فى الواقع ؟ أعليـك أنت أن ترتقى هكذا ؟

كن نبيلا يا أيها الانسان !*

من قائل هذا البيت من الشعر ؟

قرر أليوشا أن يصبر . لقد أدرك أنه فى هذا المكان انما سـيقوم

بمهمته على خير وجه فى الواقع . وفكّر ميتيا دقيقةً ، متكئاً بكوعه على المائدة ، واضعاً رأسه فى راحة يده . صمت الاثنان كلاهما .

استأنف ميتيا كلامه يقول :

ـ أليوشا ! أنت وحدك تستطيع أن تسمعنى دون أن تضحك ... أريد أن أبدأ ... أن أبدأ ... اعترافى ... مرتلاً نشيد الفرح الذى كتبه شيلر « الى الفرح ! » ولكننى لا أجيد اللغة الألمانية ، ولا أعرف من النشيد الا عنوانه : « الى الفرح ! » . حذار خاصة أن يذهب بك الظن الى اننى ســـكران . ليس السكر هو ما يجعلنى أتكلم . الكونياك هو الكونياك ، ولكن لا بد لى من زجاجتين على الأقل حتى أسكر :

سيلين ذو الوجه المزهر

قد امتطى يوما حمارا يترنح *

... وأنا لم أشرب الا ربع زجاجة فى أكثر تقدير . ثم اننى ان لم أكن سيلين ، فأنا سيليون (قوى) . أنا قوى لأننى اتخذت قرارى ، وقد اتخذته الى الأبد ! اغفر لى هذه النكتة القائمة على الجناس اللفظى . وهناك أمور أخرى ســيكون عليك أن تغفرها لى اليــوم ! الأمر فعلاً أمر نكتة قائمة على الجناس . اطمئن بالاً ... اننى أهذر ولا أهرف ... اننى أتكلم جاداً ، وأمسُ قلب الموضوع . لا يخطر ببالى أبداً أن أتيه فى لف ودوران . انتظر ... اننى أحاول أن أتذكر ...

ورفع دمترى فيدوروفتش رأسه مفكراً ، ثم اذا هو يأخذ يتلو هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة :

سكان الكهوف الخائفون الوجلون *
اختباوا شبه عراة في المغاور
بينما كان البداة العتاة
يسلبون السهول والغابات •
كان الصيادون المسلحون بالأقواس والنبال
يبثون الذعر في قلب كل حي يتنفس •
ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة
على شاطىء اجنبي •
من أعلى الأولب الهادىء
هبطت سيريس الأم على الارض
تبحث عن بروزربين •
ناصبتها الأرض العداء
لم يستقبلها احد
لم تجد ماوى لها في مكان
بحثت الالهة عبثا عن معبد
يمجد الوهيتها •
لا يرى أحد في المآدب
ثمار الطبيعة مضيئة ساطعة •
وعلى الهياكل الدامية
يتصاعد دخان القرابين المضحى بها •
تاملت سيريس المشهد الأليم
بنظرات تفيض حزنا واسى •
في كل مكان يذل الانسان ،
وعذابه شديد لا حدود له !..

وفجأة أخذ صدر ميتيا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب • أمسك أليوشا يده •

ـ أخي ، أخي ، صديقي ! مذلّ هو الانسان حتى اليوم • رهيب مصير الانسان ، شديدة آلام الانسان • لا تحسبنّ ، لأن لي رتبة ضابط، أنني امرؤ فظ غليظ القلب لا يعنيه الا أن يشرب الكونياك وأن يتلذذ

بالسناء ! انني في الواقع لا أفكر الا في مصــير البشر الذي يدعو الى الشفقة والعطف والرثاء ، ذلك هو اهتمامي الوحيــد تقــريبا ، وما أنا بكاذب عليك البتة • ألا فلتشهد السماء أنني لا أكذب ولا أتباهى فيهذه اللحظة ! ان المصير الفاجع الذي كتب على البشر يعذبني تعذيبا شديدا ، لأنني أنا نفسي واحد من هؤلاء الأشقياء البؤساء •

لا بد للانسان
من اجل ان تبعث نفسه بعثا جديدا
وان ترتفع بعد سقوط
لا بد له ان يقطع للالهة القديمة « ام الارض »
عهدا الى الأبد •

ولكن الصعوبة هي هذه : ما عساني أفعل من أجــل أن أعاهد الأرض ؟ أنا لا أزرع الأرض ، أنا لا أفتح جوف الأرض ؟ هل يجب أن أصبح فلاحاً أو راعيا صغيرا ؟ انني أسير في الليل دون أن أعــرف أأنا أغوص في الوحل والعار ، أم أنا أتقدم نحو الضياء والفرح ؟ ذلك هو بعينه البلاء : ان كل شيء في هذا العالم لغز • حين كان يتفق لي أن أغوص الى القرارة من هوة الدناءة والعهر (ولم أكن أفعل شيئا غير هذا على كل حال) ، فقد كنت في كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التي تحدثنا عن سيريس وعن الانسان • فهل أصلحني ذلك ؟ كلا ثم كلا ! لأنني كارامازوف • فحين أسقط في الهوة أتدهور تدهورا تاما ، رأسي في الأمام، وقدماي في الفضاء ؟ حتى لقد أشعر عندئذ بسعادة ، من السقوط على هذا النحو المزري المذل المهين ؟ انني أحس عندئذ بنوع من المتعة الفنية • فاذا بلغت القرارة من هوة الدناءة والخسة ، طفقت أترنم بنشيد• ألا فلأكن ملعونا ، ألا فلأكن منحطاً سافلا ، ولكنني أريد ، أنا أيضا ، أن أقبل ذيل الثوب الذي يتدثر به الهي • لئن اتبعت الشيطان يا رب ،

فانى أظل ابنك ، لأنى أحبك ، ولأن فى نفسى سبيلا الى الفرح الذى لولاه ما وُجد الكون •

روح العالم التى خلقها الله *
تغنى الفرح الى الأبد •
الفرح قائم فى أعماق الحياة
يحركها بقوة مستترة •
ينبت العشب من الأرض
يحيل السديم شمسا
ينشر ضياء الخير
فى الفضاوات التى لا نهاية لها •
كل حى يبتهج
فى حضن الطبيعة •
جميع الكائنات ، جميع الشعوب
تعيش به وحده •
يزين مصائبنا
يهب لنا أصدقاء وأزهارا وثمارا •
هو اللذة فى الحشرة •••
وهو الله فى الملاك

ولكن كفانا شعرا ! لقد سكبت بضع عبرات ، دعنى أبكى قليلا • أسلّم لك بأن فى هذا حماقة وسخفاً • وربما ضحك الآخرون منه ، أما أنت فلا ••• لقد رأيتُ شعلةً تومض فى عينيك يا أليوشا • كفانا الآن شعرا • أريد أن أحدثك عن أولئك « الحشرات » ، عن أولئك الذين وهب لهم الله اللذة •

هو اللذة فى الحشرة

أنا تلك الحشرة بعينها يا أخى ! هذه الأبيات من الشعر انما تستهدفنى أنا خاصة • ونحن ، آل كارامازوف ، نحن جميعا سواء فى هذه النقطة ! فيك أيضا تحيا هذه الحشرة ، فيك أنت الملاك ! انها

هنالك الشيء الذى لا تتوقعه . هنالك الورود التى تنبت على الدمن . أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى . أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية . لو كنت مثلى لفهمت عنى . لقد أحببتُ المجون حتى فى العار . لقد أحببت القسوة : ألستُ بقة ، ألست حشرة خبيثة ؟ قلت لك اننى واحد من آل كارامازوف . ان مجتمع المدينة التى كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية . ركبنا عربات ترويكا، ركبنا سبع عربات ترويكا . كان ذلك فى فصل الشتاء . ففى العربة التى كنت فيها أخذتُ ، بفضـــل الظلمة ، أشد على يد فتـاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى . كانت طفلة . هى بنت موظف صغير، انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيعة ، لطيفة ... تركتْ لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحتْ لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أننى سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أُقدَّر خاصة كخطيب ممكن) . ولكننى لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلا تاما مدة خمسة أشـــهر . كنت أرى عينيها فى أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجيء المكظوم الذى يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ... فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة فى نفسى . وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لى وتصفح عنى ، ولعلها ظلت تحبنى ... وقد سعد الزوجان بعد ذلك . لاحظ أننى لم أقصص هـذه الحكاية على أحـــد ، وأننى لم أعرِّض سمعة الفتاة لسوء . صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجردا من الشرف ... ان وجهـــك يتخضب الآن بحمرة شـــديدة ، وان عينيك تلتمعان

٤

اعتراف قلب حائر
نثراً

نعم لقد لهوت وعبثت وتلذذت هنـــاك ! ادعى أبونا فى هذا الصباح أننى كنت أرمى ألوف الروبلات من أجل أن أقضى على طهـــارة بنات فضليات ! كذبٌ هذا الكلام ، كذب مقزِّز ••• لم يحــدث شىء من ذلك قط ! لم يُطلب منى شىء من مال من أجل «هذا» • كان المال أمراً ملحقا الحـــاقاً ، كان حمى عابرة ، كان زينـــة لا أكثر • أحب سيدة فى ذات يوم ، فاذا أنا فى الغداة أوثر عليها بنتاً من بنات الشوارع • وأنا أنفق على هذه وتلك كلتيهما ، أنفق تحقيقاً لنزوات وسعياً الى تسليات • أصحب المرأة الى المسارح ، وأخرج معها فى نزهات ، وأمضى بهـا الى حفلات رقص الغجر ، وأدفع أثناء ذلك مبالغ ضخمة للخـدم وغيرهم • وكنت أعطيهن هن أيضا مالاً اذا اقتضى الأمر ، ذلك أنهن يحرصن على هذا ، بل يحببنه حبا قويا (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبلنه فرحات ممتنات • أحبتنى نساء من المجتمع الراقى ••• لا جميع نســـاء المجتمع الراقى ، بل عدد منهن ، عـــدد على كل حال ••• ولكن كانت تجذبنى دائما قبل كل شىء الأزقة الضيقة ، والطرق المسدودة المظلمة ، والأحيـاء المريبة البعيدة عن الأماكن التى يختلف اليها الناس • فهنالك المغامرة ،

هنالك الشيء الذي لا تتوقعه . هنالك الورود التي تنبت على الدمن . أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخي . أما في هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية . لو كنت مثلي لفهمت عني . لقد أحببتُ المجون حتى في العار . لقد أحببت القسوة : ألستُ بقة ، ألست حشرة خبيثة ؟ قلت لك انني واحد من آل كارامازوف . ان مجتمع المدينة التي كنت أعيش فيها قد نظم في ذات يوم نزهة جماعية . ركبنا عربات ترويكا. ركبنا سبع عربات ترويكا . كان ذلك في فصل الشتاء . ففي العربة التي كنت فيها أخذتُ ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتي ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتي . كانت طفلة . هي بنت موظف صغير. انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيعة ، لطيفة ... تركتْ لي أن أفعل ما أشاء ، وسمحتْ لي أن أتمتع بحريات كبيرة في الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أنني سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدَّر خاصة كخطيب ممكن) . ولكنني لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلا تاما مدة خمسة أشهر . كنت أرى عينيها في أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعاني من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذي يشتعل في نظرتها ، واللهيب المفاجيء المكظوم الذي يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ... فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة في نفسي . وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لي وتصفح عني ، ولعلها ظلت تحبني ... وقد سعد الزوجان بعد ذلك . لاحظ أنني لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأنني لم أعرّض سمعة الفتاة لسوء . صحيح أن لي رغبات منحطة ، وأنني أجد لذة في الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكنني لست مجردا من الشرف ... ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينيك تلتمعان

وتسطعان . طيب ... لن أزعجك بعد الآن بسرد مثل هذه الحكايات القذرة المزرية . ولكن ما ذكرته لك ليس الا شيئا قليلا ... هو زخرفات اضافية على طريقة بول دو كوك ، ولكن الحشرة القاسية قد نمت في نفسي واستولت عليّ واستبدت بي . ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي ... ان لي منها « ألبوماً » كاملا ... ولقد كنت أحاول دائما ، حين أقطع صلتي باحدى النساء ، أن أتصرف تصرف صديق ، وأن أتجنب السلوك المفاجىء العنيف ، وأن أتقي المشاكل والمشاهد . ثم انني ما أفشيت سراً في حياتي قط ، ولم أعرّض سمعة احداهن لسوء . ولكن كفاني ما قلته حتى الآن في هذا . أرجو أن لا يدور في خلدك أنني جئت بك الى هنا لأقص عليك هذه المباذل ! اطمئن بالاً ! هناك أمور أشق من هذه الأمور أحب أن أفضي بها اليك . ولا يدهشك مع ذلك أنني لا أستحي منك ولا أشعر بخجل أمامك ، وأنني ربما كنت ألتذ بايقاظ هذه الذكريات في حضورك ...

قاطعه أليوشا سائلاً :

ـ أأنت تقول هذا لأنك رأيت احمـــرار وجهي ؟ ان وجهي لم يحمرّ بسبب حكاياتك ، ولا بسبب سلوكك ، بل لأنني مثلك ...

ـ أنت ؟ أنت مثلي ؟ ألا انك لتبالغ قليلا ...

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

ـ لا ... لا أبالغ (كان واضحا أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة طويلة) . ليس بيننا الا فرق في المقدار . نحن لا نقف على درجة واحدة من السلّم . فأنا ما زلت في أسفل ، بينما وصلت أنت الى أعلى ، الى الدرجة الثالثة عشرة مثلاً ... أنا الآن لا أزيد على أن أتكلم ، ولكن

الأمر واحد فى الحقيقة ، واحد تماما ••• ان من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يصل الى نهايته حتما ، لا بد أن يبلغ ذروته •

ـ ففى رأيك اذن أن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى ؟

ـ يجب على المرء أن يتجنب ذلك اذا استطاع •

ـ هل تستطيع هذا أنت ؟

ـ يبدو أننى لا أستطيع •

ـ اسكت يا أليوشا ، اسكت يا عزيزى الطيب الشهم • وددت لو أقبل يدك ، هكذا ، حناناً وعطفاً • ان تلك الوغدة جروشنكا خبيرة فى شئون الرجال ! لقد أكدت لى ذات يوم ان فى وسعها أن تزدردك لقمة واحدة • هأنذا أمسك عن الكلام فما أقول شيئاً بعد • دعنا من هذه الحكايات ، دعنا من هذه العفونة ، ولنصل الى مأساتى الشخصية ••• التى ليست خيراً من هذه الحكايات على كل حال ، فهى معجونة بالخسة والدناءة أيضاً • اسمع : لئن افترى أبونا على حين تحدث عن فتيات بريئات لطخت شرفهن ، فهذا لا ينفى ان ذلك بعينه هو ما حدث فى مأساتى ، رغم أنه لم يحدث الا مرة واحدة، أو قل أخيرا انه لم يحدث قط• وأبونا العجوز الذى اتهمنى بفعال دنيئة كثيرة لا وجود لها ، يجهل هذه القصة فى مقابل ذلك • اننى لم أحدث عنها انساناً فى يوم من الأيام • ستكون أنت من عرفها ، بعد ايفان طبعا • ذلك أن ايفان قد عرف كل شىء ، وقد عرفه قبلك بزمان طويل • ولكن ايفان قبر •

ـ ايفان قبر ؟

ـ نعم •

كان أليوشا يصغى الى كلام أخيه باتباه شديد • وبدأ دمترى يقص حكايته • قال :

ـ رغم أنني كنت ملازما (ليوتنان) فى تلك الكتيبة ، وهى كتيبة ترابط على الجبهة ، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعانى ، أشبه أن أكون منفيا من المنفيين • وقد استقبلنى مجتمع المدينة الصغيرة التى فيها المعسكر استقبالا ممتازا واحتفى بى واكرم وفادتى • كنت أنفق المـــال بغير حساب ، وكانوا يظنوننى غنيا ، وكنت أنا أظن نفسى غنيا كذلك • يبدو على كل حال أنهم قد استلطفونى لسبب آخر أيضا • كانوا كثيرا ما يهزون رءوسهم مستغربين ، ولكنهم كانوا يحبوننى كثيرا • وفجأة أخذ الليوتنان كولونيل ، وهو رجـــل طاعن فى السن ، أخذ يناصبنى العداء ، ويلتمس الفرص لمناكدتى ومشاكستى • غير اننى لم أكن بلا سند أعتمد عليه ، وانحازت المدينة كلها الى صفى ، وتحزبت لى • ثم انه كان من الصعب عليه أن يجد ما يستحق الشكوى منى والحاق الأذى بى • ولا شك فى أننى كنت مخطئاً فى حقه ، لأننى تعمدت أن لا ألتزم ما ينبغى أن ألتزمه تجاهه من واجبات التـــوقير والتعظيم • لقـــد كنت أصطنع التكبر والاستعلاء • ان ذلك العجوز العنيد ، الذى لم يكن امرءا خبيثا شريرا وكان رب أسرة طيب السريرة ، كان قد تزوج مرتين ، ولكن ماتت زوجتاه كلتاهما • فأما الأولى ، وهى مخلوقة بسيطة متواضعة، فقد خلّفت له بنتاً ساذجة الطبع كأمها كانت فى ذلك الأوان تقترب من السنة الرابعة والعشرين من عمرها • كانت تعيش عند أبيها مع احـــدى خالاتها • وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مذعنة الطبـــع هى أيضا • ولكن ابنة أختها ، كبرى ابنتى الليوتنان كولونيـــل ، كانت تجمع الى بساطة الخلق كثيرا من الجرأة والاقدام • انه ليسرنى وأنا أستحضر

ذكراها أن أطريها وأثني عليها : انني يا صديقي لم ألق في حياتي امرأة تضارع تلك الفتاة جمال طبع . كان اسمها آجاتي ... تصور ... آجاتي ايفانوفنا . ولم تكن خالية من الحسن في الذوق الروسي : قامة طويلة ممتلئة قوية ، عينان رائعتان ، ولكن في تعبيرهما شيئا من عامية . ولم تتزوج الفتاة ، رغم أنها خُطبت مرتين . لقد رفضت الخطبة الأولى والخطبة الثانية كلتيهما ، دون أن تفقد بشاشتها وجذلها وصفاء مزاجها . وقد انعقدت الصلة بيني وبينها ـ لا على تلك الطريقة ، لأن كل شيء قد ظل بيننا طاهرا بريئا ـ وانما أصبحنا صـــديقين لا أكثر . والواقع أنه كثيرا ما اتفق لي أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة . وكنت حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحيانا ، من باب الصراحة ، فما تزيد على أن تضحك . اعلم أن نساءً كثيرا تحببن الصراحة .. ولكن تلك كانت عدا ذلك فتاة ، فكان هذا يسليني كثيرا . يجب أن أضيف الى ذلك أن في وسع المرء أن يسميها آنسة . وكانت الفتاة وعمتها تحتجبان في منزل الأب بارادتهما ، وتعيشان فيه خاضعتين خضوع المرءوسين ، ولا تضعان نفسيهما في مستوى سائر أفراد المجتمع . وكان النـــاس جميعا يحبون آجاتي حبا عظيما ، لأنها كانت تجيد الخياطة كما لا تجيدها امرأة: لقد كانت تملك موهبة فذة في الخياطة ، ولكنها لا تتقاضى عن خـدماتها أجراً ، وانما هي تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر . على أنهـــا كانت لا ترفض أخذ شيء من المال اذا عُرض عليها . أما الليوتنان كولونيل فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف . لقد كان شـــخصية من أهم شخصيات المدينة . كان يعيش حياة عريضة ، ويستقبل الضيوف في منزله كثيرا ، ويقيم مآدب غداء ، وينظم أمسيات رقص . وحين وصلتُ الى المدينة والتحقت بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث عن ابنة الليوتنان كولونيل الصغرى التي ستصل قريبا ، والتي يقال انهـا

ذات جمال خارق نادر ، والتي تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية ارستقراطية ببطرسبرج أتمت فيها دراستها • ان هذه الفتاة الاخرى ليست الا كاترين ايفانوفنا نفسها ، بنت الليوتنان كولونيل من زوجته الثانية التي ماتت هي أيضا • كانت زوجته الثانية هذه تنتمي الى أسرة كبيرة ـ أحسب أن أباها كان جنرالا معروفا ـ رغم أنها لم تحمل الى زوجها ، هي أيضا ، مهراً ضخماً ••• ذلك أمر عرفته من مصدر مطلع • لقد كان لها اذن أقرباء ، وربما كانت لها امال في أكثر تقدير ، اما المال فلم يكن عندها مال ••• على أن وصول طالبة بطرسبرج الى المدينة (وقد جاءتها زائرةً فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث رد الى المدينة صباها ان صح التعبير • فهؤلاء أرقى سيدات مجتمعنا ، وهن زوجتا « صاحبي سعادة » ، وزوجة كولونيل ، وسيدات أخرى كثيرات ، هؤلاء هن يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين في اقامة المآدب لها • لقد أصبحت الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا ، حتى لقد أقيمت على شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لاعانة مربيات عجائز لا أدرى من هن• لم أقل أنا شيئا ، بل بقيت بعيدا متنحيا ، ألهو وأقصف على ما يشاء لى هواى • وفى تلك الآونة بعينها انما اقترفت فضيحة من تلك الفضائح التي أثارت العياط والزياط فى المدينة كلها • لقد لاحظت فى ذات مساء، أثناء حفلة استقبال أقامها كومندان الكتيبة ، أنها كانت تروزنى بنظرها ، ولكننى لم أقترب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التي عرضت لى للتعرف بها • وبعد ذلك بزمن قصير ، قررت أثناء سهرة أخرى ، أن أتجه اليها بالكلام • فلم تكد ترضى أن تتنازل فتنظر الى ، وعبَّرت شفتاها عندئذ عن احتقار • قلت بينى وبين نفسى عندئذ : « اصبرى قليلا ••• سأعرف كيف أثأر لنفسى » • وكنت فى ذلك الأوان شرس الطبع ، شديد التهور ••• وكنت أعرف ذلك فى نفسى ••• وقد شعرت خاصةً

أن « كاتينكا » ليست واحدة من تلك الآنسات الساذجات الكثيرات بنات المدارس الداخلية ، وانما هي انسانة قوية الطبع ، ذات كبرياء وخيلاء ، فاضلة طاهرة حقا ••• والامر الذي أشعرني بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة ، على حين أنني لا ذكي ولا مثقف • لعلك تظن أنني أردت أن أخطبها ؟ أبدا • كل ما كنت أتمناه هو ان أستطيع ، أنا الفتى البارز المرموق ، أن أثأر منها لنفسي ، لأنها لم تعرف قيمتي ولم تحس بقدري• وبانتظار ذلك اندفعت ألهو وأقصف بغير قصد ولا اعتـــدال ، حتى ان الليوتنان كولونيل انتهى به الامر الى حبسي ثلاثة أيام • وفي تلك الآونة انما أرسل الي أبوك ستة آلاف روبل بعد أن بعثت اليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقي الاخرى • لقد اعترفت في ذلك التنازل بأننا قد « صفينـا حساباتنا » ، وبأنني لن أطالبه في المستقبل بشيء البتة • ولقد كنت لا أفهم شيئا من أمر هذه الحسابات في الماضي • ويجب أن أعترف لك ، يا أخي أليوشا ، انني قبل مجيئي الى هنا ، وحتى الآونة الأخيرة ، بل وحتى يومنا هذا الذي نحن فيه ، لم أفهم قط شيئا من أمر هذه الخلافات المالية بيني وبين أبينا • على كل حال ، دعنا من هذه المسألة الآن ••• وان لي اليها عودة • المهم أنني بعد أن تلقيت المال بزمن قصير علمت علم اليقين ، من رسالة بعث بها الي صديق ، أمراً يمكن أن يهمني كثيرا ، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا الليوتنان كولونيل ، وانها تشتبه في أمره وتظن فيه سوء الادارة وارتكاب المخالفات ، أي أن أعداءه يدبرون له مكيـدة خبيثة • وها هو ذا آمر الفرقة يصل على حين فجأة ، فيقرّع صـــاحبنا الليوتنان كولونيل تقريعا شديداً ، وما هي الا فترة قصيرة اذا بالليوتنان كولونيل يتلقى أمرا بتقديم استقالته • لن أقص عليك تفاصيل هـــذه الحكاية • فانما المهم أن هذا الرجل كان له في الواقع أعداء • وقـــد

تنكرت له المدينة كلها منذ تلك اللحظة ، وأظهرت له ولأسرته فتورا شديدا ، وصار الناس يتحاشونهم تحاشيهم مرضى مصابين بالطاعون ! وفى تلك الآونة انما ارتكبت غلطتى الأولى . ففى ذات يوم التقيت بآجاتى ايفانوفنا التى ظللت صديقا لها :

« ـ هل تعلمين أن الاموال التى فى عهدة أبيك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل ؟

فقالت لى آجاتى :

« ـ كيف هذا ؟ لماذا تقول هذا الكلام ؟ لقد جاء الجنرال مفتشا منذ مدة قصيرة ، فلم يكن المال ينقص كوبكا واحدا ...

قلت لها :

« ـ صحيح . كان المال كاملا يومذاك ، ثم اختفى » .

جزعت آجاتى . وقالت :

« ـ لا تخفنى ! من قال لك هذا الكلام ؟

فأجبتها :

« ـ اطمئنى ... لن أقول لأحد كلمة واحدة . أنت تعلمين أننى كالقبر صمتا حين يجب الصمت . ولكننى أحب أن تعرفى أيضا ما يلى : اذا طولب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فلم يستطع أن يردها فسيكون عليك ـ حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يُحكم عليه فى آخر عمره بأن يصبح جنديا بسيطا ـ سيكون عليك أن تبعثى الىَّ ، خفيةً ، بأختك الآنسة طالبة المدرسة الداخلية . لقد تلقيت منذ مدة قصيرة مبلغا ضخما ، سأتنازل لأبيك منه عن أربعة آلاف وخمسمائة روبل . وأحلف لك أن أحدا لن يعرف شيئا عن هذا الامر فى يوم من الايام .

هتفت تقول :

« ـ يا للشقى ! ألا انك لشقى ! (تلك هى الكلمة التى استعملتها). يا للعار ! يا للدناءة والجبانة ! كيف تجرؤ أن ... ؟ » .

« وتركتنى مستاءة أعنف الاستياء ، وصحت أقول لهـــا مرة أخرى ان أحدا لن يعرف شيئا اذا وافقت ، وانني سأحافظ على السر محافظـة تامة ، وأكتمه كتمانا كاملا . يجب أن أقول لك فورا ان هاتين المرأتين ، آجاتى وخالتها ، قد تصرفتا فى هذه القضية تصرف ملاكين . كانتـا فى الواقع تعبدان كاترين المتكبرة عبادةً ، وتمَّحيان أمامها امحاءً ، وتسعيان بين يديها كخادمتين ... ومع ذلك أسرعت آجاتى تقص الحـادث على أختها ، أى تروى لها حديثى معها . عرفت ذلك فيما بعد . لقد قالت لها كل شيء . وكانت تلك قضيتى كلها فى الواقع .

« ففى ذات يوم وصل ميجر جديد على حين فجأة ليستلم قيـــادة الكتيبة . وتمت الاجراءات المعتادة . فاذا باللييوتنان كولونيـــل العجوز يمرض بغتة ، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير ، ولا يسلّم أموال الدولة . وقد أكد طبيبنا كرافتشنكو أنه مريض حقا ، وأنه لا يتظاهـر بالمرض تظاهرا . ولكننى كنت أعرف حقيقة الامر ، فقـــد اطلعت على تفاصيل المسألة سرا منذ زمن طويل : وهى أن المال يكون فى الخـزنة عند اجراء الحسابات فى موعدها من كل سنة ، ولكنه يختفى بعد ذلك دائما الى حين ، وذلك منذ أربع سنين . لقـــد كان اللييوتنان كولونيـل يقرض هذا المبلغ رجلا موثوقا أمينا من تجار المدينة هو الأرمل العجوز تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين . فكان تريفـونوف يمضى بالمبلغ الى « المعرض » فيعقد صفقات ويبرم أعمالا حتى اذا عاد الى المدينة رد المبلغ المقترض الى اللييوتنان كولونيل مضيفا اليه الفوائد وبعض

الهدايا . ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من « المعرض » لم يردّ المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القذر الذى هو وريثه والذى هو أفسد مخلوق فى هذا العـــالم) . لم يرد تريفونوف المبلغ اذن . فلما هرع اليه الليوتنان كولونيل يطالبه برد المال قال له تريفونوف : « أنا لم أقترض منك شيئاً ، ولا كان فى وسعى أن أقترض منك شيئا على كل حال » . فاذا بصاحبنا الليوتنان كولونيـــل يرقد فى فراشه ، ويغطى رأسه بمنشفة ، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على صدغيه ثلجاً . وفجأة يصل الى منزله فرّاش حاملا دفتر الحسابات مع أمر بردّ « أموال الدولة بغير ابطاء ، فى غضون ساعتين على أكثر تقدير » . فيضع العجوز توقيعه على المذكرة المرسلة اليه ، وقد رأيت توقيعه بنفسى فيمـا بعد ، ثم ينهض قائلا انه يريد أن يرتدى بزته العسكرية ، فيمضى الى غرفة نومه ، فيتناول بندقية صيد ذات طلقتين ، فيحشوها برصاص من رصاص الحرب ، ويخلع حذاء قدمه اليمنى ، ويضع فوهة البندقية على صدره ، ويتلمس الزناد باصبع قدمه . ولكن آجاتى التى ساورت فكرها شبهات ، لأنها تذكرت الحديث الذى جرى بينى وبينها، كانت قد تسللت وراءه خلسةً ورأت فى الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفســه ، فهرعت الى الغرفة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه، فانطلقت الرصاصة فى اتجاه السقف لم تجرح أحدا . وهرعت المرأتان الأخريان أيضا ، فتمت السيطرة على العجوز ، وانتُزعت منه البندقية ... لقــد رُوى لى هذا المشهد تفصيلا فيما بعد ... وكنت فى تلك اللحظة فى مسكنى . وكان الوقت مساء ، فأنا أستعد للخروج . لقد ارتديت ثيابى، وصففت شعرى ، وعطّرت منديلى ... وانى لأتناول قبعتى ، اذا بالباب يُفتح فجأة ، واذا بكاترين ايفانوفنا أمامى ، فى مسكنى ...

« ان مصادفات غريبة تقع فى هذه الحياة .. وبفضل هذه المصادفات

لم يرها أحد من سكان المدينة آتية الىَّ ، فلم ينتشر خبر هذه الزيارة ، ولم يشع أمرها . كنت أسكن فى شقة أجَّرتنيها أرملتا موظفين صغيرين، طاعنتان فى السن جدا ، تخدمانى باحترام وتعظيم واجلال ، وتطيعان أوامرى طاعة عمياء . أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد فى أمر هذه الزيارة ، فكانتا خرساوين كخرس الشبوط . أدركت كل شىء من أول نظرة طبعا . دخلت الفتاة ، ونظرت الىَّ وجهاً لوجه . كان فى عينيها القاتمتين عزم وحزم ، بل كان فيهما تحدٍ ووقاحة ، غير أن شيئا من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها .

« ـ قالت لى أختى انك ستعطينى أربعة آلاف وخمسمائة روبل اذا جئت أطلبها منك ... بنفسى . فهأنا ذا جئت ... هات المبلغ ! » .

« لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئا ، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتها وارتجفت شفتاها ، واختلج خداها . أتصغى الىَّ يا أليوشا أم تُراك نمت ؟

قال أليوشا مضطربا :

ـ ميتيا ، أنا أعلم أنك ستقول لى الحقيقة كلها .

ـ سأقول لك الحقيقة ، اطمئن . سأقول لك الحقيقة ولن أدارى نفسى . اليك الحقيقة اذن : الفكرة الأولى التى ساورتنى هى فكرة جديرة بواحد من آل كارامازوف . لقد اتفق لى فى الماضى يا أخى أن لدغتنى حشرة فرقدت فى فراشى أسبوعين من الحمى . فاعلم أن حشرةً أخرى قد لدغتنى فى تلك اللحظة فى القلب من جسدى ... هى الحشرة المفترسة الكاسرة ، هل تفهم ؟ شغلتُ الفتاة ببصرى . هل رأيتها ؟ انها جميلة جمالا رائعا ، ولكن ليس وجهها هو الذى بدا لى جميلا عندئذ : لقد كانت فى تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس الىَّ

أنا الشقي ، كانت جميلة بالتضحية التي تقدمها في سبيل أبيها بالقياس الىّ أنا البقة الحقيرة ! وها هي ذي الآن تقع تحت سلطان هذه البقة ، ها هي ذي الآن خاضعة خضوعا كاملا لى أنا ، أنا الشقي ، خاضعة كلها ، جسما وروحا • انها كلها تحت رحمتي ••• سأعترف لك بالحقيقة من غير لف ولا دوران : ان هذه الفكرة التي خطرت ببالى ، ان فرحة الحشرة هذه التي نبتت في نفسي ، قد استولت علىّ في أول الامر استيلاء تاما وملأت قلبي الى حيث أوشك أن ينفجر من فرط التوتر • بدا لى أنه ليس ثمة مجال لمقاومة ، وأنه لم يبق لى الا أن أتصرف تصرفَ بقة ، تصرفَ رتيلاء مفترسة ، بغير شفقة ولا رحمة ••• وكادت تنقطع من ذلك أنفاسي • افهمني حق الفهم ••• انه لبديهي أنني لو فعلتُ لمضيت أخطبها منذ الغد ، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل ان صح التعبير ، فما يعلم أحد بما جرى ، ولا تخطر بالبال أية شبهة في أي مكان • صحيح أن لى شهوات دنيئة ، ولكنني مع ذلك رجل شريف • غير أنني في تلك اللحظة سمعت كأن صوتا يهمس في أذني قائلاً « دعك من هذا ••• ان هذه المرأة لن تستقبلك اذا ذهبت تخطبها في الغد ، وستكتفي بأن تأمر حوذيّها بأن يخرجك مطرودا • ستقول لك : افضح سمعتي ، وشهّر بي في المدينة كلها ، فأنا لا أخاف منك » • ألقيت نظرةً على الفتاة ، فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذبني ، فذلك بعينه ما سيحدث • لسوف أُطرد شر طردة : انني أقرأ هذا في عينيها منذ الآن • استولى علىّ حنق مسعور حين خطرت ببالى هذه الفكرة ، فاشتهيت فجأة أن أقوم بأحقر وأسفل عمل ممكن ، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان : أنظر اليها مبتسما وأدمّرها تدميرا في مكانها ، هنا ، أمامي ، قائلا لها بلهجة لايجيدها الا صاحب دكان :

« ـ أجئت حقاً من أجل أربعة آلاف روبل ؟ أنا قلت ما قلته مازحاً

عابثاً يا آنسة ! ألا انك قد برهنت اذن على خفة وطيش حين حملت كلامي محمل الجد ! مائتا روبل ، معقول ! ••• لو سألتني أن أعطيك مائتي روبل لفعلت ، ولفعلت مسرورا ••• أما أربعة آلاف روبل يا آنسة ، فذلك مبلغ أضخم من أن نهينه هذه الاهانة من أجل أمور تافهة كهذه ! لقد أزعجت نفسك في غير طائل يا آنسة !

« هل ترى يا أليوشا ؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع كل شيء طبعا ! كانت ستهرب ••• ولكنني أكون قد ثأرت لنفسي ثأراً رهيبا ، وأكون قد أرضيت كرامتي الجريحة ارضاءً جهنمياً ! كنت سأظل أبكي طوال حياتي بعد ذلك ، حنقاً وحسرة وأسفاً ، ولكنني لو قلت لها ذلك الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها في تلك اللحظة انتصارا ساحقا ! صدقني اذا قلت لك انني لم يتفق لي يوما أن نظرت الى أية امرأة في ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره ، أما في تلك المرة فقد لبثت ثلاث ثوانٍ أو خمساً أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب ••• أحلف لك ••• هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذي لاتفصله عن الحب الجامح المجنون الا شعرة ! اقتربت من النافذة ، ووضعت جبيني على زجاجها البارد ••• انني أتذكر الآن أن ملامسة الزجاج المتجلد قد أحدثت لي احساسا بحرق قوي • اطمئن : لم أُبقها عندي طويلا • التفت ، واتجهت نحو منضدتي ، ففتحت الدُرْج وأخرجت منه الحوالة التي كنت قد أودعتها معجمي الفرنسي ، وهي بمبلغ خمسة آلاف روبل تدفع « لحامله » • أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة واحدة ، ثم طويتها وأعطيتها اياها • وبعد ذلك فتحت باب الممر بنفسي ، ثم تراجعت خطوة الى وراء ، وحييتها منحنيا حتى الحزام ، تحيةً فيها أعظم الاحترام ••• تستطيع أن تصدّق ذلك ! ••• ارتعشت الفتاة من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، وحدّقت اليّ لحظةً ، وانكفأ لونها انكفاء

رهيباً ، ثم اذا هي ، على حين فجأة ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ودون أن تظهر شيئاً من خشونة ، تنحني هي أيضا ، برفق وعمق ، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض ، فتحييني ساجدةً هـــذا السجود ، لا على طـريقة آنسةٍ تعلمت في مدرســـة داخلية ، بل على الطـــريقة الروسية • ثم نهضت بوثبة واحدة ، وولّت هاربة • وكنت حاملاً سيفي في تلك اللحظة فسللته ووددت لو أغمده في صدري • لماذا ؟ لا أدري ! لو قد فعلت لكان هذا مني حماقة طبعا ، ولكن أحسب أن ذلك كان ثمرة الحماسة • هل تفهم أن من الممكن أن يقتـــل الانسان نفسه في بعض لحظات الحماسة ؟ على أنني لم أفعل شيئاً من ذلك ، واكتفيت بأن قبلت السيف ، ثم أعدته الى غمده • تلك تفاصيل لم يكن من الضروري أن أرويها لك على كل حال • ويخيّل اليّ أنني قد زخرفت دوري قليلاً حين وصفت لك تلك الصراعات كلهـــا ، وأنني قـد أضفت عدة أشياء لأمجد نفسي • لا ضير ••• لنسلّم بهذا ••• تباً لجميع الجواسيس على قلب الانسان ! تلك هي « مغامرتي » مع كاترين ايفانوفنا ! اثنان يعرفانها الآن : أنت وأخي ايفان ••• ولا أحد يعرفها سواكما ! ••• » •

نهض دمتري فيدوروفتش ، وسار بضع خطوات ، مضطرباً اضطراباً شديدا ، وأخرج منـــديله فجفف به جبينه • ثم عاد فجلس ، لكنه لم يجلس في المكان الذي كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة ، وانما جلس على المقعد المواجه ، المستند الى الجدار المعارض ، فاضـــطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه •

٥

اعتراف قلب حار

«والقدمان في الفضاء»

قال أليوشا :

ـ الآن عرفت الجزء الأول من القصة .

ـ عرفت الجزء الاول ، وهو دراما مُثّلت فى مدينة أخرى . أما الجزء الثانى فهو تراجيدية ستجرى أحداثها هنا .

قال أليوشا :

ـ لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثانى .

ـ وهل تظن أننى ، أنا نفسى ، أفهم من هذا الجزء الثانى شيئاً كثيراً ؟

ـ لحظةً يا دمترى . هناك عنصر أساسى . قل لى : أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ وما زلت خطيبها ؟

ـ لم أخطبها فورا ، وانما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أسابيع . قلت لنفسى غداة ذلك اليوم ان كل شىء قد انتهى ، وانه لن يكون لما وقع تتمة ، فان مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغارا . وهى ، من جهتها ، لم تحرك ساكنا طوال الأسابيع الستة التى قضتها فى المدينة بعد ذلك ،

ولا أشعرتني بوجودها ، اللهم الا مرة واحدة في الواقع : ففي اليوم الذي أعقب زيارتها جاءتني خادمتها وأعطتني حزمة دون أن تنطق بكلمة واحدة • قرأت على الحزمة عنواني • وفضضت الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل • لقد كانت في حاجة الى أربعة الاف وخمسمائة فقط ، فباعت السند بخسارة قدرها أكثر من مائتي روبل («عمولة» صرف السند) ، ثم أرسلت الي الباقي وهو مائتان وستون روبلا فيما أظن ، ولكنني لا أتذكر مقدار المبلغ تذكراً واضحاً • لم يكن في الحزمة الا المال ••• لم يكن فيه كلمة شرح واحدة • بحثت في داخل الحزمة عن أية اشارة ولو بالقلم الرصاص ، فلم أظفر بشيء • ما العمل ؟ اندفعت ألهو وأقصف مزيدا من اللهو والقصف ، وبلغت من ذلك حداً اضطر معه الميجر الجديد أن يقرعني تقريعا شديدا • أما الليوتنان كولونيل فقد رد أموال الدولة كاملة لا تنقص كوبكا واحدا ، فدهش جميع الناس، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه لا يملك هذا المبلغ • وما لبث بعد رد المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقدا ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغي على حين بغتة فمات بعد خمسة أيام•وقد شيعت جنازته تشييعا عسكريا لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التي طلب اليه أن يقدمها • وسافرت كاترين ايفانوفنا الى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام ، تصحبها أختها وخالتها • وفي تلك اللحظة فقط (فانني ما رأيتهن مرة أخرى ولا ودعتهن في المحطة) انما تلقيت منها بطاقة صغيرة من ورق أزرق هو ورق الرسائل الأنيق ذي الحافة المخرمة الجميلة ، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص : « سأكتب اليك • انتظر رسالتي • ـ ك »• ذلك كل شيء •

سأسرد عليك التتمة مقتضبا موجزا • في موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها ، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المرء له مثيلا الا في الحكايات

الشرقية • لقد فقدت قريبتُها الجنرالة ابنتى أختها على حين فجأة ، وهما أقرب ورثتها اليها ، فقدتهما مصابتين بجدرى الماء الذى خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة ، فاهتزت الجنرالة اهتزازا عميقا لهذا المصاب وتألمت ألماً شديدا ، فاحتضنت كاترين وفرحت برؤيتها كأنها ابنتها ، وأصبحت كاترين عندها هى الأمن والسلام لها فى وحدتها الموحشة وعزلتها الكئيبة • استولت الجنرالة على كاترين ، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها • على أن الوصية ليست الا آمالاً • غير أن العجوز وهبت لها كذلك أربعة وعشرين ألف روبل أعطتها اياها بغير ابطاء ، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها ، من أجل أن تستطيع التصرف فيه على ما يشاء لها هواها • كانت الجنرالة امرأة هسترية ، وقد أتيح لى أن ألاحظها بعد ذلك فى موسكو • فى ذات يوم ، تلقيت بالبريد أربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فدهشت أشد الدهشة وذُهلت أكبر الذهول ، لأننى لم أفهم من الأمر شيئاً • وبعد تلقى المال بثلاثة أيام وصلتنى الرسالة الموعودة • ان الرسالة معى الآن ، فأنا أحملها دائما ، وسأحتفظ بها حتى الممات • هل تريد أن ترى الرسالة ؟ اقرأها ••• اننى أحرص على أن تقرأها حتماً : ان كاترين ايفانوفنا تعرض علىّ فى هذه الرسالة أن تصبح خطيبتى ، تعرض علىّ هذا بنفسها رأساً • كتبت تقول ما معناه : « اننى أشعر نحوك بحب لا حدود له • ولست أطلب منك أن تحبنى اذ كنت لا تستطيع ذلك • كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجنى • لا تخش شيئا : فاننى لن أزعجك ، ولن أكون الا قطعة أثاث فى منزلك ، لن أكون الا السجادة التى سوف تمشى عليها ••• اننى أريد أن أحبك الى الأبد ، اننى أتمنى لو أنقذك من نفسك • » • لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التى كتبتها لى ، لا أستحق أن أرددها بألفاظى القذرة ، بهذه النبرة الحقيرة التى لازمتنى طوال حياتى والتى لن أستطيع التخلص

منها في يوم من الايام ! لقد حطمت تلك الرسالة قلبي ، فما يزال ينزف بتأثيرها حتى الآن . أتظن أنني مرح النفس في هذه الأيام ، وأن وضعي لا يعذبني عذابا شديداً ؟ ولقد أسرعت أجيبها (لأنني كنت لا أستطيع أن أسافر الى موسكو فورا) ، كاتباً لها من خلال الدموع . غير أن هناك شيئاً سأظل أشعر منه بالخزي والعار ماحييت . لقد ذكرت في رسالتي التي بعثت بها اليها أنها أصبحت تملك الآن ثروة طائلة ، وأن لها بائنة ضخمة، أما أنا فلست الا ضابطا فقيرا ليس له علاقات . نعم ، لقـــد كلمتها عن المال ، كلمتها هي عن المال ! ... كان ينبغي لي أن أسكت ، كان ينبغي لي أن أقبل هذا التفاوت بيني وبينها صامتاً ، ولكن هذا الكلام قد أفلت مني رغم أنفي ... وكتبت في الوقت نفسه الى ايفان الذي كان يومئـذ بموسكو . عرضت عليه الموقف عرضا دقيقا في حدود الامكان ـ ضمَّت الرسالة ست صفحات ـ وكلفت ايفان أن يذهب اليها . لمـاذا تنظر اليَّ هكذا ؟ ما بالك تحملق هذه الحملقة ؟ نعم ... لقد وقع ايفان في حبها ، وما يزال يحبها ، أنا أعرف ذلك ... في رأيكم أنتم وفي رأى الناس أنني ارتكبت بهذا حماقة كبرى ... ولكن من الممكن أن تكون الحماقة هي الآن سبيلنا الوحيد الى الخلاص جميعا ! ألست ترى مدى ما تكنه له من تقدير ، بل وما تحمله له من اعجـاب ؟ كيف يكون في وسعها اذا هي وازنت بيني وبينه ، أن تحب رجلا مثلي ولا سيما بعد كل ما حـدث هنا ؟

ـ أما أنا فأعتقد أنها لا تستطيع أن تحب الا رجلاً مثلك أنت لا مثله هو .

ـ هي ؟ لا ... انها لا تحبني أنا ، وانما تحب نبل نفسها وأريحية قلبها وشهامة روحها ...

ذلك ما أفلت من لسان دمتري فيدوروفتش مع شيء يشبه أن يكون

كرهاً . ثم سرعان ما أخذ يضحك ، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان ، واحمر وجهه ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة ، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه ، غضب رهيب لكنه صادق :

ـ أحلف لك يا أليوشا ... صدّق أو لا تصدق ... أحلف لك صادقاً صدقَ وجود الله وصدقَ أن يسوع المسيح ربُّنا ، أحلف لك أنني ، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة ، أعلم حق العلم أنني لا أرقى الى مستوى كعب قدمها ، وأن نفسي لا تعدل جزءاً من مليون جزء من نفسها ، وأن لها من صدق نبل القلب ما لا ينعم به الا ملاك من ملائكة السماء ! وان يقيني من هذا هو بعينه مأساتي كلها .. أي ضير في أن يحب الانسان العبارات الجميلة وأن يشوبَ أطهرَ اندفاعاته شيء من تمثيل ؟ ألست أستعمل أنا عبارات مصطنعة ؟ ومع ذلك فأنا صادق ، صادق جدا . أما ايفان فانني أتخيل أنه في هذه الساعة يلعن الطبيعة ولا شك ، يلعن الطبيعة هو الرجل الذكي ذلك الذكاء كله ! من الذي تفضله المرأة ؟ ما الذي تؤثره المرأة ؟ انها تخص بايثارها الانسان النذل الذي هو أنا ، الانسان الذي برهن هنا ، وهو خاطب ، على عجزه عن أن يتحكم بميله الى الدعارة والفجور ، رغم ايثارة خطيبته ، هل تفهم ؟ نعم ... رغم ايثاره خطيبته ... فهذا هو الرجل الذي يُؤثَر ، أما الآخر فيُبعَد .... ولماذا ذلك كله ؟ لأن فتاة من الفتيات تريد أن تتحدى قدرها ، وأن تقهر سعادتها ! سخف ! أنا طبعاً لم أطلع ايفان على خواطري هذه في يوم من الأيام ، ولا هو اعترف أي اعتراف أو أشار أية اشارة حول هذا الأمر . ولكن يجب أن ينال كل واحد منا نصيبه ، فأما الأفضل فيحتل المكان الذي يستحقه ، وأما الآخر الذي لا يستحق ذلك المكان فيغوص في الأزقة المظلمة ، ويختفي من حياتهما الى الأبد . ان هذا الآخر سيجد له مأوى في الأزقة الموبوءة العفنة التي

يحبها ، والتى تستهويه وتجذبه اليها ، والتى يشعر فيها أنه فى بيته ، ليهلك هنالك فى البحقارة المقزّزة راضيا عنها متلذذا بها • اننى أسترسل الآن فى عبارات جوفاء ، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك • ولكن الأمور ستجرى هذا المجرى الذى أصــفه • سأغطس أنا فى الحضيض ، وستتزوج هى ايفان •

قاطعه أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضــطربت نفسه اضــطرابا شديدا :

ــ لحظةً يا أخى ! هنالك نقطة لم تشرحها لى مع ذلك حتى الآن : أنت خطيبهــا ، أليس كذلك ؟ أنت خطيبها رغم كل شىء ••• فكيف يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك اذا كانت هى ، خطيبتك ، لا تريد ذلك ؟

ــ أنا خطيبها ، هذا صحيح • وقد احتفلنا بخطــوبتنا وفقاً لجميع القواعد المقررة ، ونلنا جميع المباركات المألوفة المعهودة • تمّ ذلك فــور وصولى الى موسكو ، تمّ فى كثير من الأبهة وسط كثير من الأيقـونات مع عدد كبير من المدعوين هم صفوة المجتمع وخيار القوم • وقد باركتنا الجنرالة ، حتى لقد هنأت كاترين ايفانوفنا ــ هل تصدق ذلك ؟ ــ هنأتها قائلة لها : « أحسنت الاختيار يا بنيتى ••• اننى أرى قرارة نفس هذا الفتى • » • أما ايفان فقد ناصبته العداء ــ هل تتصور ؟ ــ ولم ترض أن تهنئه ••• وقبل أن أترك موسكو جرت بينى وبين كاتيا أحاديث طويلة ، فكشفت لها عن نفسى كاملة بنبل واخلاص ، ووصفت لها أخلاقى وصفا دقيقا صادقا ، فكانت تصغى الى ما أقول بانتباه شديد •

فكان اضطراب وكانت دموع

وكان كلام رقيق وديع

وكان كذلك كلامٌ فيه كبرياء وخيلاء . وأجبرتنى على أن أقطع على نفسى عهداً لأُصلحنَّ حالى . قطعت لهـا على نفسى ذلك العهد . وهأنت ذا ترى ...

ــ ماذا ؟

ــ لقد ناديتك اليوم ، ودعوتك أن تجىء الى هنا فى هـذا النهار ــ تذكَّر التاريخ ــ من أجل أن أوفدك قبل حلول المسـاء الى كاترين ايفانوفنا ، فتبلغها ...

ــ أبلغها ماذا ؟

ــ اننى لن أذهب اليهـا بعـد اليوم قط . وانقل اليهـا تحيتى واحترامى .

ــ ما هذا الكلام ؟ أهذا ممكن ؟

ــ هو ممكن لأن من غير الممكن أن أذهب اليها بنفسى ، فما عسانى قائلاً لها ، وكيف أستطيع أن أقول هذا الأمر ؟

ــ وما الذى ستفعله بعد ذلك ؟

ــ أضيِّع نفسى فى الأزقة !

ــ هى اذن جروشنكا ! ستذهب الى جروشنكا ؟

بهذا هتف أليوشا سائلاً بلهجة مرة وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى . وتابع كلامه :

ــ أيكون ما قاله راكيتين هذا صحيحا وا أسفاه ! أعترف لك بأننى قد خطر ببالى أنك قد ارتضيت الانسياق الى منزلها ، ولكننى كنت آمل أن تكون قد سئمتها أخيرا .

ـ الانسياق الى منزلها ؟ هل يستطيع خطيب أن يرتضي الانسياق الى منزلها ؟ أتظن أن هـــذا ممكن ومقبول ، على مرأى ومسمع من جميع الناس ، لا سيما والخطيبة فتاة كتلك الفتاة ؟ ان لى شيئا من شرف رغم كل شيء . صحيح أنني منذ اللحظة التي بدأت أختلف فيها الى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الانسان الشريف . ذلك أمر أفهمه كل الفهم . ما بالك تنظر الىّ هكذا ؟ اعلم انني حين ذهبت اليهـا أول مرة انما ذهبت اليها لغرض واحد هو أن أضربها . كنت أعلم وما زلت أعلم علم اليقين أن ذلك الضـابط الذى يكلفه أبى بقضـاء أعمال له ، قد أعطى جروشنكا سنداً ممهوراً بامضائى ، لتطالب بملاحقتى فتضطرني بهذه الوسيلة أن أنسحب . لقد أرادوا تخويفي. لذلك قررت أن أؤدبهم وكنت قد رأيتها مرة من بعيد ، فلم تحـــدث فى نفسى أثراً كبيرا لأول وهلة ، وكنت أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز ، الذى هـو الآن مريض راقد فى فراشه قد بارحته قواه ، ولكنه سيترك لها مع ذلك بعد موته كنزا كبيرا ؛ وكنت أعلم أيضا أنها تحب المـال حباً عظيما ، وتحاول أن تربح المزيد منه بالاقراض بربا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، هذه الوغدة ، هذه الحقيرة ... فذهبت اليها لأضربها ... فاذا أنا أؤخذ بها ... كان الأمر صاعقة أو نازلة أو طاعونا أو ماشئت فسمّه ... ولكنني قد أُصبت وما أزال . وأنا أعلم أن لا مهرب لى منذ الآن ، وأن كل شيء قد انتهى ، فأنا أسير هذه المرأة ولن أرى فى الحياة بعد اليوم شيئا سواها ... وقد اتفق عرضاً فى تلك اللحظة ، كأنما على عمد وقصد ، أن كان معى ثلاثة آلاف روبل ، أنا الذى لست الا شحاذا ... فذهبنا معا الى موكرويه التي تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخا ، فاستدعيت هنالك غجـــراً ، رجالا ونساء ، وفتحت زجاجات شمبانيا ، فأخذت أسقى جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات ،

أسقى بسخاء ، بوفرة ••• كنت لا أحسب ما أنفـق من مال ، فمئـات الروبلات تذهب بعضـــها وراء بعض ، فما هى الا ثلاثة أيام حتى خلا وفاضى فلم يبق معى شىء ••• ولكننى كنت أحسب أننى قد غزوت هذه المرأة واستوليت عليها • فهل تظن أننى قد وصلت معها الى شىء ، هـل تظن أننى ظفرت منها بشىء ؟ أبدا ••• لم أنل منها شيئا البتة • لقـــد رفضتْ ، بل لم تتنازل حتى أن أتأمل جمال جسدها معجبا به عن بعد ! ان لها قواما ••• أوه ••• لن أقول لك الا هذا ••• قواما ••• ان فى جسمها نوعا من تثنٍ تراه فى الساق أيضا ، وتراه حتى فى الاصـــبع الصغير من قدمها اليسرى • لقد رأيت هذا الاصبع ، وقبلته ••• ولكن ذلك كان كل شىء ، أحلف لك • كانت تقول لى :

« ـ أتزوجك اذا شئت ، رغم فقرك ـ عِدْنى بأن لا تضربنى ، وبأن تدع لى أنْ أفعل فى المستقبل ما يحلو لى ، فَربما قبلت عندئذ أن أصبح زوجتك •

« كانت تقول ذلك ضاحكة ، وهى ما تزال تضحك الى الآن ! » •

نهض دمترى فيدوروفتش على حين فجأة وقد بدا عليه نوع من غضب مسعور • أصبح كالسكران دفعة واحدة • احتقنت عيناه دماً •

ـ وهل ترفض أنت أن تتزوجها ؟

ـ اذا وافقتْ تزوجتها فورا ؟ واذا رفضت بقيت الى جانبهـــا ولو خادماً • هل تعلم أنت ••• أنت •••

توقف دمترى فيدوروفتش فجأة أمام أليوشا ، فأمسكه من كتفيه ، وأخذ يهزه بكل ما أوتى من قوة •••

ـ هل تعلم ، أيها الطفل البرىء ، هل تعلم أن هذا كله ليس الا هذيانا ، ليس الا كلاما يدل على جنون ، وأن الأمر فى الواقع أمر مأساة؟

اسمع يا أليوشا : أنا رجل دنيء منحط تستبد به رغبات حقيرة وتضيعه شهوات سافلة ، أما أن أكون لصاً صغيرا ، أما أن أكون لصاً صغيرا شقيا، فذلك ما لن يرضاه دمترى كارامازوف لنفسه فى يوم من الأيام ! ألا فاعلم اذن أننى لص صغير يسرق المال من على منضدة أو من جيب سترة معلقة ! ففى ذلك الصباح الذى ذهبت فيه الى جروشنكا لأضربها ، كانت كاترين ايفانوفنا قد استدعتنى الى منزلها سرا ، وكلفتنى (راجية أن أنفذ طلبها فى الخفاء فما يعلم به أحد) ، أن أذهب الى مركز الاقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل الى أختها آجاتى ايفانوفنا بموسكو . ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الامر . فهذه الثلاثة آلاف روبل هى التى كانت فى جيبى حين ذهبت الى جروشنكا ، وبهذه الثلاثة آلاف روبل انما مضيت أنا وجروشنكا الى موكرويه . ولقد تظاهرت بعد ذلك بأننى ذهبت الى مركز الاقليم ، ولكننى لم أسلّم كاترين ايفانوفنا ايصال البريد ، وانما أكدت لها أننى أرسلت المال ووعدتها بأن آتيها بالايصال فى يوم آخر . ولم أعطها الايصال طبعا حتى هذه الساعة ، متعللا بالنسيان . فتخيل الآن أنك ذهبت اليها اليوم ، فنقلت اليها تحيتى واحترامى ، فسألتك : « والمال ؟ » ، فما عساك قائلا لها ؟

– أنت شقى يا ميتيا ... هذا أكيد ! ولكن لا تبالغ ! ان البلية أهون مما تظن . لا تدع لليأس أن يصعقك ، لا تدع لنفسك أن تتحطم هذا التحطم !

– أتراك تظن أننى سأنتحر لأننى لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردها الى كاترين ؟ ألا ان البلية بعينها هى أننى لن أنتحر ، لن أنتحر الآن على كل حال ، فلست أملك من القوة ما يمكننى من الانتحار . لا أحد يدرى ما قد أفعله فى المستقبل . أما الآن فاننى لا أفكر الا فى الذهاب الى جروشنكا ... وليكن ما يكون !

ـ وما الذى ستفعله عندها ؟

ـ أصبح زوجها . أنال هذا الشرف . فاذا جاء عشـيقها يزورها اختبأت فى الغرفة المجاورة . وسأنظف أحذية أصدقائها ، وسأغلى الماء فى السماور ، وسأتولى شراء ما تكلفنى بشرائه من أشياء صغيرة ...

قال أليوشا بصوت مهتاج :

ـ ان كاترين ايفانوفنا ستفهم كل شيء ، ستفهم مدى شـقائك ، وستغفر لك . ان لها ذكاء فذاً . لا يمكن أن يكون أحد أشقى منـك ، وستدرك هى هذا !

فأجابه ميتيا يقول بلهجة مرة :

ـ لن تغفر لى قط . هناك أشياء لا يمكن أن تقبلها وأن ترتضـيها أية امرأة . هل تعرف ما هو أفضل شيء يجب أن نعمله ؟

ـ ماذا ؟

ـ أن نرد اليها الثلاثة آلاف روبل .

ـ ولكن من أين نجيء بهذا المبلغ ؟ اسمع: اننى أملك ألفى روبل، ولا شك أن ايفان سيعطى ألفاً آخر ، فيكون المجموع ثلاثة آلاف . خذ هذه الآلاف الثلاثة ورُدَّها اليها .

ـ ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة فى جيبك ؟ انك ما زلت الى الآن قاصراً ، ولا بد حتما أن تذهب اليها موفدا منى ، فى هـذا اليوم نفسه ، بالمال أو بدون المال، لأننى أصبحت لا أطيق احتمال هذا الوضع. لقد بلغت الأمور حداً لا أملك معه أن أنتظر مزيدا من الانتظار . فى غد سيكون الأوان قد فات ، سيكون قد فات . سوف أرسلك الى أبينا .

ـ الى أبينا ؟

ـ نعم ، تذهب اليه قبل أن تذهب اليها ، وتطلب منه هذه الثلاثة آلاف روبل •

ـ ما هذا الكلام يا ميتيا ؟ انه لن يعطيك المبلغ بحال من الاحوال •

ـ أقدّر ذلك • هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس ؟

ـ أعلم •

ـ فاسمع اذن : اننى أعلم أن أبانا ليس مديناً لى بشى من الناحية القانونية ، فقد أخذت حقوقى كاملة • ولكنه مدين لى من الناحية الأخلاقية ، أليس كذلك ؟ لقد شق طريقه فى الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التى خلفتها أمى ، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف • فليعطنى من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ، فليعطنى ثلاثة آلاف فقط ، لا أكثر من ذلك ، فينقذ روحى من هذا الجحيم ، وتُغفر له بذلك خطايا كثيرة فى مقابل ذلك ! وأقسم لك يمينا لا مين فيه أننى سأختفى متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة ، فما يرى وجهى بعدئذ ولا يسمع عنى • هذه آخر فرصة أتيحها له ليتصرف تصرف أب • قل له ان الله نفسه هو الذى يهب له هذه الفرصة •

ـ أوه ••• ميتيا ••• انه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال •

ـ أعلم أنه سيرفض أن يعطى المبلغ • أنا من ذلك على يقين مطلق، اليوم أكثر من أى وقت مضى ! بل اننى أعلم شيئاً آخر أيضا : لقد بلغه منذ زمن قصير جدا ، فى الأيام الأخيرة ، ربما أمس فقط ، أن جروشنكا تتكلم جادةً حين تعلن أنها تريد أن تتزوجنى • فلأول مرة ، أدركَ « فعلاً » (« فعلاً » ، لاحظ كلمة « فعلاً » هذه) ، أنها لا تمزح ، أنها لا تهزل ، وأنها قد تتزوجنى حقا • انه يعرف طبعها ، انه يعرف طبعها ، انه يعرف أية قطة هى ! فهل يمكن أن يعطينى مزيدا من المال ليشجعها

على انفاذ هذه النية ، وهو مجنون بها هياماً ؟ وليس هذا كل شيء ، فسأقول لك المزيد : أنا أعلم أنه ، منذ خمسة أيام ، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل ، وأبدلها أوراقا نقدية من ذات المائة روبل ، فوضعها في حزمة كبيرة مختـــومة ، وربط الحـــزمة بشريط أحمـــر متصالب في الاتجاهين . هأنت ذا تلاحظ انني مطلع على أدق التفاصيل ! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة : « الى ملاكي جروشنكا ، اذا هي رضيت أن تجيء » . كتب هذه العبارة بخط يده في كثير من العناية ، وفصـــل ذلك كله سراً في الخفاء ، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده ، ما من أحد يعرف هذا الأمر الا الخادم سمردياكوف الذي يثق به ثقته بنفسه . وهو الآن ينتظر مجيء جروشنكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة آملاً أن يجتذبها هذا المبلغ. لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها، فأجابته بأنها « قد تعزم أمرها » . ولكن اذا ذهبت الى العجـــوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك ؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبيء في هـــذا المكان مترقباً مترصداً ؟

ـ أتترصدها هي ؟

ـ نعم . ان هاتين العجوزين الشمطاوين ، صاحبتي المنزل ، قـــد أجَّرتا توماس غرفةً من بيتهما الصغير ، وتوماس هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً تحت امرتي ، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس في الليل . انه في النهار يمضي الى صيد ديوك الخلنج فيجني من ذلك بعض الرزق . وأنا الآن مقيم عند توماس هذا . فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السرَّ ، أو يخطر ببالهما أنني هنا أترقب وأترصد .

ـ هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر ؟

ـ وحده . ثم انه سيبلغني مجيئها باشارة سريعة اذا هي جاءت .

ـ أهو الذى حدثك عن تلك الحزمة ؟

ـ نعم ، فى الخفاء • وايفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال وعن بقية الأمر • لقد قرر العجوز أن يرسل ايفان الى تشرماشنيا يوما أو يومين • لقد جاء اليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل ، فألحّ العجوز على ايفان قائلا له : « اذهب الى هناك نيابةً عنى • قدم لى هذه الخدمة » • وانما يهدف العجوز الى ابعاده بضعة أيام بغية أن لا يكون حاضرا حين تجيء جروشنكا •

ـ أهو ينتظر اذن أن تجيء اليه جروشنكا اليوم كما انتظر فى الأيام الماضية ؟

ـ لا ••• لن تجيء اليه اليوم • هنالك قرائن تثبت لى ذلك • لن تجيء اليوم حتماً (كذلك صاح ميتيا فجأة) • وهذا رأى سمردياكوف أيضاً • ولا بد أن يكون الأب جالسا الآن الى المائدة يسكر ، والى جانبه أخونا ايفان • اذهب اليه يا ألكسى ، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة •••

ـ ميتيا ، عزيزى ، ماذا دهاك ؟

بهذا صاح أليوشا وهو ينهض فجأة ، ويتفرس فى دمترى فيدوروفتش الذى أصبح خروجه عن طوره واضحا • (حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جُنّ) •

قال دمترى فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهو يحدق الى أخيه هادئاً :

ـ اطمئن • ما زلت أملك عقلى كاملا • لا تخش شيئاً • أنا أعرف ما الذى أعمله حين أرسلك الى أبينا • اننى أعتقد بحدوث معجزة •

ـ معجزة ؟

ـ معجزة الهية • ان الله يعرف ما بقلبي ، ويعلم ما أنا فيه من كرب وكمد ويأس • انه يرى ما يجـــرى هنا • فلن يرضى ـ أنا واثق من هذا ـ لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع• انني أؤمن بالمعجزة يا أليوشا ! اذهب اليه •

ـ سأذهب • هل ستنتظرني هنا ؟

ـ سأنتظر • أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً ، وأنك لن تستطيع أن تنجح في مهمتك فورا ، وأنه لن يكفي أن تذهب اليه فتقول له : «هأنذا ••• هات المال ! » • لا بد أنه في هذه اللحظة سكران • سأنتظر ماوجب الانتظار ، سأنتظر ثلاث ساعات ، أربعاً ، خمساً ، بل سبعاً بل اذا لزم • واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب في هذا اليوم نفسه ، ولو في منتصف الليل ، أن تذهب الى كاترين ايفانوفنا ، بمال أو بغير مال ، لتقول لهـا انني كلفتك بابلاغها تحيتي واحترامي • انني أحرص حرصا مطلقا على أن تقول لها هذه العبارة : « كلفني بأن أنقل اليك احترامه » •

ـ ميتيا ! فماذا لو جاءت جروشنكا غدا أو بعد غد، هذا اذا لم تجيء اليوم ؟

ـ جروشنكا ؟ سأترصدها ، ثم أسرع الى منزل العجوز فأحـــول دون الأمر مهما يكن الثمن •••

ـ فاذا حدث رغم كل شيء أن •••

ـ اذا حدث ؟ عندئذ سأقتل ! لن أطيق لاحتمال •

ـ من تقتل ؟

ـ أقتل العجوز • أما هي فلن أقتلها !

ـ أخي ،أخي ، ما هذا الكلام الذي تقوله ؟

ـ لا أدرى ، أصـبحت لا أدرى ••• قد لا أقتـل ، ولكن قد أقتل••• أخشى أن لا أطيق رؤية وجهه القذر الكريه فى تلك اللحظة ! اننى أكره جوزة عنقه ، أكره أنفه ، أكره عينيه ، أكره ضحكته الصغيرة الوقحة الخليعة • انه يوقظ فيّ اشـمئزازاً جسمياً • ذلك ما أخشـاه خاصة • قد لا أستطيع أن أكبح جماحى وان أسيطر على نفسى •

ـ أنا ذاهب اليه يا ميتيا • اننى مؤمن بان الله سيفعل كل شيء فى سبيل أن لا يقع هذا الأمر الرهيب الفظيع !

ـ وسـأنتظرك أنا هنا آملا أن تحدث معجزة • أما اذا لم تحدث المعجزة •••

اتجه أليوشا الى منزل أبيه مطرقاً مفكراً •

٦

سمردياكوف

دخل اليوشا على أبيه فوجده ما يزال جالساً الى المائدة فعلاً . ولقد قُدِّم الطعام فى الصالون ، كما جرت العادة بذلك ، رغم أن بالمنزل غرفة طعام .

الصالون أوسع حجرة فى المنزل ، وقد حرص صاحبه على ان يكون أثاثه قديماً من باب الأبهة والعظمة . ان الأثاث كله قديم جداً ، أبيض اللون منجد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن . وعلى الجدران بين النوافذ قد صُفَّت مرايا لها أطر مفخمة من طراز بالٍ ، بيضاء اللون أيضاً ، ولكنها مذهبة . والسجاد أبيض كذلك ، مهترىء فى مواضع كثيرة، والحيطان مزدانة بلوحتين كبيرتين ، احداهما صورة أمير من الأمراء كان حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت ، والثانية صورة أسقف مات هو أيضاً منذ زمن بعيد جداً . وفى الركن الذى يواجه باب المدخل. توجد عدة أيقونات تُشعل أمامها فى المساء مصابيح زيت ، لا من قبيل التقى بل لتظل الغرفة مضاءةً أثناء الليل . ذلك أن فيدور بافلوفتش لا ينام الا فى ساعة متأخرة جداً ، فهو يأوى الى فراشهفى الثالثة أو الرابعة من الصباح ، ويقضى وقته قبل ذلك سائراً فى الغرفة الى غير نهاية ، أو

جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً • لقد أصبح هذا عادة فيه • وكان فى بعض الأحيان يبقى وحيداً أثناء الليل ، بعد أن يصرف خدمه الى المبنى الملحق • ولكنه فى أكثر الأحيان يحتفظ بخادمة سمر دياكوف الذى ينام فى الدهليز على دكة •

حين دخل أليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت ، وجيء بمربب وقهوة • ان فيدور بافلوفتش يحب ان يصيب شيئاً من الحلوى بعد الغداء ، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك • وكان ايفان فيدوروفتش بجانبه ، يحتسى القهوة معه • وكان الخادمان جريجورى وسمر دياكوف واقفين قرب المائدة • وكان يبدو فى تصرف السيدين والخادمين ، على السواء ، مرح غير مألوف وفرح غير معهود • كان فيدور بافلوفتش يضحك ملء حنجرته ، وقد سمع أليوشا ، منذ وصل الدهليز ، النبرات الحادة التى تتصف بها هذه الضحكة والتى يعرفها فى أبيه حق المعرفة من قبل ؛ فاستنتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر ، فهو الآن مسترسل فى نوبات ملاطفة ومطايبة •

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاجاً صاخباً وقد سرّه فجأة أن يرى أليوشا :

ـ ها هو ذا ! تعال معنا ! اجلس • قهوة ؟ ليست القهوة كحولاً ، وهى ساخنة ولذيذة • لا أقدم اليك كونياكاً ، فأنت راهب ، اللهم الا أن تريد ••• هل تريد ؟ لا ؟ طيب ••• سأعطيك اذن خمرة ، خمرة عظيمة ! ياسمر دياكوف ، افتح الخزانة ••• الخمرة على الرف الثانى يمنةً • اليك المفاتيح • هيّا أسرع !

وكان أليوشا يتهيأ منذئذ لأن يرفض أن يشرب الخمرة • قال له أبوه مشرق الوجه متهلل الأسارير :

ـ لاتريد ؟ طيب ... لا بأس ... سيؤتى بها الينا نحن ، ما دمت لا تريد أن تشربها ... بالمناسبة ،هل تغديت ؟

ـ تغديت ، ولكن هل لى أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة ؟

بهذا أجاب أليوشا الذى لم يكن قد أكل فى الواقع الا كسرةً من خبز واحتسى قدحاً من شراب التفاح فى مطبخ كبير الرهبان .

قال الأب :

ـ مرحى ! ألا انك لفتى طيب ! سوف يشرب قهوة ! ألا يحسن تسخين القهوة ؟ ولكن لا ... انها ما تزال تغلى . هى قهوة ممتازة ، هل تعلم ؟ لقد أعدّها سمردياكوف . ان صاحبى سمردياكوف فنان فى اعداد القهوة وتحضير أنواع الكولبياكا* ، وكذلك فى طهى حساء السمك . هذا حق . يجب أن تجىء الينا ذات يوم ، فتذوق حساء السمك هذا ، ولكن عليك أن تبنئنى بمجيئك سلفاً . آ ... صحيح.. نسيت ! ألم آمرك فى هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود الى المنزل نهائيا ؟ هل أتيت بفراشك ؟ هأ هأ هأ ...

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضا :

ـ لا ، لم آت به .

ـ لقد أخفتك فى هذا الصباح ، هه ؟ لقد روّعتك ، أليس كذلك؟ يا طائرى الصغير ، أنت تعلم أننى لا أستطيع أن أدخل الحزن الى قلبك. ايفان ، ايفان ، اننى لأشعر باضطراب شديد حين ينظر الى عينىّ هذه النظرة ضاحكاً . ان أحشائى لتأخذ تتحرك عندئذ ... ذلك أننى أحبه ، هذا الفتى . اقترب يا أليوشا ، فاننى أريد أن أمنحك بركتى الأبوية .

نهض أليوشا ، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه ، فقال له :

ـ لا بل حسبي اليوم أن أرسم عليك اشارة الصليب ، هكذا ••• اجلس هنا ••• سوف تسلي الآن ، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك • سوف تضحك يا عزيزي • تخيَّل أن حمارة بلعام* قد أخذت تتكلم • هي تتكلم الآن ، تتكلم ••• وما أفصحها !

ولم تكن حمارة بلعام التي يعنيها الأب الا الخادم سمردياكوف•ان سمردياكوف ، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت ، لا لأنه خجول ، فهـــو في الواقع جريء جسور حتى ليظهر عليه أنه يحتقر جميع الناس ، ولا بد أن نقول في هذه المناسبة : ان مارفا اجناتوفنا وجريجوري فاسيلفتش هما اللذان توليا تربيته ، ولكنه « قد شب على نكران الجميـــل » كما كان يقول جريجوري ، صبياً متوحشاً ينظر الى جميع الناس نظرة شزراء • كان أثناء طفولته يجد لذة كبيرة في أن يشنق قططاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلا بدفنها احتفالا كبيرا ، فهو يتـــدثر في هـــذه المناسبات ببطانية يتخـــذها بمثابة جبة كاهن ، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق جثة القطة كمن يحمل مبخرة • وكان يسترسل في هذه اللعبة في خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجوري في ذات يوم يمارس هذه الرياضـــة عاقبه بالسياط معاقبة شـــديدة • فانزوى الصبي يومئـــذ في ركن من الأركان ، وصام عن الكلام أسبوعا برمته •

كان جريجوري يقول لمافرا اجناتفنا :

ـ ان هذا الصبي الشاذ لا يحبنا كلينا ، وهو لا يحب أحدا على كل حال •

ثم يضيف وهو يلتفت فجأة الى سمردياكوف :

ـ أأنت كائن انسانى ؟ ما أنت بانسان ... لقد وُلدت فى رطوبة الحمامات ، هذا أنت ...

لم يغفر سمردياكوف لجريجورى تلك الأقوال فى يوم من الأيام، كما اتضح ذلك فيما بعد . ولقد علّمه جريجورى القراءة ، فلما تجاوز الصبى السنة الثانية عشرة من عمره ، أراد جريجورى أن يعلمه «التاريخ المقدس » . ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل فلم يكن لها غد . ففى ذات يوم ، أثناء الدرس الثانى أو الثالث ، أخذ الصبى يضحك على حين فجأة . سأله جريجورى وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه :

ـ ما بك ؟

ـ لا شىء . ان الرب قد خلق الضياء فى اليوم الأول ؛ وفى اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم ، فمن أين جاء الضياء اذن فى اليوم الاول ؟

بُهت جريجورى لحظةً . وكان الصبى ينظـــر الى معلمـه نظرة ساخرة، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن احتقاره فلم يستطع جريجورى أن يكظم غيظه ، فاذا هـــو يلطم تلميذه على وجهه لطمة قوية وهـــو يقول له :

ـ من أين ؟ من هنا ...

تلقى الصبى الصفعة دون أن يقول كلمة واحـــدة ، ولكنه حرن وأمسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام . وبعد ذلك الحادث بأسبوع انما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع ، وهو المرض الذى لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته . فلما علم فيدور بافلوفتش بالأمر تبدل موقفه من الفتى تبدلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكترث له ، رغم أنه لم يقرّعه فى يوم من الأيام ، حتى لقد كان ينفحه كوبكاً

كلما لقيه ، وكان يتفق له فى حالات الكرم والطيبة التى يمر بها أن يرسل الى الصبى من مائدته بعض الحلوى • ولكن فيدور بافلوفتش ، بعد أن عرف بمرضه ، أخذ يهتم به اهتماما جاداً ، حتى لقد استدعى طبيبا وأراد أن يعالجه • غير أن المرض استعصى على الشفاء ، واتضح أنه لا برء منه • كانت نوبات الصرع توافى الصبى مرةً فى الشهر وسطياً على تفاوت فى طول المدة ، واختلاف فى قوة النوبة ، فالنوبة خفيفة تارة ، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى • وقد حظر فيدور بافلوفتش على جريجورى أن ينزل فى الصبى عقوبات جسمية حظراً صارماً باتاً ، وأخذ يستدعى الصبى اليه من حين الى حين ، كما عارض فى تعليم الصبى أى شىء خلال تلك الفترة • ومع ذلك حدث فى ذات يوم أن فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذى أصبح مراهقا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، فاجأه قرب خزانة الكتب يحاول أن يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة • كان فيدور بافلوفتش يملك عددا كبيرا من الكتب ، كان يملك نحو مائة كتاب ، ولكن أحدا لم يره قارئا فى يوم من الأيام • وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلا له :

ـ اقرأ ما يحلو لك أن تقرأه ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتى•• ذلك خير من التسكع فى فناء المنزل • تناول كتابا واجلس • اسمع ، خذ هذا الكتاب أولا •

قال له فيدور بافلوفتش ذلك ، ومدّ اليه كتاب « سهرات فى المزرعة قرب ديكانكا » * •

قرأ الفتى الكتاب ، ولكن لم يظهر عليه أنه افتتن به ، حتى أنه لم يبتسم مرةً واحدة أثناء قراءته ، بل انه قطّب حين فرغ منه •

سأله فيدور بافلوفتش :

ـ هيه ... كتاب مضحك أليس كذلك ؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء .

فألح فيدور بافلوفتش قائلا :

ـ هلاّ أجبت يا أهبل ؟

فتأتأ سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة :

ـ هذا كله أكاذيب ... أمورٌ لم تحدث ! ...

ـ شيطان يأخذك ! ... طيب خذ ... اقرأ اذن « التاريخ العام » من تأليف سماراجدوف * . ستجد ههنا أحداثاً جرت ، ستجد أحداثاً صادقة . اقرأ .

ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى الى صفحته العاشرة، فقد رآه مملاً باعثاً على الضجر . وأُعيد اغلاق المكتبة . وبعد ذلك بقليل نقل جريجورى ومارفا الى فيدور بافلوفتش أن الصبى أصبح يقف من الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذٍ كبير يتفاقمان يوماً بعد يوم : أصبح حين يجلس الى المائدة ليتناول حساءه يمسك الملعقة فيأخذ يقلب بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً ، ويميل على الطبق فينعم النظر فيه طويلا ، ثم يملأ ملعقة ويمضى بها نحو الضوء يتأملها ملياً . فكان جريجورى يسأله :

ـ هل وجدت فى الحساء خنفسة ؟

وتضيف مارفا ساخرة :

ـ أم لعلك وجدت فيها ذبابة ؟

ولكن الفتى المشمئز المتقزّز لا يجيب بشيء . وهو يتصرف هذا

التصرف نفسه ازاء جميع أنواع الطعام ، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك • انه يرفع شوكته فيأخـــذ ينعم النظر فى اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها ، كأنما هو يفحصها بمكروسكوب ، ويظل يتردد برهة طويلة ، الى أن يعزم أمره فجأة فيضعها فى فمه •

فكان جريجورى ينظر اليه فيهمهم قائلا :

ـ انه يعد نفسه سيداً من السادة !

فلما أُبلغ فيدور بافلوفتش موقف ســـمردياكوف الجديد هذا ، قرر فورا أن الفتى يصلح أن يصبح طاهياً ممتازاً ، فأرسله الى موسكو ليتعلم فيها المهنة • قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهى فى موسكو، ثم عاد منها وقد تغيرت سحنته تغيراً كبيراً • لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب ، فتغضن وجهــه تغضناً لا يتفق وسنّه • أما من الناحية النفسية فانه لم يكد يتغير : فهو ما يزال ، كما كان من قبل ، متوحشـاً لا يشعر بحاجة الى أن يعيش فى صحبة الناس ، والى أن يتقرب من أى انسان • ولقد لبث فى موسكو قليل التواصل كثير الصمت لا يفصح عما بنفسه ولا يفضى الى أحد بشأن من شئونه ، كما عُرف ذلك فيما بعد • ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيرا ، ولم يعرف منها الا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها • وقد شهد فى ذات مرة حفلة تمثيلية ، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق ، ولا أبدلت استياءه رضى • غير أنه ، فى مقابل ذلك ، قد عاد الينا من موسكو شديد العناية بهندامه ، فهو يرتدى ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جدا ؛ وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين فى اليوم على الأقل ، وهو يجد لذة خاصة فى ان يدهن حذاءيه الأنيقين، المصنوعين من جلد العجل ، بدهن انجليزى خاص ، ثم ما يزال يفركهما الى أن تلمعا لمعان مرآة • وبرهن ســـمردياكوف على أنه طاهٍ عظيم •

وحدّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً ، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس وشراء العطور وما الى ذلك . وكان يبدو مع ذلك أنه يكره النساء كرهه للرجال . فهو يبتعد عنهن ، ويتحاشى لقاءهن ، حتى لكأن وصولهن اليه مستحيل . وقد دُهش فيدور بافلوفتش من هـــذه الظاهرة ، وأخذ ينظر اليها نظرة خاصة ، لأن له رأيه في هذا الموضوع. ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت في ذلك الأوان ، حتى أن مارفا اجناتفنا اضطرت أن تقـــرر اعداد وجبات الطعـام بنفسها في تلك الأيام ، وذلك أمر لم يحفل به فيدور بافلوفتش ، وانما كان يقول للطاهي الجديد في بعض الأحيان ، وهو يتفرس في وجهه وينظر اليه نظـــرة اشتباه :

ــ انني أتساءل لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع ، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج ؟ هل تريد أن أجد لك زوجة ؟

ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الأسئلة ، ولا يزيد على أن يصفرّ وجهه حزناً وحسرة ؛ فينصرف عنه فيدور بافلوفتش عندئذ محركاً يده بحركة تعبّر عن العجز . المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محلّ شبهة أو شك ، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرةً الى الأبد ، فهو لا يمكن أن يســـطو على شيء ، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوما . ان فيدور بافلوفتش ، وقد استبد به السكر في ذات يوم ، قد أضـــاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة* كان قد قبضها منذ قليل : سقطت الأوراق في الوحل ، ثم لم يفتقدها فيدور بافلوفتش الا في الغداة ، ولكنه ما ان أخذ ينبش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه . فمن أين جاءت الى هنا ؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن ســـمردياكوف قد عثر بها فحملها الى مكتب مولاه منذ البارحة .

قال فيدور بافلوفتش لخادمه بلهجة جازمة :

ـ يمينا ما لقيت فى حياتى أناساً مثلك •

ثم أسرع يهدى اليه عشرة روبلات •

يجب أن نضيف الى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعاً بأمانة سمردياكوف فحسب ، وانما كان يحبه أيضا ، لا يدرى أحد لماذا ، رغم أن الفتى كان متوحشاً معه كتوحشه مع سائر الناس ، وكثيرا ما كان ينظر اليه نظرة شزراء ، وهو لا يكاد يفتح فمـــه بكلمة فى حضوره يوما • وكان الفتى لا يتكلم الا نادرا على كل حال ، فلو تساءل متسائل فى ذلك الأوان ، وهو ينظر الى سمردياكوف ، عمَّا لعله يشغل بال الفتى ، وعن الهموم التى يمكن أن تكون مسيطرة على فكره ، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جوابا • ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف ، سواء فى المنزل ، أو فى الفناء ، أو فى الشارع ، أن يتوقف على حين فجأة ، فاذا هو يبدو عليه أنه يسترسل فى تفكير عميق خـــلال عشر دقائق أو أكثر ، دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة • وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر اليه فى مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة قسمات وجهه أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أى نوع ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون استسلاما لأحلام عابرة • ان هناك لوحة جميلة رسمها الرسـَّام كرامسكوى* وجعل عنوانها « المتأمل الحالم » • ان اللوحة تمثل غابةً فى فصل الشتاء ، قد وقف على الممر الذى يقطعهـا ، فلاحٌ يرتدى قفطاناً وينتعل خفين باليين ، فهو فى عزلة تامة • لقد ضل الفلاح طريقه هنالك، فهو يبدو فى هذه الخلوة الكاملة مسترســـلاً فى التأمل • والحق أن الرجل لا يتأمل ، وانما هو غارق فى « أحلام غامضة » ، فلو لكزه أحد بكوعه فى تلك اللحظة لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم ، ناظراً حوله لا يفهم شيئا مما جرى له ، وسرعان ما يثوب الى رشده ، فلو سألته فى تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لمـــا استطاع أن يجيبـك بشىء • ولكنه

سيظل محتفظاً في قرارة نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله ذاك في أحلامه ، وهي مشاعر عزيزة عليه أثيرة عنده ، يجمّعها في نفسه طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به • وهو لا يدرى طبعا لماذا يفعل ذلك • ولعل هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنين أن تدفعه ذات يوم الى أن يهجـر كل شيء على حين فجأة فيمضي الى القدس حاجاً ينشد الخلاص ؟ أو تدفعه ، لا تدرى لماذا ، الى أن يشعل النار في قريته فيحرقها • وقد يفعل الأمرين كليهما • ان هؤلاء الحالمين كُثُر في شعبنا • ولا شك أن سمردياكوف واحد منهم ، فهو يراكم في نفسه مشاعر فوق مشاعر ، مندفعا الى ذلك في حماسة وحميّا ، دون أن يعرف حتى الآن الهدف الذي يرمي اليه والغاية التي يسعى اليها •

٧

مجادلة

كانت الحمارة قد أخذت تتكلم فعلاً • وكانت المناسبة غريبة غرابة كافية : ان جريجوری ، حين كان فی الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الأشياء ، قد سمع قصة ذلك الجندى الروسی الذی وقع فی أيدی أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا ، فأرادوا اكراهه على انكار المسيحية واعتناق الاسلام ، والا عذبوه وقتلوه ، فرفض أن يرتد عن دينه ، وارتضى أن يستشهد فی سبيل عقيدته ، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجّد المسيح • كانت الصحف فی ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندی ، وعن تضحيته البطولية، وكان جريجوری قد روی ماسمعه أثناء الغداء • ان فيدور بافلوفتش يحب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوی ، ولا يأنف أن يدخل فی حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجوری • ثم انه كان فی ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة ، وكان مرح المزاج مبتهج النفس متفتح القلب • فبعد أن أصغى الى ما رواه جريجوی وهو يشرب قدح كونياك، قال ان من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندی وأن تعده ولياً من الأولياء بغير ابطاء ، وان من المستحسن أن يهدی جلده المسلوخ الى دير من الأديرة ، « بغية أن يجتذب الجماهير والمال » • فقطب جريجوری حاجبيه عابساً ، حين لاحظ أن مولاه استرسل فی

التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر . وفى تلك اللحظة انما سُمع سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب . كان الخادم الشاب قد سُمح له مرارا ، حتى فى السنوات الماضية ، أن يشهد وجبات الطعام ، أعنى أن يشهد المناقشات التى تعقبها . ولكنه تعوّد منذ وصول ايفان فيدوروفتش الى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء فى يوم من الأيام تقريبا .

سأله فيدور بافلوفتش حين سمع ضحكه فأدرك على الفور أنه يسخر من جريجورى ، سأله قائلا :

ـ ما بك ؟

فاندفع سمردياكوف يلقى خطابا بصوت عال وطريقة لم تكن فى الحسبان ، فيقول :

ـ بصدد تلك القصة . فأنا أرى أن فعل ذلك الجندى الجدير بالاطراء والثناء قد كان فعلا بطوليا عظيما ولا شك ، ولكننى أرى أنه ما كان ليعد خاطئاً آثماً لو أنكر اسم المسيح فى ذلك الظرف وتنازل عن تعميده انقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظا بها لحسناتٍ تكفّر ، بعد سنين ، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك .

تدخل فيدور بافلوفتش قائلا :

ـ ما كان ليعد خاطئاً آثماً ؟ كيف هذا ؟ أنت تكذب ، وستذهب الى جهنم رأساً بسبب هذا الرأى الذى تراه ، أو ستُشوى كما يُشوى خروف .

وفى تلك اللحظة بعينها انما وصل أليوشا فابتهج أبوه لوصوله ابتهاجا قوياً ، كما سبق أن رأينا ذلك ، وقال لأليوشا وهو يدعوه أن يجلس وأن يصغى الى المناقشة :

ـ هذا موضوع مألوف لك . هـــذه مسألة لا بد أنك تعرفها حق معرفتها .

قال سمردياكوف مؤكداً :

ـ لا أوافق على موضوع الخروف المشوى . ولن يكون هناك عقاب بسبب رأى من هذا النوع ، ولا يجب أن يكون هناك عقاب اذا أردنا العدل والانصاف .

ـ اذا أردنا العدل والانصاف ؟ ماذا تقول ؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهـــو يلكز ركبة أليوشا .

قال جريجورى فجأة ، وهو يحدق الى عينى سمردياكوف بغضب مسعور :

ـ هذا شاب شقى لا أكثر !

فأجابه سمردياكوف قائلا بلهجة هادئة صابرة :

ـ أما عن قولك بأننى شقى أو ما الى ذلك ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتتمهل قليلا وتقضى فى الأمر بنفسك : هبْ أن جلاّدى الجنس المسيحى قبضوا علىّ ذات يوم وطالبونى بأن ألعن اسم الرب وأن أتنكر لتعميدى المقدس : ان العقل يجيز لى فى هذه الحالة أن أفعل ذلك ، ولن يكون فى هذا اثم .

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ سبق أن قلت ان هذا لا اثم فيه . فلا تكرر ما سبق أن قلته ، وانما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة والحجج .

ودمدم جريجورى يقول باحتقار :

ـ طاهى حساء !

فقال سمردياكوف :

ـ أما عن قولك بأننى طاهى حساء ، فأرجو ياجريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتمهل بعض التمهل أيضا . لا تشتمنى ، وانما فكّر قليلا : هب أننى قلت للذين يعذبوننى : « ليكن لكم ما تريدون ... اننى أرتد عن دينى المسيحى وأتنكر لالهى الحق » . أفلا تديننى المحكمة الالهية فى تلك اللحظة نفسها ، وتكفرنى على الفور صراحة ؟ اذن سأكون منذ تلك الدقيقة قد أُخرجت من الكنيسة المقدسة ، وسأكون قد حُرمت منها كأى وثنى ، منذ تلك الدقيقة ، بل منذ اللحظة التى نطقت فيها بتلك الكلمات ، بل منذ اللحظة التى راودتنى فيها نية النطق بهذه الكلمات ، بحيث لا يمضى ربع ثانية الا وأكون قد حُرمت من الكنيسة ؟ أليس هذا صحيحا يا جريجورى فاسيلفتش ؟

كان واضحا أن سمردياكوف يجد لذةً فى الاتجاه بكلامه الى جريجورى فاسيلفتش ، رغم أنه لا يجيب فى الواقع الا عن أسئلة فيدور بافلوفتش ، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعورا تاما ، ولكنه يتخابث فيتظاهر بأن تلك الأسئلة انما طرحها الخادم العجوز .

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

ـ ايفان ! مِلْ علىّ حتى أستطيع أن أهمس فى أذنك بشىء .

ثم همس يقول له :

ـ من أجلك انما يقول سمردياكوف هذا الكلام ، وهو ينتظر تأييدك واستحسانك ، فامدحه اذن .

أظهر ايفان كثيرا من الاهتمام والجد في الاصغاء الى هذه الملاحظة التي أسرّ بها اليه أبوه .

وعاد فيدور بافلوفتش يقول :

ـ اسكت الآن يا سمردياكوف .

ثم أهاب بابنه ايفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلا له :

ـ هناك شيء آخر أريد أن أهمس به في أذنك .

فمال ايفان على أبيه من جديد مظهرا ذلك الجد نفسه الذي أظهره في المرة الأولى . فقال له الأب :

ـ انني لا أحبك أقل مما أحب أليوشا . لا يخطـرن ببالك أنني أوثره عليك . قليلاً من الكونياك ؟

ـ بكل سرور .

وقال ايفان لنفسه وهو يتفرس في أبيه : « لقد سكر بعض السكر منذ الآن » . وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد .

وصاح جريجوري يقول فجأة :

ـ كافر ! أنت ملعون منذ الآن . كيف تجرؤ أن تستمر في المناقشة أيها الشقي ؟

فأجابه سمردياكوف :

ـ مهلاً يا جريجوري فاسيلفتش ، اصبر عليّ ولو لحظة قصيرة ، واصغ الى كلامي حتى النهاية ، لأنني لم أتممه بعد . أعود فأقول انني متى لعنني الله في تلك اللحظة الحاسمة ، يصبح شأني شأن أي وثني ،

ويكون تعميدى قد أُلغى تبعاً لذلك ، فلا يُحسب له أى حساب ، أليس هذا صحيحاً ؟

فاستحثه فيدور بافلوفتش وهو يتلذذ ببلع جـــرعة من الكونياك ، استحثه قائلاً :

ـ أوصلنا الى النتيجة التى تريد أن تخلص اليها ، أسرع يا بنى .

فتابع سمردياكوف حديثه :

ـ فاذا لم أعـــد مسيحياً ، فاننى لا أكذب على الذين يعـــذبوننى ويسألوننى : « أتعد نفسك مسيحياً أم لا ؟ » ، ذلك أن الله نفســه يكون قد أخرجنى من المسيحية بسبب نيتى وحدها قبل أن يتسع وقتى للاجابة عن سؤالهم بكلمة واحدة . فاذا كنت قد أُخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أُحاسب فى العالم الآخر ، وأية عدالة ترضى أن أحاسب فى العالم الآخر كما يُحاسب مسيحى ارتد عن دينه ، مع أننى أكون قــد جُرِّدت من تعميدى بسبب نيتى وحدها حتى قبل أن أرتد عن دينى بالقول ؟ اننى بعد أن جُرِّدت من مسيحيتى ، لا أكفر بالمسيح ، لأننى لا يكون قد بقى لى دين أرتد عنه . هل يخطر ببال أحد يا جريجورى فاسيلفتش أن يلوم تترياً كافراً على أنه لم يولد مسيحياً ؟ من ذا الذى يريد أن يعاقب مثل هذا التترى ، حتى فى السماء ؟ ما من أحد يســلخ بقرة واحدة مرتين ! وهبْ أن الله العلى القدير سيحاسب هذا التترى بعد موته : انه لن يوقع فيه الا عقابا يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقب البتة) ، ذلك أن الله يقدر أن هذا التترى لم يأثم حين ولد من أبوين غير مسيحيين . ان الله لا يمكن أن يكرهه بالقوة على أن يقول انه كان مسيحيا ، ولا يمكن أن يعده مسيحيا ، فان عدَّه مسيحيا كان هذا كذبا ظاهرا واضحا ، والله الذى هو رب الســماوات والأرض لا يمكن أن

يكذب ولو فى مناسبة واحدة ، ولو فى كلمة واحدة من كلماته .

أصيب جريجورى بالبكم من شدة ذهوله ، ونظـــر الى الخطيب محملقا . فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك ادراكا غامضا بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب ، فتجمد تجمد رجل صدم الحائط بجبهته على حين فجأة . وأفرغ فيدور بافلوفتش فى جوفه قدح الكونياك ، وأطلق من صدره ضحكة حادة .

ـ أليوشا ، أليوشا ، ما رأيك ؟ يا له من مجادل ! لا شك أنه تعـلم هذا لدى اليسوعيين ، ألا ترى ذلك يا ايفـــان ؟ اذهب أيها اليســوعى العفن ؟ من ذا الذى لقنك هذه الضلالات ؟ اطمئن يا جريجورى ، سوف نهدّم آراءه الوقحة ، سوف نحيلها دخاناً ، سـوف نحيلها عدماً ، حالاً بلا ابطاء ! أجب عن هذا السؤال يا حمارة : لنفرض أنك على صواب فى موقفك من معذّبيك . ان هذا لا ينفى أنك أنكرت دينك فى قـرارة نفسك ، وأصـــبحت فى تلك اللحظـة كافرا ، كما تعترف بذلك أنت نفسك ، فاذا كفرت فلن تكافأ على هذا فى جهنم فيما أتخيل . فبماذا تجيب عن هذا السؤال أيها اليسوعى الظريف ؟

ـ لا أنكر أننى أكون قد ارتددت عن دينى فى قـــرارة نفسى ، ولكن ليس فى هذا أى اثم كبير ، واذا كان ثمـــة خطأ فهو خطأ عادى جداً .

ـ عادى ؟ كيف ؟

قال جريجورى بصوت صافر :

ـ أنت تكذب . أنت ملعون .. مل .. عو ..ن .

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة ، شاعرا بانتصاره ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرح أرضاً :

ـ اقض في الأمر بنفسك يا جريجورى فاسيلفتش : لقد جاء في الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ، ولو لم يملك منه الا ذرة صغيرة ، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له : « اذهب أيها الجبل الى البحر » ، فاذا بالجبل يذهب الى البحر فورا عند أول أمر يصدر اليه*. فياجريجورى فاسيلفتش ، ما دمت تبلغ من عمق الايمان ما يهب لك حق اهانتى بغير انقطاع ، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا أن يذهب الى البحر (فالبحر بعيد جدا) بل ان يتقدم قليلا نحو ذلك الجدول الصغير النتن الذى يجرى وراء حديقتنا . فلسوف ترى عندئذ أن الجبل لن ينصاع لأوامرك، وأن كل شيء سيبقى على ما كان، مهما يكن صراخك شديدا ومهما يكن زعيقك قويا ! فهذا يبرهن يا جريجورى فاسيلفتش على أنك أنت أيضا لا تملك الايمان الحق ، على حين أنك لا تكف عن اهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الايمان الحق . يجب أن نعترف على كل حال أنه ليس في زماننا هذا أحد على الاطلاق ، سواء أكان أقوى الناس سلطانا وأرفعهم منزلة أم كان أحقر فلاح من الفلاحين ـ أقول ليس في زماننا هذا أحد يملك القدرة على أن يدحرج هذا الجبل الى البحر ، فأنا اذن لا أتكلم عنك وحدك . لا ، ليس في زماننا هذا أحد يملك هذه القدرة ، ربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين في أكثر تقدير ، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مختبئين في صحراء ما من صحارى مصر ، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام ، فلا نستطيع أن نهتدى اليهما ونعثر عليهما مهما نبحث عنهما . فاذا كان الرجال الآخرون ليسوا بالمؤمنين حقا ، فكيف نسلّم بأن الرب سيلعنهم جميعا ، وبأنه سيحرم الانسانية كلها الا ذينك الرجلين الغامضين ، وبأنه لن يغفر

لأحد وهو الغفور الرحيم ؟ لذلك ترانى آمل ، اذا أنا شككت أو جحدت، أن أحظى بمغفرة الرب ، بعد أن أسكب دموع الندم والتوبة ...

ـ قف ! أنت تسلّم اذن بأن هناك رجلين على الأقل فى العالم يستطيعان أن يحركا الجبال ! سجّل هذا يا ايفان ، سجل هذه النقطة ! تلك هى سمة الانسان الروسى كله .

كذلك قال فيدور بافلوفتش بصوت حاد كريه .

فقال ايفان فيدوروفتش مؤمناً على رأى أبيه مبتسماً ابتسامة تأييد :

ـ ملاحظتك صحيحة تماماً . تلك سمة خاصة يتميز بها ايمان الشعب الروسى .

ـ أنت تشاطرنى هذا الرأى . لا بد اذن أن أكون على صواب . هذا هو الأمر يا أليوشا ! ذلك هو الايمان الروسى الحق ، أليس كذلك؟

فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة :

ـ لا ... ان ايمان سمردياكوف ليس روسياً البتة .

ـ لست أتكلم عن ايمانه ، بل عن هذه السمة وحدها ، عن فكرة ذينك الناسكين . أليس هذا سمة روسية خاصة ؟

قال أليوشا يوافق مبتسما :

ـ نعم هى سمة روسية ، روسية جدا .

قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف :

ـ قولك هذا يساوى دينارا ذهبيا يا حمارة ، سأرسل اليك الدينار فى هذا اليوم نفسه . أما فى كل ما عدا ذلك فقد كذبت ، نعم كذبت ، أعود فأكرر لك ذلك . ألا فاعلم أيها الغبى أن خفة العقل وحدها هى

التي جعلتنا جميعاً غير مؤمنين ، ذلك أن وقتنا لا يتسع للتفكير في الله : فنحن أولاً منصرفون الى أعمالنا تحتكرنا احتكارا ، والرب ثانيا قد ضنّ علينا بالساعات فجعل يومنا أربعا وعشرين ساعةً فقط ، فنحن لا نملك حتى الوقت اللازم لأن ننام نوماً كافياً . فأين لنا الوقت اللازم للندامة والتوبة ؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام الجلادين ، مع أنك لا يمكن أن يكون في ذهنك في مثل تلك اللحظة ، فكرة أخرى غير فكرة الايمان التي كانت هي بعينها الفكرة التي يجب أن تكفل لها الغلبة والنصر ! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقي ؟

ـ لقد جرت الأمور على هذا النحو حقا . ولكنك تسلم أنت نفسك يا جريجوري فاسيلفتش ، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأنا وأخف وزنا ما دامت الأمور قد جرت على هذا النحو . لنفرض انني اعتقدت ، في ساعة المحنة ، بما كان يجب أن أعتقد به : انني لأرتكب عندئذ اثما اذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل ديني ، وارتضيت اعتناق دين محمد . ولكنني في مثل هذه الحالة لا أصل الى الاستشهاد ، اذ يكفيني أن أقول للجبل في تلك الدقيقة : « امش أيها الجبل فاسحق الجلاد » ، فاذا بالجبل يرتمي على الجلاد فيخنقه بثقله كأنه خنفساء ، واذا أنا أمضي في سبيلي هادئا أغني وأمجد الله . فاذا راودتني هذه الافكار لتحقيق هذه الغاية مناديا : « اسحق الجلادين أيها الجبل » ، فاذا بالجبل لا يستجيب لندائي ، أفلا يهاجمني الشك عندئذ لا محالة ؟ هلاّ قلت لي كيف يمكنني في تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودني الشك ؟ لقد علمت سلفاً انني لن أظفر بملكوت السماوات كاملا (لأن الجبل لم يطع أوامري ، وذلك دليل على أن ايماني ليس محلّ ثقة هناك في السماء ، ودليل على أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة) . فأي جدوى اذن في أن أدع لهم أن يسلخوا جلدي حياً بغير فائدة البتة ؟

وحتى حين يكونون قد سلخوا من جلدى نصفه ، فناديت الجبل مرة أخرى أهيب به أن يسحقهم ، فان الجبـــل لن يتحرك من مكانه رغم جميــع صرخاتى • وفى تلك اللحظة يمكن أن لا يساورنى الشك فحسب ، وانما يمكن أيضا أن أفقد عقلى بسبب ذعرى الشديد بحيث أصبح عاجزاً حتى عن التفكير • أفيكون اثمى والحالة هذه كبيرا اذا أنا أردت ، بعد أن لم أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك ، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة وأن أعوّل على جزاء حسن ، أقول أفيكون اثمى كبـــيرا اذا أنا أردت عندئذ أن أنقــذ جلدى على الأقل ؟ ذلك هــــو السبب فى ثقتى الكاملة بالرحمة الالهية ، وفى أننى آمل أن تغفر لى السماء غفرانا كاملا •

٨

أثناء شرب الكونياك

انتهت المجادلة ، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور يافلوفتش الذى كان مرحاً فى أول الأمر قد عبس واكفهر وجهه فى النهاية • وها هو ذا ، وقد بدا عليه الامتعاض واضحا ، يفرغ فى جوفه قدحاً آخر من الكونياك ، متجاوزاً الحدّ المألوف تجاوزاً كبيرا • وصاح يقول للخادمين :

ـ انصرفوا ، اخرجوا ••• أيها اليسوعيون ! امض يا سمردياكوف • سيصلك الدينار الذهبى الذى وعدتك به ، ولكن هيّا انصرف ! وهوّن عليك يا جريجورى ، عُدْ الى مارفا فتردّ اليك هدوءك وتضعك فى سريرك •

فما ان نفذ الخادمان أمره فانصرفا ، حتى أضاف يقول بحدة وشراسة :

ـ ان هؤلاء الأوغاد لا يدعون لى شيئاً من راحة بعد الغداء • وسمردياكوف هذا يجيز لنفسه الآن أن يجىء كل اليوم عند الغداء ، أأنت الذى تجتذبه يا ايفان ؟ ماذا فعلت حتى فتنته ؟

كذلك سأل الأب ابنه ايفان ، فأجابه هذا بقوله :

ـ لم أفعل شيئا البتة ، وانما شعر نحوى بالاحترام ، لا أدرى لماذا ... هو خادم ، هو رجل خشن الطبع فظ غليظ ... ولكنه واحد من أولئك الذين يندفعون الى الصف الأمامى متى حانت الساعة .

ـ الى الصف الأمامى ؟

ـ سيكون هنالك آخرون ، وسيكون هنالك أناس أفضل منه ، ولكن سيجىء أيضا أناس مثله ، وأمثاله هم الذين سيؤكدون أنفسهم أولا ، ثم يجىء دور من هم أفضل منه .

ـ ومتى تحين تلك الساعة ؟

ـ ربما اشتعلت الأسهم النارية ثم انطفأت قبل أن تنطلق . ان الشعب لا يحب الآن هؤلاء المحرِّضين كثيرا .

ـ ان تلك الحمارة قد أخذت تفكر ، ولا يدرى الا الشيطان الى ماذا يمكن أن تؤدى أفكارها .

قال ايفان ماكرا ساخرا :

ـ انه يجمِّع آراء ويراكم أفكارا .

قال الأب :

ـ أنا أعلم تماما أنه يكرهنى كما يكره الآخرين ، وكما يكرهك أنت أيضا رغم ما تظنه من أنه يكنُّ لشخصك الاحترام . أما شعوره نحو أليوشا فهو أسوأ من ذلك أيضا : انه يحتقره . ولكن يجب أن نعترف أنه فى مقابل ذلك لا يسرق ، وأنه ليس بنمَّام ، فهو يعرف كيف يصمت ، ولا يثرثر خارج المنزل فيما يسمعه بالمنزل . وهو الى هذا يجيد طهى أنواع الكولبياكا . أما فيما عدا ذلك ، فشيطان يأخذه ! أليس هذا صحيحا ؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلاً ؟

ـ لا ... لا يستحق منا هذا العناء !

ـ أما فيما يتعلق بالأفكار التى يمكن أن تقوم فى رأسه ، فأنا من جهتى أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسى يستحق أن يُضرب ضربا مبرحاً . لقد أكدت هذا الرأى دائما . ان فلاحينا أوغاد أوباش لا يستحقون الشفقة . ويمينا انه لمن حسن الحظ أنهم ما يزالون يُضربون من حين الى حين ، هؤلاء الأوغاد ... ان أشجار الخيزران التى تؤخذ منها العصى دليل على قوة روسيا . فمتى قطعت غابات أشجار الخيزران ضاعت بلادنا . أنا شخصيا أحب العقل . ولا شك أننا قد كففنا عن ضرب الفلاحين لافراطنا فى حب العقل . ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم * . وما أعتاهم فى هذا : على قدر اعتبار المرء نفسه يكون فقدانه القصد والاعتدال ... من قائل هذا القول المأثور ؟ على كل حال ... هو يفقد القصد والاعتدال ... أما روسيا فهى بلد قذر حقير ... ليتك تعلم يا صديقى كم أكره روسيا ... أو قل اننى لا أكره روسيا بمقدار ما أكره هذه العيوب ... وربما كرهت روسيا أيضا ... هذه كلها حقارات ووساخات ! هل تعرف ما الذى أحبه أنا ؟ أنا أحب الفكاهة ...

ـ لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة . فعليك أن تمسك !

ـ لا لن أمسك بعد . سأشرب قدحاً ، فقدحاً ثانيا ، ثم أمسك بعد ذلك . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ قطعتَ سلسلة أفكارى.. ها.. نعم.. حين كنت ماراً بموكرويه سألت رجلا عجوزا فأجابنى بما يلى : « نحن نحب كثيرا أن نحكم على البنات بالجلد ، ونعهد بتنفيذ هذه العقوبة الى شباب . فكثيرا ما يحدث أن نرى الفتى الذى جلد الجميلة بالأمس يجيئها اليوم خاطبا . وهكذا تنتفع البنات أيضا من الامر ، كما يقال » . ما رأيك فى شبابنا أنصار المركيز دى ساد ؟ منظر فكه على الأقل ...

ليتنا نذهب يوما لرؤية المشهد . ما رأيك يا أليوشا ، هه ؟ مالك تحمر ؟ لا تخجل يا صغيري ! يا لها من خسارة أننا لم نحضر مأدبة كبير الرهبان لنقص على الرهبان قصة بنات موكرويه هذه ! لا تؤاخذني يا أليوشا على أنني أهنت صاحبك كبير الرهبان منذ قليل . ان الخردل يصعد الى أنفي في بعض اللحظات ... لا شك أنني أكون آثما ، ولا شك أنني سأعاقب، اذا كان الله موجودا . ولكن اذا لم يكن الله موجودا ، فما فائدة جميع هؤلاء الرهبان ؟ اذا لم يكن الله موجوداً فانه لقليل جدا أن نقطع رءوسهم ، لأنهم يعوقون التقدم ! هل تصدقني يا ايفان اذا قلت لك ان هذا يهين أسمى عواطفي ؟ لا ... أنت لن تصدقني ... انني أرى هذا في عينيك ! أنت تظن كما يظن سائر الناس أنني مهرج لا أكثر . أليوشا ، هل تصدقني اذا قلت لك انني لست مهرجا فحسب ؟

ـ أنا أعلم أنك لست مهرجا فحسب .

ـ أصدقك . أعرف أنك تتكلم الآن مخلصا ، كما تفعل ذلك دائما . أنت تقول الحقيقة . وعيناك لا تكذبان . ولا كذلك ايفان ... فانه ليس بمخلص ... هو رجل مزهو بنفسه ... مع ذلك ، لو كنت في مكانك لتركت هذا الدير وانتهيت منه ... هذه الصوفية يجب اجتثاثها من الأرض الروسية ، يجب الغاؤها الغاء تاما من روسيا كلها في ذات يوم ، لنردّ الأغبياء الى العقل ، ونرجعهم الى الرشاد . ما أكثر المال، ما أكثر الذهب الذي يمكن أن تسترده خزانة الدولة بهذه الطريقة !

سأل ايفان :

ـ لماذا نلغيها ؟

ـ لماذا ؟ لنعجّل انتصار الحقيقة في هذا العالم .

ـ أفلا تدرى اذن أنه اذا انتصرت الحقيقة فسيأخذون يجردونك تجريدا تاما ، ثم ••• يزيلونك ؟

ـ هه ! ••• على كل حال ، قد تكون مصيبا •••

قال فيدور بافلوفتش ذلك ثم لطم جبينه بيده لطمة خفيفة على حين فجأة، وأضاف :

ـ اذن فلا تمسنَّ ديرك بسوء يا أليوشا ، ما دام الأمر كذلك • أما نحن ، معشر الأذكياء ، فلنستمر ••• نعيش فى رخاء ونحتسى الكونياك! ان الله نفسه ، يا عزيزى ايفان ، هـــو الذى لا بد أنه أراد اقامة ذلك النظام • ولكن قل لى يا ايفان : هل الله موجود أم غير موجود ؟ قل لى وأرحنى ••• ولكن قف ! اننى أريد جوابا صادقا ، جواب جادٍ لاهازل! لماذا تضحك من جديد ؟

ـ أضحك لأننى تذكرت الفكرة التى عبَّرت عنها منذ برهة تعبيرا فكهاً فى موضوع سمردياكوف واعتقاده بوجـــود ناسكين قادرين على تحريك الجبال •

ـ هل يذكرك كلامى الذى أقوله الآن بسمردياكوف فى هـــذه النقطة ؟

ـ جدا •

ـ معنى هـــذا أننى أنا أيضا روسى حقا ، أتصف بمـا يتصف به الروسى من خصائص تميزه • ولا بد أن تكون أنت أيضا متصفاً بهـــذه الخصائص ، مهما تكن فيلسوفا • هـــل تريد أن أبرهن لك على ذلك بالوقائع ؟ اننى أراهن على اننى سأستطيع ذلك منـــذ الغـد • ومع ذلك أجبنى : أيوجد اله أم لا ؟ تكلم جادا لا هازلا ، فاننى أريد أن أعـرف ذلك •

ـ لا ... لا يوجد اله .

ـ أليوشا ، هل الله موجود ؟

ـ الله موجود .

ـ سؤال آخر يا ايفان : هل هناك شيء بعد الموت ؟ هل هناك حياة أخرى ، أية حياة أخرى ، ولو شبح حياة أخرى ، شبح صغير ، صغير جدا ؟

ـ لا شيء بعد الموت !

ـ لا شيء البتة ؟

ـ البتة .

ـ أهو العدم المطلق اذن ؟ أم يوجد شيء ما رغم كل شيء ؟ ربما وُجد قليل من حياة مع ذلك ! لقليلٌ خيرٌ من لا شيء ...

ـ لا شيء الا العدم الكامل ! صفر ... لا أكثر من ذلك !

ـ أليوشا ، هل هناك خلود ؟

ـ نعم هناك خلود .

ـ اذن يوجد اله ويوجد خلود ؟

ـ نعم ، يوجد اله والخلود موجود في الاله .

ـ هِمْ ... لا شك أن ايفان هو صاحب الرأي الصحيح . ومع ذلك ما أكثر التضحيات التي ضحاها الانسان في سبيل هذا الاعتقاد ، وما أكثر القوة التي أنفقها على هذا الأمل في غير طائل ، منذ ألوف السنين ! ... فمن ذا الذي يضحك على الانسانية هذا الضحك ، من ذا الذي يسخر منها هذا السخر ، قل لي يا ايفان ! انني ألقي عليك هذا

السؤال آخر مرة ، ألقيه عليك قاطعا جازما : الله موجود أم لا ؟ أجبني آخر جواب ...

ـ أجيبك آخر جواب : لا !

ـ فمن ذا الذى يسخر اذن من البشر المساكين ويضحك عليهم ؟

فقال ايفان ماكرا ساخرا :

ـ هو الشيطان ما فى ذلك شك .

ـ اذن يوجد شيطان على الأقل ؟

ـ لا ... لا يوجد حتى شيطان .

ـ خسارة ... لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به ، ذلك الذى اخترع الله أولَ من اخترعه ... ان الشنق قليل عليه .

ـ لولا أن أختُرع الله لما وُجدت المدنية !

ـ المدنية ؟ لولا الله لما وُجدت المدنية ؟

ـ لا ... ولما وُجدت خمور أيضا ! أحسب أنه قد آن مع ذلك أن ننتزع منك قارورة الكونياك هذه .

ـ لحظة ، لحظة يا عزيزى ! كأساً صغيرا آخر ... لقد أسأتُ الى أليوشا . ألم تزعل منى يا ألكسى ؟ ألم تحقد علىّ يا عزيزى الصغير اليوشا ، يا بنىّ الطيب الشهم ؟

ـ لا ... لست غاضبا . أنا أعرف أفكارك . ان القلب فيك خير من الرأس .

ـ قلبى خير من رأسى ؟ وهو الذى يقول هذا الكلام يا رب ! ايفان ، هل تحب أليوشا ؟

ـ أحبه •

ـ يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوفتش فى تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه) • اسمع يا أليوشا • لقد أسأت الى شيخك فى هذا الصباح ، لقد أهنته ••• ولكننى كنت مهتاجاً اهتياجا شديدا • ألا ان فى قلبه شيئاً من فكر ، ما رأيك يا ايفان ؟

ـ صحيح •

ـ نعم نعم ••• ان فى داخله شيئا من بيرون * • انه يســوعى ، أقصد أنه مجادل روسى • وهو ، ككل انسان ذى عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحيانا فى الخفاء أن يضطر الى التظاهر والتمثيل فى هذا العالم••• أن يصطنع مظاهر قديس ، أن يتخذ أوضاع ولىّ •••

ـ لكنه يؤمن بالله •

ـ هو ؟ أبدا • ألم تكن تعرف ذلك ؟ ثم انه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس ••• لا لجميع الناس طبعا ••• بل للأذكياء ممن يزورونه• لقد قال جازماً قاطعاً وهو يتحدث الى الحاكم شولتس : أنا أؤمن ، ولكن لا أدرى بماذا •

ـ أهذا ممكن ؟

ـ تماما • وأنا أحترمه مع ذلك • انه فيه عنصرا مفستوليسياً ، أو قل ان هناك شيئاً بينه وبين « بطل من زماننا » ، آر بنين * ، اذا صدقت ذاكرتى ••• أقصد أنه رجل يحب الملذات ، رجل شهوانى • وهو يبلغ من الميل الى النساء أننى أكون ، حتى اليوم ، قلقاً على زوجتى أو على ابنتى ، اذا هما ذهبتا تعترفان له ••• فتخيل ! ••• هل تعلم أنه يتفق له أن يروى قصصاً من تلك القصــص ! ••• منذ ثلاث سـنين دعانا الى

احتساء الشاى عنده مع خمور (ان السيدات يرسلن اليه خمورا) ، فأخذ يستحضر ذكرى مغامرات ماضيه ... فاضطررنا أن نمسك بطوننا حتى لا تنفجر من شدة الضحك ... ولا سيما حين حدثنا عن تلك المرأة العاجزة التى شفاها ... لقد قالت له : « لولا أن ساقىّ مريضتان هذا المرض ، لرقصت لك رقصةً من تلك الرقصات ! » هه ؟ ظريفة ، أليس كذلك ؟ وقد اسرّ الينا يومئذ قوله : « كانت لى فى حياتى مغامرات !» وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل .

ـ ماذا ؟ سرقها ؟

ـ استودعه الرجل المبلغَ أمانةً لما عرف به من صلاح وفضل . قال له : « احتفظ لى به عندك ، لأن منزلى سيفتَّش فى الغد » . فاحتفظ الآخر بالمبلغ كاملا غير منقوص . قال له : « أنت قد وهبت المبلغ لمبرات الكنيسة . » . فقلت له أنا : « أنت وغد ... ما أنت الا وغد » ... فقال لى : « لا ... لست وغداً ، بل أنا رجل واسع النظرة . » . ولكن لا ... لا ... لقد أخطأت ... لم يجر الحديث معه هو ... لقد خلطت بينه وبين شخص آخر .. دون أن ألاحظ ذلك ، دون أن أشعر بذلك ... كأساً أخرى ، كأساً أخيرة ، يا ايفان ، ثم ارفع قارورة الكونياك ! لقد كذبت ، لقد كذبت .. كان عليك أن توقفنى عن الكلام يا ايفان ! لماذا لم تقل لى اننى أكذب ؟

ـ كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك .

ـ غير صحيح ! انك تركتنى أتكلم بدافع الخبث ، بدافع الخبث وحده . انك تحتقرنى ، أنا أعرف ذلك . لقد جئت تعيش معى ، ثم أنت تعاملنى باحتقار حتى فى منزلى !

ـ سأرحل . اطمئن . ان الكونياك قد شوش عقلك !

ـ لقد تضرعت اليك ، باسم يسوع المسيح، أن تذهب الى تشرماشنيا ••• يوما أو يومين ••• ثم لم تفعل !

ـ سأذهب غدا ما دمت تلح •

ـ لن تذهب • أنا واثق من ذلك • انك تريد أن تراقبنى هنا • تلك هى غايتك ياذا النفس السوداء ! لذلك لن تذهب •

أصبح العجوز لا يسيطر على نفسه • لقد وصل من نشوة الكحول الى تلك المرحلة التى يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم فى العادة أناس مسالمون بحاجة مفاجئة الى أن يغضبوا ، وأن يظهروا ما هم قادرون عليه •

ـ مالك تتفرس فىّ هكذا ؟ يا لعينيك هاتين ما أقذرهما ! انك تنظر الىّ فأقرأ فى نظرتك قولك : « أيها السكير الدنىء » ! آه من هاتين العينين اللتين تفيضان شكاً وريبة واحتقارا ! ••• أنت انما جئت الى عندى لغاية معينة فى نفسك ••• ولا كذلك أليوشا ••• انه ينظر الىّ بعينين تشرقان صراحة • أليوشا لا يحتقرنى • يا الكسى اياك أن تحب ايفان •

قال أليوشا بحزم مباغت :

ـ لا تغضب من أخى • أكفف عن اهانته !

ـ السبب هو •• آه ••• أصبحت لا أدرى ••• أنت على حق • اف ••• ما أشد هذا الصداع الذى ألم برأسى على حين فجأة ! ارفع هذا الكونياك يا ايفان ! هذه ثالث مرة أطلب اليك فيها أن ترفع هذا الكونياك •

قال فيدور بافلوفتش ذلك ، ثم أطرق يفكر ، واستطالت شفتاه بابتسامة ماكرة •

ـ لا تحقد يا ايفان على هذا العجوز المهووس ... لا تحقد علىَّ يا ايفان ! ... أنا أعرف أنك لا تحبني كثيرا . وليس هناك ما يوجب أن تحبني على كل حال ... اذهب الى تشرماشنيا ، وسألحق بك حاملاً اليك حلوى ... وسأعرِّفك هناك ببنت من تلك المنطقة لاحظتها منـذ زمن طويل . هي الآن فتاة صغيرة رثة بائسة . لا تخش الصبايا المزفَّتات . لا تحتقرهن قط ... فهنَّ لآلىء في كثير من الاحيان .

قال ذلك وقبَّل يده قبلة مدوِّية ، من باب التأكيد . ثم أردف وقد انتعش فجأة كأن اثارة موضوعة المفضـل قد أوتيت القدرة على أن تردَّه الى الواقع رداً مباغتاً :

ـ ما أنتم أيها الفتيان الا صبية ، الا خنازير صغيرة ... هأ ... أنا من جهتي لم أقبل في حياتي أن تستطيع امرأة أن لا تعجبني ... تلكم هي مبادئي ! أأنتم قادرون على أن تفهموا هذا ؟ ولكن أنى لكم أن تفهموه ! ان عروقكم ليس فيها بعد الا لبن ... انكم لم تنضجوا بعد ! ان القاعدة التي التزمها في سلوكي هي أن في كل امرأة شيئا خاصا شائقاً لا يمكن أن يوجد في امرأة أخرى .. وانما المهم أن يستطيع المـرء اكتشافه ... وذلك فن ... ذلك فن يحتاج الى موهبة ! ما من امرأة أمكن أن تكون في نظري دميمة أو باعثة على الاشمئزاز في يوم من الأيام . حسبها أن تكون امرأة .. هـذا وحده نصف الحب .. حتى العوانس لا بد أن يكتشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يُذهله أن يتصور أن هناك اناسا أغبياء حمقى تركوا لهن أن يشخن دون أن يلاحظوهن . وأول شيء يجب أن يعمد اليه الرجل مع هاته الصغيرات الرثات الوسخات هو أن يدهشهن . بهذه الوسيلة انما يجب التوسل اليهن . ألم تكن تعرف ذلك ؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد النشوة والوجد ، حدَّ الألم والعذاب ، حدَّ الشعور بالخزي والعار من أن سيداً

أنيقا أمكن أن يتوله حباً بدمامة كهذه الدمامة • ألا انه لشيء رائع يشحذ العزيمة أن يعرف المرء أنه سيبقى فى هذا العالم الى الأبد سادةٌ وخدم ، ففى هذه الحالة سيظل هناك صــغيرة رثةٌ ما يحلو لها أن تفرح سيدها ومولاها • تلك هى سعادة الحياة ! انتظر ••• هل تعرف يا أليوشا ؟ ان هذا الامر يذكرنى بأننى قد بعثت الدهشة دائما فى نفس المرحومة أمك، ولكن بمعنى آخر • كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات ، ثم اذا أنا فى ذات يوم ، فى دقيقة من تلك الدقائق التى يتفق لى أن أعرفها ، أسترسل فجأة فى اظهار جميع أنواع العــواطف ، حتى لأزحف على ركبتى ، وأقبل قدميها الصغيرتين ، فأنقلها فى كل مرة ـ ما زلت أتذكر هذا كأنه حدث بالأمس ـ أنقلها فى كل مرة الى حالة نفسية خاصــة ، فاذا هى تأخذ تضحك ••• تأخذ تضحك ضحكة فريدة فى نوعها ••• ضحكة واهنة حادة فى آن واحد ، ضحكة عصبية طويلة • وكان ذلك على كل حال هو النوع الوحيد من الضحك الذى عرفته فيها • وكنت أعلم أن مرضها انما يبدأ عندها بهذه الطــريقة نفسها ، فهى تأخذ فى الغداة تصرخ مثل كليكوشا ، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبِّر فى الواقع عن أى فرح • ولكننى كنت أرى ذلك الضحك لذيذا ، سواء أعبَّر عن فرح أم لم يعبر عن فرح • فهل رأيتم كيف كنت أستطيع أن أجد فى كل شيء جانبا جذابا مجهــولا ؟ وقد اتفــق فى ذات يوم أن بيليافسكى ـ وهو رجل متظــرف غنى جدا كان يسعى اليها واستطاع أخيرا أن يدخل بيتى ـ قد صفعنى على وجهى فى بيتى بحضورها ! فماذا حدث ؟ لقد أوشكت هذه المرأة التى تشبه أن تكون حملاً ، أوشكت أن تضربنى بسبب هذه الصفعة ! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبنى وتقرعنى: « سمحت له أن يضربك ؟ أن يضربك ؟ ••• ارتضيت أن تتلقى صفعةً من هذا الشخص ؟ لقد أردت أن تبيعنى له ••• كيف تجرأ أن يصفعك

أمامى ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم هنا ••• هل تسمع ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم قط ••• هيًا اطلبه الى المبـــارزة •• اسرع •• أركض » • هكذا أخذت تقول لى • أخـذتها الى الدير لأهـــدىء روعها ، وصلًى الرهبان من أجلها • ولكننى أقسم لك يا أليوشــا أمام الله أننى لم ألحق بهـــا أذى فى يوم من الايام ، لم ألحق أى أذى بصغيرتى العـــزيزة الكليكوشا •• اللهم الا مرة واحدة ، أثناء السـنة الأولى من حياتنا ، ثم لم يحدث شىء من هذا بعد ذلك يوما • وكانت منذ ذلك الأوان تسرف فى الصلاة فى رأيى ، وتراعى أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة ، فما تسمح لى بأن أقاربها أثناء ذلك • خطر ببالى مرة أن على أن أطرد هذه الأفكار من ذهنها ، فقلت لها : «هل ترين هذه الأيقونة ؟ هذه الأيقـونة المقدسة ؟ سأمضى اليها الآن ، فأرفعها من مكانها ••• انك تعتقدين بأن هذه الصورة تحقق معجزات •• طيب •• سأبصق عليها الآن أمامك ، فلا يحدث لى شىء ••• »•• يا الهى ! حين نظرت اليها عندئذ فــرأيت تعبير وجهها ، خيِّل الىَّ أنها ستقتلنى فــورا • ولكنها لم تزد على أن انتفضت ، ورفعت ذراعيها فى الهواء ، ثم غطت وجهها بيديها ، وأخذت ترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، ثم هوت على الأرض ••• منهارة انهيارا تاما ••• أليوشا ، أليوشا ؟ ما بك ؟ ماذا دهاك يا صغيرى ؟

وثب العجوز عن مقعده مروَّعاً مذعورا • كان وجه أليوشا قد بدأ يتغير تعبيره شيئا فشيئا منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه • لقد احمر فى أول الامر ، واشتعلت عيناه ، وأخذت شفتاه تختلجان ••• وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذا من لعـــاب أثناء كلامه دون أن يلاحظ شيئاً ، الى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب : لقد صار أليوشا الى تلك الحالة نفسها التى وصفها أبوه فى كلامه عن الكليكوشا : نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه فى القصة التى رواها

أبوه عنها ، ورفع ذراعيه فى الهـواء ، ثم غطى وجهه بيديه ، ثم عاد يتهاوى على كرسيه كتلةً واحدة ، وأخذ يرتجف جسمه كله ويهتز فى نوبة هسترية تصاحبها دموع صامتة . وقد دُهش العجوز دهشة خاصة من هذا التشابه الخارق الذى ظهر فى تلك اللحظة بين أليوشا وأمه . فقال ينادى ايفان :

ـ ايفان ! ايفان ! هات ماءً ، أسرع ! هو مثلها ، مثل أمه تماما ! صبَّ عليه ماءً بالمغرفة ، فذلك ما كنت أفعله أنا بها . هذا بسبب أمه ، أمه ...

ـ أمه ؟ يخيَّل الىَّ أن أمه هى أمى أيضا ، ألا تقدّر ذلك ؟

هكذا انفجر يقـول ايفان على حين فجأة ، فى سورة من غضب شديد واحتقار هائل ، فارتعش العجـوز حين رأى نظـرته الحانقة المسعورة .

عندئذ حدث شىء عجيب ، ولكنه لم يدم الا بضع ثوان . يبدو أن العجوز قد نسى فعلاً أن أم أليوشا هى أم ايفان أيضا ، فها هو ذا يقول مدمدماً دون أن يفهم :

ـ أمك ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ عن أى أم تتكلم ؟ أتكون هى حقاً ؟ ... آه ... لعن الله الشيطان ! نعم ... هى أمك أيضا ! لعن الله الشيطان ! يا لهذه الذاكرة السيئة التى لم أعرف مثلها فى حياتى! معذرةً يا ايفان . لقد خيِّل الىَّ أن ... هأ هأ هأ ! ...

قال العجوز ذلك ثم توقف فجأة على ابتسامة بلهـاء من ابتسامات السكيرين . وفى تلك اللحظة نفسها سُمعت من الدهليز جلبة رهيبة ،

وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة • وانفتح الباب بما يشبه الاعصار ، وظهر دمترى بافلوفتش مندفعاً الى الغرفة •

ارتمى العجوز نحو ايفان وقد استولى عليه جـــزع هائل ، وطفق يصيح وهو يتشبث بحافة رداء ايفان بكل ما أوتى من قوة :

ـ سيقتلنى ، سيقتلنى •• لا تتركنى •• دافع عنى •• احمنى !

٩

الشهوانيون

ما ان دخل دمترى بافلوفتش الغرفة حتى هرع جريجورى وسمردياكوف فى أثره . كانا قد حاولا فى الدهليز أن يمنعاه بالقوة من الدخول (تنفيذا للأوامر التى أصدرها اليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام) ، فلما صار دمترى فيدوروفتش فى الصالون فتوقف لحظة قصيرة ليعرف الى أين يجب عليه أن يتجه ، انتهز جريجورى هذه الفرصة فدار حول المائدة ، ومضى الى الباب الذى يوجد فى آخر الصالون ويفضى الى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه الى آخر رمق . فلما رآه دمترى أطلق صرخة حادة ، بل قل زأر زئيراً رهيباً وارتمى على الخادم العجوز ، قائلا :

— هى اذن هنا . خبأتموها فى الغرفة المجاورة . ابعد أيها الشقى !

أراد دمترى أن يقصى جريجورى ، ولكن جريجورى دفعه عنه ، فجُنّ جنون دمترى حنقاً ، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية، فسقط الخادم على الأرض كتلةً واحدة ، وركله دمترى بقدمه ، واقتحم

الباب . أما سمردياكوف فقد ظل فى الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه الى فيدور بافلوفتش شاحب الوجه مرتعد الجسم .

صرخ دمترى فيدوروفتش يقول :

ـ هى هنا حتماً . رأيتها تتجه الى هذا المنزل منذ هنيهة ، ولكننى لم أستطيع أن أدركها . أين هى ؟ أين هى ؟

أحدثت هذه الصرخة « هى هنا » ، أحدثت فى فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً ، فتبدد خوفه وزال جزعه وهلعه دفعةً واحدة ، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمترى :

ـ أوقفوه ! أوقفوه !

وكان جريجورى قد نهض عن الأرض أثناء ذلك ، ولكنه ما يزال طائش اللب . وأسرع ايفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصداه . وسُمعت فى الغرفة الثالثة ضجة سقوط شىء وتناثر حطام : انها زهرية كبيرة من الكريستال (ليست من أثمن الزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر ، فاصطدم بها دمترى أثناء جريه فسقطت على الأرض وتهشمت .

أعول العجوز من جديد يقول :

ـ أمسكوه ! النجدة ! النجدة !

وأدركه ايفان فيدوروفتش وأليوشا فى تلك اللحظة ، واستطاعا أن يرجعاه الى الصالون بالقوة .

ـ بنىَّ فانيا ، بنى ليوشا* ! جاءت اذن جروشنكا . هى هنا . رآها بنفسه تجرى نحو دارى ...

ان فيدور بافلوفتش يتعثر فى الكلام . كان لا يتـوقع أن تجىء جروشنكا فى ذلك اليوم ، فلما سمع أنها جاءت طاش عقله . ان جسـمه كله يرتعد . وكأنه قد فقد جميع رشده .

قال له ايفان حانقاً :

ـ أنت نفسك تعلم حق العلم أنها لم تأت .

ـ لعلها دخلت من الباب الآخر .

ـ ولكن الباب الآخر مقفل ، ومفتاحه فى جيبك .

وفجأةً ظهر دمترى مرةً أخرى فى الصالون . لقد وجد البـاب الثانى مغلقاً بطبيعة الحال ، لأن مفتاح ذلك الباب كان فى جيب فيـدور بافلوفتش ؛ وكانت النوافذ موصدة فى جميع الحجرات من جهة أخرى ، فما كان لجروشنكا اذن أن تستطيع دخول المنزل من أى مدخل ولا أن تغادره من أى مخرج .

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه ، قائلاً :

ـ اقبضوا عليه . لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومى !

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدى ايفـان ، فهجـم ثانيةً على دمترى . ولكن دمترى رفع ذراعيه ، وأمسك العجوز فجأة من خصلتى شعره الباقيتين على صدغيه ، وشده منهما شداً قوياً فرماه على الأرض فى قرقعة ، واتسع وقته كذلك لأن يطـرق رأس أبيه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه ، فأطلق العجوز من صدره أنيناً حاداً . ولكن ايفان فيدوروفتش ، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة ، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب ؛ وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك فى حدود طاقته ، ممسكاً دمترى من أمام .

صرخ ايفان يقول :

ـ أأنت مجنون ؟ لقد قتلته .

فصاح دمترى يقول وهو يتنفس تنفساً قوياً :

ـ أحسن ! لقد استحق ذلك . واذا أخطأته هذه المرة ، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه ! ولن تحول عندئذ بينى وبينه !

وقال أليوشا بلهجة قاطعة :

ـ اذهب يا دمترى ! اخرج من هنا فورا .

ـ ألكسى ! قل لى الحقيقة كلها . أنت الانسان الوحيد الذى أثق به وأطمئن الى صدقه : أكانت هنا منذ قليل أم لا ؟ لقد لمحتها متسللةً على طول السياج فى آخر الزقاق ، متجهة نحو هذه الدار ، فناديتها فولت هاربة ...

ـ أحلف لك انها لم تأت هنا ، وأن أحداً لم يكن ينتظرها عدا ذلك ! ...

ـ ولكننى رأيتها بعينى ... اذن هى ... لن ألبث أن أعرف أين هى الآن ! ... الى اللقاء يا ألكسى ! لا تقل لايزوب* كلمةً واحدة فى أمر المال الآن . اذهب فورا الى كاترين ايفانوفنا . يجب أن تذهب اليها حتماً . قل لها : « انه يبلغك احترامه ، احترامه، احترامه ، يبلغك احترامه مودعاً ! » . وصِفْ لها هذا المشهد ...

وكان ايفان وجريجورى قد أنهضا العجوز أثناء ذلك ، وأجلساه على مقعد . كان وجهه دامياً ، ولكنه ليس مغشياً عليه ، فهو يتابع أقوال دمترى وصيحاته بشراهة ، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشنكا

مختبئة فى مكان ما بالمنزل . وحين همّ دمترى فيدوروفتش أن ينصرف رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبغضاً ، وقال له :

ـ لا يعذبنى ضميرى على أننى سفحت دمك . حذار أيها العجوز! اذا كان ما يزال لك أمل ، فاحذر من أملى أنا ! اننى ألعنك وأنكرك !

قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً .

ـ هى هنا ، هى هنا قطعاً . سمردياكوف ، سمردياكوف !

هكذا نادى العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع ، وهو يومىء بأصبعه الى الخادم .

فأجابه ايفان بصوت حانق يقول :

ـ بل ليست هنا ، ليست بالمنزل ، أيها العجوز الفاقد عقله ! ها .. ها هو ذا يُغمى عليه . هاتوا ماءً ، أسرعوا ، وهاتوا خرقة ! أسرع يا سمردياكوف !

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لاحضار ماء . وخلعوا عن العجوز ثيابه أخيرا ، ونقلوه الى غرفة نومه ، وأرقدوه على سريره ، وأحاطوا رأسه بخرقة مبللة . فما ان لامس رأس العجوز مخدته ، وقد أوهنه الكونياك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية ، حتى أغمض عينيه ونام . وعاد ايفان فيدوروفتش وأليوشا الى الصالون . ولمّ سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة . ولبث جريجورى جامداً قرب المائدة ، مظلمَ الوجه ، خافض الرأس فى عناد .

قال أليوشا لجريجورى :

ـ يحسن بك أنت أيضا أن تلفع رأسك بخرقة مبللة وأن ترقد فى فراشك . لقد ضربك أخى ضربة قوية كذلك .

قال جريجورى بصوت مبحوح بطيء :

ـ تجرأ أن يضربنى .

فقال ايفان فيدوروفتش :

ـ تجرأ ؟ لم « يتجرأ » أن يضربك وحدك ، بل ضرب أباه أيضا !

ـ لقد ربيته صغيراً ، وكنت أتولى غسله بنفسى ... ثم هو يتجرأ على الآن فيضربنى ...

كذلك ردد جريجورى .

واستأنف ايفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت خافت :

ـ من يدرى ؟ لعله كان سيقتله لو لم نبعده عنه بالقوة . ترى هل ينجو ايزوب زمناً طويلاً أيضاً ؟

فهتف أليوشا يقول :

ـ حمانا الله من هذا !

فاستأنف ايفان كلامه يقول خافضاً صوته :

ـ حمانا الله من هذا ؟ ألا فلتأكل السراطين بعضها بعضاً ! ذلك هو المصير الذي تستحقه !

ارتعش أليوشا .

ـ طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة . ابق هنا يا أليوشا . وسأخرج أنا الى الفناء استنشق الهواء قليلاً ، فقد بدأت أشعر بصداع فى رأسى .

عاد أليوشا الى غرفة نوم أبيه ، ولبث عند سريره قرابة ساعتين ، جالساً بين السرير والحاجز . ثم اذا بالعجوز يفتح عينيه فجأة ، فيطيل

النظر الى أليوشا صامتا ، وهو يحـاول أن يتذكـر وأن يفهم ؟ ثم اذا باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيدمدم قائلاً بوجل وخوف :

ــ أليوشا ، أين ايفان ؟

ــ فى الفناء • ان به صداعاً • ولكنه مهتم بنا ساهر علينا ، ولسوف يحمينا •

ــ ناولنى المرآة • هى هناك ، هل تراها ؟ ناولنيها •

مدّ اليه أليوشا المرآة الصغيرة المدوّرة ذات المسـند المطوى التى كانت موضوعة على المنضدة • نظر العجوز فى قسمات وجهه : كان أنفه قد تورم تورماً شديدا ، وكانت فوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء تدل على أن دماً قد نزف •

ــ ماذا دها ايفان ؟ أليوشا ، بنى الطيب الشهم ، أنت وحدك ابنى ! اننى أخشى ايفان ، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر • أنا لا أشعر بالطمأنينة الا معك • ولا أخاف منك •••

ــ ولا تخف من ايفان أيضا • صحيح أنه يلوم ويؤنب ، ولكنـه سيدافع عنك •

ــ أليوشا ! والآخر ، أين هو ؟ ذهب الى جروشنكا ، أليس كذلك؟ يا ملاكى الطيب ، قـل لى الحقيقة كاملةً : أجاءت جـروشنكا الى هنا أم لا ؟

ــ لم يرها أحد هنا • تلك كذبة • انها لم تجىء •

ــ يريد دمترى أن يتزوجها ، هل تعلم ذلك ؟ أن يتزوجها •••

ــ لن توافق هى على هذا !

ــ سترفض ، سترفض حتماً أن تتزوجه ، سوف تصده وتنبذه !

كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً ، وقد انتعش دفعةً واحدة على حين فجأة ، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره فى تلك الدقيقة هذه الفكرة التى عبَّر عنها أليوشا !

ومن فرط حماسته ، أمسك يد ابنه فوضعها بقوة على قلبه ، حتى لقد تلألأت دموع فى عينيه •

ـ خذ الأيقونة ، أيقونة العذراء المقدسة ، التى تكلمت عنها منذ برهة • اننى أهب لهاهذه الأيقونة ، انقلها الى مسكنك • وانى لأعدك أيضاً بأن تعود الى الدير ••• لا تؤاخذنى يا أليوشا ، فاننى ما أردت الا المزاح • بى صداع يا أليوشا ، يا عزيزى أليوشا ••• هدىء روعى ، طمئن قلبى يا من أنت كالملاك ، قل لى الحقيقة كلها •

ـ أفى أمر جروشنكا أيضا ؟ أأنها جاءت الى هنا ؟

كذلك سأل أليوشا أباه بلهجة مرة • فقال له أبوه :

ـ لا ••• لا ••• سامحنى ••• اننى أصدقك • اليك ما أريده منك : اذهب الى جروشنكا ، أو دبِّر أمرك بحيث تراها ، واسألها بأقصى سرعة ممكنة ، دون أن تضيع من الوقت دقيقة واحدة ••• حاول أن تعرف منها هى ، أو أن تحزر من كلامها : أيَّنا تفضل ، هو أم أنا ؟ هه؟ هل تستطيع أن تفعل هذا فى سبيلى ؟

دمدم أليوشا يقول مضطرباً :

ـ سأسألها عن ذلك اذا رأيتها •

ـ بل الأفضل أن لا تراها • اننى أعرفها • هذه امرأة مجنونة • سوف تلعب بعقلك وتجيبك قائلة انها تؤثرك أنت ، انها تريدك أنت ! هى امرأة كذابة ، امرأة قليلة الحياء خالعة العذار ! ما ينبغى أن تراها ••• لا تصلح جروشنكا لمثلك !

ـ ثم ان الذهاب اليها ليس بالأمر الحسن ، يا باتيوشكا !

ـ قل لى : الى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة انصرافه « اذهب اليها » ؟

ـ الى كاترين ايفانوفنا .

ـ للحصول على مال ؟ ليسألها مالا ؟

ـ لا ... ليس الأمر أمر مال .

ـ أنا أعلم أنه لا يملك قرشا واحدا . اسمع يا أليوشا . سأرتاح حتى صباح الغد ، وسأفكر فى جميع هذه الأمور . دعنى الآن . قد تلقاها فى طريقك ... ولكن تعال الىّ غدا فى ساعة مبكِّرة ، تعال حتماً . هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها . هل تجىء ؟

ـ أجىء .

ـ تظاهر بأنك تجىء من تلقاء نفسك لتسأل عن أخبارى . لاتذكر لأحد انى رجوتك أن تجىء . ولا تقل كلمة واحدة لايفان خاصة .

ـ سأصمت .

ـ الى اللقاء يا ملاكى . لقد دافعت عنى ، فلن أنسى هذا أبداً ... سأقول لك فى الغد شيئا ... يجب أن أفكر فى هذا الشىء مزيدا من التفكير ...

ـ ما شعورك بصحتك الآن ؟

ـ سأنهض منذ الغد فأخرج . سأكون فى غدٍ قد شُفيت ، سأكون قد أبللت تماما .

وحين قطع أليوشا فناء المنزل وجد أخاه ايفان جالسا على دكة قرب

الباب . كان ايفان بسبيل تدوين بعض الأشياء فى دفتره الصغير بالقلم الرصاص . أبلغه أليوشا أن العجوز قد استيقظ واسترد شعوره، وأضاف الى ذلك أنه قد أذن له بالعودة الى الدير لليل .

قال له ايفان ناهضاً وقد بدا فى وجهه كثير من التودد والتحبب :

ـ أليوشا ، أحب كثيرا أن أراك غدا فى الصباح .

فدُهش أليوشا من هذه البشاشة التى لم يألفها فيه . وأجابه :

ـ سأكون غدا عند السيدة هوخلاكوفا وابنتها . ومن الجائز أيضاً أن اذهب غداً الى كاترين ايفانوفنا اذا لم أجدها الآن فى دارها .

ـ أأنت ذاهب اذن الى كاترين ايفانوفنامع ذلك ؟ لتنقل اليها احترامه ؟

كذلك سأله ايفان وهو يبتسم على حين فجأة .

اضطرب أليوشا . وأردف ايفان يقول :

ـ أحسب اننى فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل، ومن ملاحظات أخرى سابقة . أغلب الظن أن دمترى رجاك أن تذهب اليها لتبلغها أنه يريد ... أنه يريد .. أليس كذلك ؟ أقصد أنه يريد ان يقطع علاقته بها ؟

سأله أليوشا :

ـ قل لى يا أخى . كيف سينتهى هذا الصراع الفظيع ، هذا النزاع الرهيب بين دمترى وأبينا ؟

ـ يستحيل التنبؤ بذلك . قد يسوّى الأمر ، وقد يهدأ الخلاف من تلقاء نفسه . ان هذه المرأة وحش كاسر مفترس . مهما يكن من أمر ، يجب احتجاز العجوز فى المنزل ومنع دمترى من الدخول اليه .

ـ اسمح لى بسؤال آخر يا أخى : هل تعتقد فعلاً أن من حق كل

انسان أن يعيِّن ، حين ينظر الى أقرانه البشر ، أولئك الذين ما يزالون يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا ؟

ـ ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق ؟ ان أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال فى قلوبهم على هذا الأساس ، وانما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جدا عن هذا الاعتبار ، اعتبارات أقرب كثيرا الى الطبيعة . أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على انسان من الناس حقَّ أن يتمنى ما يناسبه ؟

ـ أن يتمنى موت انسان آخر ؟

ـ حتى الموت ، اذا دعت الحاجة . ما ينبغى للمرء أن يكذب على نفسه ... ان جميع الناس يعيشون على هذا النحو ، وقد لا يكون من الممكن أن تجرى الأمور على غير هذا النحو ... أأنت تلقى علىَّ هذا السؤال بسبب فكرتى تلك عن السراطين ؟ فاسمح لى اذن أن ألقى عليك أنا أيضا هذا السؤال : هل تعتقد أننى قادر ، مثل دمترى ، على أن أسفح دم ايزوب ، أى أن أقتله ؟ هه ؟

ـ ما هذا الكلام يا ايفان ؟ لم يخطر ببالى شىء من هذا فى يوم من الأيام ! ... وحتى دمترى ، ما أظنه قادرا على أن ...

قال ايفان ساخرا :

ـ أشكر لك هذه الثقة على الأقل . اعلم أننى سأدافع عنه فى كل ظرف . أما عن أمنياتى مع ذلك ، فاننى أحتفظ فى هذا المجال بحريتى . الى اللقاء . الى الغد . لا تُدِنّى ولا تحسبنّى مجرماً .

كذلك أضاف وهو يبتسم .

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط . وأحسَّ أليوشا أن أخاه قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية فى نفسه ، وأنه يبيِّت نية من النيّات حتماً .

١٠

المرأتان كلتاهما

خرج أليوشا من دار أبيه أشد حــزناً مما كان حين دخلها . انه يشعر باضطراب عميق فى ذهنه . أفكاره تتلاحق وتتبعثر بغير تسلسل ينظمهـا ، وبغير رابطة تصل بعضها ببعض . ولكنه يدرك فى الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة وانعام النظر فى خواطره المبلبلة ، مؤثراً أن لا يستخلص أية نتيجة من المشاعر المتناقضة المعذِّبة التى عاناها فى هذا النهار . ان نوعاً من القلق يحاصره ويستبد به ويوشك أن يكون يأساً . وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل . هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر فى فكره على سائر الهموم الأخرى وتلاحقه وترهق قلبه كأنها الجبل ثقلاً : ما عسى يصير اليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمترى على تلك المرأة الرهيبة ؟ انه يعرف خطورة هذه المشكلة الآن ، بعد أن شهد الدرامة ورأى الرجلين يواجه أحدهما الآخـر . وأحق الناس بالرثاء على كل حال انما هو دمترى ، لأن شقاءه يبدو رهيباً ، ولأن بلاءه يبدو مستعصيا لا دواء له ولا برء منه : ان الكارثة تتربص به . وهناك أشخاص آخرون لهم فيها أدوار أضخم كثيرا مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين . هذا كله يُحــدث فى نفس أليوشا احساسا مضطرباً ويشعره بأنه أمام لغز لا يفهم . من ذلك مثلا أن أخاه ايفان قد

خطا الخطوة الأولى نحوه متقربا منه متوددا اليه ، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه ، ومع ذلك فان ملاطفات أخيه هذه قد بثت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة • وهاته النساء أيضا ؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن ! حين كان ذاهبا الى كاترين ايفانوفنا منذ بضع ساعات ، فانه قد ملأته تلك الزيارة اضطرابا • ولا كذلك في هذه اللحظة ، فانه ماض اليها بغير وجل البتة • أكثر من ذلك أنه يستعجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن تنقذه من قلقه ! على أن المهمة التي كلف بها تبدو له الآن أصعب وأشق: لقد عدل دمترى عدولا نهائيا عن رد الثلاثة آلاف روبل• هو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ الى الأبد ، وهو قد فقد كل أمل ، فلن يتردد بعد اليوم عن أى سقوط • ثم انه قد ألح على أليوشا أن يروى لكاترين ايفانوفنا المشهد الذى جرى في دار أبيه •

حين وصل أليوشا الى أمام مسكن كاترين ايفانوفنا التي تشغل في « الشارع الكبير » منزلا واسعا فخماً ، كانت الساعة قد بلغت السابعة ، وكان الظلام قد أخذ يهبط • ان أليوشا يعلم أن كاترين ايفانوفنا تعيش في هذا المنزل في صحبة قريبتين لها • فأما أولاهما فلا تمت اليها بقربى الا من جهة أختها آجاتى ايفانوفنا ، وهي بعينها تلك الانسانة الخضوع الطيعة التي عنيت مع آجاتى تلك العناية كلها بكاترين بعد خروجها من المدرسة الداخلية • وأما الثانية فهي سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست على جانب كبير من الثراء • وكان يقال ان هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترين ايفانوفنا في كل شيء ، ولا يعيشان قربها الا مراعاة للمواضعات الاجتماعية • أما كاترين ايفانوفنا فهي لا تطيع الا الجنرالة ، المحسنة اليها ، التي لبثت في موسكو بسبب حالتها الصحية ، والتي كان على كاترين أن تكتب اليها مرتين في الأسبوع لتطلعها على تفاصيل حياتها •

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادم التى فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله ، كان يبدو أن أهل الدار الجالسين فى الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة) • فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يبتعدن بسرعة ، وحفيف أثواب، كأن امرأتين أو ثلاثا قد هرعن يبارحن الغـــرفة • استغرب أليوشا أن يحدث وصوله كل هذا الاضطراب • ومع ذلك أُدخل الصالون فورا بدون انتظار • هى غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق ، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شىء • دواوين وصــوفات وكنبـات وموائد ومناضد ، ولوحات تزين الجدران ، ومزهـــريات ومصابيح تنتصب على الموائد ، وأزهار كثيرة فى كل ركن ، بل وحوض أسماك قرب احـدى النوافذ • والغرفة مظلمة قليلا فى هذا الوقت من الغسق • ورأى أليوشا خماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن أحدا كان جالسا عليه قبل لحظات ، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته ، وبسكويتاً وأنية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورنثيا وآنية أخرى فيها سكاكر • لاشك اذن فى أن أهـل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوف عندهم • فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة شعر بحرج كبير • ولكن الســـتارة أزيحت فى تلك اللحظة نفسها ، ودخلت كاترين ايفانوفنا الغرفة بخطى سريعة عجلى ، مادة الى أليوشا يديها كلتيهما ، مبتســـمة له ابتسامة فرحة مبتهجـة • وسرعان ما دخلت فى اثرها خادم تحمل شمعدانين مشتعلين وضعتهما على المنضدة •

ـ الحمد لله ! هأنت ذا أخيراً ! لقد لبثت طـول الوقت أضرع الى الله أن تجىء • اجلس من فضلك !

ان جمال كاترين ايفانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخـذه

أخوه دمترى اليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرّفها به لأنها أحبت كثيرا أن تعرفه . ولم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثيرا على كل حال . ذلك أن كاترين ايفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج ، فدارته في تلك المرة فلم تتجه بكلامها الا الى دمترى ، وصمت أليوشا طوال الوقت ، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها ، وخطف بصره ما رآه فيها من مظهر الارادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء . كانت هذه السمات فى طبعها واضحة ، وأحس أليوشا أنه لم يضخمها ولا بالغ فى تصورها . وقد أعجب أشد الاعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تتسقان اتساقاً تاماً مع لونها الشاحب الذى تشبه صفرته صفرة العاج قليلا ، ومع وجهها المستطيل بعض الاستطالة . ومع ذلك كان فى عينيها ، كما كان فى رسم شفتيها الرائع ، شىء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامحاً من غير شك ، ولكنه لا يبدو أنه يوقظ فى النفس حباً باقياً مستمرا . ولقد أعرب أليوشا لأخيه دمترى عن شعوره هذا صراحةً بدون لف ولا دوران ، حين أصرّ دمترى ، بعد انتهاء الزيارة ، على أن لا يخفى عنه أخوه رأيه ، وحين تضرع اليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته . لقد قال له أليوشا يومئذ :

ـ سوف تكون سعيداً معها ... ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة.

ـ هذه هى الحقيقة يا أخى ! ان النساء اللواتى هن من هذا النوع لا يتغيرن أبدا ، ولا يذعنّ للقدر . أأنت تعتقد اذن أننى لن أحبها الى الأبد ؟

ـ بلى ... ربما أحببتها الى الأبد ، ولكن من الجائز أن لا تسعد معها دائما .

أفصح أليوشا عن هذا الرأى وهو يحمر استياءً فى قرارة نفسه ، من رضوخه لالحاح أخيه وقبوله الاعراب عن أفكار « حمقاء » كهـذه الأفكار . ذلك أن رأيه قد بدا له غبياً غباءً رهيبا منذ عبَّر عنه . ثم انه قد شعر بخزى شديد من جزمه فى الحكم على امرأة مثل هذا الجزم ؟ وقد ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منـــذ أول نظرة ألقـاها على كاترين ايفانوفنا التى هرعت تستقبله هاشة باشة ، أنه لعله قد خُدع عن حقيقتها فى المرة الماضية وأنه قد أخطأ فى الحكم عليها خطأ فاحشا . لقد كان وجهها فى تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أى تصنع ، وكانت قسمات وجهها تعبِّر عن صراحة ملتهبة حارة . ولم يبق من « الكبرياء والخيلاء » اللتين خطفتا بصره من قبل الا تعبير عن جرأة نبيلة وجسارة سامية ، وكذلك تعبير عن ايمان بنفسها قوى واضـــح مضىء . وأدرك أليوشا دفعةً واحدة ، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التى نطقت بها، أن مأساة وضعها ازاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المنـــدفع كله لم تكن خافيةً عنها ، وأنها ربما كانت على علم بكل شىء منذ الآن ، بكل شىء اطلاقاً . ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء ، وكان يشع منها كل هذا الأمل بالمستقبل . وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب فى حقها ، كأنمـا هو أساء اليها اساءة كبيرة ، وأهانها اهانة شديدة ، عن عمد . لقد غُلب أليوشا ، ولكنه لاحظ مع ذلك ، منذ أولى الكلمات التى قالتها ، أنها فى حالة اضطراب نفسى عنيف لعله لم يكن مألوفا لها أو معهودا فيها ، وهو اضطراب يكاد يشبه الحماسة .

قالت كاترين ايفانوفنا :

ـ انتظرتك نافدة الصبر ، لأنك الانسان الوحيد الذى أستطيع أن أعرف منه الحقيقة كلهـا ... أنت الانسان الوحيـــد الذى سيذكر لى الحقيقة كلها ! ...

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره واختلطت على حين فجأة :

ـ أنا جئت •• أنا جئت •• موفداً منه !

ـ آ ••• أهو الذى أرسلك اذن ؟ لقد أوجست ذلك • الآن فهمت كل شيء ، كل شيء !

بهذا هتفت كاترين ايفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة ، ثم تابعت كلامها تقول :

ـ لحظة يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أحرص على أن أشرح لك أولاً لماذا انتظرتك فارغة الصبر • وسترى أننى ربما كنت أعلم من الأمر أكثر مما تفترض اننى أعلم ، وأكثر كثيرا مما أنت تعلم • فلن أسألك اذن معلومات ، وانما أنا أعتمد عليك فى شيء آخر : اننى أريد أن تطلعنى على رأيك ، على شعورك ، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه فى الآونة الأخيرة • اننى أحرص على أن تذكر بصراحة تامة ، دون أية مداراة أو مراعاة ، بل وبخشونة اذا لزمت الخشونة (بأكبر خشونة تريدها) أن تذكر لى رأيك فى حالة أخيك الآن بعد لقائك معه اليوم • فلعل ذلك خير من أن أمضى أفاتحه أنا فى الأمر ، لأنه أصبح لا يريد أن يرانى • هل فهمت ما أريده منك ؟ والآن قل لى : ما هى المهمة التى عهد اليك بها ، ما هى الرسالة التى كلفك بنقلها الىّ (كنت أتنبأ بأنه سيرسلك) • تكلم بلا تردد • قل كل شيء ، ولا تخش أن تسيء الى !••

ـ لقد كلفنى بأن ••• أنقل اليك احترامه ••• وأن أقول لك انه لن يجيء بعد اليوم ••• وأن احترامه •••

ـ احترامه ؟ أهذا ما قاله ؟

ـ نعم !

ـ لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً ، دون أن يريد ذلك، ودون أن يلح أيضا ، لأنه لم يجد كلمةً أخرى ؟

ـ بل لقد حرص حرصاً على أن استعمل كلمة « الاحترام » هذه، حتى لقد ألح عليها ثلاث مرات ، مخافة أن أنساها .

تخضب وجه كاترين ايفانوفنا بحمرة شديدة . وقالت :

ـ ساعدنى الآن يا ألكسى فيدوروفتش ، أنا فى حاجة الى مساعدتك . سأفتح لك أعماق فكرى ، وستقتصر أنت على أن تقول لى هل تعد رأيى صحيحا أم لا ؟ اصغ الىّ جيدا . لو كان قد كلفك عرضا ومصادفةً بأن تبلغنى « احترامه » دون أن يلح على هذه الكلمة الحاحاً خاصا ، فان كل شىء يكون قد قيل ... ويكون الأمر فى هذه الحالة قد انتهى ! ... أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة الحاحا خاصا ، وأنه رجاك صراحة أن تستعمل تعبير «الاحترام» هذا ، فمعنى ذلك أنه كان فى حالة اضطراب شديد ، بل لعله كان خارجا عن طوره ! لقد اتخذ قرارا ، ولكن قراره نفسه يبث الجزع فى نفسه ! انه لم يتركنى بخطى حازمة، وانما هو أسرع يسقط فى هاوية . ان اصراره على استعمال هذه الكلمة لا يمكن أن يُفسَّر الا بأنه تبجح وتحد ...

فقال أليوشا مؤيداً :

ـ هو كذلك ، هو كذلك تماما . وهذا هو شعورى الآن أيضا .

ـ فاذا صح هذا فانه لم يضع بعد ، وليس الأمر اذن الا أمر فعل يدفع اليه اليأس . ولكننى أستطيع أن أنقذه رغم كل شىء . لحظة ! ألمْ يكلمك فى موضوع مال ، فى موضوع ثلاثة الاف روبل ؟

ـ طبعا ... حدثنى فى هذا الموضوع ... بل ان هذا هو مايرهقه

أكثر من أى شىء آخر رغم أن شرفه قد تلطخ ، وقال ان جميع الأمور تستوى لديه بعد الآن ، فلن يعبأ بشىء .

كذلك قال أليوشا بحرارة ، لأنه فى تلك اللحظة أحسّ بالأمل يملأ قلبه ، وحدث نفسه بقوله : ربما كان هنالك مخرج لأخيه فعلاً ، ربما كان هنالك سبيل الى خلاص أخيه . ثم أضاف يقول وهو يضطرب على حين فجأة :

ـ أأنت اذن على علم ... بما حدث لذلك المبلغ ؟

ـ أنا على علم بما حدث له ، منذ زمن طويل . اننى أعرف كل شىء . لقد أرسلت برقية الى موسكو لأسأل هل وصل المال ، فما لبثت أن عرفت الحقيقة . انه لم يرسل المبلغ ، ولكننى لم أحدثه فى الأمر . حتى لقد علمت فى هذا الاسبوع الاخير مدى حاجته الى المال . ولم يكن لى فى هذا الشأن الا هدف واحد : هو أن يعرف من الذى يستطيع أن يتجه اليه ويعتمد عليه فى مثل هـــذا الحالة ، هو أن يعرف أننى خير صديق له فى هذه اللحظة ! ولكن لا ... انه لا يؤمن بصداقتى . لم أخطر بباله فى هذا الظرف . هو لا يرى فىّ الا المرأة . ان هناك سؤلا يعذبنى منذ ثمانية أيام : ما الذى يجب علىّ أن أفعله حتى لا يشعر تجاهى بالخزى والعار من أنه أتلف تلك الثـــلاثة آلاف روبل ؟ افهمنى حق فهمى : فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه ، ولكن ما ينبغى له أن يشعر بالخجل تجاهى ! هل يخجل أمام الله من الافضاء اليه بأموره، والاعتراف له بسرّه ؟ فلماذا يخجل منى ؟ لماذا لا يعرف ما أنا قادرة على احتماله فى سبيله ؟ لماذا ، نعم ، لماذا يجهلنى هذا الجهل كله ؟ كيف يجرؤ أن يجهلنى بعد كل ما جرى بيننا ؟ اننى أريد أن أنقذه الى الأبد. فلينس أننى خطيبته، لينس أن لى هذه الصفة، ولكن ماينبغى له أن يخشى

أن يفتح قلبه لى ، وأن يثق بى ، وأن يطمئن الىَّ فى مسألة كمسألة الأمانة هذه ! هل خشى الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسى فيـــدوروفتش ؟ فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة ؟

حين نطقت كاترين ايفانوفنا بهذه الكلمات الأخيرة ، ضعف صوتها فجأة ، وانبجست الدموع من عينيها •

قال أليوشا بصوت متهدج أيضا :

ـ علىَّ أن أروى لك ما وقع فى منزل أبى منذ قليل •

وقصَّ عليها القصة ، ذاكراً أن أخاه كان قد كلَّفه بأن يطلب له مالاً من فيدور بافلوفتش ، ثم اذا هو يقتحم الغـــرفة على حين فجأة • وصف لها كيف أساء أخوه معاملة أبيه ، وذكر لها أن أخاه قد ألح عليه ، بعد ذلك ، مرة أخرى ، أن يجيء اليها ليبلغها « احترامه » •

وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته :

ـ ثم ذهب الى تلك المرأة •

ـ أتظن أننى لا أستطيع احتمال وجود تلك المـــرأة فى حياته ؟ أيحسب أننى لن أطيق وجودها فى حياته ؟

ألقت كاترين ايفانوفنا هذا السؤال ، ثم قالت فجأة وهى تضـحك ضحكا عصبيا :

ـ ولكنه لن يتزوجها • هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع الى الأبد ؟ ذلك هوى وليس حباً • ثم انه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هى أن تتزوجه •

كذلك رددت كاترين ايفانوفنا وهى تضحك تلك الضحكة الغريبة نفسها •

فقال أليوشا فى حزن وهو يغض بصره :

ـ من الجائز جدا أن يتزوجها •

ـ قلت لك انه لن يتزوجها ! ان هذه الفتاة ملاك حق ، هل كنت تعرف ذلك ؟ لا ؟ فاعلم الآن اذن •

كذلك هتفت كاترين ايفانوفنا بحرارة وحماســة قوية • وتابعت تقول :

ـ هى أروع انسان يمكن أن يلقاه المرء فى حياته ! أنا أعرف مدى ما تتصف به من فتنة واغــراء ، ولكننى أعرف أيضا طيبتهـا وشهامتها ونبلها • لمـاذا تنظر الىّ هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لعـل كلماتى تدهشك ؟ أغلب ظنى أنك لا تصــدقنى ، أليس كذلك ؟ يا آجـرافين الكسندروفنا ، يا ملاكى (كذلك نادت كاترين ايفانوفنا وهى تنظر الى الغرفة المجاورة) ، تعالى الينا ! انه فتى لطيف ! انه أليوشا • هو على علم بكل ما يتصل بنا • تعالى •

فأجاب صوت نسوى لطيف أو متلطف :

ـ انما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التى تنادينى فيها •

وأزيحت الستارة فاذا ••• بجروشنكا نفسها تظهر • اقتربت من المائدة ضاحكةً وقد بدت فى وجهها سعادة • أحسّ أليوشا فى اللحظة الأولى أنه يوشك أن ينهار • حدق الى المرأة الشابة بنظرة عنيفة ، دون أن يستطيع تحويل عينيه عنها • أهذه هى اذن تلك المرأة المخيفة ؟ أهذه هى اذن ذلك « الوحش المفترس الكاسر » على حد التعبير الذى أفلت من أخيه ايفان قبل نصف ساعة ؟ ان أليوشا لا يرى أمامه الآن الا امرأة عادية بسيطة طيبة محببة ، قد تعدها حسناء ان شئت ، ولكنها شبيهة بكثير

من النساء الحسناوات اللواتي لا يُحسبن « خارقات » • والحق أنها جميلة ، بل جميلة جدا ••• لها ذلك الجمال الروسي الذي قد يوقظ في بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً • هي طويلة القامة ، ولكنها أقل طولاً من كاترين ايفانوفنا (الطويلة جدا) ، ويتميز جسمها بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة ، حركات تتصف تلوياتها وانعطافاتها بنفس الليونة والرقة والرخاوة التي تظهر في تنغيات صوتها • اقتربت ، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترين ايفانوفنا • انها تمشي بلا جلبة ولا ضوضاء • وتهالكت على مقعد من المقاعد ، فكان لحفيف ثوبها الحريري الأسود الفاخر شيء من عذوبة ورقة في السمع أيضا • وكان يلتف على جيدها الناصع البياض كالثلج ، وعلى كتفيها العريضين، شال" ثمين من صوف أسود ، يلتف التفافاً فيه كثير من رهافة الذوق • انها في الثانية والعشرين من عمرها • وان قسمات وجهها تدل على أنها في هذه السن تماما • لونها ناصع البياض ، وخداها متوردان توردا خفيفا عند الوجنتين ، وفكها الأسفل بارز بعض البروز ، وشفتها العليا دقيقة جدا على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلا تبدو أسمك من الشفة العليا مرتين حتى لكأنها منتفخة قليلا • ولكن شعرها الكستناوي الغزير الرائع وحاجبيها القاتمين المخمليين ، وعينيها الزرقاوين الشهباوين الفاتنين ، وأهدابها الطويلة ، كل ذلك خليق بأن يجتذب اليه أقل الرجال اكتراثا، وأشدهم ذهولا ، وخليق بأن يجعل مثل هذا الرجل ، ولو في وسط جمهور مضطرب متدافع أو في زحمة الشوارع الكبرى المكتظة بالمارة ، أن يتوقف لحظة" أمام هذا الوجه وأن يتأمل ملامحه ملياً • وقد أخذ أليوشا خاصة" بما في هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة • ان لها نظرة طفل ، وكأنها فرحة فرح صبية صغيرة لسبب مجهول • ولقد تقدمت من المائدة في الواقع « متهللة » الأسارير ، كأنها تنتظر حادثاً

وشيكا ، متعجلة حدوثه نافدة الصبر مطمئنة النفس كطفل • وكان فى نظرتها ضياء يبهج القلب ، ضياء أحس به أليوشا واضحا قويا • وكان يشع منها شيء آخر لم يستطع أليوشا أن يستبينه جليا فى تلك اللحظة ، ولكنه أثر فيه تأثيرا لاشعوريا، أعنى تلك العذوبة وتلك الرقة فى حركات جسمها وفى ليونتها ورشاقتها الصامتة • ومع ذلك كانت قوية الجسم نامية الأعضاء • ان كتفيها العريضين يرتسمان تحت شالها ؟ ومن ينظر اليها يدرك أن لها صدراً كاعباً ما يزال صدر فتاة مراهقة • ان جسدها يَعد بأن يكتسب مع تقدمها فى النضج اتساق جسد فينوس ميلو ، رغم أن نسبه مفرطة قليلا منذ الآن • على أنها لو رآها خبير فى جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية فى جسدها ستضمحل فى نحو الثلاثين من عمرها ، وأنها ستثقل وستسمن ، وأن عضلات وجهها سترهل عندئذ ، وأن غضوناً ستظهر عند عينيها وعلى جبينها فى وقت مبكر ، وأن لونها سيحول ، وقد يصاب بداء الاحمرار ، أى ان جمالها، بايجاز ، جمال عارض ليس له غد ، كالجمال الذى يلاحَظ كثيرا لدى النساء الروسيات • ان أليوشا لم يسترسل فى أفكار من هذا النوع طبعاً، ولكنه ، رغم افتتانه بالمرأة الشابة ، قد تساءل وهو يحس احساسا غامضا بنوع من النفور وبنوع من الأسف ، لماذا تجرُّ هذه المرأة كلامها جراً، ولا تطلق صوتها فى الحديث على سجيته طبيعياً بغير تكلف ؟ ان المرء ليشعر أنها تحسب الرشاقة والأناقة والجاذبية فى هذه الطريقة فى تلوين ألفاظها بنبرات الغناء وتحليتها بما يشبه السكر • والحق أن تلك عادة رديئة تدل على وضاعة أصلها وعلى الأفكار العامية التى تكونت فى ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية • وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يُطاق بين هذا النطق المتصنع والتنغيم المفتعل وبين ما يظهر فى وجهها من تعبير عن الفرح البريء والابتهاج الساذج وما يشع فى نظرتها

الوديعة وداعةَ نظرة الطفل من سعادة هادئة عذبة . وقد قامت كاترين ايفانوفنا بتقبيل جروشنكا على شفتيها عدة مرات بحماسة وحرارة ، حتى لكأنها هائمة بها غراماً ...

قالت كاترين ايفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتتان :

ـ اننا نلتقى اليوم لأول مرة يا ألكسى فيدوروفتش . كنت أتمنى أن أعرفها ، أن أراها ، وقد فكرت فى أن أزورها ، ولكنها جاءتنى من تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتى . وكنت على ثقة سلفاً بأننى سأستطيع التفاهم معها على كل شيء ، تفاهماً تاماً . قلبى أدرك ذلك وحدثنى به... وقد حاولوا أن يصدونى عن القيام بهذا المسعى وأن يثنونى عن انفاذ هذه النية ، ولكننى كنت أتنبأ بالنتيجة الموفقة السعيدة ، فلم يخطيء ظنى ولا خاب فألى . لقد شرحت لى جروشنكا كل شيء ، وأطلعتنى على جميع ما عقدت النية عليه . جاءتنى الى هنا تحمل الىّ السلام والفرح ، كملاك طيب ...

قالت جروشنكا بصوت منغم متباطيء ، وهى تبتسم تلك الابتسامة الباشة السعيدة نفسها :

ـ الفضل لك يا آنستى العزيزة المحترمة ، فقد ارتضيت صحبتى ولم تحتقريها .

ـ كيف تستطيعين أن تقولى مثل هذه الأشياء ، أيتها الساحرة ! أأحتقر صحبتك أنت ؟ دعينى أقبل هذه الشفة السفلى مرة أخرى . لكأنها متورمة قليلا ، فلأزدها تورماً ! هذه قبلة ... هاتِ قبلةً أخرى ... وقبلة أخرى أيضا ... انظر اليها كيف تضحك يا ألكسى فيدوروفتش ! ان رؤية هذا الملاك تملأ القلب بهجة وفرحاً ....

احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفا لا يُرى .



جروشنكا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ أنت تدلليننى يا آنستى اللطيفة ، مع أننى قد لا أستحق ملاطفاتك ومداعباتك .

ـ أنت ؟ دعيك من هذا الكلام ! تدعى أنها لا تستحقها .

كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة ، ثم أردفت :

ـ اعلم يا ألكسى فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيـال ، متسلطة القلب ، ولكنهـا ذات كبرياء وكرامة . هى نبيـلة الروح يا ألكسى فيدوروفتش ، سامية النفس كريمة الطبع ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنها كانت شقية عاثرة الحظ . لقد تعجلت فأرادت أن تضحى بكل شىء فى سبيل رجل خسيس الطبع ، أو ربما طائش العقـل . كان ضابطا هو أيضا . أحبته ووهبت له كل شىء . حدث ذلك منذ زمن طـويل ، منذ خمس سنين . ثم هجرها ، ونسيها ، وتزوج . وقد توفيت امرأته فهـو الآن أرمل ، وقد كتب اليها يبلغها أنه آت اليها . اعلم يا ألكسى فيدوروفتش أن هذا هو الرجل الوحيد الذى أحبته فعلا وما تزال تحبه . وسيجىء وستعود الى جروشنكا سعادتها ، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعذب منذ خمس سنين . من ذا الذى يجرؤ أن يلومها ، من ذا الذى يستطيع أن يتباهى بأنه حظى منها بشىء ؟ هو ذلك العجوز وحده ـ التاجر ـ ولكنه كان لها أباً ، كان لها صديقا ، كان لها حارساً . وجدها فريسة اليأس ، قد هجرها الرجل الآخر ، الرجل الذى محضته ذلك الحب كله ... وقد فكرت فى أن ترمى بنفسها الى الماء ، هل تعلم ذلك ؟ فأنقذها ذلك العجوز ، أنقذها .

عادت جروشنكا تقول بصوتها المتباطىء :

ـ أنت تدافعين عنى بحرارة فيها غلو يا آنستى العزيزة ، ولعلك فى هذا تسرفين فى التعجل .

ـ أأنا أدافع عنك ؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك فى حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن نجرؤ على ذلك أصلاً ؟ جروشنكا ، ملاكى ، هاتى يدك الصغيرة ! أنظر الى هذه اليد الجميلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أنظر الى هذه اليد اللذيذة السمينة ! انظر اليها ! لقد حملت الىّ السعادة ، لقد ردتنى الى الحياة . سأقبلها ، هذه اليد الصغيرة ، وجهاً وقفا .. هكذا ، وهكذا ، ومرة أخرى ! ...

قبلت كاترين ايفانوفنا يد جروشنكا ثلاث مرات فعلا ، وهى فى حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً ... قبلت تلك اليد اللذيذة حقاً ، وان تكن مسرفة فى السمنة . وكانت جروشنكا قد مدت اليها ذراعها ، وأخذت تلاحظ « الآنسة اللطيفة » ، مغتبطة اغتباطا واضحا بتقبيلها على هذا النحو . قال أليوشا لنفسه سراً : « لعلها تسرف فى الحماسة » ، واحمر وجهه . ان نوعاً من القلق كان يعتلج فى قلب أليوشا طوال ذلك الوقت .

قالت جروشنكا :

ـ لا تخجيلنى يا آنستى اللطيفة بتقبيل يدى هذا التقبيل أمام ألكسى فيدوروفتش .

فأجابت كاترين ايفانوفنا مدهوشة بعض الدهشة :

ـ أأنا خطر ببالى أن أخجلك ؟ آه ... يا عزيزتى انك تسيئين فهمى كثيراً !

ـ وأنت أيضا تسيئين فهمى فيما يخيَّل الى يا آنستى اللطيفة . أنا قد أكون أخبث كثيرا مما تقدرين . ان لى قلبا شريرا ذا نزوات . لقد اجتذبت دمترى فيدوروفتش الى منزلى لغاية واحدة هى أن أسخر منه وأستهزىء به .

ـ ما قيمة هذا ما دمت ستنقذينه الآن ؟ لقد قطعت على نفسك عهداً ••• ستردينه الى الصواب ••• ستقولين له انك تحبين رجلا آخر ، منذ زمن طويل ، وان هذا الرجل سيتزوجك الآن •

ـ آه •• كلا ••• أنا لم أقطع لك على نفسى هذا العهد • أنت قلت لى هذ االكلام كله ، أما أنا فلم أعد بشىء •

قالت كاترين ايفانوفنا فى لين ورفق وقد بدت فى وجهها صفرة خفيفة :

ـ أنا لم أفهم الأمر على هذا النحو ، وأحسب أنك وعدت •••

ـ كلا يا ملاكى ، كلا يا آنستى ، أنا لم أعدك بشىء البتة •

كذلك قالت جروشنكا بصوت متساوٍ هادىء ، وما تزال تبدو عليها هيئة السعادة والبراءة تلك • ثم أضافت تقول :

ـ فهأنت ذى ترين الآن ، يا آنستى المحترمة ، مدى ما يشتمل عليه سلوكى معك من خبث ونزوة • أنا أفعـل ما يخطر ببالى ، أنا أفعـل ما يبرق فى رأسى • قد أكون وعدتك بشىء منذ قليل ، ولكننى فى هذه اللحظة أقول لنفسى : « فماذا لو أعجبنى من جديد ميتيا هذا ؟ » ؛ ذلك أنه قد أعجبنى مرةً فى الماضى ، بل لقد أعجبنى طوال ساعة بكاملها ! وربما شعرت بأننى قادرة على أن أذهب اليه لأقول له : تعال اسكن فى منزلى نهائيا منذ الآن ••• هكذا أنا : متقلبة لا أستقر على حال •••

قالت كاترين ايفانوفنا بصوت ضعيف واهن :

ـ كنتِ منذ لحظات تتكلمين ••• بطـريقة أخرى مختلفـة كل الاختلاف •••

ـ منذ لحظات ؟ ربمـا ••• ولكن لى قلباً حنـوناً غبياً ••• فحين

أتصور كل ما قاساه من آلام بسببي •• ثم ماذا لو أخذتني به شفقة على حين فجأة منذ أن أرجع الى الدار ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟

ـ لم أكن أتوقع أن •••

ـ أوه •• آنستي العزيزة ! فما أطيبك وما أنبلك اذن بالقياس الىّ؟ لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن ، أنا الحمقاء الغبيـــة ، بسبب سوء طبعي • هاتي يدك الصغيرة أنت أيضا ، أيتها الملاك (قالت لها ذلك راجية ضارعة بصوت رقيق ناعم، ثم أمسكت يدها بنوع من الحماسة والحرارة)• لقد قبلتني ثلاث مرات فيجب علىّ أن أقبلك ألف مرة لأرد اليك دينك علىّ • ولندع الأمور على ما هي عليه الآن ، ولنسلم أمرنا الى الله ! من يدري ؟ قد أنتهي الى الخضوع لارادتك خضـــوعا أعمى ، فأفعل كل ما تأمرينني به • لندع الأمور تجري على مشيئة الله ! فلا نقطع على أنفسنا عهودا ، ولا نقيد أنفسنا بوعود ! ما أجمـــل يدك ! أوه ما أجملها يداً فاتنةً أخاذة ! آنستي اللطيفة ، انك جميلة جمالاً لا يتصوره الخيال ••

قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترين ايفانوفنا الى شفتيها ، على تلك النية الغريبة حقاً ، وهي أن « ترد اليها دينها عليها » • لم تعـارض كاترين ايفـــانوفنا • كانت قد أصـــغت الى الوعد الذي وعـــدتها به جروشنكا ، وهو أنها قد تخضع لارادتها خضـــوعا أعمى ، أقول كانت قد أصغت الى ذلك الوعد مؤمّلة خجلى ، رغم أن الوعد قد قيل على نحو خاص• وهي تحدق الآن الى عينيها اللتين ماتزالان تعبّران عن تلك البراءة نفسها ، وعن تلك الثقة نفسها ، وعن تلك السعادة المشعة نفسها ••• وحدثت كاترين ايفانوفنا نفسها قائلة بسرعة : « لعلها ساذجة مسرفة في السذاجة » ، وعاد الأمل يشرق في قلب كاترين ايفانوفنا • وفي أثنـــاء ذلك الوقت كانت جـــروشنكا التي تبدو نشوى أمام « اليـــد الصغيرة اللذيذة » ، ترفع هذه اليد الى فمها على هون وبطء • ولكنها بعـــد أن

وضعتها على شفتيها ، لبثت بضـــع لحظات لا تقبِّلهـا ، وكأنها تفكر فى شيء ما ، ثم قالت فجأة وهى تجر كلماتها بطيئة وتسكب فيها أرق التثنيات وأطرى الترجحات العذبة :

ـ هل تعلمـــين يا ملاكى ؟ لقـد قررت فجأة أن لا أقبِّــل يدك الصغيرة .

ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة .

قالت لها كاترين ايفانوفنا وهى ترتعش :

ـ كما تشائين ... ولكن ماذا بك ؟

ـ لا شيء . عيشى بعد اليوم مع ذكرى تقبيلك يدى ورفضى تقبيل يدك !

ـ وقحة !

بهذا قذفتها كاترين ايفانوفنا كأنها أدركت شيئاً فى هذه اللحظـة فقط .

لقد تخضب وجهها بحمرة شديدة حتى صار كالأرجوان ، ونهضت عن مكانها فجأة ، فنهضت جروشنكا أيضا ولكن بغير اسراع .

ـ بعد لحظة سأذكر لميتيا أنك قبلت يدى أما أنا فرفضت أن أفعل.

ـ شقية ! اخرجى من هنا !

ـ يا آنسة ؟ ألا تستحين أن تتكلمى على هــذا النحو ؟ ألا تعلمين أنه لا يليق بك أن تستعملى مثل هذه الألفاظ يا آنستى العزيزة ؟

زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ اخرجى من هنا أيتها المخلوقة التى تبيع نفسها بالمال .

ـ ها ها ! تبيع نفسها بالمال ؟ أنسيت اذن أنك حين كنت فتاة عذراء، كنت تذهبين فى الظلام الى منازل شباب لتحصلى على مال ؟ أما ذهبت تبيعين جمالك ؟ ثقى اننى على علمٍ بهذا الأمر ! ...

صرخت كاترين ايفانوفنا صرخةً قوية ، وانقضت عليها ، ولكن ألكسى فيدوروفتش أمسكها بكل ما أوتى من قوة قائلا لها :

ـ اياك أن تقولى كلمة واحدة ! لا تجيبيها بشىء ، لاتنطقى بحرف، سوف تنصرف ، سوف تمضى فورا .

سمعت قريبتا كاترين ايفانوفنا صرختها ، فهرعتا الى الغرفة وتبعتهما الخادم ، وأحطن بها جميعا .

قالت جروشنكا وهى ترفع شالها عن الديوان :

ـ أنا ذاهبة ! أنا ذاهبة ! أليوشا ، حبيبى ، رافقنى !

فقال لها أليوشا متوسلاً متضرعاً ضاماً يديه احداهما الى الأخرى:

ـ اذهبى ، اذهبى ، ناشدتك الله ...

ـ صغيرى العزيز أليوشكا ، رافقنى ! سأقول لك أثناء الطريق شيئا يسرك ، يسرك كثيرا ... من أجلك أنت يا ملاكى انما مثلت هـــذه المهزلة . رافقنى ، يا طائرى الصغير ، ولن تندم على أنك فعلت ...

تحول عنها أليوشا وهو يعقف يديه . وخرجت جروشنكا راكضة وهى تضحك ملء حلقها .

وأصيبت كاترين ايفانوفنا بعد انصراف جروشنكا بنوبة عصـــبية عنيفة ، فأخذت تبكى منتحبة ، وأخذت تخنقها تشنجات قوية. ومن حولها كان الجميع يتحركون ويضطربون .

قالت لها كبرى قريبتيها :

ـ لقد حذرتك .. أردت أن أمنعك من الاحترام على هذه الخطوة ... أنت مسرفة في الاندفاع ... كيف أمكنك أن تقرري القيام بهذا المسعى ؟ كان ذلك طيشاً وجنونا ! أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات ، وهذه أخبثهن طراً ، وأسوأهن كافة ، فيما يؤكد النـاس ! ... انت مسرفة في التشبث برأيك والاصرار على انفاذ ارادتك ! قلت لك ذلك..

زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ انها نمرة ! لماذا صددتني عنها يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لقد أردت أن أضربها ، أن أضربها ...

أصبحت كاترين ايفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشـا ، ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها وتملك زمام نفسها .

ـ انها لا تستحق الا الجلد بالسياط . يجب أن يجلدها جلاد على رءوس الأشهاد !

اتجه أليوشا نحو الباب .

وهتفت كاترين ايفانوفنا تقول فجأة :

ـ آه ... يارب ! وهو ! هو أيضاً ! لم يخجل أن يكون حقيراً الى هذا الحد ، أن يكون بلا قلب ! لقد قصّ على هذه المخلوقة ما جرى في ذلك اليوم المشئوم ، ذلك اليوم الملعون ، الملعون الى الأبد . « أما ذهبت تبيعين جمالك يا آنستي العزيزة ! » . هي تعلم اذن . ان أخاك وغد دنيء يا ألكسى فيدوروفتش !

ودّ أليوشا لو يجيب ، ولكن الكلمات لم تسعفه . كان قلبه ينهصر ألمـاً .

ـ اذهب يا ألكسى فيدوروفتش ! انني أشعر بالعار ، أشعر بالعار شعورا رهيبا ! عُدْ غدا ... أضرع اليك جاثيـة أن تجيئني غـدا . لا تؤاخذني ، لا تحقد عليّ ، سامحني ، اغفر لى . أصبحت لا أعـرف ماذا أصنع بنفسى !

خرج أليوشا الى الشارع يمشى كالمترنح ترنحاً . كان يود لو يبكى مثلها . وأدركته الخادم راكضةً بضع خطوات فقالت له :

ـ نسيت الآنسة أن تودعك هذه الكلمة للسيدة هوخلاكوفا . لقد احتفظت بها الآنسة لك منذ الغداء من أجل أن تنقلها اليها .

تناول أليوشا الظرف الوردى الصغير ، ودسَّه فى جيبه دون أن يوليه انتباها .

١١

أخرى تعرض نفسها للضياع

المسافة بين المدينة والدير لا تزيد كثيرا على فرسخ واحد . كان أليوشا يسير بخطى سريعة على الطريق الخالى فى تلك الساعة . لقد هبط الليل تقريبا ، فأصبح البصر لا يستبين الأشياء واضحة على بعد ثلاثين مترا . وفى منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز تقاطع دروب . فها هو ذا شبح يظهر تحت شجرة مزهرة عند ذلك التقاطع ، فما ان يصل أليوشا الى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجما عليه قائلا له بصوت صارخ مروِّع :

- مالك أو حياتك !

ارتعش أليوشا ارتعاشا قويا ، ثم قال مدهوشا :

- كيف ؟ أهذا أنت يا ميتيا ؟

قال مترى فيدوروفتش وهو يضحك :

- هأهأها ! لم تكن تتوقع هذا ، أليس كذلك ؟ لقد تساءلت أين عساى أستطيع أن أترقبك ؟ قرب منزلها ؟ ثم تذكرت أن هناك ثلاث

طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها؟ وبذلك قد يفوتني أن ألقاك • فقررت أخيرا أن أرابط هنا قائلاً لنفسي انك لا بد أن تمر بهذا المكان ، اذ ليس هناك طريق آخر يؤدي الى الدير • طيب ••• قل لي الحقيقة الآن ، إسحقني كما تُسحق حشرة خبيثة . . ولكن ماذا بك ؟

ـ لا شيء يا أخي •• هو الخوف وحده • آه يا دمتري ، يادمتري! دم أبينا الذي سُفح منذ قليل •• (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكي • كان يود لو يبكي منذ مدة طويلة ، وها هو ذا شيء ينفجر في نفسه في تلك اللحظة) ••• لقد أوشكتَ أن تقتله •• وقد لعنته •• ثم هأنت ذا الآن تمزح •• وتتفكه •• قائلا : مالك أو حياتك ! •

ـ آ •• هذا هو الأمر اذن ؟ لعل فعلتي لم تكن لائقة ؟ يخيَّل الى أن موقفي لا يتفق والظرف القائم ، أليس كذلك ؟

ـ لا •• ليس هذا ما أردت أن أقوله •

ـ لحظةً يا أخي • انظر من حولك • الظلام دامس ، أليس كذلك؟ والغيوم تغطي السماء ، والريح قد هبَّت ، وهي ريح متأوهة حزينة • لقد رابطت هنا ، تحت الشجرة ، لأنتظرك ••• فاذا أنا أقول لنفسي فجأة (هيه •• نعم ••) : « فيم التأجيل يا هذا ؟ ماذا تنتظر ؟ هذه شجرة •• ومعك منديل وعليك قميص •• فلا شيء أسهل من أن تصنع منهما حبلاً بلَّ القميص قليلاً ، ثم تكف عن ازعاج الآخرين ، ولا تدنِّس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ودناءة وجودك ! » ، وفي تلك اللحظة بعينها ، في تلك اللحظة التي خطرت لي فيها هـذه الفكرة ، انما سمعت وقع خطواتك على الطريق ! يا رب ! ومضت في رأسي عندئذ فكرة تشبه أن تكون الهاماً مباغتاً ، قلت لنفسي : « هناك اذن انسان أحبه أنا أيضا • وهذا

هو ذلك الانسان ، هذا هو الانسان الذى أحبه ، هـــذا هو ، انه أخى الصغير الذى أعبده أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، انه الانسان الوحيد الذى أحبه حقا ! »• وشعرت نحوك فى تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أننى وددت لو أرتمى عليك معانقا • غير أن فكرة غبية خطرت فى ذهنى عندئذ • قلت لنفسى : « سأخيفه قليلا لأسلّيه وأضحكه » • لذلك صرخت أقول كغبى : « مالك أو حياتك ! » فاغفر لى هذه المزاحة الحمقاء البلهاء، لقد فعلتها دون تفكير ••• أما عن حالتى النفسية فهى على ما يرام ••• تستطيع أن تصدقنى ! بئست هذه الأفكار كلها على كل حال ! الأحرى أن تقول لى أنت الآن : كيف جرت الأمور هناك ؟ ماذا قالت لك ؟ هيّا اعدمنى ، هيا اسحقنى ، بلا مراعاة ولا مداراة ! هل غضبتْ ؟ هل طاش صوابها ؟

ـ لا •• ليس هذا هو الأمر •• كان هناك شىء آخر يا ميتيا ••• كان هناك .. لقد وجدتهما كلتيهما هناك ...

ـ كلتيهما ؟ من هما ؟

ـ كانت جروشنكا عند كاترين ايفانوفنا ..

جمد دمترى فيدوروفتش دهشةً وذهولا • ثم صرخ يقول :

ـ مستحيل ! لا شك أنك حلمت ! أجروشنكا عندها ؟

قصّ أليوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله الى منزل كاترين ايفانوفنا ، قصّه عليه تفصيـــلاً • دامت روايته نحو عشر دقائق ، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحا وضوحاً تاما ، ومتسقا اتســاقا كاملاً • لكنه استطاع أن يذكر ، بدقة ، الوقائعَ الأساسية التى جرت ، والأقوال الهامة التى تبودلت ، والبوادر الحاسمة التى تمت ، مستعينا

على ايضاحها بمشاعره الخاصة التى وصفها وصفا حياً ، مركّزا فى بعض الأحيان على هذا الأمر أو ذاك من الأمور البارزة .

أصغى أخوه الى حديثه صامتاً وقد جمدت نظرته جمودا مرعبا . وشعر أليوشا ، منذ الكلمات الأولى التى قالها ، أن أخاه قد فهم كل شيء منذ الآن ، وأنه أدرك دلالة الحادث ادراكا صحيحا . كان تعبير وجهه، كلما أوغل أليوشا فى سرد القصة ، يزداد تجهماً وعبوساً ، حتى ليفصح عن معانى التهديد .. فحاجباه يقطبان ، وأسنانه تكز ، وجمود نظرته يتفاقم مزيدا من التفاقم ، ويصبح مخيفا مروّعا .. ولكن ما كان أشد دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذى كان حتى ذلك الحين متوحشا مفترسا مهدّدا ، يتغير على حين فجأة تغيراً عجيبا محيّراً . فقد انفرجت شفتاه بغتةً ، وانفجر يضحك مقهقهاً قهقهة عريضة لا تغالَب ولا تقاوَم، حتى أصبح جسمه يتلوى تلوياً من شدة الضحك ، وظل على هذه الحال مدة طويلة لايستطيع أن يتوقف عن القهقهة ولا يستطيع أن يقول كلمة. ثم صاح يقول بنوع من الحماسة المرضية التى كان يمكن أن تكون وقحة خالعة العذار لولا أنها عفوية منطلقة على سجيتها :

ـ اذن لم تقبّل يدها .. هأهأ .. رفضت أن تقبل يدها وانصرفت بكل بساطة .. هأهأ .. والأخرى زأرت تقول عنها انها نمرة ؟ حقاً انها لنمرة ! وقالت عنها كذلك انها تستحق أن تجلد على رءوس الأشهاد ؟ طبعاً .. أنا أيضا أرى هذا الرأى .. انها تستحق ذلك .. تستحقه منذ زمن طويل .. هأ هأ .. أنا لا أعارض أيها الأخ أن تُنزل فيها هذه العقوبة ، ولكن يجب أن أشفى أولاً . اننى أفهمها هذه الملكة من ملكات الوقاحة ! ان هذه الحركة منها تصوّرها أحسن تصوير ، وتصفها أصدق وصف . ان رفضها تقبيل اليد يعبّر عن حقيقتها ، انه هى بعينها ، هذه البنت الجهنمية ! انها ملكة جميع الأعمال الشيطانية التى يمكن أن تخرج

من جوف جهنم ! انها فى نوعها لا تضارَع ، انها فى نوعها مدهشة ! اذن لقد هربت وعادت الى منزلها .. هأهاً .. سأذهب اليها ، هه ؟ .. يجب أن أراها ! لا تَدنَّى يا أليوشا ! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل عليها ...

قال أليوشا فى حزن :

ـ وكاترين ايفانوفنا ؟

ـ اننى أتصورها هى أيضا ، أراها رؤية كاملة ، أنفذ الى نفسها كما لم أنفذ اليها قبل الآن فى يوم من الأيام ! اكتشفها اكتشاف القارات الأربع أو قل القارات الخمس ! ما هذه الفكرة التى راودتها ! أن تلقى جروشنكا ! ولكن هذه هى ، هذه هى بعينها ، هذه هى كاتنكا التى لم تهيب ، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزمن قصير ، لم تتهيب لرغبتها الكريمة فى انقاذ أبيها ، أن تذهب الى بيت ضابط فظ غليظ غبى، معرَّضة نفسها لأسوأ الأذى وأبشع الاهانة ! ولكن يا ليتلك الكبرياء التى تفيض بها نفسها ، يا لذلك الشمم الذى يملأ جوانب قلبها ، يا لهذا الميل الى المخاطرة والتحدى للقدر والثقة التى لا حدود لها ! قلت ان عمتها أرادت أن تمنعها ؟ هل تعلم أن عمتها هذه لا تقل عنها تشبثاً بالرأى وميلاً الى التسلط ؟ انها أخت جنرالة موسكو ولقد كانت فى الماضى تتخذ أوضاعاً فيها من الأبهة والعظمة أكثر مما فى الأوضاع التى تتخذها جنرالة موسكو من أبهة وعظمة ، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس ، فأقيل من منصبه ، وفقد كل شىء ، حتى أراضيه ، فما لبثت زوجته المتكبرة أن خفضت جناحها ، وغيَّرت لهجتها . اذن لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء جروشنكا ، فرفضت كاتيا أن تتبع نصائحها ؟ « أستطيع أن أتغلب على كل عقبة ، لا شىء يمكن أن يصمد فى وجهى ، يكفى أن أشاء كى أسحر حتى

جروشنكا » . ذلك ما قالته كاترين ايفانوفنا لنفسها ، وآمنت به منذ نبتت الفكرة فى ذهنها ! فمن المذنب فى هذه الحالة ؟ لعلك تظن أنها كانت البادئة فى تقبيل يد جروشنكا ، عن عمد ومكر ، وبعد حساب وتفكير ! أبدا ... لقد كانت صادقة كل الصدق فى تولهها بحبها ، لا بحب جروشنكا الحقيقية ، بل بحب حلمها هى بها ، بحب الوهم الذى قام فى ذهنها هى عنها ... قل لى يا أليوشا : ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت من تلك النساء ؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً ، شامراً ثوب الكاهن الذى ترتديه ، هه ؟ هأهأهأ ...

ـ أخى ! أظن أنك لم تدرك ، بعد ، مدى الاساءة الكبيرة والاهانة الضخمة التى ألحقتها بكاترين ايفانوفنا حين حكيت لجروشنكا قصة زيارتها لك فى ذلك اليوم المشئوم ! لقد صرخت هذه المرأة فى وجهها قائلةً فى غلظة وفظاظة : « ذهبت سراً تبيعين جمالك لشباب ! » . ليس هنالك اهانة أخطر من هذه الاهانة ، ولا مسبة أكبر من هذه المسبة يا أخى !

لقد كان يعذّب أليوشا تعذيبا خاصا تصوره أن أخاه يبدو مغتبطاً لمذلة كاترين ايفانوفنا ، رغم أن هذا التصور كان خاطئا فى أغلب الظن !

ـ آه ...

كذلك تأوه دمترى فيدوروفتش فى تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه اكفهرارا غريبا ، ولطم جبهته بيده .

لقد أدرك دمترى فيدوروفتش ، فى تلك اللحظة فقط ، هذا الجانب من جوانب الموقف ، رغم أن أليوشا لم يفته أن ينقل اليه أثناء سرده لوقائع المشهد الذى حدث ، منذ بضع لحظات ، الأقوال المهينة التى

وجهتها جروشنكا الى كاترين ايفانوفنا ، والصرخة التى أطلقتها كاترين ايفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا « ان أخاك وغد حقير ••• » •

قال دمترى :

ـ من الجائز فعلا أن أكون قد حدثت جروشنكا عن ذلك « اليوم المشئوم » ، على حد تعبير كاتيا ••• صحيح ، لقد حدثتها عن ذلك ••• تذكرت الآن •• وقع هذا أثناء تلك الرحلة الى موكرويه .. كنت ثملاً ••• وكانت الغجريات تغنى ••• ولكننى زويت القصة ضارعاً أمام صورة كاتيا ، وفهمتنى جروشنكا حق الفهم •• فهمتْ كل شىء ••• أتذكر الآن هذا ••• وأخذت تبكى هى نفسها •• شيطان يأخذ النساء ! كان ينبغى لى أن أتنبأ بهذا ••• لقد بكت فى ذلك الحين ، ثم ها هى ذى الآن « تسل خنجراً تطعن به القلب » ! ••• هكذا هنَّ النساء ! •••

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم خفض بصره ، وأخذ يفكر • وقال بعد هنيهة بصوت قاتم حزين :

ـ أنا وغد حقير •• هذا صحيح ... سيان أن أكون قد بكيت وأن لا أكون قد بكيت .. ليس لهذا من قيمة ! ليس ينفى بكائى أننى وغد حقير ! ••• قل لهنَّ هناك اننى أقبل هذا النعت ، اذا كان فى ذلك تعزية لهن • وحسبنا الآن ما قلناه ! وداعا ! فيم المزيد من الثرثرة ؟ وليس هذا بالأمر السخيف •• ستسير أنت فى طريقك ، وأسير أنا فى طريقى •• لك سبيلك ولى سبيلى •• ثم اننى لا أريد أن أراك بعد الآن، اللهم الا أن يكون ذلك فى آخر نهاية ! أستودعك الله يا ألكسى !

صافح دمترى فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة ، ومضى يسير كأنه ينتزع نفسه فجأة من شىء ما ، مضى يسير غاضاً بصره ، دون أن يرفع رأسه • واتجه نحو المدينة بخطى سريعة • أتبعه اليوشا نظرة دون أن يستطيع أن يصدق أن أخاه مضى نهائيا •

ـ لحظة يا ألكسى ! هناك اعتراف أخير •••

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، وقفل راجعا على حين فجأة • وتابع يقول :

ـ هو اعتراف لك وحدك ! انظر الى يا أخى ! أنعم النظر الى ! ان رجساً كريهاً يتهيأ هنا ، هل ترى أين ؟ هنا (قال دمترى كلمة «هنا» وهو يلطم صـــدره بقبضة يده وقد بدا فى وجهه تعبير غريب ، كأن الرجس الذى يشير اليه انما يوجد مدفونا فى هذا المكان بعينه ، مختبئاً فى جيب السترة أو فى كيس معلق بالعنق) • انك تعرفنى الآن : أنا وغد ، وغد أصيل ، وغد مشهود له معترف به ! ألا فلتعلم مع ذلك أنه لا شىء مما فعلته فى الماضى ومما قد أن أفعله فى الحاضر والمســـتقبل ، يمكن أن يعادل فى حقارته الدنيئة الوغدة ما أحمله فى نفسى ، فى هذه اللحظة ، هنا ، فى هذا الموضع ، على صدرى ، من رجس ينضج ويتخمر ويمكننى أن أكبته •• ذلك أننى حر أستطيع أن أحققه وأستطيع ان لا أحققه ، لاحظ هذا ••• ولكن ألا فلتعلم اننى سأحققه ، واننى لن أعدل عنه ! لقد حكيت لك كل شىء منذ بضع ساعات ، حكيت لك كل شىء الا هذا الامر وحده ، لأننى استحييت أن أعترف به ، نعم حتى أنا استحييت أن أعترف به ! ما يزال فى وقتى متسع لأن أتراجع ، واذا أنا توقفت عن الانحدار فى الهوة ، فسأستطيع منذ الغد أن أسترد نصـف سعادتى الضائعة ، على الأقل ••• ولكننى لن أتوقف عن الانحـدار ! سأمضى فى انفاذ خطتى السوداء حتى النهاية ، وأحب أن تكون شاهدا على قرارى الذى اتخذته وأنا فى كمال حريتى وتمام وعيى ! رعب وظلمات ! لن أشرح لك شيئا ، ستعرف كل شىء قريبا • زقاق عفن وامرأة جهنمية! وداعا • لا تصل من أجلى ، لا تدع لى ••• فأنا لا أستحق ذلك •• ثم

ان صلاتك من أجلي ودعاءك لي أمران نافلان لا حاجة بي اليهما ، أؤكد لك هذا . والآن ، انصرف ! ...

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ومضى في هذه المرة نهائيا .
واستأنف أليوشا سيره في الطريق الى الدير . « كيف هذا ؟ ألن أراه بعد اليوم قط ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ » بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة . « دعك من كلامه ! سأذهب اليه غدا ، وسأراه حتما ، سأذهب اليه خصيصا . كيف يمكنه أن يقول كلاما كهذا ؟ » .

دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصنوبر ليذهب الى الصومعة راسا . فتح له الباب ، رغم أن القاعدة هي أن لا يسمح لأحد بالدخول في هذه الساعة المتأخرة . وانقبض صدر أليوشا حين دخل الحجرة . سأل نفسه : « لماذا ؟ لماذا ابتعدت ؟ لماذا أرسلني الى العالم ؟ هنا مكانٌ صمتٍ وقداسة ، أما هناك فيسود الاضطراب وتخيِّم الظلمات ، هناك يتيه الانسانُ ويضل ، ثم يهوى آخر الأمر .. » .

وجد في الحجرة الراهب المبتدىء بورفير ، والراهب الكاهن بائيسى الذى ظل طوال النهار يجىء ساعةً بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيما . كانت حالة الأب زوسيما تتفاقم مزيدا من التفاقم ، كما عرف أليوشا ذلك مروَّعاً مذعوراً . حتى لقد ارتُئى الاستغناء عن الحديث الذى اعتاد الأب زوسيما أن يجريه في المساء بغير انقطاع ولا تخلف مع رهبان الدير . لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء ، بعد القداس ، وقبل راحة الليل ، في حجرة الشيخ ، فكان كل واحد منهم يعترف له جهارا بالخطايا التى ارتكبها أثناء النهار ، وبالخواطر الآثمة التى ساورت ذهنه ، وبالأحلام المحظورة التى رآها ، وبالاغراءات المباغتة التى فاجأته ، وحتى بالمشاجرات الداخلية اذا كان قد حدث شيء من

ذلك • وكان بعضهم يجثون على ركبهم ليعلنوا أخطاءهم • وكان الشيخ يصغى اليهم ، ويفصل فى أمورهم ، ويصالح بينهم ، ويصـــدر أوامره فيهم ، ويعـــرض عليهم كفارات ، ثم يباركهم جميعـا قبل أن يصرفهم فينفضوا عنه • وعلى هذه الطريقة فى الاعتراف انما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ ، قائلين انها تبتذل هذا السر من الأسرار المقدسة ، أعنى الاعتراف الدينى ، وانها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة ؟ وتلك تهمة باطلة فى واقع الأمر • حتى لقـــد حاول بعضـــهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقق الهدف الأخلاقى المنشود ، وانما هو يقود النفس الى الخطيئة والغـواية أيضا • وقالوا فيما قالوا ان عددا كبيرا من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ ، وانهم لا يذهبون اليه الا لأن الآخرين يفعلون ذلك، فهم يخشون أن يُتهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد اذا هم امتنعوا عن الذهاب الى الشيخ كسائر من عداهم • بل لقد حكى فيما حكى أن هناك رهباناً كانوا يتفقون فيما بينهم أحياناً قبل أن يذهبوا الى الاعتراف فى المساء ، على أن يمثلوا أدوارا معينة : « سأقول للشيخ اننى غضبت منك وتهجمت عليك ، فتؤكد أنت ذلك وتثبته » ، حتى يكون هنالك ما نقـوله فنتخلص من هذه المهمة وننتهى من هذه السخرة • وكان أليوشا يعـرف أن ذلك يحدث فعلا فى بعض الأحيان • وكان لا يجهل أيضا أن هنـــاك رهبانا كانوا يستاءون استياء شديدا ويمتعضون امتعاضا قوياً من أن رسائل أقربائهم نفسها ، التى يحملها اليهم حجاج ، انمـــا يستلمها الشيخ أولا فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها • الحق أن الأصـل فى هذا الأسلوب أنه يُتبع برضى الرهبان أنفســـهم ، عن اندفاع روحى ، وخضوع نفسى ، واذعان ارادى ، تحقيقا لأهـــداف السـلامة ، وغايات الخلاص • ومع ذلك كان الرهبان فى الواقع يرضخون لهذا الأمر فى

كثير من الأحيان ، كما برهنت التجربة على ذلك ، رضوخا لا يشتمل على كثير من الصدق ، ويسلّمون به تسليما فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل. على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهبنة كان لا يسوؤهم هـذا الأمر كثيراً ، فهم يرون أن « من دخل الدير نشدانا للخلاص والسلامة بنية صادقة فلا بد أن يجنى فائدة روحية وأخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد او الكفارات المختلفة ، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص ؛ وأن أولئك الذين يشتكون من هذه الأمور ويرون فيها امتحانات لا فائدة منها ولا طائل تحتها ، ليسوا برهبان حقاً ، وما كان ينبغى لهم أن يدخلوا الدير ، لأن المكان الذى خلقوا له انما هو العالم ؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتـوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا فى العالم ولا فى الدير على السـواء ، فلا مجال والحالة هذه للقول بأن هذا الاعتراف اليومى يمكن أن يحضّ على الخطيئة».

أسرّ الأب بائيسى الى أليوشا بعد أن باركه ، أسرّ اليه قائلاً بصوت خافت :

ـ انه ضعيف جدا قد سيطر عليه الوسن فيصعب ايقاظه ؛ والأولى أن لا يوقظ على كل حال . لقـد فتح عينيه خمس دقائق ، ورجانا أن نبلغ الرهبان بركته وأن نطلب منهم أن يصلّوا فى الليل من أجله . وفى نيته أن يتناول القربان المقدس غدا مرة أخـرى . وقد تذكرك يا ألكسى ، وأراد أن يعرف هل ذهبت ، فأجبناه بأنك مضيت الى المدينة، فقال : « لقد باركته من أجل أن يمضى الى المـدينة ، فهناك مكانه الآن لا هنا » . ذلك ما قاله عنك . وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة ، وكان ظاهرا أنه مهتم بمصيرك اهتماما كبيرا . فهل تدرك هذا الشرف الذى تناله من اهتمامه بك هذا الاهتمام ؟ ولكنى أتساءل لماذا أمرك أن تعيش

في العالم زمناً • أتراه تنبأ بشيء عن قدرك ؟ اعلم مع ذلك يا ألكسى أن عليك ، اذا أنت عدت الى العالم ، أن تتصرف فيه بروح الخضوع للقاعدة التى ألزمك بها شيخك ، متحاشيا الأفكار الطائشة والمباهج المبتذلة •••

وخرج الأب بائيسى • فأما أن الشيخ بسبيل الانطفاء ، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه ، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوما آخر أو يومين آخرين • لذلك قرر أليوشا ، بصلابة وحرارة وحماسة ، أن لا يبارح الدير في الغد رغم الوعود التى قطعها على نفسه بالذهاب الى أبيه ، وبالذهاب الى السيدتين هوخلاكوفكا ، الأم وابنتها ، وبالذهاب الى كاترين ايفانوفنا ، وكذلك رغم القرار الذى اتخذه هو نفسه بالذهاب الى أخيه دمترى • فلن يترك الدير ، وانما يظل قرب شيخه حتى موته • وامتلأ قلبه بحب قوى للشيخ ، ولام نفسه لوماً مراً على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسى ، ولو لحظة واحدة ، ذلك الانسان الذى تركه في الدير بين يدى الموت ، والذى يحترمه أكثر مما يحترم أى انسان فى هذا العالم • ودخل أليوشا غرفة نوم الشيخ ، فجثا على ركبتيه ، وسجد امام الشيخ النائم • كان الشيخ يرقد ساجيا بلا حركة ، وكان تنفسه الضعيف جدا يجرى مطردا منتظما ، رغم أنه لا يكاد يدرك • وكان وجهه ساكنا هادئا •

فلما عاد أليوشا الى الغرفة الأخرى ــ وهى الغرفة التى استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحا ــ اضطجع ، دون أن ينضو عنه ملابسه ، وبعد أن خلع حذاءيه وحدهما ، اضطجع على الديوان الصغير الضيق الصلب ، المنجّد بالجلد ، الذى اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة • كان أليوشا يكتفى بأن يضع تحت رأسه وسادة ، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذى كلمه أبوه عنه • وكان يكتفى بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه •

ومع ذلك جثا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام ، ولبث يصلى زمناً طويلا . لم يدعُ الله في صلاته الحارة أن يخلصه من قلقه وأن ينقذه من مخاوفه ، لأن ظمأه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذى عرفه من قبل والذى كان يغزو نفسه دائما بعد تلاوة الآيات التى تمجد الله ... فتلك هي صلاة الليل كلها ... ان الفرح الذى يغمر قلبه في تلك اللحظات كان يكفل له نوماً هادئاً مريحا .

وانه ليصلى فى ذلك المساء اذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الظرف الصغير الوردى الذى أعطته اياه خادم كاترين ايفانوفنا حين أدركه فى الشارع . فاضطرب أليوشا ، ولكنه أكمل صلاته ، حتى اذا فرغ منها ، فض الظرف بعد لحظات من تردد ، ونظر الى ذيل الرسالة فاذا هو يقرأ توقيع « ليزا » ، بنت السيدة هوخلاكوفا ، الصبية الصغيرة التى سخرت منه ذلك السخر كله فى الصباح بحضور الشيخ . وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها اليه :

« ألكسى فيدوروفتش ! أكتب اليك خفيةً ، على غير علم أمى ، وذلك شر ، أنا أعرف ذلك . ولكن أصبح يستحيل علىّ أن أعيش دون أن أبوح لك بما يعتلج فى قلبى ، ودون أن أطلعك على العاطفة التى وُلدت فيه والتى يجب أن يجهلها جميع الناس الآن ، الا نحن الاثنين. ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً الى قوله ؟ يقال ان الورق لا يمكن أن يحمر خجلا وحياء ... ولكننى أؤكد لك أن هذا القول خطأ ، لأن الورق يحمرُ الآن أمامى مثلما أحمرُ أنا ! عزيزى أليوشا ، اننى أحبك ، أحبك منذ طفولتى ، منذ سنى موسكو التى كنت فيها مختلفا عنك الآن اختلافا كبيرا . لقد أحببتك منذ ذلك الحين مدى العمر . اختارك قلبى لأشاطرك الحياة كلها ، ولنختم أيامنا معا فى الشيخوخة ... شريطة أن تترك الدير طبعا ... أما عن السن ، فان

فى وسعنا أن ننتظر المدة التى يقتضيها القانون • والى أن يحين ذلك الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضى شفاء كاملا ، فأستطيع أن أمشى وأن أرقص كما كنت أمشى وأرقص ••• ذلك أمر لا ريب فيه •

« هأنت ذا ترى أننى فكرت فى كل شىء • ومع ذلك هناك نقطة عجزت عن أن أستجمع فيها شتات فكرى : ما عسى أن يكون حكمك علىّ ورأيك فىّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة ؟ أنا صبية « شيطانة » ، أكثر من الضحك عادةً ، حتى لقد أغضبتك فى هذا الصباح • ولكننى أحلف لك أننى صليت منذ قليل أمام أيقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة اليك ؟ واننى لأصلّى حتى هذه الدقيقة ، وأوشك أن أبكى !

« هذا سرّى وضعته بين يديك • وانى لأتساءل كيف سأستطيع أن أنظر اليك غدا حين تجىء ؟ أوه ! ألكسى فيدوروفتش ! ما عسى يحدث اذا أنا لم أملك أن أسيطر على نفسى فاذا أنا الحمقاء أنفجر ضاحكةً مقهقهة حين أراك ، كما حدث لى هذا من قبل ! لسوف تظننى عندئذ فتاة خبيثة ساخرة ، ولن تصدق عندئذ ما عبّرت لك عنه فى رسالتى • لذلك أضرع اليك ، يا صديقى العزيز ، اذا كنت ترحمنى بعض الرحمة وتشفق علىّ بعض الشفقة ، أن لا تنظر الى عينىّ كثيرا حين تجىء الينا غداً ؟ ذلك أننى قد يتملكنى ضحك لا سبيل الى مغالبته متى التقى نظرى بنظرك ، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل الذى ترتديه ! ••• حتى فى هذه اللحظة ، أشعر برعدة تسرى فى جسمى حين أتصور أن من الممكن أن يحدث شىء من ذلك • أستحلفك أن لا تنظر الىّ البتة ، خلال مدة من الوقت ، حين تجىء الينا غدا ، وانما تلتفت بنظرك نحو أمى أو نحو النافذة •

« هأناذا كتبت اليك رسالة حب • رباه ، ما هذا الذى فعلته ؟ آه

يا أليوشا ، لا تحتقرنى ! اذا كان ما أفعله شرا كبيرا واذا كنت أحدث لك ضيقا وألماً فاغفر لى ! واعلم على كل حال أن سرى الذى قد يضيّع سمعتى ـ ربما الى الأبد ـ هو الآن بين يديك .

« سأبكى فى هذا اليوم حتماً . والى اللقاء ، بانتظار المقابلة «المرعبة» فى الغد .

« ليزا »
حاشية : أليوشا ، يجب أن تأتى قطعاً ، قطعاً ، قطعاً !
« ليزا »

قرأ أليوشا الرسالة مدهوشا ، وأعاد قراءتها مرتين ، ثم فكّر قليلا، فاذا هو يضحك فجأة بغير صوت ، شاعراً بسعادة ، ثم اذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصور أن هذا الضحك قد يكون اثماً . ولكنه عاد يضحك ضحكا هادئا بعد لحظة ، وقد غمرته تلك الهناءة الهادئة نفسها . وطوى الرسالة ببطء ، وأعادها الى الظرف ، ورسم على نفسه اشارة الصليب ، ورقد ... زال من نفسه كل اضطراب بما يشبه السحر . « اللهم اشملهم برحمتك ، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم فى هذا النهار ، لأنهم أشقياء ، لأن العاصفة تهمهم فى نفوسهم . اللهم احرسهم وسدّد خطاهم ! أنت سيد المصائر ، وان لك طرقاً لا نعرفها : فانقذهم يا رب بطرقك . ارسل اليهم السعادة ، لأنك أنت المحبة . » .

بهذا تمتم أليوشا وهو يرسم اشارة الصليب ، ثم نام نوماً هادئاً .

الجزء الثاني

الباب السابع: التمزقات

١

الأب تيرابونت

استيقظ أليوشا فى ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباح • وكان الشيخ قد صحا فلا يستطيع النوم ، وكان يشعر بوهن شديد وضعف هائل ، ولكنه أصرّ مع ذلك على أن يبارح سريره وأن يجلس على مقعد • انه كامل الوعى ، وان وجهه يبدو مضيئا حتى لكأنه فرح ، رغم آثار التعب الشديد الظاهرة فيه • وان نظرته مرحة باشة هاشة مشجعة •

قال الشيخ لأليوشا :

ـ قد لا أعيش الى آخر هذا اليوم •

ثم أعرب عن رغبته فى أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس • وكان الأب بائيسى هو الذى يقوم له بدور الكاهن فى اعترافه • فبعد أن أتم الشيخ التناول بنوعيه ، استعد للقيام « بالمسحة الأخيرة » • فاجتمع الرهبان الكهنة فى حجرته التى أخذت تمتلىء بالنساك شيئاً بعد شىء • وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون فى الدير يتوافدون هم أيضا • وبعد القداس أظهر الشيخ نيته فى توديع الجميع ، فأخذ يقبل كل واحد • واذ كانت الحجرة ضيقة فقد كان الواصلون الأول يخلون المكان للواصلين بعدهم • ولبث أليوشا الى جانب الشيخ زوسيما

الذى كان قد جلس على مقعده • فكان الشيخ يتكلم ويعلم بقدر ما كانت تسمح له قواه ، وكان صوته ، رغم ما أصابه من ضعف شديد ، ما يزال قاطع اللهجة صارم النبرة •

ـ انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين • انقضت سنين كثيرة وأنا أتكلم اذن بصوت عال ! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث اليكم ، أيها الآباء والاخوة الاعزة ، أننى أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الامر ولو أردت ، وأن الكلام أصبح أسهل علىّ من الصمت فى هذه اللحظة رغم ضعفى (كذلك قال مازحاً ، وهو يُجيل على الرهبان والزوار الذين يزدحمون حوله نظرة ودوداً حنونا) •

تذكر اليوشا فيما بعد بعض الأفكار التى عبر عنها الشيخ فى ذلك اليوم • ورغم ان الشيخ قد تكلم كلاما واضحا متميزا ، ورغم أن صوته ظل صلبا صلابة كافية ، فان أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير • لقد عالج مسائل كثيرة ، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه ، وأن يفصح مرة أخيرة ، وهو على مقربة من الموت ، عن أعمق خطرات نفسه ، عن تلك الخطرات التى لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها الى الناس نقلا كاملا • وكان لا يفعل ذلك بنية تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعا اليه بظمأ حار الى اشراك الجميع فى الفرحة والحماسة اللتين كانتا تملآن نفسه ، والى نشر حبه فى العالم مرة أخيرة •••

كان الشيخ يعلّم قائلا :

ـ أحبوا بعضكم بعضا • أحبوا جميع أبناء الرب • لا تظنوا أنكم أقدس من العلمانيين لأنكم اخترتم أن تعيشوا فى الدير ، ولأنكم مسجونون داخل جدرانه • بالعكس : ان كل واحد من الذين جاءوا الى

هنا قد أحس واعترف هو نفسه ، من مجرد اعتكافه في الدير ، بأنه كان شراً من الانسان العادي وأسوأ من جميع أولئك الذين بقوا في الجهة الأخرى من الحاجز ... هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يتشربها تشربا ما ينفك يزداد عمقا كلما طالت حياته في الدير . فلولا أن الامر كان كذلك ، لما كان ثمة أي سبب يبعث على الالتجاء الى الدير والاعتصام به . يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من العلمانيين فحسب ، بل أنه كذلك مذنب في حق جميع البشر الآخرين ، مسئول عن كل الشر الذي يقع على الأرض بفعل الأفراد أو بفعل الجماعات . فبهذا الشرط وحده انما يتحقق الهدف من اعتزالنا في الدير . اعلموا أيها الاخوة الأعزة أن كلا منا يتحمل مسئولية مظالم هذا العالم لا بسبب الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها ، فهذه المسئولية ليست مسئولية جزئية، بل هي مسئولية تامة كاملة ، مسئولية عن جميع ذنوب المجتمع وعن جميع أخطاء أفراده . ان الشعور بهذه الحقيقة هو الذي يتوج الحياة الرهبانية، كما يتوّج من جهة أخرى حياة كل انسان أياً كان . ذلك أن الرهبان لا يختلفون عن سائر البشر ، كل ما هنالك أنهم يحاولون أن يصيروا الى ما ينبغي لكل الناس أن يصيروا اليه . فاذا تحقق هذا الهدف انفتحت قلوبنا أخيرا للحب اللانهائي ، الشامل ، الذي لا يعرف الحدود ولا يرتوي ظمؤه قط . وعندئذ سوف يجد كل منكم في نفسه القدرة على غزو العالم كله بالحب ، وعلى أن يكفّر بدموعه عن خطايا الأرض ... ألا فلتصغوا جميعا الى صوت قلوبكم ، ألا فلتعترفوا جميعا بأخطائكم لأنفسكم في غير مهادنة . لا تخشوا خطاياكم وان تكن واضحة لأبصاركم ، شريطة أن تندموا على ارتكابها وأن تتوبوا عنها ! ولكن اياكم و « التسويات » مع الرب ، وحاذروا أن تفرضوا عليه شروطا ! واياكم والعجب والزهو والصلف ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ! لا تعالوا على

الصغار ، ولا تتعالوا كذلك على الكبار ! لا تكرهوا أولئك الذين ينبذونكم ويصدونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويغتابونكم . ولا تكرهوا الملحدين، الانبياء الكاذبين ، الماديين ، لا تكرهوا حتى اسوا هؤلاء واخبثهم ، ناهيكم عن اخيارهم ، لان بينهم أخيارا ، في عصرنا هذا خاصه . اذكروهم في صلواتكم على النحو التالي : « انقذ جميع الناس يا رب ! انقذ جميع الذين لا يصلى لهم احد ، واولئك الذين لا يريدون ان يصلوا لك ! » . ولكن عليكم ان تبادروا فتضيفوا الى ذلك فـــورا : « اللهم انى لا أسألك هذا زهوا بنفسى ، فانني شر الناس طرا واشقاهم قاطبة » . احبوا أبناء الرب، احبوا الشعب ، لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع . فاذا استسلمتم للكسل ، وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق ، أو اذا انسقتم الى حب الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأنكى) ، فان رجالا من جميع البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم . بشروا بالاناجيل في صفوف الشعب بغير كلال ولا ملال ... اياكم والطمع ، اياكم والتعلق بالذهب او الفضة ... ازهدوا في امتــلاك الذهب والفضة ... آمنـوا بالله ، وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة ، ارفعوها عالية ، عالية ...

كان الشيخ يقول كلاما فيه من التقطع والتفكك أكثر مما يظهــر منهما هنا فيما دونه بعد ذلك آليوشا . كان يتوقف عن الكلام من حين الى حين ، كأنما ليستجمع قواه ، وكان يلهث لهاثا واضحا ، ولكنه كان يشعر بنوع من الحماسة . وكان الحشد يصغى اليه في حميا وخشوع، رغم أن أقواله بدت غريبة لبعضهم ، غامضة لبعضهم الآخر ... وقـد تذكر المستمعون هذه المعاني التي عبر عنها الشيخ ، تذكروها فيما بعد .

وقد تغيب أليوشا عن الحجرة لحظات ، فما كان أشد دهشته حين عاد فلاحظ اضطرابا شديدا قد استولى على جميع من كانوا في الحجرة ومن كانوا يحتشدون ويزدحمون وراء الباب ! كان جميع الرهبان في

حالة انتظار شديد وتوقع عنيف يمازجه قلق لدى بعضهم ، ويصطبغ بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر • كان يبدو عليهم جميعا أنهم يرتقبون حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فورا • قد تدل هذه الحالة النفسية على شيء من خفة وطيش ، ولكنها غزت قلوب جميع الرهبان ، حتى أكثرهم هدوءا وأشدهم صرامة • وكان وجه الكاهن الراهب بائيسي يعبر عن خطورة خاصة •

لقد غاب اليوشا عن الحجرة لحظة لان راكيتين الذى عاد من المدينة حاملا اليه من السيدة هوخلاكوفا رساله غريبه بعض الغرابه ، قد أرسل اليه احد الرهبان يستدعيه خفية • ان هذه الرساله تبلغ اليوشا حادثا غريبا جاء وقوعه الان فى أنسب وقت • يتذكر القارىء أن بين نساء الشعب المؤمنات اللواتى جئن امس الى الشيخ ليحيينه وليتلقين بركته كانت هنالك امراة عجوز قصيرة من بلدتنا اسمها بروخوروفنا وهى أرملة صف ضابط • ان هذه المراة قد سالت الشيخ هل فى وسعها ان تطلب اقامة صلوات فى الكنيسة على روح ابنها فاسيا الذى سافر بمهمة الى منطقة نائية من سيبريا تقع فى جهة ايركوتسك ، ثم لم تصلها أنباؤه منذ سنة، سألت هل فى وسعها أن تطلب اقامة صلوات على روحه كما لو كان قد مات ؟ ويتذكر القارىء أن الشيخ قد نهاها عن هذا نهياً قاسياً ، ووصف اللجوء الى مثل هذه الأسباب بأنه شعوذة وسحر • ولكنه غفر لها بعد ذلك بسبب جهلها ، وختم كلامه لها من باب المواساة قائلا لها « كأنه قد وُهبت له القدرة على القراءة فى كتاب المستقبل » (هذه هى العبارة التى استعملتها السيدة هوخلاكوفا فى رسالتها) ، قائلا لها ان ابنها فاسيا مايزال على قيد الحياة حتما ، وانه عائد اليها قريبا ، أو انه سيكتب اليها على كل حال ، وان عليها أن ترجع الى بيتها مطمئنة تنتظر أوبته • « فما الذى حدث ؟ » (هذا ما جاء فى رسالة السيدة هوخلاكوفا) « حدث أن النبوءة

قد تحققت كاملة ، بل أكثر من ذلك ! » . فان المرأة العجوز ما ان رجعت أمس الى مسكنها حتى أُعطيت رسالة وصلت من سيبريا أثناء غيبتها ، وفي هذه الرسالة التي كتبها اليها فاسيا في طريق عودته ، من ايكاتيرنبورج*، يبلغ الولد أمه أنه عائد الى روسيا بصحبة موظف ، وأنه « يأمل أن يستطيع تقبيل أمه » بعد ثلاثة أسابيع في أكثر تقدير .

ان السيدة هوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحه ان ينقل الى علم كبير الرهبان وسائر أهل الدير نبأ هذه « المعجزة الجديدة من معجزات النبوءة » ، وتقول له هاتفة في ختام رسالتها : « يجب أن يعلم جميعهم هذا النبأ ، يجب أن يعلمه جميعهم حتما ... » . وكان واضحا أنها قد كتبت هذه الاسطر متعجلة تعجلا شديدا ، وكان واضحا أن كل كلمة من كلماتها تزخر بانفعال قوى وتأثر عميق . غير أن أليوشا لم يحتج الى ابلاغ الرهبان النبأ ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه ، لأن راكيتين ، حين كلف أحد الرهبان باستدعاء اليوشا اليه ، قد رجاه في هذه المناسبة نفسها أن « يبلغ الأب المحترم بائيسى ، بكثير من الاحترام ، أنه يود لو يراه حالا ليكلمه في أمر هام جدا يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه في غير ابطاء ، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة ، آملاً في كثير من المذلة والتواضع أن تُغتفر له هذه الجرأة» . ولما كان الراهب قد نقل هذه الرسالة الى الأب بائيسى قبل أن يستدعى أليوشا ، فانه لم يبق على أليوشا بعد عودته الى الحجرة الا أن يقرأ الرسالة وأن يُظهر عليها الأب بائيسى من باب الأدب وتقيداً بالشكل . أخذ هذا الرجل الصارم الريّاب يقرأ الرسالة مقطبا حاجبيه ، فلم يملك هو أيضا حين اطلع على رواية هذه المعجزة أن يمسك عن اظهار بعض العواطف التى هزت نفسه ، فاذا نظرته تسطع ، واذا شفتاه تلينان قليلا ، واذا فمه يبتسم

ابتسامة رزينة عميقة ، واذا لسانه تُفلت منه هذه العبارة على غير ارادة منه :

ـ سنرى معجزات أخرى كثيرة •

فردد الرهبان الذين كانوا يحيطون به ، ردّدوا يقولون :

ـ سنرى معجزات أخرى كثيرة •

ولكن الأب بائيسى قطب حاجبيه من جديد ، ورجاهم أن يمتنعوا ، الآن على الأقل ، عن التعليق على هذا الحادث جهارا ، وأن لا ينقلوه الى أحد قبل الأوان :

ـ يحسن أن ننتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد اقناعا، لأن العلمانيين كثيرا ما يظهرون خفة وطيشا في هذه الأمور •

ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدىء ضميره :

ـ ثم ان الحوادث ، فى هـــذه الحالة التى أمامنا ، قـد يمكن أن تُفسَّر كذلك تفسيرا لا شأن له بما هو فوق الطبيعة •••

قال الأب بائيسى ذلك ، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من حماسته شيئاً ، وذلك ما أدركه الحضور ادراكا قويا واضحا •

وسرعان ما انتقل نبأ « المعجزة » من فمٍ الى فم ، فما هى الا برهه قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير ، وحتى عـــرفه كذلك كثير من الزائرين الذين جاءوا الى الدير لحضور الطقوس • وكان أشـــد الناس انبهارا فى الظاهر انما هو راهب « سان سيلفستر » ذاك القصـــير الذى وصل أمس من دير أوبدورسك بشمال سيبريا • كان بالأمس قد انتظر الشيخ واقفا الى جانب السيدة هوخلاكوفا ، فبعد أن حيّا الشيخ سأله ،

بمناسبة « شفاء » ابنة تلك السيدة ، « ما هى القوة التى تتيح له تحقيق مثل هذه الأمور ؟ » •

فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة وتشوش كبير، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن • ذلك انه فى مساء أمس قد زار واحدا من رهبان الدير هو الاب تيرابونت ، فى الحجرة الخاصة التى يسكنها وراء خلايا النحل ، وقد تأثر تأثرا عميقا بالحديث الذى جرى بينه وبينه ، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب ، وساوره منه جزع• والاب تيرابونت انما هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوى الذى اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام ، والذى كان يعدُّ ، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل ، خصما للشيخ زوسيما ، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة ، ويرى فيه بدعةً طائشة ضارة • وانه لخصم خطر جدا رغم أنه لا يكاد يكلم أحدا من الناس ، تقيداً بقاعدة الصمت التى كان يحب أن يلزم بها نفسه • وكان يبدو مخيفا بوجه خاص لأن رهبانا كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة ، ولأن بين الزوار العلمانيين أناساً كانوا يرون فيه رجلا صالحا مقدسا ، رغم تسليمهم بأنه رجل محدود الفكر بسيط العقل • ولكن بساطة العقل هذه هى بعينها عنصر الجاذبية فيه • كان الأب تيرابونت لا يذهب الى الشيخ زوسيما قط • ورغم أنه عاش فى المنسك ، فما من أحد كان يماحكه كثيرا فى أمر مراعاة القواعد المتبعة فى الدير لأن تصرفه فى هذه النقطة أيضا كان تصرف رجل بسيط العقل • انه فى الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد ، وهو يعيش وراء خلايا النحل ، عند زاوية الجدار ، فى حجرة قديمة جدا مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالاً متداعية منذ الآن ، وقد بنيت هذه الحجرة خلال القرن الماضى فيما يقال ، لراهب آخر اشتهر هو أيضا بكفارات الصيام عن الطعام والكلام : ذلك هو الأب جوناس الذى عمَّر مائة سنة،

وعرف بأعمال قداسة ما يزال الناس في الدير وفي المنطقــة المجاورة يذكرون عنها تفاصيل شائقة . وقد اســتطاع الأب تيرابونت أن يظفر أخيرا ، منذ سبع سنين ، بسكنى هذه الحجرة المنزوية التي تكاد تكون خربة بسيطة والتي فيها شبه غامض بمعبد، لكثرة عدد أيقونات النذور التي تملؤها ولكثرة عدد مصابيح النذور أيضا التي تشتعل فيها أمام الصور المقدسة بغير انقطاع . وقد كُلِّف الأب تيرابونت نوعا من التكليف بأن يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة وأشعالها . وكان طعامه ، كما يقـال (وهذا صحيح) لا يزيد على كيلو واحد من الخبز في أكثر تقـدير يحمله اليه كل ثلاثة أيام ، الراهبُ الذي يتعهد خـلايا النحل ويسكن غيرَ بعيد عن ذلك المكان أيضا . فكان الأب تيرابونت ، حتى مع هـذا الراهب الذي يخدمه ، لا يتحدث الا نادرا جدا . وهو لا يأكل طوال الأسبوع ، الا هذين الكيلوين من الخبز ، اضافةً الى لقم القربان المقدس التي كان كبير الرهبان يرسلها الى هذا الراهب الناسك بعد الصلاة الثانية. وكانت جرة الماء التي يشرب منها تُملأ له كل يوم . وكان الأب تيرابونت لا يكاد يحضر القداس أبدا . وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيرا ما كان يقضي أياما بكاملها في الصلاة جاثيا على ركبتيه طول الوقت لاينظر حوله يمنة ولا يسرة . فاذا اتفق له في مناسبة من المناسبات أن يكلمهم، كان كلامه لهم موجزا مقتضبا غريبا ، حتى ليكاد يكون فظاً غليظاً في جميع الأحيان . صحيح أنه كان يحدث ، في القليل النـادر ، أن يندفع في مناقشات أطول ، ولكنه كان في أكثر الأحيان يكتفي باطلاق جملة عجيبة يكون وقعها في نفس زائره وقع لغز محيِّر ، ثم يرفض أن يعقِّب عليها بأي شرح رغم جميع التوسلات . ولم يكن الأب تيرابونت في رتبـة كاهن ، وانما ظل راهبا بسيطا . وقد راجت عنه في بعض الأوسـاط ، وهي الأوساط الجاهلة التي تؤمن بالخرافات والحق يقال ، راجت عنـه

شائعة غريبة مفادها أن الأب تيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية ، فهو لا يتحدث الا مع تلك الأرواح ، وهو لهذا السبب يكره أن يكون على صلة بالبشر الفانين •

استطاع راهب أوبدورسك القصير أن يهتدى الى الطريق المفضى الى حجرة الأب تيرابونت ، متبعا اشارات الراهب الذى يتعهد خلايا النحل ، وهو راهب صموت متجهم أيضا ، فاتجه نحو ركن الحائط الذى توجد عنده حجرة الناسك • وقد قال له الراهب الذى يتعهد خلايا النحل :

ـ ربما رضى أن يخاطبك ببضع كلمات ، لأنك راهب حاج ، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تنتزع منه كلمة واحدة •

اقترب الراهب الحاج من حجرة الناسك وهو يشعر برعب شديد، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد • وكان ذلك فى ساعة متأخرة • ان الأب تيرابونت جالس فى هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جدا وفوقه يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة ، والهواء قد أنعشته طراوة المساء •

سجد راهب أوبدورسك أمام الناسك المقدس ، وطلب اليه أن يباركه • فقال له الأب تيرابونت :

ـ أتراك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضا على الارض أمامك؟ هيا انهض •

نهض الراهب الصغير •

ـ ألا فلتحل عليك البركة • اجلس بجانبى • من أين أنت ؟

دُهش راهب أوبدورسك خاصة من أن الأب تيرابونت ، رغم أنه

طاعن فى السن ، ورغم الصيام القاسى الذى يفرضه على نفسه ، ما يزال صحيح البنية قوى الجسم ، وهو فارع الطول منتصب القامة ، له وجه نحيل لكنه نضر سليم • ان المرء يشعر أنه ما يزال محتفظا بقوة بدنية عظيمة • ولقد كانت بنيته بنية رجل رياضى على كل حال • ثم انه على تقدمه فى العمر لم يشب تماما ، وما يزال شعر رأسه ولحيته ، الذى كان فى الماضى فاحم السواد ، ما يزال غزيرا كثيفا • وعيناه الشهباوان كبيرتان ساطعتان ، ولكنهما جاحظتان كثيرا ، وتلك سمةٌ تخطف البصر رأساً • وهو يتكلم مشددا حرف « الواو » تشديداً قويا • أما لباسه فعباءة طويلة حمراء من ذلك القماش الذى كان يسمى فى الماضى « جوخ السجناء »، مع حبل طويل يتخذه حزاما • والعنق والصدر عاريان • وتحت الثوب يُرى قميص من نسيج مبتذل يكاد يبدو أسود اللون لأن الاب تيرابونت لا يبدله خلال شهور • وكان يقال انه يثقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً • وقدماه بلا جوربين ، وانما هو ينتعل حذاءين عتيقين قد تشوه شكلهما كل التشوه •

ـ أنا آتٍ من دير سان سيلفستر الصغير فى أوبدورسك •

كذلك قال الزائر مجيبا بلهجة ذليلة وهو ينظر الى الناسك بعينيه الصغيرتين الحادتين الغريبتين اللتين ما تزالان مروَّعتين قليلا •

ـ أنا أعرف صاحبك سان سيلفستر • لقد عشت عنده زمنا • كيف حاله ؟ كيف صحته ؟

اضطرب الراهب الصغير •

ـ يا لكم من رجال حمقى مجانين ! كيف تصومون هناك ؟

ـ طعامنا تحكمه القاعدة الرهبانية القديمة : ففى أثناء الصيام الكبير لا نطعم شيئا فى أيام الاثنين والأربعاء والجمعة • وفى أيام الثلاثاء

والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة أو عسلاً ، وتوتاً برياً أو كرنباً مملحاً ، مع شيء من طحين الشوفان مخلوط بالماء • وفي أيام السبت نأكل كرنباً أبيض وشعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً ، وذلك كله مطبوخ بالزيت • ويضاف الى الكرنب شيء من سمك مقدد وبرغل عادى في أيام الأحد • أما في الأسبوع المقدس فلا نأكل ، من صباح الاثنين الى مساء السبت ، أى خلال ستة أيام ، الا خبزا وماء وخضارا نيئة ـ وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال • ذلك أنه اذا كان مباحا لنا أن نأكل في ذلك الأوان ، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع ، ولا أن نفعله كل يوم • ففي يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوما كاملا ، وفي يوم السبت من هذا الاسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة ، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نحتسى قدحا واحدا من النبيذ ؛ وفي يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم الينا طعام مطبوخ بغير زيت ، وشيء من نبيذ ، وبعض المآكل الناشفة • ذلك أن مجمع الأساقفة الذى انعقد في لاوديسه قد أقر النظام التالى في أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس : « لا يحسن قطع الصيام في خميس آخر الأسبوع ، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله » • ذلك هو صيامنا • وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكورا بالقياس الى القاعدة التى فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذى بدا أنه استرد شيئا من رباطة جأشه) ، لأنك لا تتغذى الا بخبز وماء طوال السنة ، حتى في يوم الفصح ، ولأن مقدار الخبز الذى نأكله في يومين يكفيك أنت أسبوعا كاملا • فمن واجب المرء أن يعجب أشد الاعجاب حقا بمثل هذا التقشف العظيم •

سأله الاب تيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة في نطق بعض الأحرف ولا سيما حرف « الجيم » :



الأب تيرابونت

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ وفطر الغابات ؟

فكرر الراهب الصغير يقول دهشاً :

ـ فطر الغابات ؟

ـ طبعا ! أنا أستطيع أن أستغنى عن خبزهم ، فما بى اليه حاجة قط : أذهب الى الغابة اذا لزم ذلك ، فأتغذى فيها بالفطر والثمار • ولا كذلك الرهبان هنا ، فانهم لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز ، فهم مشدودون الى الشيطان ، مرتبطون به • ان فى زماننا هذا كفرة كريهين يؤكدون أن الصيام لا حاجة اليه ولا ضرورة له • فتفكيرهم مشبع بالزهو والصلف والكبر قد تسللت اليه روح الشيطان وسكنته •

قال الراهب الصغير متنهدا :

ـ ما أصدق هذا الكلام !

ـ هل رأيت الجن حين كنت عندهم ؟

ـ عندهم ؟ عند من ؟

كذلك سأل الراهب الصغير على خجل ووجل واستحياء •

قال الاب تيرابونت :

ـ زرت كبير الرهبان فى عيد الخمسين من السنة الماضية ، ولكننى لم أعد اليه منذ ذلك الحين • لقد رأيت عندهم جناً ! رأيت جناً يتسلقون صدور الرهبان ، ورأيت جناً يختبئون تحت أثوابهم فما تظهر منهم الا قرونهم • حتى لقد رأيت واحدا من هؤلاء الجن يقبع فى جيب من الجيوب ، فما يظهر منه الا رأسه ، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين• كان خائفا منى فيما يبدو • وبعض الرهبان يؤوون جناً فى بطونهم بين

أحشائهم النجسة • وبعضهم يحملونهم على رؤوسهم حول الأعناق يتشبث بها الجن دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم •

سأله الراهب الصغير :

ـ وهل ••• وُهبت لك القدرة على رؤيتهم ؟

ـ قلت لك اننى أراهم • ان نظـــرتى تخترقهم اختراقاً • حين خرجت من عند كبير الرهبان ، فاجأت واحـــدا منهم حاول أن يختبىء وراء الباب حين لمحنى • كان هذا طويل القامة ، يبلغ طوله مترا • وكان له ذيل ضخم أشقر ، طويل جدا ، قد انحشر فى شق الباب فى تلك اللحظة • ولم أكن غبياً فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله ، فأطلق من صدره أنينا حادا ، فبينما كان يتخبط رسمت عليـــه اشارة الصليب ثلاث مرات ، فاذا هو يفطس كما يفطس عنكبوت ديس بالقدم ، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب ، فصار الهواء هنالك موبوءا ، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئا ولا يشمون شيئا ! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها الى ذلك المكان • انى أسرّ اليك وحدك بهذا الامر ، لأنك غريب عن هذا الدير •

هتف الراهب الصغير يقول :

ـ رهيب ما تقوله !

ثم أضاف وقد ازدادت جرأته شيئا بعد شيء :

ـ وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجّل ، هل صحيحة تلك الشائعة المجيدة التى راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية ، وهى أنك على صلة مستمرة بالروح القدس ؟

ـ الروح القدس يأتى فيقف هنا أحيانا • ذلك يحدث •

ـ يقف هنا ؟ فى أية صورة ؟

ـ فى صورة طائر •

ـ الروح القدس يظهر لك فى صورة حمامة ؟

ـ يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين روح القداسة • فأما روح القداسة فيمكن أن تتجلى فى صور شتى ، فتارة تظهر فى صورة سنونو ، وتارة تظهر فى صورة حسُّون أو فى صورة قرقب أيضا •

ـ فكيف تميزها عن قرقب عادى ؟

ـ أعرفها لأنها تتكلم •

ـ كيف هذا ؟ بأى لغة ؟

ـ بلغة الانسان •

ـ ماذا تقول لك ؟

ـ يختلف ما تقوله لى باختلاف الأحوال • ففى هذا الصباح مثلاً أبلغتنى أن زائراً غبيا سيزورنى وسيزعجنى بأسئلة حمقاء • هل تعرف أيها الراهب أنك تسرف فى الاستطلاع ؟

ـ أيها الاب المحترم جدا ، المقدس جدا ، ان هذا الذى تعلمنى اياه يطيش اللب ويذهب بالصواب !

كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرّك رأسه • على أن شيئا يسيرا من عدم التصديق قد ظهر فى عينيه اللتين عاد اليهما الروع والخوف •

سأله الاب تيرابونت بعد صمت قائلا :

ـ هل ترى هذه الشجرة ؟

ـ أراها يا أبى المحترم •

ـ لا شك أنك تظنها شجرة دردار . أما أنا فأرى فيها شيئا آخر .

وانتظر الراهب الصغير بضع لحظات يرتقب أن يقول له الاب تيرابونت ماذا يرى فيها ، فلما لم يفعل الاب تيرابونت ذلك ، قرر أن يسأله ، فقال :

ـ فماذا ترى فيها ؟

ـ يحدث لى هذا فى الظلام . هل ترى هذين الغصنين ؟ ان المسيح يظهر لى فى هذا الموضع حين يخيِّم الليل ، فيمد الىَّ ذراعيه ويبحث عنى . اننى أراه رؤية واضحة جلية ، فأرتعش عندئذ خوفا . ذلك شىء يبث الذعر فى النفس ، هل تعلم ؟

ـ لماذا الخوف ما دام هو المسيح ؟

ـ قد يقبض على ويرفعنى الى السماء .

ـ حياً ؟

ـ ألم تسمع اذن عن مار الياس ومجده ؟ سوف يحيطنى المسيح بذراعيه ويأخذنى ...

رغم أن راهب أوبدورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث الى الحجرة التى عُيِّنت له والتى كان عليه أن يشارك فيها أحدَ رهبان الدير مدة اقامته ، فقد كان فى قرارة قلبه يشعر بأن الاب تيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيرا مما اجتذبه الشيخ زوسيما . ان هذا الراهب الصغير ، وهو من الأنصار المتحمسين للصيام الذى يحترمه أكثر مما يحترم سائر شعائر الرهبانية ، قد اعتقد أن صائما يملك من القوة ما يملكه الاب تيرابونت يمكن حقا أن يكون قد أوتى موهبة « رؤية المعجزة » . صحيح أن الأقوال التى قالها الأب

تيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك ، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة . ثم ان جميع البسطاء ، جميع «اليورودينويس» المأخوذين بالمسيح انما يعبرون عن أنفسهم بهذه اللغة، ويقولون كلاما أدعى الى الاستغراب أو يفعلون أفعالا أبعث على الدهشة. أما قصة الجنى الذى حشر ذيله الضخم فى شق الباب وسُحق ، فان الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها ، لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى ، وكان يشعر أنه مستعد لتصديقها بكل نفسه ، وبفرح أيضا . ثم انه ، عدا ذلك ، كانت تراوده ، حتى قبل وصوله الى الدير ، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ ، حتى لقد كان يشعر بعداوة لهذا النظام الذى لم يكن يعرفه الا عن طريق السماع على كل حال ، وكان يعده بعد أنظمة كثيرة أخرى بدعة ضارة ضررا صريحا . وكان قد أتيح له أثناء اقامته القصيرة فى الدير أن يسمع دمدمات الاستنكار من بعض الرهبان ذوى العقول السطحية ، الذين كانوا ينتقدون هذا النظام . واذ كان بطبيعته امرءاً طلعة يعرف كيف يتسلل الى كل مكان ، فان النبأ الباهر الخارق عن آخر « معجزة » حققها الأب زوسيما قد هزّ نفسه هزاً قوياً وبث فيها اضطرابا شديدا وحيرة قصوى . وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح ، عدة مرات ، فى زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو فى جوار الحجرة ، أنه لمح هذا الراهب الصغير ينتقل من جماعة الى جماعة ، يصغى الى كل شىء ويسأل كل واحد . ولكن أليوشا لم يهتم بذلك فى حينه ، وانما تذكره فيما بعد ... وهل كان يمكن الالتفات الى ذلك الراهب الصغير فى ذلك اليوم ؟

كان الأب زوسيما الذى خارت قواه من جديد ، قد انتقل الى سريره ، فلما أغمض عينيه تذكر أليوشا فجأة ، فطلب احضاره ، فهرع اليه أليوشا فورا . ولم يكن الى جانب الشيخ عندئذ الا الأب بائيسى ،

والراهب الكاهن جوزيف والراهب المبتدىء بروفير • فتح الشيخ عينيه المتعبتين بكثير من العناء ، وحدق الى أليوشا ، ثم بادر يقول له :

ـ هل ينتظرك ذووك يا بنى المحبوب ؟

فاضطرب أليوشا •

وعاد الشيخ يسأله :

ـ أليسوا فى حاجة الى حضورك ؟ هل وعدت أحدا بالعودة اليه اليوم ؟

ـ وعدت أبى ••• وأخوىّ ••• وآخرين أيضا •

ـ ذلك ما قدّرته • فاذهب اليهم حتماً • ولا تحزن • اعلم اننى لن أموت قبل أن أنطق آخر كلماتى على هذه الأرض بحضورك • اليك سأوجه آخر أقوالى يا بنى المحبوب ، اليك سأعهد بها ••• اليك أنت يا بنى لأنك تحبنى . امض الآن الى من ينتظرونك .

سارع أليوشا يطيع أمر الشيخ ، رغم أنه قد شق على نفسه أن ينصرف فى هذه اللحظة • ولكن الوعد الذى قطعه له الشيخ ، وهو أن يُسمعه آخر كلماته على هذه الأرض ، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه سيوجه هذه الكلمات اليه هو ، وأنه سيعهد بها اليه على أنها وصيته الروحية ، قد ملأ نفس أليوشا نشوةً وسكراً • لذلك أغذّ خطاه حتى يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه فى المدينة وأن يعود الى الدير بأقصى سرعة • وقد تحدث الأب بائيسى هو أيضا الى أليوشا عند انصرافه؛ وما قاله له الأب بائيسى عندئذ ليسدد خطاه فى طريقه ، قد أحدث فى نفسه أثراً عميقا لم يكن فى الحسبان • لقد قال له الأب بائيسى :

ـ تذكر أيها الفتى (بهذا انما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أى

تمهيد) ، تذكر أن المعرفة العلمانية التى نمت نمواً كبيراً وأصبح لها سلطان عظيم ، قد هجمت ، فى خلال هـذا القرن خاصة ، على كل ما تركته لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية • فعلماء هذا العالم ، بعد أن قاموا بنقد حاقد لا يشفى غليله ، لم يحتفظوا بشىء ، لم يحتفظوا بشىء البتة مما كان يُعدُّ مقدساً فى القرون الماضية • لقد حللوا بكثير من التدقيق والامعان كل جزء من أجزاء التعليم الدينى على حدة ، ولكن فاتهم ادراك الدين فى مجموعه ، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقا • ذلك أن «الحقيقة» انما هى فى «المجمـوع» ، فلن يستطيعوا أن ينالوا منها ، ولن يستطيعوا أن يمسوها بسوء ، وستظل باقية ثابتة خالدة كما كانت من قبل ، لا تقـدر أبواب الجحيم أن تتقيأ شيئاً يؤذيها ، ولا تتمكن قوى الشر أن تغلبها وأن تنتصر عليها • ألم تعش هذه الحقيقة تسعة عشر قرنا ؟ ألا تزال تعيش اليوم فى أشواق جماهير الناس ؟ ألا انها لباقية ، هذه الحقيقة ، حتى فى قلب أولئك الملحدين الذين أرادوا أن يدمّروها • ذلك أن هـؤلاء أنفسهم الذين جحدوا المسيح وعصوه وتمردوا عليه ما يزالون يحتفظـون بصورته حيةً فى أنفسهم ، كما كانت فى الماضى ، شاءوا أم أبوا • ذلك أنه استحال عليهم فى الواقع ، رغم الرغبة القوية التى اضطرمت فى نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها عقلهم ، استحال عليهم أن يتصوروا مثلا أعلى ، أسمى وأجدر باعجاب الانسان من المثل الأعلى الذى قدمه الينا المسيح فى الزمان القديم • ان جميع المحاولات التى من هذا النوع لم تؤدِّ الى غير الحطة والغلطة • فاحفظ هذا جيدا أيها الفتى ما دام شيخك المحتضر قد أرسلك الى العالم • فلعلك حين تتذكر فى المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضا فى هذه الكلمات التى قلتها لك صـادرة من أعمـاق قلبى لتضىء لك طريقك • ذلك لأنك شاب ، ولأن مغريات العالم قوية ذات سلطان ، ولن

تكفيك قواك وحدها للتغلب على هذه المغريات دائما • والآن امض أيها اليتيم •

وبعد أن قال الأب بائيسى هـذا الكلام بارك أليوشا • وقد أدرك أليوشا فجأة ، وهو يبتعد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التى لم يكن يتوقعها ، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذى كان الى ذلك الحين صارماً تلك الصرامة كلها قاسياً تلك القسوة كلها فى معاملته ، سيكون له بعد اليوم صديقا جديدا وموجّها روحيا يحمل له أعمق المودة والعطف ـ كأن الأب زوسيما هو الذى عهد اليه بهذه المهمة وهو يحتضر • قال أليوشا يحدث نفسه : « من يدرى ؟ لعلهما قد اتفقا على هذا ! » • ألا تدل هذه الشروح العليمة النقية التى سمعها من فم الأب بائيسى ، وهى شروح أدهشته فى أول الأمر وأثارت استغرابه ، ألا تدل أكثر مما يمكن أن يدل أى حديث آخر ، على أن الأب بائيسى يضمر له عاطفة صادقة حارة ؟ لقد أسرع الأب بائيسى يزوّد عقله بالأسلحة التى تسهل عليه مكافحة مغريات هذا العالم ، وأراد بغير ابطاء أن يحصّن نفسه الفتية المراهقة التى عُهد اليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية •

٢

في منزل الأب

ذهبا أليوشا أولا الى منزل أبيه . فتذكر وهو يقترب من المنزل ان أباه قد ألح عليه كثيرا بالأمس أن يتدبر أمره بحيث يدخل دون أن يراه ايفان . فتساءل فجأة : « لماذا ؟ اذا كان أبى يريد أن يبوح لى بشىء من الأشياء سراً ، فهل هذا سبب كاف لأن أدخل المنزل دون أن يعلم أخى بذلك ؟ أحسب أن أبى قد أساء التعبير من شدة اضطرابه ، فلم يجد الكلمات المناسبة التى يفصح بها عن مراده . . » . هذا ما قاله لنفسه . ومع ذلك شعر بارتياح شديد ورضى عظيم حين فتحت له مارفا اجناتفنا الباب الحديدى (كان جريجورى قد مرض فلزم سريره فيما قالت مافرا) ، فعلم منها ، جوابا على سؤال ألقاه عليها ، أن ايفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين .

ــ وباتيوشكا ؟

ــ نهض من فراشه ، وهو يحتسى الآن قهوته .

هكذا أجابته مارفا اجناتفنا بشىء من الجفاف والخشونة .

دخل أليوشا ، فوجد أباه وحيدا الى المائدة ، منتعلاً خفين ، مرتديا مبذلاً عتيقا . كان الأب بسبيل التدقيق فى بعض الحسابات تزجيةً

للوقت ، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلا بهذا العمل الذى يقوم به • ولم يكن فى المنزل أحد غيره (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضا لشراء بعض الأشياء من أجل اعداد طعام الغداء) • كان الأب يتصفح حساباته اذن ، ولكن فكره منصرف الى غير ذلك • وكان يبدو عليه التعب والوهن والضعف ، رغم أنه صحا فى ساعة مبكرة من الصباح وحاول أن يستجمع قواه وأن يسيطر على نفسه • وقد عقد على جبينه الذى ظهرت فيه بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل ، عقد عليه منديلاً أحمر • وكانت على أنفه الذى تورم كثيرا منذ البارحة ، كانت على أنفه بقع مماثلة ان لم تكن واسعة كثيرا فهى تضفى على وجهه تعبيراً عن غضب حانق خبيث • وكان العجوز يعرف هذا على كل حال ، فهذا هو يرشق أليوشا حين دخل ، بنظرة فيها عداوة • وصاح يقول له بلهجة قاطعة :

ـ القهوة باردة ، فلن أقدم لك منها شيئاً • وأنا نفسى ألتزم اليوم حميةً قاسية ، فلا أطعم الا حساءً بالسمك ولا أدعو الى مائدتى أحدا • لماذا رأيت أن عليك أن تجيء ؟

قال أليوشا :

ـ أردت أن أسأل عن صحتك •

ـ أعرف • ثم اننى أمرتك أنا نفسى بالأمس أن تزورنى • تلك كلها سخافات ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل • على أننى تنبأت بأنك ستسارع الى المجيء •••

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منفِّرة كريهة ، ونهض فى الوقت نفسه ليرى حالة أنفه فى المرآة وقد بدا فى وجهه الهم والقلق (لعله ينظر فى أنفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح) ؟ وفى هذه المناسبة

عدل المنديل الأحمر الذى يلف جبينه وجهد أن يعقده على آنق طريقه. وقال بلهجة متكلفة :

ـ لقد اخترت اللون الأحمر ، لأن الأبيض يذكر بالمستشفى . هيه ! ماذا وراءك من جديد ؟ ماذا يقص الناس ؟ كيف حال شيخك ؟

فأجابه أليوشا قائلاً :

ـ حاله سيئة جدا ، وقد يموت فى هذا النهار .

ولكن الأب لم يصغ الى جواب ابنه ، وكان قد نسى السؤال الذى ألقاه عليه .

قال العجوز بدون تمهيد :

ـ خرج ايفان . انه يهيىء جميع المكائد لينتزع من ميتكا* خطيبته.

ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفتيه على ابتسامة مكشَّرة :

ـ وذلك هو الهدف الوحيد الذى جاء من أجله الى هنا .

فسأله أليوشا :

ـ هل باح لك بهذا فعلاً ؟

ـ طبعا . قال لى ذلك منذ زمن طويل ؟ ماذا كنت تظن اذن ؟ اعترف لى بهذا منذ ثلاثة أسابيع . ما أحسب أنه جاء الى هنا ليذبحنى خفية هو أيضا . فلا بد أن يكون هنالك سبب يدفعه الى المكوث فى هذه المدينة .

سأله أليوشا مضطربا اضطرابا رهيبا :

ـ ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

ـ صحيح انه لم يطلب منى مالاً ، ولن أعطيه قرشاً واحداً على كل حال • انني أريد ، يا ألكسى فيدوروفتش المحترم جدا ، أن أعيش في هذا العالم أطول عمرٍ ممكن ••• ضع هذا في ذهنك ! ••• لذلك سأكون في حاجة كبيرة الى كل كوبك مما أملك •

ثم أضاف وهو يسير في الغرفة طولاً وعرضا ، واضعا يديه في جيبي مبذله الفضفاض المتسخ المصنوع من نسيج صيفي خفيف أصفر اللون :

ـ وكلما طعنت في السن وتقدمت في الشيخوخة ازدادت حاجتي الى المال • أنا الآن ما أزال رجلا ، فعمري لا يزيد على خمسة وخمسين عاما، وأريد أن أعيش عشرين سنةً أخرى دون أن أتنازل عن رجولتي• واذ أنني سأشيخ طبعا ، فسأصبح منفّراً ، فلا يأتين الىَّ من تلقاء أنفسهن راضيات ، فيصبح المال عندئذ ضرورة لا بد منها و لاغنى عنها • لذلك تراني الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسي وحدها يا بني العزيز ألكسى فيدوروفتش ••• ضع هذا في بالك ••• ذلك أنني أعزم عزماً قاطعا جازما ـ اعلم هذا أيضا ـ على أن أسترسل في خلاعتي الى آخر أيام عمري • ان الخلاعة تلطف الحياة : جميع الناس يعيبون الخلاعة ، ولكنهم جميعا يتعاطونها • كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً على حين انني أتعاطاها علانية • ان صراحتي وسذاجتي هما اللتان تعرضاني لهجوم ونقد تلك العصبة الفاسقة من الواعظين بالأخلاق • أما جنتك يا ألكسى فيدوروفتش فانني لا أريدها لنفسي ••• اعلم هذا ••• ان الانسان اللائق ليس له في الجنة ما يعمله ، هذا اذا وجد انسان لائق ، وسيكون من غير الحشمة أن يذهب مثل هذا الانسان الى الجنة• وفي رأيي أنا أن المرء يموت فينتهي بموته كل شيء • ينام ثم لايستيقظ ، ولا شيء بعد الموت أبداً • صلّوا من أجلي بعد موتي اذا شئتم ، وان لم

تشاموا فلا تصلوا ... شيطان يأخذكم ... تلك هى فلسفتى كلهـا . لقد تكلم ايفان بالأمس فأحسن الكلام ، رغم أننا كنا جميعا سكارى . ان ايفان انسان متبجح . ليس هو بالعالم قط . بل انه ليس على شيء من ثقافة حقيقية . انه لا يزيد على أن يسكت ، وأن يسخر من جميع الناس صامتا . ذلك كل ما يعرف أن يفعله ايفان هذا .

كان أليوشا يصغى الى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة .

وتابع الأب كلامه قائلاً :

ـ لماذا لا يكلمنى أبدا من تلقاء نفسه ؟ انه اذا كلمنى كان يمثـل تمثيلا ! انه وغد حقير ، أخوك ايفان هذا ! أما جروشكا* فسأتزوجها متى حلا لى أن أتزوجها . ما دمت أملك المال ، فيكفى أن أريد حتى أبلغ كل شيء يا ألكسى فيدوروفتش ! وذلك بعينه هو ما يخشاه ايفان ! انه يعيش هنا ويراقبنى حتى لا أتزوج ، ويحض ميتيا فى سبيل تحقيق هذا الهدف على أن يتزوج جروشكا : هو يأمل أن يبعـدنى عن هـذه المرأة بهذه الوسـيلة (كأنه يظن أننى سـأورثه مالا حتى ولو لم أتزوج جروشكا !) . ومن جهة أخرى سيسلب ميتيا خطيبته اذا تسنى لميتيا أن يتزوج جروشكا . ذلك هو الحساب الذى يجريه . انه وغد ، صاحبك ايفان هذا !

قال أليوشا :

ـ ما أشد اهتياجك اليوم ! ان مرد هذا الى ما حدث لك بالأمس. فالأفضل أن ترقد فى السرير .

أجاب الأب العجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه فى هذه اللحظة وحدها :

ـ قد تكون على حق فيما تقول • انك الآن تصحني فما أغضب• ولكن لو سمح ايفان لنفسه بأن يقول لى ما قلته أنت ، اذن لثارت ثائرتى• معك وحدك انما أتيح لى أن أقضى لحظات ممتعة مبهجة ، وأن أكون طيبا، لأننى شرير فى العادة •

قال أليوشا مبتسما :

ـ ما أنت بشرير •

ـ اسمع يا أليوشا • لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص ميتكا ، ولا أدرى حتى الآن هل أعزم أمرى على ذلك أخيرا• أنا لا أجهل أن « الموضة » الرائجة الآن هى أن يُعدّ احترام الأبناء آباءهم وهماً باطلاً وعادة سخيفة • ولكن القانون لا يجيز ، حتى فى عصرنا هذا ، أن يجرّ ابن أباه العجوز من شعره ، وأن يركل وجهه بكعب حذائه ، فى منزله نفسه ، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز عليه فيما بعد • فلو شئت لرميته فى السجن منذ هذا اليوم لما جرى بالأمس •

ـ وقد عدلت عن شكواه ، أليس كذلك ؟

ـ ثنانى ايفان عن عزمى • على أننى لا أحفل برأى ايفان ، وانما خطر ببالى شىء آخر •••

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو يكاد يهمس همساً :

ـ لو اعتقل هذا الوغد، لعلمتْ هى بأننى أودعته السجن ، فهرولت تسعى اليه فورا • أما اذا رُوى لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن يقتلنى أنا الشيخ العجوز ، فقد لا تهجره ولكنها ستعودنى ••• ذلك هو طبعها الذى فطرت عليه : تحب أن تفعل نقيض ما يُنتظر منها ، بدافع

حب المناقضة وحده ! اننى أعرفها حق معرفتها ! بالمناسبة ، هل لك بقليل من الكونياك ؟ اشرب هذه القهوة الباردة ، سأضيف اليها ربع قدح من الكونياك فيطيب مذاقها .

ـ لا ... شكرا ... لا أريد ... ولكننى فى مقابل ذلك سآخذ هذا الرغيف من الخبز اذا سمحت بذلك .

قال أليوشا هذا وتناول رغيفا صغيرا من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبكات ، ودسَّه فى جيب ثوبه . ثم أضاف يقول فى خشية وهو يتفرس فى وجه أبيه :

ـ أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً اذا عدلت عنه أنت أيضا .

قال الأب :

ـ أنت على حق . ان الكونياك يثيرنى بدلا من أن يهدئنى . لذلك لن أشرب الا كأسا واحدا ... كأسا واحدا ... الكونياك هناك ، فى الخزانة الصغيرة ...

وأدار مفتاح « الخزانة الصغيرة » ، فملأ كأساً ، وأفرغه فى جوفه ، ثم أقفل الخزانة من جديد ، وردَّ المفتاح الى جيبه .

ـ يكفينى هذا . كأس واحدة لن تقتلنى .

قال أليوشا وهو يبتسم :

ـ ها قد عدت طيباً .

ـ طيب ؟ هِمْ ... اعلم أننى أحبك أنت دون أن أشرب شيئاً من الكونياك ... أما الأوغاد فاننى أعرف كيف يجب أن يُعامَلوا ! لم يذهب فانكا* الى تشرماشنيا ! لماذا ؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس علىَّ :

انه يحب أن يعرف هل سأعطى جروشنكا مالا كثيرا اذا هى جاءت • انهم أوغاد ! هم جميعا أوغاد ! أما ايفان فاننى لا أعترف به ابناً لى • من أين جاء ، هذا الوبش ؟ انه ليس مثلنا ، ان له نفساً غير نفوسنا ! أيظن أننى سأورثه شيئا من مال ؟ ألا اننى لن أكتب حتى وصية ••• اعلم هذا ! ••• وأما ميتكا فلأسحقنه كما تُسحق خنفساء قذرة • انه يتفق لى أن أسحق خنفساوات في الليل ، فتطق طقيقاً جافاً حين تفطس، فبهذه الطريقة سأسحقه ، صاحبك ميتكا هذا ••• واذا قلت « صاحبك » فلأنك تحبه ••• أنا أعرف ذلك • ولكن تعلقك به لا يقلقنى ••• على حين أنه لو أخذ ايفان يحبه لانتابنى خوف ، ولخشيت عندئذ على نفسى• غير أن ايفان لا يحب أحدا • انه ليس منا • ان أناسا مثل ايفان ليسوا بشراً مثلنا ، هم تراب أثارته الريح ••• تذهب الريح ويعود يتساقط التراب ••• لقد خطرت ببالى فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجىء اليوم • أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا : هل اذا أنا نقدته ألف روبل أو حتى ألفين ، هل يوافق هذا الشقى ، هذا الشحاذ ، هل يوافق عندئذ على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين ، بل خمساً وثلاثين سنة ، بدون جروشنكا طبعا ، متنازلاً عنها الى الأبد ؟

تمتم أليوشا يقول :

ـ سوف •• سوف •• أسأله •• واذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة آلاف ، فمن الجائز أن •••

ـ خطأ ! لا تكلمه فى هذا الامر ! لا تقل له كلمة واحدة ، هل تسمع ؟ لقد غيّرت رأيى منذ الأمس • هى فكرة غبية خطرت ببالى • لن أعطيه شيئا ، لن أعطيه كوبكا واحدا ، لأننى فى حاجة الى هذا المال أنا نفسى (كذلك صرخ الأب العجوز وهو يحرك ذراعيه) • لسوف أعرف كيف أسحقه كما تُسحق خنفساء ، بدون هذا • لا تقصص عليه

شيئاً ، والا فقد تراوده آمال • ثم انه ليس ثمة ما تفعله عندي • فاذهب الآن ، امض الى ديرك • ولكن قل لي : هل تريد خطيبتُه ، هـل تريد كاترين ايفانوفنا تلك التي حرص أشد الحرص على أن يخفيها عني ، هل تريد أن تتزوجه أم لا ؟ لقد ذهبت أنت اليها بالأمس ، فيما أظن ، أليس كذلك ؟

ـ انها لا تريد أن تتركه ، مهما يحدث !

ـ هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته ! انهن يحببن شبابا عابثين لاهين أوباشاً ! ثق أن هذه الآنسة الشاحبة الراقية لا تساوي شيئا • ما أكبر الفرق بينها وبين ••• الخلاصة ! آه لو كان لي عمره ووجهي أيامَ شبابي (لقد كنت أجمل منه في صباي) •• اذن لكانت لي غزوات أنا أيضا •• ألا انه لشقي ! أما جروشنكا فلن ينالها ، لن يحظى بها •• لأمرغنَّه في الوحل !••

استمر حنق العجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات • ثم قال بلهجة جافة خشنة :

ـ اذهب الآن • لا عمل لك اليوم هنا •

اقترب أليوشا من أبيه ليودعه ، وقبـــله في كتفه • فسأله الأب دهشاً :

ـ لماذا هذه القبلة ؟ سوف نلتقي بعد الآن • أم تُراك تقدر أننا لن نلتقي قط !

ـ لم يخطر ببالي هذا • لقد قبلتك بغير نية ، وعلى غير قصد •

ـ ولا خطر ببالي أنا أيضا • وانما ألقيت عليك هذا السؤال سهواً وغفلة •

كذلك قال العجوز وهو ينظر الى أليوشا قلقاً . وفيما كان أليوشا يبتعد صرخ الأب يناديه :

ـ لحظة . انتظر لحظة ! تعال الىّ فى أقـــرب فرصة . سأذيقك ما أعده من حساء السمك ، هو حساء خاص ، لا كحساء اليوم ! تعـال حتماً ، هل فهمت ؟ تعال منذ الغد ، هل سمعت ؟ منذ الغد !

وحين أُغلق الباب وراء أليـــوشا ، اقترب العجوز من الخـزانة الصـغيرة مرة أخرى فأفرغ فى جـــوفه نصف كأسٍ دفعة واحدة . ثم دمدم يقول وهو يتنحنح :

ـ سأتوقف عن الشراب الآن .

ثم أقفل الخزانة ، وردّ المفتاح الى جيبه ، ومضى بعـــد ذلك الى غرفة نومه ، واضطجع على سريره وهو يشعر بأنه منهك مرهق. وسرعان ما نام .

٣

لقاء مع تلامذة

حدَّث أليوشا نفسه قائلا حين خرج من عند أبيه متجهاً نحو منزل السيدة هوخلاكوفا : « الحمد لله على أنه لم يُلق علىَّ أسئلةً عن جــــروشنكا ، فلو فعل لاضطررت أن أحدثه عن مقابلة الأمس »٠

وقد قدَّر أليوشا ، وهو يشعر بكثير من الشجن ، أن الأهواء قد ازدادت استعارا أثناء الليل ، وأن الخصوم يستعدون للمواجهة والمجابهة بقوى غضة جديدة ، وأن الصبح قد طلع عليهم وهم أقسى قلباً وأعتى نفساً ٠ قال يحدث نفسه : « الأب حانق سيء المزاج خبيث النية وقد نبتت فى رأسه فكرة لن يتخلى عنها ٠٠٠ ودمترى ؟ لا شك أن كرهه قد اشتد رسوخا واصرارا منذ أمس ، وأن قلبه هـــو أيضا قد امتلأ حقدا ومقتا وغضبا ٠ ولا شك أنه أخذ يبيت أمرا ٠٠٠ أوه ! يجب علىَّ حتما أن أستطيع رؤيته فى هذا اليوم ، يجب أن أراه اليوم مهما كلف الأمر » ٠

ولكن أليوشا لم يتسع وقته للتفكير طويلا ٠ فقد وقعت له أثنـــاء الطريق حادثة قد لا يكون لها شيء من خطورة الشأن طبعا ، ولكنهـــا أحدثت فى نفسه أثرا قويا جدا ٠ كان قد اجتاز الميدان الى شارع ميشيل الذى يوازى « الشارع الكبير » ، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة (ان مدينتنا تقطعها فى جميع الاتجاهات حفر وقنوات صغيرة) ؛ وانه ليسير فى هذا

الزقاق اذا هو يلمح تحت ، قرب الجسر الصغير ، عصبةً من التلاميذ هم جميعا أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة فى أكثر تقدير . انهم عائدون من المدرسة ، يحملون على ظهورهم ذلك الكيس الصلب الذى يحمله التلاميذ ، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً ليناً من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف . بعضهم يرتدى دراعة ، وبعضهم يرتدى معطفا قصيرا ، وبعضهم ينتعل جزمة عالية على ساقهما أخاديد ، من تلك الجزمات التى يحب انتعالها الاطفال الذين يدللهم آباؤهم الأغنياء . وكان الاطفال يتناقشون بحرارة ، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شيء . ان أليوشا لا يمكن أن لا يحفل يوما بمنظر الاطفال ، فكذلك كان شأنه أيضا فى موسكو ؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة ، فان التلاميذ الذين هم فى العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيراً أيضاً . لذلك أحب فجأةً ، رغم الهموم التى كانت ترهق نفسه ، أن ينضم الى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم فى حديث . فلما اقترب منهم متفرساً فى وجوههم الملونة المنتعشة لاحظ ان كلاً منهم يحمل بيده حصاةً ، حتى أن بعضهم يحمل حصاتين اثنين . ورأى فى الجهة الأخرى من القناة ، على مسافة ثلاثين خطوة من عصبة التلاميذ هذه تقريبا ، طفلا آخر واقفا قرب سياج من أوتاد . ان هذا الطفل تلميذ هو أيضا ، يحمل كيسه على الجنب ، وأغلب الظن أنه فى العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك سناً ، كما يدل على هذا طول قامته . كان الصبى يراقب عصبة التلاميذ الستة الذين يقابلونه ، وكان واضحا أنه يعدهم أعداءه . انه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة ، ولكن عينيه السوداوين تسطعان . تقدم أليوشا بضع خطوات أخرى ، فلما لمح صبيا أشقر مجعد الشعر متورد الوجه يرتدى دراعة سوداء ، نظر اليه بانتباه وقال له :

ــ أيامَ كنت أحمل أنا كيساً مثل كيسك ، كانت العادة أن نضعه فى الجنب الأيسر ، حتى تناله اليـــد اليمنى بســهولة أكبر • أما أنتم فالكيس يتدلى عندكم على الجهة اليمنى ، فلا تستطيعون امساكه على وجه مريح •

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية* ، دون أن يعمد الى أية حيلة نفسية يتودد بها الى الطفل ويكسب ثقتــه • ومن المؤكد على كل حال أن خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الاطفــال ، ولكسب ثقة عصبة من الاطفال خاصة ، هى أن تدخل فى الحديث معهم على الوجه الذى عمد اليه أليوشا، أى أن تخاطبهم جادا فى أمور محسوسة ملموسة جاعلا نفسك نداً لهم ، واقفاً على قدم المســـاواة معهم • وكان أليوشا يدرك ذلك بغريزته •

ــ ولكنه أعسر !

كذلك أسرع يجيب واحد من الصبية جرىء الهيئة قوى الجسم ظاهر الصحة يبدو فى نحو الحادية عشرة من عمره •

وأخذ الصبية الخمسة الآخرون يحدثون الى أليوشا •

وقال تلميذ ثالث :

ــ وهو يستعمل يده اليسرى أيضا فى قذف الحجارة •

وفى تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصبة الأطفال ، فلامس الأعسر الصغير لكنه أخطأه رغم أنه قد قُذف بمهارة واحكام وقوة • ان ذلك الصبى المرابط فى الجهة الأخرى من القناة هو الذى رمى الحجر •

هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة :

ــ هيّا يا سموروف •• سدّد اليه •• ارمه بحجر ! ••

ولكن سموروف (الصبى الأعسر) لم ينتظر أن يشجعه رفاقه هذا التشجيع ، وانما بادر الى الردّ فورا ، فرمى الصبى الواقف فى الجهة الأخرى من القناة بحجر ، ولكنه لم يصبه ، وانما سقطت الحصاة على الارض • وسرعان ما ردّ الصبى على ذلك ، فرمى الجماعة بحجر ثان، ولكنه رمى فى هذه المرة مستهدفاً أليوشا ، فأصابه فى كتفه ، فأوجعه وجعاً شديداً • وكانت جيوب الصبى ملأى بالحصى ، فذلك ما يراه الرائى حتى على بعد ثلاثين خطوة ، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف •

صاح الصبية يقولون وهم يضحكون ضحكاً قوياً :

ـ انه حاقد عليك أنت ، حاقد عليك أنت ! لقد استهدفك خصيصاً، ألست من آل كارامازوف ؟ ألست من آل كارامازوف ؟ أصحيح أم لا ؟ هيّا بنا يا أولاد ، فلنحكم التسديد اليه جميعاً ، جميعاً فى هذه المرة !

وطارت حجارة ست فى آن واحد معاً • فأصابت احداها الصبى فى رأسه ، فسقط ، ولكنه لم يلبث أن نهض حانقاً مسعوراً ، وأخذ يقصف عصبة الصبية ، فكانت الحجارة تطير بلا توقف فى الاتجاهين • وكانت جيوب عدة أطفال حول أليوشا ملأى هى أيضاً بقذائف •

صاح أليوشا يقول لهم :

ـ ما هذا الذى تفعلونه ؟ ألا تستحون ؟ أستة على واحد ؟ سوف تقتلونه •

ووثب أليوشا الى أمام ، ووقف فى مسار القذائف ليحمى بجسمه الصبىّ الواقف فى الجهة الأخرى من القناة • فهدأ ثلاثة أطفال أو أربعة بضع لحظات •

وصرخ صبى يرتدى دراعة حمراء ، صرخ يقول بصوت حانق :

ـ هو الذى بدأ • انه قاطع طرق •• لقد جرح كراسوتكين فى

المدرسة بطعنة موسى . وتدفق دم كراسوتكين غزيراً . ولم يشأ كراسوتكين أن يشكوه . ولكنه يستحق عقاباً ...

ـ ماذا كان السبب ؟ لاشك أنكم شاكستموه فى البداية ، أليس كذلك ؟

صاح الأطفال يقولون :

ـ ها هو ذا قد ضربك مرة أخرى فى الظهر . لقد عرفك . انه يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن . هيَّا بنا ! عليه يا أولاد ! لا تخطئه يا سموروف !

وعاد القصف يتالى من الجهتين ، أشدَّ هولاً فى هذه المرة . فأصيب صدر الصبى الواقف فى الجهة الأخرى من القناة ، فأطلق صرخة ألم ، وأخذ يبكى ، ثم هرب راكضاً نحو قمة الرابية فى اتجاه شارع ميشيل ، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة :

ـ آه .. خاف .. هرب .. جبان .. خرقة مبللة ..

وعاد الصبى الذى يرتدى دراعة حمراء ، عاد يقول لأليوشا وقد اشتعلت عيناه بحمى :

ـ أنت لا تعرف حتى الآن أى لص هو هذا الصبى يا كارامازوف. ان قتله قليل عليه .

وكان واضحاً أن هذا الفتى هو أكبر أفراد العصبة سناً .

ـ ماذا تأخذون عليه ؟ أهو واشٍ مثلاً ؟

تبادل الصبية نظرة تتسم بالسخرية .

وتابع الصبى نفسه كلامه فقال :

ـ أأنت ذاهب فى اتجاهه ، نحو شارع ميشيل ؟ أدركه اذن ...
أنظر ! لقد توقف ... يبدو عليه أنه ينتظر ... وهو يتفرس فيك ...

وردّد الصبية الآخرون يقولون جوقة واحدة :

ـ هو يتفرس فيك ، يتفرس فيك .

ـ أدركه اذن ... واسأله هل يحب ليفة الحمام ! اسأله هـذا السؤال ، وسترى ...

ما ان سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين . فنظر اليهم أليوشا ونظروا اليه صامتين .

وصرخ سموروف يقول له محذراً :

ـ اياك أن تذهب اليه ، فلسوف يقتلك ...

قال أليوشا :

ـ لن أكلمه عن ليفة الحمام ، لأننى أظن أنكم تشاكسونه وتغيظونه بهذه الكلمة . ولكنى سأعرف منه لماذا يكرهكم هذا الكره .

فأجابه الصبية ضاحكين :

ـ فسأله اذن ، اسأله !

عبر أليوشا الجسر الصغير ، واتجه الى قمة الرابية ، ماراً قرب سياج الأوتاد ، بحيث يصل الى الصبى المعتزل .

قال الأطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يبتعد عنهم :

ـ انتبه ! انه لا يخاف منك ، وسوف ينبجس فجأة ليطعنك من خلف ، كما فعل بكراسوتكين .

كان الصبى ينتظره دون أن يتحرك من مكانه . فلما اقترب أليوشا كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً فى التاسعة من عمره على أكثر تقدير ،

ضعيفاً هزيلاً له وجه مستطيل نحيل. تسطع فيه عينان واسعتان دكناوان ترشقانه بنظرات شريرة خبيثة • انه يرتدى معطفاً عتيقا جـــداً أصبح صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً ؛ وذراعاه العاريتان تخرجان من الكمين المسرفين فى القصر • وعلى السروال تُرى رقعة عنــــد الركبة اليمنى • ومن ثقب فاغر فى حذاء القدم اليمنى يظهر الابهام مطلياً بالحبر من قبيل الاخفاء • وجيبا الرداء منتفختان بما فيهما من حجارة •

وقف أليوشا على بعد خطوتين منه ، وألقى عليه نظـــرة سائلة ، فأدرك الصبى من نظرته فورا أنه لا ينوى أن يضربه • فبدا عليه شىء من التأنس ، حتى لقد بدأ هو الكلام :

ــ أنا واحد وهم ستة ••• ولكننى سأغلبهم دون أية مساعدة •

قال ذلك واشتعلت عيناه •

قال أليوشا :

ــ لا شك أن احدى تلك الحجارة قد أوجعتك كثيرا •

فهتف الصبى يقول :

ــ ولكننى أنا أصبت سموروف فى رأسه •

سأله أليوشا :

ــ هم يزعمون أنك تعـرفنى ، وأنك رميتنى بالحجـــر عامدا • فلماذا ؟

لم يجب الطفل وانما ألقى على أليوشا نظرة قاتمة •

قال أليوشا ملحاً :

ـ أما أنا فلا أعرفك ، أفهل تعرفني أنت ؟

فصرخ الصبي فجأة يقول بصوت خانق ولكن دون أن يتحرك فكأنه ينتظر شيئا ما :

ـ دعني وشأني . انك تزعجني وتضايقني !

قال أليوشا :

ـ طيب . سأنصرف . ولكن لاحظ أنني لا أعرفك ولم أشاكسك أبدا . وقد ذكروا لي كيف يمكنني أن أغيظك ، ولكني لا أنوي أن أفعل ذلك . استودعك الله !

ومضى أليوشا .

ـ راهب منافق ! انك ترتدي تحت مسوحك سروالاً !

بهذا الكلام قذف الصبي أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة ، وسرعان ما وقف وقفة دفاع ، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن .

ولكن أليوشا لم يزد على أن التفت الى وراء ، فنظر الى الصبي صامتا ، ثم ابتعد ... ومع ذلك فانه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر بألم شديد في ظهره . لقد أصابه الصبي بحصاة ضخمة جدا هي أثقل حصاة كان يحملها في جيوبه ؟ فاستاء أليوشا ، والتفت من جديد ، فقال للصبي :

ـ آ ... تهاجم من خلف ؟ لقد صدق الصبية اذن حين ذكروا أنك تضرب بغتةً كما يفعل جبان !

غير أن الصبي وقد استبد به غيظ شديد قد رماه في هذه المرة بحجر على وجهه ، فلولا أن أليوشا سارع يحمي وجهه بذراعه ، اذن لأصيب وجهه ، وهكذا أصاب الحجر كوعه .

هتف أليوشا يقول له :

ـ ألا تستحى ؟ ماذا فعلت لك ؟ ماذا صنعت بك ؟

صمت الصبى جامدا فى مكانه وقد لاح فى وجهه الشر والعدوان• كان مقتنعا بأن أليوشا سيهجم عليه فى هذه المرة ، فلما أدرك أن أليوشا لا يخطر بباله ، حتى بعد هذه الضربة ، أن يهاجمه ، استبد به حنق مسعور كوحش صغير مفترس ، فوثب هو نفسه على أليوشا • وقبل أن يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقى الشرير قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكلتا يديه ، وعض خنصره عضةً قاسية رهيبة ، غارساً أسنانه فى لحم الاصبع بكل ما أوتى من قوة مدةثانيتين • صرخ أليوشا من شدة الألم ، وحاول أن يسحب اصبعه من بين أسنان الصبى • فلما أرخى الصبى أسنانه أخيرا ، أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هى المسافة السابقة نفسها• كانت العضة قوية ، قريبة من الظفر ، قد وصلت الى العظم • انبجس الدم من اصبع اليوشا ، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطاً قوياً ، فقضى فى هذا التضميد دقيقة كاملة • وفى أثناء ذلك ظل الصبى واقفا فى مكانه ينتظر • وعندئذ رفع أليوشا رأسه ، وألقى عليه نظرة هادئة وقال له :

ـ هل رأيت الجرح العميق الذى أحدثته فى اصبعى ؟ أحسب أن هذا كاف ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فقل لى الآن : بماذا أسأت اليك ؟ أى أذى ألحقته بك ؟

فنظر اليه الصبى مشدوها • وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

ـ أنا لا أعرفك •• صدقنى •• وهذه أول مرة أراك فيها •• ومع

ذلك لا أستطيع أن أتصـــور أننى لم أسىء اليك أية اساءة ، فلولا أننى أسأت اليك لما عذبتنى هذا التعذيب بغير سبب حتما . فما هو الذنب الذى اقترفته فى حقك ، وما هو الشر الذى أنزلته فيك ، قل لى ! ...

ولكن الصبى ، بدلا من أن يجيب ، أخذ يبكى بكاء قويا جدا على حين فجأة ، ثم ولّى هارباً ... وتبعه أليوشا بخطى بطيئة ، متجهاً نحو شارع ميشيل ، وظل مدة طويلة يرى أمامه الطفل الهـــارب لا يخفف سرعته ولا يلتفت الى وراء ولعله ما يزال يبكى . وعزم أليوشا عزماً قاطعاً على أن يسعى الى رؤية الطفل متى أتيحت له لحظة من حرية ، ليجلو هذا السرّ الذى أحدث فى نفسه أثراً قوياً . أما الآن فان وقته لا يتسع لهذا .

٤

في منزل السيدة هوخلاكوف

لم يلبث اليوشا أن وصل الى منزل السيدة هوخلاكوفا وهو مبنى أنيق من حجر ، مؤلف من طابقين ، تملكه السيدة هوخلاكوفا . انه من أجمل مباني مدينتنا . ورغم أن السيدة هوخلاكوفا قد عاشت أكثر وقتها فى مقاطعة أخرى تملك فيها أرضا ، وعاشت كذلك فى موسكو حيث تملك قصراً خاصا ، فقد احتفظت بالمنزل الذى تملكه فى مدينتنا والذى ورثته عن آبائها وأجدادها . يجب أن نذكر مع ذلك أن أرضها فى مدينتنا هى أوسع الاراضى الثلاث التى تملكها . ورغم هذا لم تكن السيدة هوخلاكوفا قد أقامت بمدينتنا الا نادرا حتى الآن .

هرعت السيدة هوخلاكوفا تستقبل أليوشا فى الدهليز ، وسألته بسرعة عصبية :

ـ هل تلقيت ، هل تلقيت رسالتى بشأن المعجزة الجديدة ؟

ـ تلقيتها .

ـ هل نقلت النبأ ، هل أطلعت الناس على الرسالة ؟ لقد ردّ الشيخ الى هذه المرأة ابنها .

قال أليوشا :

ـ سيموت الشيخ فى هذا اليوم !

ـ أعلم ، أعلم ، لقد قيل لى هـــذا • آه ••• ما أشـد رغبتى فى التحدث اليك ! ما أشد رغبتى فى التحدث عن جميع هذه الأشياء اليك ، أو الى شخص آخر •• بل اليك •• اليك أنت ! خسارة أننى لا أستطيع أن أزوره ! ان المدينة كلها مضطربة ، المدينة كلها قائمة قاعدة ! جميع الناس ينتظرون ••• ولكن هل تعلم أن كاترين ايفانوفنا هى الآن عندنا ؟

هتف أليوشا قائلا :

ـ صحيح ؟ هذا حظ موفق ! سأراها اذن عندكم ! لقد أصرّت أمس أن أزورها اليوم •

ـ أعرف هذا • أنا على علم بكل شىء • لقد رُوى لى ما حدث فى منزلها بالأمس تفصيلاً ••• عرفت كل قطاعات تلك ••• المخـــلوقة ! هذه فاجعة ! ••• لو كنت فى مكانها ••• حقا اننى لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل فى هذه الحالة ! ولكن ما رأيك أيضا فى أخيك هـــذا الكريه دمترى فيدوروفتش ؟ آه ••• يارب ! ••• أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسى فيدوروفتش : تصور أن أخاك موجود الآن هنا ••• لا أقصد أخاك ذاك نفسه ، أخاك ذاك الرهيب الذى فعل مافعل بالأمس ، بل أخاك الآخر ايفان فيدوروفتش ! هو الآن هنا يتحدث معها• ان حديثاً فخماً يدور بينهما ! ••• ليتك تعلم ما يجرى بينهما الآن ! شىء فظيــع ، شىء فظيع ، أؤكد لك ••• تمزق حقيقى ! قصة لا يصــدقها العقل ، حكاية لا يتصورها الخيال : كل منهما يضيّع نفسه الآن ، لا يدرى أحد لماذا ! وهما يدركان ذلك ، ويجدان فيه نوعاً من لذة • أوه ! لقد انتظرت وصولك ••• كنت فى حاجة الى أن أراك • يستحيل علىّ ، يســتحيل

علىَّ اطلاقاً أن أشهد هذه الدرامة مكتوفة الأيدى عاجزة كل العجز ! سأقص عليك هذا فيما بعد . ولكن يجب على الآن أن أقول الشيء الأساسى .. آه .. كدت أنسى الشيء الأساسى . هل تستطيع أن تشرح لى لماذا أصيبت ليزا بنوبة عصبية منذ قليل ؟ انها ما كادت تعلم بنبأ وصولك حتى ألمت بها نوبة هستريا !

ـ ماما ، أنت المصابة بنوبة هستريا الآن ، لا أنا .

بهذا ارتفع صوت ليزا المزقزق ، من خلال شق الباب ، فى الغرفة المجاورة .

ان شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً الى أقصى حدود التوتر ، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحس المرء برغبة فى الضحك لا سبيل الى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكته ويكبحها بكل ما أوتى من قوة . ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذاالشق ، فأيقن أن ليزا تنظر اليه من خلاله ، جالسةً على مقعدها المتحرك ، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها .

ـ أأنا مصابة بنوبة هستريا ؟ لو أصبت بنوبة هستريا لما كان فى هذا غرابة يا ليزا ، لما كان فيه غرابة البتة ! ... ان نزواتك المستمرة الدائمة خليقة بأن تجعلنى مجنونة . ليتك تعلم يا ألكسى فيدوروفتش الى أى حد هى مريضة ! لقد لازمتها الحمى طوال الليل ، وكانت لاتزيد على أن تئن ... ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه . وقد أكد الدكتور أنه لم يفهم من الأمر شيئاً ، وأن علينا أن نصبر ، فنرى كيف ستتطور حالتها . ان هرتسنشتوبه لا يعرف أن يقول شيئا غير هذا الكلام ! يجيء فيصرخ فى كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ! وما ان اقتربت أنت من المنزل حتى أطلقت صرخة وألمت بها نوبة ، ثم طالبت بأن تنقل الى غرفتها القديمة هنا .

ـ ولكننى يا ماما لم أكن أعرف أبداً أنه هنا . فأنا لم أهرب الى هذه الغرفة بسببه هو .

ـ غير صحيح يا ليزا ! لقد أسرعتْ جوليا تبلغك أن ألكسى فيدوروفتش وصل ، وكنتِ قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصوله .

ـ ماما ، ملاكى الصغير ! ليس هذا الذى تدعينه بالدعابة الفكهة . فاذا أردت أن تصلحى الخطأ وأن تقولى شيئاً يكون على جانب كبير من الذكاء فأبلغى ألكسى فيدوروفتش المحترم جدا ، الذى وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يجىء بعد الذى حدث بالأمس ، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه .

ـ ليزا ، انك تسرفين ! ثقى أننى سأتخذ فى حقك اجراءات قاسية آخر الأمر . من ذا الذى يسخر منه أو يضحك عليه ؟ اننى من جهتى سعيدة جدا برؤيته . أنا فى حاجة اليه ، أنا لا غنى لى عنه . آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ليتك تعرف مدى شقائى وتعاستى ! ...

ـ ماذا بك يا ماما ، يا ملاكى ؟

ـ هى نزواتك يا ليزا ، وتقلب مزاجك ، ووطأة مرضك وهذه الليلة الرهيبة التى عانيت فيها الحمى ، ثم هذا الطبيب الفظيع الأبدى هرتسنشتوبه ، هذا الطبيب الأبدى خاصةً ، هذا الطبيب الأبدى الذى لا مفرّ منه ولا معدى عنه ! ثم كل شىء ، نعم كل شىء ، كل شىء اطلاقا ... وحتى هذه المعجزة ! ... لا تستطيع أن تتصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى الاضطراب الذى أحدثته هذه المعجزة فى نفسى ! ثم هذه التراجيديا التى تجرى الآن فى الصالون والتى يستحيل علىّ احتمالها ، يستحيل ، يستحيل كل الاستحالة ... أؤكد لك ذلك منذ الآن ، وأنبهك اليه وأحذرك منه ... ولعلها كوميديا لا تراجيديا ! قل

لى : هل يعيش الأب زوسيما حتى الغد ، حتى الغد على الأقل ؟ آه ...
يا رب ! ... أصبحت لا أدرى ماذا يقع لى . فى كل لحظة أغمض عينى، فأرى أن كل شىء باطل لا معنى له ...

قاطعها أليوشا سائلا :

ـ هل أستطيع أن أرجوك أن تعطينى خرقةً نظيفة أعصب بها اصبعى ؟ لقد جُرحت جرحاً عميقاً يؤلمنى الآن ايلاماً شديداً .

نزع أليوشا الضماد عن جرح العضة ، فكان المنديل أحمر من الدم ، فأطلقت السيدة هوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغضنت حاجبيها .

ـ يا رب ! يا لهذا من جرح ! فظيع ! ...

ولكن ما ان لمحت ليزا اصبع اليوشا من شق الباب حتى فتحت الباب بدفعة قوية ، وصاحت تقول بصوت آمرٍ صارم :

ـ ادخل الى هنا ، ادخل فورا ، لا محل الآن لتبادل أقوال سخيفة! آه ... يا رب ! كيف أمكنك أن تسكت عن هذا طوال هذه المدة ؟ كان يمكن أن يفقد دمه يا ماما ! كيف جُرحت هكذا ؟ هاتوا ماءً قبل كل شىء ، هاتوا ماء ... يجب أن نغسل الجرح أولاً ثم تغطس اصبعك فى الماء البارد تهدئةً للألم . لن يكون عليك الا أن تبقى اصبعك مدة طويلة فى الماء ... اسرعى يا ماما ، هاتوا ماءً على الفور ، وهاتوا طستاً !

ثم صاحت تقول فى عصبية :

ـ هلاَّ أسرعتم !

كانت ليزا مروَّعة مذعورة ، فقد أحدث جرح أليوشا فى نفسها أثراً رهيبا .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ ألا يستحسن أن نستدعي الدكتور هرتسنشتوبه ؟

ـ سوف تقتلينني يا ماما ! ان صاحبك هرتسنشتوبه سيجيء فيقول انه لم يفهم من الأمر شيئا . هاتوا ماءً ، هاتوا ماءً ! هاتي الماء بنفسك يا أماه ، ناشدتك الله ، أو قولي لجوليا أن تسرع . ان جوليا بطيئة دائما، ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام به في حينه . أسرعي يا ماما ، انك تميتينني ...

تدخل أليوشا يقول وقد أقلقه جزعهما :

ـ ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشيء .

وهرعت جوليا في تلك اللحظة حاملةً طستاً مملوءاً بالماء . فغطس فيه أليوشا اصبعه .

ـ ماما ! ناشدتك الله ، هاتي لنا شاشاً ، وهاتي لنا أيضاً من ذلك السائل العكر الذي يحرق والذي يستعمل في مداواة الجروح ... لقد نسيت اسمه .. عندنا منه .. نعم عندنا منه .. أنت تعرفينها يا ماما .. تلك القارورة الموجودة في غرفتك ، في الخزانة ، على اليمين .. ويوجد هنالك شاش أيضا ...

ـ سأجيء لك به ، ولكن لا تصرخي ولا تضطربي يا ليزا ، أرجوك ، أتوسل اليك ... انظري كيف يحتمل ألكسي فيودوروفتش الألم صابراً ! ولكن أين جُرحت هكذا يا ألكسي فيودوروفتش ؟

وخرجت السيدة هوخلاكوفا مسرعة . وذلك بعينه ما كانت ترغب فيه ليزا وتتمناه .

قالت ليزا لأليوشا متعجلة :

ـ أجب عن سؤالى أولا : أين جُرحت هذا الجرح ؟ ثم تتكلم بعد ذلك فى أمرٍ آخر . هيه ؟

واذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التى ستنقضى الى حين وصول الأم ثمينة جدا فى نظر ليزا ، فقد روى لها قصة لقائه بالتلاميذ، موجزاً مقتضباً مسقطاً تفاصيل كثيرة ، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة . فبعد أن أصغت ليزا الى روايته ، ضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وصاحت تقول غاضبة حانقة ، كأن من حقهـــا أن تؤنبه وتقرعه بعد الآن :

ـ فيم كنت تفكر ؟ كيف أمكنك أن تتدخل فى أمر أولاد صـغار وأنت فوق ذلك ترتدى مسوح راهب ؟ ألا انك لطفل صغير ، ألا انك لصبى غر أنت أيضا ... ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقى الشرير ، ثم حدثنى بعد ذلك فى أمره ، فلا شك أن ههنا سراً . شىء آخر الآن . قل لى أولا يا ألكسى فيـدوروفتش : هـــل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث فى أمور لا تشوقك ولا تهمك ، شريطة أن تتحدث فيها جاداً .

ـ أنا قادر على ذلك كل القدرة . ثم اننى أصبحت لا أشعر بألم فى اصبعى .

ـ لأنك غطستها فى الماء . يجب تغيير الماء حالاً ، لأنه يدفأ بسرعة. جوليا ! أسرعى الى القبو فائتينى بقطعة من ثلج ، وائتينى كذلك بطست آخر فيه ماء بارد . ها هى ذى قد مضت الآن فلنتحدث جادّين : هل لك أن ترد الىّ فورا ، أيها العزيز ألكسى فيدوروفتش ، الرسالة التى بعثت بها اليك أمس ؟ هيّا ردها الىّ بسرعة ، لأن أمى قد تصل من لحظـة أخرى ، وأنا لا أريد لأمى أن ...

ـ ليست الرسالة معى !

ـ كذب ! هى معك ! كنت أتوقع هذا الرد • الرسالة معك ، فى هذه الجيب ! ••• ما كان أشد ندمى طوال الليل على هذه المزحة • رد الىّ الرسالة فورا ! اعطنيها !

ـ تركتها فى الدير •

ـ لا بد انك أصبحت تحسبنى طفلةً صغيرة ، صغيرة جداً ، بعد مهزلة هذه الرسالة ••• انها مهزلة خبيثة سيئة ! ••• أرجوك أن تغفر لى هذا الشذوذ الأحمق • أما الرسالة فيجب أن تأتينى بها حتماً ، اذا هى لم تكن معك الآن • بل يجب أن تأتينى بها فى هـذا اليوم نفسه ، قطعاً ••• اننى أطلب ذلك ، وأصرُ عليه !

ـ أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل • ذلك اننى عائد الى الدير، ولن أراك قبل انقضاء يومين أو ثلاثة وربما أربعة ، لأن الأب زوسيما ••

ـ أربعة أيام ؟ هذا جنون ! قل لى بصراحة : هل سـخرت منى كثيراً ؟

ـ لم أسخر البتة •

ـ لماذا ؟

ـ لأننى صدقت كل ما كتبته تصديقا قاطعا •

ـ أنت تهيننى !

ـ أبدا • اننى بعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسى فورا : لتجرينّ الأمور على هذا النحو فمتى مات الأب زوسيما ، سأضطر الى مغـادرة الدير ، وسأستأنف دراستى ، وسأتقدم الى الامتحانات • حتى اذا انقضت المدة القانونية تزوجنا • وسوف أحبك • فرغم اننى لم يتسع وقتى لأن

أفكر فى الأمر ملياً ، قد قدّرت أننى لن أجد لنفسى زوجة أفضل منك، وقد أمرنى الشيخ بأن أتزوج ...

هتفت ليزا تقول وهى تنفجر ضاحكة ، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة شديدة :

ـ ولكننى دميمة ، مقعدة ، كسيحة .

ـ سأجر الكرسى المتنقل بنفسى اذا لزم الأمر . ثم اننى على يقين من أنك ستكونين قد شفيت أثناء هذه المدة .

قالت ليزا بعصبية :

ـ ألا انك لمجنون ! أنا انما كنت أمزح ، فاذا بك تبنى على هذا المزاح مشاريع سخيفة مضحكة ! آ ... هذه ماما قد رجعت . أحسب أنها عادت فى الوقت المناسب . ماما ، لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟ أنت دائما تتأخرين ! هذه جوليا قد جاءت بقطعة الثلج !

ـ أوه ! ليزا ! لا تصرخى هذا الصراخ ! أرجــوك ، أستحلفك بالله ! ... ان هذا الصراخ يطيش عقلى ... ليس ذنبى أنك قد دسست هذا الشاش فى غير الموضع الذى ذكرته لى ... لقد بحثت عنه فى كل مكان فلم أظفر به ... انى لأتساءل ألم تفعلى هذا عامدة .

ـ تماما ... عامدة ! لم يكن فى وسعى أن أتنبأ مع ذلك أنه سيصل بجرح فى اصبعه ، ولو قد تنبأت بذلك لأخفيت الشاش فعــلاً ! ماما ، ملاكى الصغير ، انك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقا !

ظريفة أو غير ظريفة ! المهم أننى أخذت أرى أنك لا تشفقين على ألكسى فيدوروفتش من جرحه ، كما لا تشفقين على أحد من شىء على كل حال ! ليتك تعلم يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى ما أقاسى



ليزا هوخلاكوفا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

من ألم وعذاب ! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هى التى تقتلنى ، ليس هذا الطبيب هرتسننشتوبه وحده هو الذى يرهقنى ••• بل جملة الأمر ••• جملة الامر ••• ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتماله•

قاطعتها ليزا تقول وهى تضحك مرحة :

ـ كفى كلاما عن هرتسننشتوبة يا ماما ! ناولينى الشاش والسائل • هو مرهم بسيط من محلول الرصاص يا ألكسى فيدوروفتش •• تذكرت الآن ••• ولكنه نافع جدا • اعلمى يا ماما أنه اقتتل فى الشارع مع صبية صغار ، وأن طفلا قد عضه فى اصبعه ! أليس هو نفسه صبيا صغيرا ؟ ما رأيك يا ماما ؟ هل يمكنه بعد هـذا أن يتزوج ؟ ذلك أنه ينوى أن يتزوج يا ماما •• تخيلى هذا ••• هل تتصورينه متزوجا ؟ شىء يـُميت من الضحك ! ••• أليس هذا فظيعا ؟

وكانت ليزا تضحك ضحكها العصبى بلا توقف ، وهى تلقى على أليوشا نظرة ماكرة •

ـ ما هذا الذى تقولينه يا ليزا ؟ كيف يمكنه أن يتزوج ؟ دعيك من هذه السخافات ! ثم ان هـذا الامر لا يعنيك ••• أما ذلك الصبى الذى عضـّه ، أفلا يمكن أن يكون مصابا بداء الكَلـَب ؟

ـ ولكن يا ماما ، هل يوجد أطفال مصابون بداء الكلب ؟

ـ ما هذا السؤال يا ليزا؟ لكأننى قلت اذن سخافة حمقاء ! ان من الجائز أن يكون الصبى قد عضـّه كلب مصاب بداء الكلب ، فاذا هو يعض بدوره كل من يقتربون منه ! لقد ضمدت اصبعك تضميدا رائعا يا ألكسى فيدوروفتش ! ما كان لى أنا أن أتقن التضميد هذا الاتقان ! أما تزال تشعر بوجع ؟

ـ قليلا جدا •

وسألته ليزا :

ـ ألا تخشى الماء ؟

قالت الأم :

ـ لا تسرفى يا ليزا • لقـــد تعَجلت أنا حين تكلمت عن داء كلب بصدد ذلك الصبى ، فأخذت تستنتجين استنتاجات ! يا ألكسى فيدوروفتش ان كاترين ايفـــانوفنا ، وقد علمت الآن أنك هنا ، تصرُّ على أن تراك حالا ••• انها فى أشد الحاجة الى التحدث اليك !

قالت ليزا :

ـ اذهبى اليها وحدك يا ماما ! أما هو فانه لا يستطيع أن يمضى اليها لأن اصبعه توجعه كثيرا ••

فقاطعها أليوشا قائلا :

ـ كلا ! ••• اننى لا أشعر الآن بوجـع • فى امكانى أن أذهب اليها •

ـ ها ! •• تذهب ؟ أهكذا اذن ؟ طيب •••

ـ ولم لا ؟ متى فرغت من الحديث معها عدت الى هنا ثانية ، فاستطعنا أن نتكلم عندئذ ما شئنا أن نتكلم • اننى أحرص فى الواقع حرصا شديدا على أن أرى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة ، لأننى أريد أن أرجع الى الدير فى أقرب وقت •

ـ خذيه يا ماما ، خذيه ! ويا ألكسى فيدوروفتش ، وفّر على نفسك عناء العودة الى بعد مقابلة كاترين ايفانوفنا • ارجع الى الدير رأساً ،

فهنالك انما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك فى أى مكان آخر . أما أنا فأحب أن أنام ، لأننى قضيت فى البارحة ليلة بيضاء !

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ــ أنت تمزحين يا ليزا ! ومع ذلك سأكون سعيدة جدا اذا أنت استطعت أن تنامى قليلا .

وتمتم أليوشا يقول :

ــ لا أدرى ماذا فعلت حتى ... وعلى كل حال ، سأبقى معك ثلاث دقائق أخرى ، بل وحتى خمس دقائق اذا كنت تحرصين على ذلك .

ــ وحتى خمس دقائق ؟ ياه ! .. خذيه يا ماما .. ماذا تنتظرين ؟ هذا مخلوق عجيب ، هذا مخلوق مشوه !

ــ ليزا ! أنت مجنونة ! هيًا بنا يا ألكسى فيدوروفتش ! انها اليوم شديدة النزوات ، وأخشى أن نثير أعصابها ... ما أشقى التعامل مع نساء عصبيات يا ألكسى فيدوروفتش ! على كل حال ، لعلها شعرت حقا بحاجة الى النوم أثناء حديثكما . ماذا فعلت حتى استطعت أن ترد اليها النعاس بهذه السرعة ؟ ذلك توفيق فى الواقع ...

ــ مرحى يا ماما ! هأنت ذى الآن تقولين كلاما لطيفا ! أحب أن أقبلك .

ــ وأنا أيضا يا ليزا !

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا لابنتها ثم أضافت تخاطب أليوشا وهما يخرجان من الغرفة :

ــ اصغ الىّ يا ألكسى فيدوروفتش ...

وراحت تكلمه متعجلة ً بصوت خافت ، وقد لاح في وجهها الاهتمام والجد والتعجب ، قالت :

ـ لا أريد أن أؤثر فيك ... لن أزيح الحجاب قبـــل الأوان ، ولكنك سترى بعينك ما يجرى الآن هناك ، وستحكم عليه بعقلك . شيء رهيب . تمثيليـة عجيبة !... انها تحب أخاك ايفان فيدوروفتش ، ثم هي تحاول أن تقنع نفسها ، بكل ما أوتيت من قوة ، بأنها تحب دمترى فيدوروفتش . شيء مروّع ! سأدخل معك ، فاذا لم أُطرد بقيت لأرى خاتمة هذا كله .

٥

التمزق في الصالون

كان الحديث في الصالون يشارف نهايته . ان كاترين ايفانوفنا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا، رغم أن في وجهها تعبيراً عن عزم وحسم . وحين دخل أليوشا والسيدة هوخلاكوفا كان ايفان فيدوروفتش ينهض استعدادا للانصراف . انه شاحب الوجه . لاحظه أليوشا في قلق . ذلك أن أليوشا قد اتضحت له ، في تلك اللحظة، شبهة كانت تعذبه منذ زمن طويل ، فاذا هو يرى الآن حل ذلك اللغز المقلق الذي كان يشغل باله . ان أشخاصا كثيرين كانوا قد أكدوا له مرارا ، منذ أكثر من شهر ، أن أخاه ايفان يحب كاترين ايفانوفنا ، وأنه خاصةً ينوي أن « ينتزعها من ميتيا » فعلا . ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام الاخيرة أن يصدّق هذا الامر ، لأنه كان يبدو له عجيبا شاذا شيطانيا ، غير أن تلك المزاعم كانت تقلقه مع ذلك . انه يحب أخويه كليهما ويخشى أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس ، وأن تنشب بينهما خصومة كهذه الخصومة . على أن دمتري فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس ان حب ايفان لكاترين ايفانوفنا يسعده ويبهجه ، لأنه يسهّل وضعه وييسّر أموره . وكان أليوشا يتساءل : لماذا ؟ ألأنه يتيح له أن يتزوج

جروشنكا ؟ ولكن هذا فعل يائس وحل رهيب ! ثم ان أليوشا كان الى أمس مقتنعا اقتناعا جازما بأن كاترين ايفانوفنا تحب أخاه دمترى حباً قوياً عارماً . ولكن هـذا الاقتناع قد تزعزع فى نفسـه الليلة البـارحة . يضاف الى ذلك أنه كان يخيّل اليه ، دون أن يعرف لماذا ، ان كاترين ايفانوفنا لا يمكن أن تحب رجـلاً من نوع ايفان ، وأنهـا انما تحب دمترى كما هو ، على عـلاته ، رغم ما فى هـذا الحب من أمور عجيبة مستحيلة سخيفة ! غير أن المشهد الذى جرى أمس مع جروشنكا قـد أنبت فى نفسه على حين فجأة شعورا معارضا لهذا الشعور تماما ، لم يتضح له على الفور . ان تعبير « التمزق » الذى استعملته السيدة هوخلاكوفا منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا يرتعش ، لأنه فى ذلك اليـوم نفسه ، أثناء « شبه النوم » الذى ينامه المرء عند الفجر ، قد كرّر كلمة « حب التمزق » هذه عدة مرات ، جوابا على أحلام لم تكد تتبدد . وكانت جميع أحلامه فى الليلة البارحة انما تدور على المشهد الذى وقع أمس فى منزل كاترين ايفانوفنا . فلما قالت له السيدة هوخلاكوفا جازمةً ان كاترين ايفانوفنا انما تحب فى الواقع ايفان ، وانها تكذب على نفسها لعباً ، من قبيل الميل الى « التمزق » ، ومن باب التحدى ، أو بسبب اندفاعة شكران غامضـة غير مفهومة ، اهتز أليوشا اهتزازاً قوياً واضـطرب اضـطراباً شديداً ، وتساءل : « ألا يمكن أن تكون هـذه هى الحقيقـة رغم كل شيء ؟ » . ولكن اذا صحّ هذا فما هو وضع ايفان الآن ؟ لقد كان أليوشا يقدّر بفطرته وغريزته أن امرأةً مثل كاترين ايفانوفنا تشعر بحاجة الى السيطرة والتسلط ، وهى لا تستطيع أن تمارس هذه السـيطرة وهذا التسلط الا على رجل مثل دمترى ، أو هى على الأقل لا تسـتطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط على شخصية من طراز ايفان . ذلك ان دمترى وحده قادر على الاذعان لارادتها والخضوع لسلطانها (لا على

الفور طبعا ، بل بمرور الزمن) ، وذلك « يحقق له الخير كله » ، وهو ما يتمناه له أليوشا من جهة أخرى . ولا كذلك ايفان . فان ايفان لن يقبل الرضوخ في يوم من الايام ، ولن يجعله الخضوع سعيدا بحال من الاحوال ؟ أو هذا على الاقل ما كان أليوشا يقدّره على أساس معرفته بطبع ايفان ، وعلى أساس الفكرة التي قامت في ذهنه عن ايفان .

هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت في فكر أليوشا لحظة دخل الصالون . ثم هاجمته فكرة أخرى ، فاذا هو يتساءل : « فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذاك ؟ » . ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل واضطراب من اطلاق أحكام من هذا النوع ، وأنه قد لام نفسه على ذلك مرارا أثناء هذا الشهر الأخير ، « ما معرفتي أنا بالنساء وبالحب ، وكيف أجيز لنفسي أن أرى آراء من هذا القبيل ؟ » كذلك كان أليوشا يقول لنفسه مستاءً كلما اتفق له أن يسترسل في تأملات أو تخمينات وتقديرات في هذا المجال . ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر في هذه المسائل . كان يدرك بغريزته ، مثلا ، أن هذا التنافس بين أخويه الآن يجثم ثقيلا على مصيريهما ، وأنه يحمل في طياته عواقب ضخمة . « فلتأكل السراطين بعضها بعضا ! » كذلك قال ايفان بالأمس وهو يتحدث حانقاً عن أبيه وعن أخيه دمتري . معنى ذلك أنه يعدُّ أخاه سرطانا ، ولعله يعده كذلك منذ زمان طويل . أفلا يمكن أن يكون قد أصبح يعده سرطانا في اللحظة التي عرف فيها كاترين ايفانوفنا ؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت من ايفان على غير ارادة منه، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة وأبلغ كشفاً عن الحقيقة . فكيف يمكن والحالة هذه أن نأمل أن يحل السلام والوئام بينهما ؟ أليس في هذا مزيد من أسباب الخلاف وعوامل الكره في داخل الأسرة ؟ وتساءل أليوشا خاصة أيهما في هذا النزاع أحق بالشفقة عليه والرثاء له ؟ وما

الذى ينبغى أن يتمناه لكل منهما ؟ انه يحبهما كليهما • ولكن فى أى مكان بين جميع هذه التناقضات توجد السعادة التى يتمناها لهما ؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشد الارتباك بين خيوط هذا الطرف المعقد المتشابك المشوَّش • وهو انسان ذو قلب لا يطيق الحيرة ، لأن حبه يتصف دائما بأنه حب فعال • انه لا يعرف الحب الذى يقف ساكنا بغير حركة • فمتى أحب أصبح يحترق شوقا الى أن يبادر الى المساعدة ، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدد لنفسه غاية ، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكل من أخويه ، حتى اذا عرف ذلك كان سهلا عليه عندئذ أن يخدم قضيتهما • ولكن كل شىء فى حياتهما كان اضطرابا واختلاطا وتعقيدا وابهاما ، وا أسفاه ! فأين يمكن الاهتداء الى غاية معينة وهدف محدد فى داخل ذلك كله ؟ لقد ذُكر أمامه تعبير « الميل الى التمزق » أو « حب التمزق » • فكيف يؤول هذا التعبير ؟ يبدو أن الكلمة الأولى فى هذا اللغز كانت تفوت فكر أليوشا •

ما ان دخل أليوشا فرأته كاترين ايفانوفنا ، حتى أسرعت تقول لايفان فيدوروفتش الذى وقف استعدادا للخروج ، حتى أسرعت تقول له فرحة فرحا واضحا :

ـ لحظة أخرى ! لا تنصرف فورا • أحب أن أعرف رأى هذا الشاب الذى أمحضه ثقة مطلقة •

ثم أضافت تخاطب السيدة هوخلاكوفا :

ـ ابقى أنت أيضا يا كاترين أوسيبوفنا •

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة هوخلاكوفا مجلسها أمامهما الى جانب ايفان فيدوروفتش •

وبدأت تقول بحرارة ، والدموع التى يدرك المرء أنها تهمُّ أن تسيل من عينيها ، تهدَّج صوتها بانفعال صادق أليم :

ـ أنتم جميعا أصدقائى ، أنتم أصدقائى الوحيدون فى هذا العالم ..
يا أصدقائى الأخيار ، الأوفياء ...

أحس أليوشا فى تلك اللحظة أن المرأة الشابة قد غزت قلبه من جديد .

وتابعت كلامها تقول :

ـ لقد شهدت بالأمس ذلك المشهد يا ألكسى فيدوروفتش ... شهدت ذلك المشهد الفظيع ، ورأيت كيف تصرفت أنا ... أنت لم ترنى فى تلك اللحظة يا ايفان فيدوروفتش ، أما هو فقد رآنى . لا أدرى ما الذى رآه فىَّ من رأى فى تلك الظروف . ولكنى فى مقابل ذلك أعلم علم اليقين أننى لو وُجدت اليوم فى موقف مماثل لكان ردّى هو الرد الذى بدر منى أمس ، مع تلك العواطف نفسها ، وتلك الأقوال نفسها ، وتلك الحركات نفسها . انك تتذكر يا ألكسى فيدوروفتش الحركات التى بدرت منى أمس ، وقد اعتقدتَ أن من واجبك أن تثنينى ... (احمر وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات) . فاعلم يا ألكسى فيدوروفتش ، وأنا أعلن لك هذا جازمة قاطعة ، أننى عاجزة عن الاذعان لأى شىء ، عاجزة عن الرضوخ لأى شىء . واعلمْ أيضا أننى أصبحت لا أدرى فى هذه الساعة أأنا أحبه « هو » أم لا . اننى الآن أشعر نحوه « بشفقة » ، والشفقة علامة حب تافهة مسكينة حقيرة . واذا ظللت أحبه ، اذا ظللت أحبه رغم كل شىء ، فلن أرثى لحاله ، وانما سأكرهه من غير شك ...

أخذ صوتها يرتجف ، والتمعت دموع صغيرة فى أطراف أهدابها . واضطرب أليوشا . قال لنفسه : « هذه الفتاة انسان مخلص صادق ، و ... قد أصبحت لا تحب دمترى ! » .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ هذا صحيح ، صحيح كل الصحة !

ـ انتظرى يا كاترين أوسيبوفنا ! أنا لمّا أقل بعد الشيء الأساسي، لم أذكر القرار الذى اتخذته الليلة ولن أتراجع عنه • انني أوجس أن قرارى هذا سيعود عليّ بعواقب رهيبة ، ولكنني أعلم أنني لن أنكص على عقبيّ ، لن أتقهقر الى وراء ، مهما يحدث ، بأية حال من الأحـوال • لقد حسمت الامر على مدى حياتي كلها • وان صديقي المخلص الوفي ، ان ناصحي النبيل الطيب الذى يعرف قلبي معرفة عميقة ، ان ايفـان فيدوروفتش الصديق الوحيد الذى أنعم بصداقته فى هذا العالم ، يؤيد رأيي تأييدا تاما ، ويطرى قرارى الطراءً كاملا ، ويشجعني على المضى فيما عقدت النية عليه ••• وقد عرف قرارى •••

قال ايفان فيدوروفتش بصوت رفيق لكنه حازم :

ـ أنا أؤيد قرارك ••• هذا صحيح !

ـ أحب مع ذلك أن يقول لى أليوشا (أوه ••• اغفر لى يا ألكسى فيدوروفتش انني سميتك أليوشا) ، أحب أن يقول لى ألكسى فيدوروفتش هو أيضا ، بحضور صديقيّ ، أأنا على حق أم لا ؟

وتابعت تقول بحماسة وهي تمسك بيدها الحارة يدَ أليوشا الباردة:

ـ أنا على يقين غريزى ، يا أليوشا أخى (ذلك أنك أخى العزيز الغالى) ••• أنا على يقين ••• أنا أحس أن جوابك وتأييدك سـيعيدان السلام الى نفسى رغم كل ما أقاسيه الآن من ألوان العذاب ، واننى سأقبل مصيرى وأرتضى قدرى بعد أن أسـمع كلامك ••• نعم ، أنا أحس ذلك !

قال أليوشا وقد تخضب وجهه بحمرة قانية :

ـ لا أعرف ما هو الامر ! ولكنني أحبك بكل قلبي ، وأحرص على سعادتك أكثر من حرصي على سعادتي ...

ثم أسرع يضيف ، لا يدرى أحد لماذا :

ـ على أنني لا أفهم في هذه الأمور شيئاً .

ـ في هذه الامور ، يا ألكسي فيدوروفتش ، المسألة الآن مسألة شرف وكرامة وواجب ، وربما شيء آخر أيضا ، شعور لا أستطيع أن أعرّفه ، ولكنه فوق الواجب . هو نداء أعلى أسمعه في قلبي ، وقوة لا تقاوَم تهيب بي أن ألبيه . وأُجمل فأقول انني قد اتخذت قراري ، واليك هذا القرار : هَبْهُ تزوج هذه ... المخلوقة (هنا أصبح صوتها مهيباً) ... هبه تزوج هذه المخلوقة التي لن أغفر لها أبدا ، أبدا ... فانني لن أتركه هو ، حتى في هذه الحالة ! ... لن أتركه بعد اليوم ، وسأظل دائما الى جانبه (كذلك قالت بنوع من حماسة غريبة حزينة) . لن أتعلق بكمّه طبعا ، لن أحاصره بوجودي دائما ، لن أعذبه بحبي أبدا ... بالعكس ... سأسافر الى مدينة أخرى ، الى مدينة نائية ، نائية كل النأى اذا اقتضى الامر ذلك ، ولكنني سأظل أهتم به من بعد ، وأسهر عليه طوال حياتي لا أكل ولا أمل . فاذا شقي مع الأخرى ـ وذلك أمر لن يتأخر كثيرا ـ فلن يكون عليه الا أن يعود الىّ ، فيجد فيّ صديقة مخلصة ، أختاً حنونا ... أختاً لا أكثر ... طبعا ... ذلك أن كل شيء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود في المستقبل . يجب أن يعلم يومئذ انني أخت له حقا ، أخت مخلصة ضحّت في سبيله بحياتها كلها . سوف أحسن التصرف بحيث يعرفني أخيرا ، سوف أجبره على أن يعرفني ، وسيصل من ذلك الى الاعتماد عليّ بلا خجل . سأكون الاله الذي يصلي له : ذلك أقل ما يجب عليه لي تكفيرا عن خيانته وعمّا قاسيته أمس بسببه ! يجب أن يعرف وأن يرى في جميع أيام حياته أنني وفية له

الى الأبد ، وأنني أحفظ العهد رغم أنه خانني وهجرني . سأكون ...
سأصبح ... سأجعل نفسي أداةً لسعادته (أحسب أنني لا أجيد التعبير عما بنفسي) ، سأجعل نفسي آلة تصنع له السعادة ، وذلك طوال حياتي ، طوال حياتي ... ليرى هو هذا طوال حياته ! ذلك هو قراري ! ان ايفان فيدوروفتش يؤيدني تأييدا كاملا .

كانت تلهث . لا شك أنها كانت تتمنى أن تفصح عن نفسها افصاحا أرصن وأبرع وأيسر ، غير أن كلماتها قد تدفقت سريعة ، مترجمة عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف . ان المرء يحس ، في جميع ما قالته ، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأمس وحاجتها الى تأكيد عزتها وكبريائها من جديد . وقد أدركت هي ذلك على حين فجأة ، فأظلم وجهها والتمع في عينيها تعبير شرير . ولاحظ أليوشا هذا ، فأخذته بها شفقة . وتدخل ايفان في تلك اللحظة يقول :

ـ أنا لم أعبِّر الا عن رأيي الشخصي . ان عواطف من هذا النوع كان يمكن أن تبدو ، عند أية امرأة أخرى غيرك ، عواطفَ مصطنعةً مفتعلة هي ثمرة جهد ارادي شاق أليم معذِّب ، أما عندك أنت فلا ... لو تصرفت امرأة أخرى هذا التصرف لكانت على خطأ ، أما أنت فلا .. لست أدري كيف أعبِّر عن شعوري ، ولكنني ألاحظ أنك صادقة الى أبعد حدود الصدق ، فاستنتج من ذلك أنك على صواب .

فلم تستطع السيدة هوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول :

ـ هي صادقة ، ولكن خلال لحظة واحدة ! ما قيمة قرار عابر سريع تتخذه وهي تحت وطأة اهانة الأمس ؟ ذلك هو السبب في قرارها هذا !

كان واضحا أن السيدة هوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم نفسها

فى المناقشة ، ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فأفلتت منهـا هـذه الملاحظة السديدة •

فقال ايفـان بعنف مكظوم ، وقـد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطعته :

ـ صحيح ••• غير أن ما يمكن أن لا يكون لدى امرأة أخرى الا اندفاعا مؤقتا مردُّه الى حادث الأمس ، لا يمكن الا أن يبقى مدى الحياة لدى امرأة لها طبع كطبع كاترين ايفانوفنا • ان ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية الا كلاماً يُطلق فى الهواء ووعداً ما يلبث أن ينسى ، لا بد أن يصبح لدى فتاة مثل كاترين ايفانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمرا قد قد يكون قاسيا أليما حزينا ، ولكنه لا مفـر منه ولا عدول عنـه • ان كاترين ايفانوفنا ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها • ان حياتك ، يا كاترين ايفانوفنا ، ستنقضى بعد اليوم فى تأمل أليم لعواطفك وبطولتك وشقائك • على أن هذا الشقاء ستخف وطأته مع الزمن ، وسيستحيل شيئاً فشيئاً الى رضى هادىء عـذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار جرىء فيه كبرياء ••• نعم فيه كبرياء بمعنى من المعانى ، ولكن فيه يأس فى الدرجة الأولى ••• وستنتصرين آخـر الأمر ••• وسيملؤك هذا الشعور يومئذ بفرح هادىء وغبطة ناعمة ، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك •••

تكلم ايفان بلهجة نافذة فيهـا غضب مكبوح • وكان واضحا أنه يسخر وأنه لا يريد أن يتخفى ، ولعله كان يتمنى أن تُدرَك سخريته•

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ هذا كله خطأ ، هذا كله زيف !

فقالت عندئذ كاترين ايفانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خدها :

ـ ألكسى فيدوروفتش ! هلاّ قلت رأيك أخيرا ! اننى أشعر بحاجة شديدة قاهرة الى معرفة رأيك •

نهض أليوشا عن الديوان •

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة من خلال دموعها :

ـ ليس هذا بشىء ، ليس هذا بشىء البتة • اننى مرهقة الأعصاب بسبب هذه الليلة التى قضيتها أرقة مسهّدة • ولكننى ، بحضور صديقين مثلكما أنت وأخيك ، أشعر بأننى قوية ••• ذلك لأننى أعلم أنكما لن تتركانى أبدا •

قال ايفان فيدوروفتش فجأة :

ـ آسف • قد أضطر أن أسافر الى موسكو منذ الغد ، وأن أتركك فترة طويلة •

ـ الى موسكو ؟ منذ الغد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وتقبض وجهها • ثم أردفت تهتف قائلة بصوت تغير فجأةً ، وقد كفت دموعها عن المسيل حتى أصبحت آثارها لا تُرى :

ـ ولكن ••• ولكن هذا يقع فى حينه ••• يجىء فى وقته ! يا رب !

فما كان أشد دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذى حدث فى نفسها ! ان الفتاة الشقية المهانة التى كانت تبكى عواطفها منذ برهة ، وهى فى حالة توتر ممزِّق ، قد حلّت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل السيطرة ، وتبدو راضيةً ذلك الرضى الذى يعقب فرحاً مباغتاً •

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهى تبتسم ابتسامة مهذبة :

ـ أوه ... لا يذهبن بك الظن الى أنني ابتهجت لتركك ... طبعا لا ... ان صديقا مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب ، وأن ينسب لي مثل هذه العواطف ... بالعكس : انني لأحزن أشد الحزن حين أتصور أنني سأفقدك (قالت ذلك واندفعت نحو ايفان فيدوروفتش ، فأمسكت يديه وشدتهما بكثير من الحرارة) . ولكنه حظ سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتي ولأختي آجاتي ، في موسكو ، الظرف الذي أنا فيه . حدثهما عن فظاعة الأيام التي عشتها هنا ، فأما مع آجاتي فبصراحة ، وأما مع عمتي العزيزة فبشيء من المداراة. واني لواثقة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما على حقيقة الأمور . لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من عذاب وأنا أتساءل كيف أتدبر أمري لأكتب اليهما هذه الرسالة الرهيبة ... ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروى هذه الأشياء كتابة ... أما الآن فقد أصبح الأمر سهلا : ستلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شيء! آه ... ما أسعدني ! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحي . صدقني ! ... وانك لتعلم أنت نفسك على كل حال ، أنه مامن شيء يمكن أن يحل عندي محل صداقتك ...

وختمت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة وهي تتجه نحو باب الغرفة :

ـ سأكتب الرسالة حالا .

فسألتها السيدة هوخلاكوفا بلهجة لاذعة حانقة :

ـ وأليوشا ؟ أليوشا الذي كنت تحرصين ذلك الحرص كله على أن تعرفي رأيه ؟

فأجابتها كاترين ايفانوفنا قائلة :

ـ ما نسيته •

ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة ومودة :

ـ ولكن لماذا ، لماذا تظهرين لى الآن هذه العداوة كلها يا كاترين أوسيبوفنا ؟

وتابعت تقول :

ـ ما زلت مصرّة على ما قلته • اننى لا غنى لى عن معرفة رأيه• بل اننى أريد منه أكثر من هذا : أريد منه أن يتخذ لى قرارا • وسأتبع ما ينصحنى به • فانظر يا ألكسى فيدوروفتش الى أى مدى أنا فى ظمأ الى سماع كلامك ••• ولكن ماذا بك ؟

صاح أليوشا يقول فى ألم :

ـ ما كان لى أن أصدّق هـــذا فى يوم من الايام ! ما كان لى أن أتخيل هذا فى يوم من الايام !

ـ ماذا ؟

ـ يسافر الى موسكو ثم تهتفين قائلة : ما أسعد ذلك ! لقد قلت هذا عامدةً ! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تغتبطين لسفره ، وأنك على عكس ذلك يُحزنك فقده • وهذا أيضا قلته عامدة ••• كما فى المسرح ••• كما لو كنت تمثلين تمثيلاً ! •••

ـ كما فى المسرح ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

كذلك سألت كاترين ايفانوفنا بحرارة وقد بلغت أوج الدهشة •

لقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وقطبت حاجبيها •

واستأنف أليوشا كلامه :

ـ وفيما ترددين على مسامعه أنك حزينة لحرمانك من صديق عزيز ، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره الى موسكو يملؤك ارتياحاً •

ـ الى ماذا تريد أن تصل ؟ ما الذى تريد أن تستنتجه ؟ اننى لا أفهم •

ـ أنا نفسى لا أعرف تماما ••• لقد تراءت لى الحقيقة فجأة كأنما فى ضوء برق •••

وتابع أليوشا كلامه يقول بصوت يختلج ألماً حتى ليوشك أن ينكسر :

ـ أنا أحس أننى أرتكب خطأ اذا عبرت عن مشاعرى ، ولكننى سأقول ما بنفسى مع ذلك • اليك ذلك الضوء الذى رأيته : انك لا تحبين أخى دمترى •• ولعلك ما أحببته فى يوم من الأيام ••• ثم ان دمترى أيضا لا يحبك ••• فيما أظن ••• لا هو يحبك الآن ، ولا هو أحبك فى الماضى •• وانما هو يقدرك ويحترمك فحسب ••• اننى أتساءل : ما الذى يجيز لى أن أكلمك هكذا ••• ولكن لابد أن يعزم أحدٌ أمره على أن يقول الحقيقة أخيراً ••• ما دام لايريد أحد هنا أن يعترف بها •••

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول بصوت فيه شيء من الهستريا :

ـ أى حقيقة تعنى ؟ عن أية حقيقة تتكلم ؟

فتمتم أليوشا يقول وهو يحس أنه يهوى فى هاوية :

ـ عن أية حقيقة أتكلم ؟ اليك الحقيقة التى أتكلم عنها • استدعى دمترى ـ وأنا أعرف كيف يمكن العثور عليه عند الضرورة ـ استدعيه ، وليتناول يدك فيضعها فى يد أخى ايفان • انك لا تزيدين على أن تعذبى

ايفان ، وذلك بسبب بسيط ، هو أنك تحبينه ـ وأنت انما تعذبينه لشغفك بالتمزق ••• لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمترى ••• حباً لا تشعرين به البتة ••• وتحاولين أن تقنعى نفسك به •

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت •

ـ ما أنت ••• ما أنت الا أبله صغير ••• ما أنت الا يوروديفوى ••• ذلك أنت !

كذلك قالت كاترين ايفانوفنا بصوتها القاطع الجازم ، وقد شحب وجهها شحوباً شديدا وظهر على شفتيها انهما تنعقفان غضبا مسعورا •

وأخذ ايفان فيدوروفتش يضحك فى تلك اللحظة ، ونهض عن مكانه حاملاً قبعته بيده • وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر فى وجهه تعبير لم يره فيه أليوشا قبل ذلك يوما ، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين ، ويفيض صراحة منطلقة على سجيتها :

ـ أنت مخطىء يا أليوشا • فان كاترين ايفانوفنا ما أحبتنى فى يوم من الأيام • وكانت تعلم منذ البداية أننى أحبها ، رغم أننى لم أحدثها فى حبى قط • كانت تعلم ذلك ، ولكنها لم تحبنى • لا ولا كنت صديقها فى ظرف من الظروف • ان هذه المرأة المتكبرة لم تكن فى حاجة الى صداقتى • وهى لم تحتفظ بى الى جانبها الا لتستطيع ارواء ظمئها الى الانتقام ، الا لتثأر منى ، نعم منى أنا ، لجميع الاذلالات والاهانات التى أنزلها فيها دمترى منذ أول لقاء بينهما ••• ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد بقى فى نفسها اهانة أليمة وجرحاً بالغاً • هذه هى كاترين ايفانوفنا ! وأنا لم أجىء الى هنا الا لأصغى اليها متحدثةً عما تحمله من حب لدمترى • وسأنصرف الآن • ولكن اعلمى يا كاترين ايفانوفنا أنك لا تحبين حقاً الا دمترى • وستحبينه مزيداً من الحب على قدر ماسيذلك

مزيدا من الاذلال . ذلك هو تمزقك كله ! فأنت انما تحبينه كما هو ؟ أنت انما تحبين فيه الرجل الذى يهينك ! ولو أصلح نفسه فى يوم من الأيام ، اذن لكففت عن الاهتمام به فوراً ، ولأشحت وجهك عنه حتماً . ولكنك محتاجة اليه ، كيما تستطيعى أن تأملى منظر وفائك البطولى ، وكيما يتاح لك أن تأخذى عليه خياناته ... وذلك كله زهواً وصلفاً وتكبرا ! ان ههنا جحيما من مذلة تريدينها وتتحملينها ، والكبرياء هى التى تدفعك دفعا الى السعى وراء هذا الجحيم ... اننى ما زلت فى ريعان الشباب ، ولقد أحببتك فأسرفت . والآن أدرك أن ابتعادى صامتا أحفظ لكرامتى أنا ، وأخف وطأة على جروحك أنت . ولكننى سأسافر الى مدينة نائية ، ولن أراك بعدئذ أبدا . لقد سئمت من أن أكون شاهدا أبديا على تمزقاتك النفسية ! ... أحسب أننى لا أحسن التعبير الآن عما يختلج فى قلبى ويدور فى خلدى . ولقد انتهى الأمر على كل حال ... لقد قيل كل شىء ... فوداعاً يا كاترين ايفانوفنا . وليس من حقك أن تؤاخذينى وأن تحقدى على ، لأن العقاب الذى أناله أنا أقسى كثيرا من العقاب الذى تنالينه أنت . حسبى عقاباً أننى لن أراك بعد اليوم أبداً . وداعاً ! لا تمدى الىّ يدك . لقد آلمتنى ايلاماً فيه من الوعى والعمد ما يجعلنى لا أستطيع أن أغفر لك فى هذه اللحظة . قد أنساك فى المستقبل ، أما الآن فلا أستطيع أن أصافح يدك .

ثم أضاف ينشد هذا البيت من الشعر :

بالشكر يا سيدتى لا احفل *

وقد أنشد هذا البيت من الشعر وهو يبتسم ابتسامة يجبر نفسه عليها اجباراً ، مبرهناً بهذا الاستشهاد ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، أنه يستطيع هو أيضا أن يقرأ الشاعر شيلر فى هوى وشغف ، وأن

يحفظ أبياتا من شعره على ظهر القلب ، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن يتخيله من قبل • ثم خرج من الغرفة حتى دون أن يودع ربة البيت •

صاح أليوشا يناديه بصوت تائه ، ضاماً يديه احداهما الى الأخرى:

ـ ايفان ، ايفان ! ارجع يا ايفان ، ارجع !

ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ فى نفسه يقين مباغت :

ـ لا ••• لا ••• انه لن يعود ••• لن يعود مهما يكن الثمن••• أنا أعرف ذلك • هى غلطتى ، هى غلطتى أنا ••• اننى بما قلته سبب هذا كله ! لقد قال ايفان أشياء شريرة ظالمة ••• ما كان ينبغى له أن •• هذا ظلم ! •••

وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة غير مترابطة ، كمجنون !

وفى تلك اللحظة مضت كاترين ايفانوفنا الى الغرفة المجاورة •

وهمست السيدة هوخلاكوفا تقول لأليوشا فى أسف ولوعة :

ـ ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه • بالعكس : لقد تكلمت كملاك • سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر ايفان •

وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسة ، وأشرق وجهها فرحاً، رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد • ولكن كاترين ايفانوفنا رجعت فى تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملة ورقتين نقديتين كل منهما بمائة روبل •

وقالت تخاطب أليوشا مباشرة ، بلهجة هادئة طبيعية الى أقصى حد، كأن شيئا لم يحدث :

ـ لى عندك رجاء كبير يا ألكسى فيدوروفتش • منذ أسبوع •••

نعم، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع ... ثار دمترى ثورة عنيفة ظالمة، فأباح لنفسه ارتكاب فعلة كريهة . ان فى هذه المدينة مكانا مشبوها هو نوع من « كاباريه »، التقى فيه دمترى، فى ذلك اليوم، بضابط محال على التقاعد هو ذلك الضابط الذى يستعين به أبوك فى بعض شئونه . وقد غضب دمترى من هذا الرجل غضبا شديدا، لا أدرى لماذا، فأمسكه من لحيته وجرّه الى الشارع جراً سفيهاً على مرأى من جميع الناس، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً خلال مدة طويلة . وقد ذكر الذين شهدوا الحادث ان ابن هذا الضابط، وهو صبى يختلف الى مدرسة المدينة، صبى صغير فيما يبدو، قد أخذ يركض الى جانب أبيه باكياً ناشجاً منتحباً متوسلاً الى أخيك أن لا يؤذى أباه، متضرعا الى شهود الحادثة أن يتدخلوا لحماية أبيه، ولكن أحدا لم يسمع له ولم يصغ اليه، وانما كانوا جميعا يضحكون. معذرة يا ألكسى فيدوروفتش ! ولكننى لا أستطيع الا أن أشعر باستياء شديد واستنكار عظيم حين أتذكر هذا السلوك المخزى الذى سلكه أخوك فى ذلك الظرف، حين أتذكر تلك الفعلة المشينة التى لا يستطيع أن يقدم عليها أحد فى هذا العالم غير دمترى فيدوروفتش بأهوائه الجامحة وعيوبه الكثيرة ! بل اننى لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب، فذلك يفوق طاقتى ... لذا ترانى أتيه فى سردها واضطرب ... وقد سألت عن الرجل الذى أهانه أخوك هذه الاهانة، فعرفت أنه يعيش فى فقر مدقع وبؤس رهيب . ان اسمه هو سنيجيريف . لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته فى الجيش، فسُرِّح ... لا أدرى تماما . وقد صار هو وأسرته البائسة، أولاده المرضى وامرأته المجنونة فيما أظن، صاروا أخيرا الى حالة رهيبة من العوز والفاقة . انه يعيش فى هذه المدينة منذ مدة طويلة، وكان قد وجد وظيفة فى مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين

فجأة . عندئذ خطـــرتَ أنت ببالى ... أو قل انني قدَّرت أن ... لا أدرى ماذا دهانى حتى صرت لا أعرف ماذا أقـول ... ان كلامى مضطرب . أردت أن أرجوك يا ألكسى فيدوروفتش ، يا عزيزى الطيب الشهم ألكسى فيدوروفتش ، أردت أن أرجوك أن تذهب الى هذا الرجل متذرعا بحجة مناسبة ، متعللا بعذر لائق ، فتراهم ، أقصد ترى هـــذا الضابط ... أوه ... رباه ! انني أخلط كل شيء ... فتعطيه هـــذه المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة ، كريمة ... كما لا يستطيع أحـــد أن يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هـــذه الكلمات) ، أن تعطيه هاتين المائتين من الروبلات بأسلوب مرهف حكيم محاذر . انه سيقبل هذه المساعدة حتماً ... أقصد أن عليك أن تلح فى سبيل أن يقبلها ... هل فهمت ما أقصده ؟ اللهم الا أن .. ولكن لا.. يجب أن تشرح له أن الامر ليس استرضاءً له حتى لا يشكو أمره الى القضاء (يبدو أنه نوى أن يشكو أمره الى القضاء فى لحظة من اللحظات)، وانما هو شعور بالمودة له ، ورغبة فى مد يد المساعدة اليه . وليعلم أيضا أن هذا المبلغ هو منى أنا ، منى أنا ، أى من خطيبة دمترى فيدوروفتش ، لا من دمترى فيدوروفتش نفسه ... الخلاصـــة : ســـتعرف كيف تتصرف ... كان يمكن أن أذهب اليه أنا ، ولكنى أعلم أنك ستدبر الأمر خيراً منى . انه يسكن فى « شارع البحيرة » عند امرأة من سكان المدينة اسمها كاليكوفا ... قدم لى هذه الخدمة يا ألكسى فيدوروفتش ، أرجوك ، أتوسل اليك ... أشعر الآن بأنى متعبة ... أشــعر شيء من الاعياء ... الى اللقاء ...

قالت ذلك واستدارت على عقبيها وبلغت من الاسراع الى الاختفاء وراء الباب أن وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمـــة واحـــدة . وكان أليوشا مع ذلك يشـــعر بحاجة قـــوية الى أن يكلمها . كان يريد أن

يستغفرها ، أن يعتذر اليها ، أن يتهم نفسه أمامها ، لأن قلبه كان يفيض في تلك اللحظة حباً ، فلم يعزم أمره على مبارحة الغرفة . ولكن السيدة هوخلاكوفا أمسكته من يده وقادته الى خارج الحجـــرة ، ثم توقفت في الدهليز ، كما فعلت قبل ذلك ، من أجل أن تكلمه .

قالت له السيدة هوخلاكوفا بصوت خافت :

ـ انها متكبرة تصارع نفسها ، ولكنها طيبة ، رائعة ، كريمة ، الى أقصى الحدود . ليتك تعلم كم أحبها ، ولا سيما في بعض اللحظـات ، وكم يعاودني الشعور بالرضى من جديد ، وكم ترتد الي السعادة بكل شيء ! يجب علي يا ألكسي فيدوروفتش أن أبوح لك بشيء كنت تجهله حتى الآن . اعلم اننا جميعا ، جميعا ، أقصد أنا وعمتيها ، أي جميعـا ، وحتى ليزا ، كنا نتمنى ونتوقع ، منذ أكثر من شهر الى الآن ، أن تعـزم أمرها أخيرا على أن تقطع صلتها بدمتري فيدوروفتش الذي تؤثره أنت ، وذلك لأنه لا يريدها ولا يحبها ، وأن تتزوج ايفان فيدوروفتش الذي هو على جانب عظيم من سعة الثقافة وامتياز الطبع ، والذي يحبها أكثر مما يحب أي شيء في هذا العالم . حتى لقد دبّرنا مؤامرة لبلوغ هـذا المأرب وتحقيق هذا الهدف ، ولعل ذلك أيضا هـــو السبب في أنني لم أسافر بعد ...

صاح أليوشا يقول :

ـ ولكنها عادت تبكي من شعورها بالمذلة .

ـ لا تصدّق دموع النساء يا ألكسي فيدوروفتش ! أنا في هـــذه الحالات أتحيز للرجل على المرأة . أنا مع الرجال .

وهنا دوّى صوت ليزا الناحل من وراء الباب يهتف :

ـ ماما ، انك تفسدينه بالدلال ، انك تودين بك الى الهلاك !

وردّد أليوشا الحزين الذى لا سبيل الى عزائه ، ردد يقول وهو يشعر بخزى شديد من غضبته ، ويخفى وجهه بيديه خجلاً وحياء واضطرابا :

ـ شىء رهيب ! أنا سبب هذا كله ! لقد قارفت خطيئة لا تغتفر !

فقالت له السيدة هوخلاكوفا :

ـ بالعكس : لقد تصرفت تصرف ملاك ، تصرف ملاك ... لن أمل من تكرار هذا ...

وصاح صوت ليزا الناحل يقول مرة أخرى :

ـ كيف كان تصرفه تصرف ملاك ؟

وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا :

ـ لقد تراءى لى فجأة ، وأنا أنظر اليهما ، تراءى لى فجأة أنها تحب ايفان ، فأفلت منى ذلك الكلام الأحمق ... ما عسى يحدث الآن ؟ ...

ـ عمن تتكلمان يا ماما ؟ عمن تتكلمان ؟ انك تميتيننى يا ماما ! ألقى عليك أسئلةً ولا تجيبين ! ...

وفى تلك اللحظة دخلت الخادم مسرعة تقول :

ـ كاترين ايفانوفنا فى حالة سيئة ... الآنسة تبكى ... تتخبط كأنها فى نوبة هستريا ...

وعادت ليزا تصيح قائلةً فى هذه المرة بصوت قلق مروّع :

ـ هلاّ قلت لى يا ماما أخيرا ما هى الفضية ؟ ماما ، أنا التى سأصاب الآن بنوبة هسترية ، لا هى ! ...

ـ هدئى نفسك يا ليزا ، ناشدتك الله ! انك تقتليننى بهذا الصراخ! ان عمرك لا يسمح لك بعدُ أن تعرفى كل شىء كما يعـرفه الكبار . سأجىء اليك بعد قليل فأطلعك على ما يمكن أن أطلعك عليه . أوه ! رباه ! رباه ! أنا ذاهبة اليها ، أنا ذاهبة اليها ... نوبة عصبية ... ولكنْ هذه علامة طيبة يا ألكسى فيدوروفتش ! حسنٌ جداً أن تنتابها نوبة من هذا النوع ... ذلك ما يجب أن يحدث ... أنا أقف دائما ضدّ النساء فى هذه المناسبات ، ضد نوباتهن ودموعهن . يا جوليا ، امضى اليها فقولى لها اننى آتية اليها حالاً . سأدركها فوراً . على كل حال ليس عليها الا أن تحمّل نفسها تبعة خروج ايفان فيدوروفتش على ذلك النحو ! ولكنه لن يسافر . ليزا ، لا تصرخى ، لا تصرخى ، ناشدتك الله ! صحيح أنك لا تصرخين . فأنا التى صرخت . سامحى أمك يا ليزا ، ولكننى سعيدة، سعيدة جدا ، سعيدة سعادة رهيبة ! هل لاحظت يا ألكسى فيدوروفتش كم كان وجهه فتياً ، أخوك ايفان ، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو ؟ انه يُشعر بأنه مثقف جدا ، عالم جدا ، ثم ها هو ذا يكشف فجأة عن أنه شاب حقا ، حار القلب ، صادق النفس ، يزخر بنضارة الفتوة ، وهو قليل التجربة ، قليل التجربة جدا . آه ... ما أروع هـذا ، ما أجمله ، ما أعظم أثره فى الفؤاد ! هو مثلك تماما ! .. وهذا البيت من الشعر الذى رواه ، هذا أنت أيضا ... أنا ذاهبة اليها الآن ، أنا ذاهبة اليها .. أسرع يا ألكسى فيدوروفتش ، فقم بالمهمـة التى عهدت بها اليك ، ثم ارجع الى هنا بأقصى سرعة . ليزا ! ألست فى حاجة الى شىء ؟ أستحلفك بالله أن لا تؤخرى ألكسى فيدوروفتش ، سيعود اليك بعد بضع لحظات..

وخرجت السيدة هوخلاكوفا أخيرا مسرعة •

حاول أليوشا ، قبل انصرافه ، أن يدخل على ليزا ، ولكن البـاب كان مغلقاً • وهتفت ليزا تقول له :

ـ أبدا ••• مستحيل ••• لن أطيق الآن أن تجيء الى ••• تكلم من خلف الباب • ما الذى جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك ؟ هذا هو الأمر الوحيد الذى أحب أن أعرفه •

ـ هو قولى كلاماً سخيفا غبياً يا ليزا !

صاحت ليزا تقول :

ـ لا أسمح لك أن تمضى هكذا !

ـ ليزا ! ان بى حزناً كبيرا • سأعود بعد قليل • ان عذابى كبير ، كبير جدا ، صدقينى •

وخرج مسرعاً •

٦

التمزق في الخربة

نعم كان حزنه كبيرا جدا قلما شعر بمثله من قبل. لماذا تعجل فقال ذلك الكلام ؟ لقد ارتكب « حماقة » ! وفي أي موضوع ؟ في موضوع حب ... « أنا أعلم حق العلم أنني لا أفهم في هذا الأمر شيئا ، فكيف أمكن أن أدعي ادراك شأن من هذه الشئون ادراكا واضحا ؟ » . كذلك ردد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمر خجلاً وحسرة . « ليس العار الذي أشعر به شيئا يذكر ، فهو العقاب الذي أستحقه وانما الشقاء الحق هو أنني سأكون سبب كوارث جديدة.. لقد أرسلني شيخي العالم لأوحد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين ، أفبهذه الطريقة يكون ذلك ! » . وتذكر أليوشا في تلك اللحظة اليدين اللتين أراد أن يضع احداهما في الأخرى ، فازداد اضطرابه الى أقصى حد . وأخيرا قال لنفسه دون أن يتخفف من ألمه ، ودون أن يسرى عنه : « لئن كان تصرفي مخلصاً في تلك المناسبة ، فيجب أن أبرهن في المستقبل على مزيد من الذكاء والعقل » .

ان المهمة التي كلفته كاترين ايفانوفنا أن يقوم بها ، تضطره أن يذهب الى « شارع البحيرة » . وأخوه دمتري يسكن غير بعيد عن هناك، في زقاق جانبي . فقرر أليوشا أن يرى أخاه على أية حال قبل أن يمضي

الى الضابط المتقاعد ، رغم احساسه بأنه لن يجده في منزله • كان أليوشا يشعر أن أخاه سيحاول أن يتجنبه بعد اليوم ، ولكنه أراد أن يعثر عليه مهما كلف الأمر • والوقت يمضي في أثناء ذلك سريعا • وصورة الشيخ المحتضر لم تبارح أليوشا لحظة واحدة منذ خرج من الدير ، فهي تلاحقه حيثما يذهب •

هناك نقطة أشارت اليها كاترين ايفانوفنا ، فأثارت انتباهه اثارة قوية • لقد جاءت على ذكر ابن ذلك الضابط ، تلميذ المدرسة الذي كان يركض الى جانب أبيه باكياً منتحباً ؟ وقد قال أليوشا لنفسه في تلك اللحظة : لابد أن هذا الولد هو الصبي الذي عضه في أصبعه ، حين سأله فيم أساء اليه • وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقين من أنه هو ذلك الصبي نفسه ، دون أن يدرك سبب هذا اليقين ادراكاً واضحاً • وقد صرفته هذه التأملات لحظةً عن همومه الثقيلة ، واذ استرد شجاعته ورباطة جأشه قرر أن لا « يجتر » بعد الآن طويلاً فكرة تلك الخرافة التي بدرت منه وتلك « المصيبة » التي سبَّبها ، وأن لا يرهق نفسه بعد الآن بحسرات عقيمة وأسف لا جدوى منه ولا طائل تحته ، وانما يعمل ويرى كيف ستجرى الأمور • وقد سرِّى عنه هذا القرار وخفف ما كان يشعر به من حزن ثقيل • ولاحظ عندئذ أنه جائع ، فلما دخل في الزقاق المؤدي الى حيث يسكن دمترى ، أخرج من جيبه رغيف الخبز الصغير الذي أخذه من عند أبيه ، فأكله ، فاسترد شيئاً من قوته •

لم يكن دمترى في المنزل • فلما سأل أليوشا أهلَ المنزل ـ وهم نجار عجوز وامرأته وابنهما ـ أخذ هؤلاء يلقون على أليوشا نظرات متغطرسة فيها شك وحذر وتخوف •

قال العجوز لأليوشا الذي ألح في السؤال عن أخيه :

ـ انه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال ، فلعله سافر •

فبدا لأليوشا أن جواب العجوز تنفيذ لأوامر أصدرها اليه دمترى.

قال أليوشا يسأل العجوز مرة أخـــرى ، متعمدا أن يذكـــر هذه المعلومات السرية :

ـ أتراه عند جروشنكا ؟ أم تراه مختبىء عند توماس مثلاً ؟

ولكن أصحاب الدار رشقوه بنظرة تشبه أن تكون مذعورة . فقال أليوشا لنفسه : « هم يحبونه اذن ، ما داموا ينحازون الى صفه . » .

قفل أليوشا راجعا ووصل أخيرا الى « شارع البحيرة » ، أمام منزل ساكنة المدينة الصغيرة كاليكوفا ، وهو خربة عتيقة متداعية ليس لهـا الا ثلاث نوافذ تطل على الشارع ، وفناؤها قذر جدا رأى فيه أليوشا بقرة. ان الدخول الى الفناء يتمُّ عبرَ حجرة صغيرة تتصل من الجهة اليمنى بمسكن صاحبة البيت العجوز وابنتها المتقدمة في السن كثيرا هيالأخرى. والمرأتان تبدوان صماوين قليلا ، فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله عن الضابط عدة مرات . وفهمت احداهما أخيرا أن أليوشا انما يسأل عن الرجل القاطن في دارهما مستأجرا ، فأومأت باصبعها نحو الجهـة الاخرى من حجرة الدخول ، مشيرةً الى الغرفة التى هى أفضل غرفة فى الدار . ان الضابط المتقاعد يحتل فى الواقع غرفة واحدة .

وضع أليوشا يده على قبضة الباب وهمَّ أن يفتحه ، ولكنه لم يلبث أن أمسك عن فتح الباب ، ذلك أنه قد ذهل من الصمت المطبق الذى يخيم فى الجو . لقد كان يعرف مما قالته له كاترين ايفانوفنا أن الضابط المتقـــاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفســـه : « انهم نائمون ، أو انهم أحسوا بمقدمى فهم ينتظرون دخولى عليهم ، فالأفضل أن أقرع الباب». وقرع الباب فعلاً ، فأُجيب ، ولكن الجواب لم يجىء رأساً ، وانما تأخر نحو عشر ثوانٍ .

قال صوت خشن حانق :

ـ من ؟

ففتح أليوشا الباب واجتاز العتبة ، فاذا هو يجد نفسه في غـرفة واسعة سعةً كافية ، ولكنها مزدحمة أشد الازدحام بالأشخاص وأنواع الأمتعة المنزلية • فعلى الشمال مدفأة روسية كبيرة ؛ وفي تلك الجهة نفسها حبل مشدود من أول الغرفة حتى النافذة ، قد عُلِّقت عليه أنواع الملابس الداخلية ؛ وعلى طول الجدارين الجانبيين يمتد سريران فوق كل منهما غطاء من نسيج التريكو ، فأما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام من النوع الهندي قد نُضِّد بعضها فوق بعض على شكل هرم ، وأما سرير الجهة اليمنى فليس عليه الا وسادة واحدة صغيرة ؛ وفي ركن ضيق تفصله عن الغرفة ستارة مشدودة بحبل أيضا قد هيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يكمِّلها كرسي ، والسرير لا يُرى الا جزء منه ؛ وتحت النافذة الوسطى مائدة من خشب مستطيلة الشكل بسيطة كل البساطة ، هي من نوع تلك الموائد التي تُرى كثيرا في بيوت الفلاحين • والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة ، تبدو مغبرة فلا يتسلل منها الا ضوء قليل ؛ ولقد كانت مغلقة على كل حال ، فالغرفة بسبب ذلك مظلمة يشـعر فيها المرء باختناق • وعلى المـائدة ترى قدر صغيرة ذات مقبض ، وصحفة فيها بقايا بيض ، وقطعة خبز ناقصة، وابريق خمر يتسع لنصف لتر ، ولكنه يكاد يكون فارغاً • وقرب السرير الأيسر تجلس امرأة لها شيء من مظهر سـيدة • انهـا ترتدي ثوباً من قماش هندي ، وهي ناحلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفان جدا ينبئـان بحالتها المرضية من أول وهلة • وقد فوجيء أليوشا خاصةً بتعبير نظرتها الذي ينم عن تساؤل وتعالٍ في آن واحد • وفيما كان أليوشا يكلم رب المنزل ، والى أن تدخلت هي في الحديث ، لم تكفَّ عن تنقيل نظرتها

بين الرجلين معبِّرة عن ذلك التساؤل نفسه ، وذلك الاستعلاء نفسه. والى جانب السيدة ، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليسرى تقف فتاة يمكن أن تعد دميمة الوجه ، ترتدي ثيابا فقيرة ولكنها محتشمة ؛ لها شعر قليل الغزارة يضرب لونه الى حمرة؛ وكانت تتفرس في أليوشا باحتقار وازدراء. وعلى اليمين ، قرب السرير أيضـــا ، تجلس امرأة أخرى هي مخلوقة بائسة ، فتاة في نحو العشرين من عمرها ، حدباء الظهر مقعدة متيبسة الساقين ، كما شُرح ذلك لأليوشا فيما بعد ؛ وتُرى عكازتاها في الزاوية بين السرير والجدار . غير أن لها عينين رائعتين تشعان طيبة ، وهي تلقي على أليوشا نظرة متواضعة عذبة حلوة . وهذا رجل في نحو الخامســة والأربعين من عمره قد جلس الى المائدة ينتهي من أكل بيضة مقلية . انه قصير القامة ، جاف الجلد ، نحيل الجسم أعجف يضرب لونه الى حمرة هو أيضا ، تذكر لحيته الحمراء المتناثر شعرها بليفـــة من الليف الذي يستعمل في الحمام . (ان هذا الشبه بين لحية الرجل وبين ليفة الحمام قد خطف بصر أليوشا رأساً ، فسرعان ما برق في ذهنه تعبـــير « ليفة الحمام» الذي استعمله تلاميذ المدرسة ، كما تذكر أليوشا ذلك فيما بعد. واضح أن هذا الرجل هو الذي صاح من وراء الباب يسأل : من ؟ ذلك أنه لم يكن في الغرفة رجل سواه . فلما رأى أليوشا نهض عن المـائدة بحركة مفاجئة ، وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقَّبة ، تقدم نحو الزائر مسرعاً .

قالت الفتاة الواقفة في الزاوية اليسرى :

ـ هذا راهب يجمع الصدقات لديره . يميناً لقد عرف الى أين يجيء ! ...

ولكن الرجل الذي اقترب من أليوشا التفت اليها بسرعة عسكرية، وأجابها يقول بصوت قلق متقطع :

ـ فى هذه المرة أخطأت يابربارا نيكولايفنا ! ليس الأمر ماتصورت.

ثم استأنف كلامه يقول ملتفتاً الى أليوشا من جديد :

ـ هل لى أن أسألك ما الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ... فى هذا المكان الحقير ؟

تفرس أليوشا فى هذا الرجل الذى يراه أول مرة . ان فى مظهره شيئاً من التكسر والتعجل والحنق . لا شك أنه كان قد شرب ، ولكنه لا يبدو ثملاً . وفى وجهه تُرى وقاحة قصوى ، ولكن يُرى فى الوقت نفسه جبن شديد ، وهذان أمران يدهش المرءَ اجتماعهما ... ان هيئته هيئة انسان اضطر زمنا طويلا الى احتمال الذل وقبول الخضوع والاستكانة ولكنه يهب الآن فجأة ليؤكد ذاته من جديد ؟ أو قل بتعبير أدق ان هيئته هيئة رجل يشعر برغبة قوية فى أن يَضرب ، ولكنه يخاف خوفا قويا من أن يُضرب هو نفسه . ان المرء يلمح فى أقواله ، وكذلك فى نبرات صوته الحاد ، نوعاً من سخرية دنيئة مبتذلة هى تارةً شريرة خبيثة ، وهى تارة أخرى خائفة وجلى ، فهو لا يستطيع أن يجريها على نمط واحد ، حتى لتنهار وتتحطم فى بعض اللحظات . لقد ألقى سؤاله عن « المكان الحقير » وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، محملقاً عينيه ، بالغاً من الاقتراب من أليوشا أن أليوشا تراجع خطوةً الى وراء بغريزته. كان الرجل يرتدى معطفاً حقيرا مهترئاً رثاً خلقاً ، قاتم اللون ، مرقعاً فى مواضع كثيرة ، متسخا ببقع كبيرة . أما سرواله فهو فاتح اللون جداً ، عليه رسوم مربّعة الأشكال ، وذلك نوع من السراويل أصبح منذ زمن طويل لا يُرى فى أى مكان . والسروال من نسيج رقيق ، قد تجعد أدناه وانشمر ، فكأن لابسه صبىٌ طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيرا قصيرا عليه .

قال أليوشا يجيب عن سؤال الضابط المتقاعد :

ــ أنا ••• أنا ألكسى كارامازوف •

ــ لى شرف معرفة ذلك من قبل •

كذلك أجاب الرجل ليدل على أنه لا يجهل شخصية الزائر • ثم أضاف يقول :

ــ فاسمح لى أن أقدم لك نفسى أنا أيضا : الضابط الرائد سنيجيريف ــ س* • ولكن هل لى أن أعرف الهدف الذى ترمى اليه من •••

ــ لم أجىء لهدف معيَّن • كل ما أردته هو أن أقول لك بضع كلمات باسمى ••• اذا كنت لا ترى فى ذلك ضيراً •••

ــ فى هذه الحالة ، اليك هذا الكرسى ! تفضل فاجلس ••• أليس هذا ما يقال فى الدرامات الكلاسيكية : تفضل فاجلس !

قال الضابط المتقاعد ذلك وتناول كرسياً بحركة مباغتة عنيفة (هو كرسى بسيط غير منجَّد ، من كراسى الفلاحين) ، فوضعه فى وسط الغرفة تقريبا ؛ ثم تناول كرسياً آخر من ذلك النوع نفسه فجلس عليه أمام أليوشا ، ولكنه بلغ من تقريبه من كرسى أليوشا أن رُكَب الرجلين يحتك بعضها ببعض •

ــ اسمى نيكولا ايلتش سنيجيريف ، نعم ، رائد سابق فى سلاح المدفعية بالجيش الروسى • واننى لأظل ضابطا رغم عيوبى ورذائلى التى هوت بى الى الحضيض • ولقد كان ينبغى أقول الرائد ــ س ، لا الرائد سنيجيريف ، ذلك أننى فى الشطر الثانى من حياتى قد أخذت أستعمل «س» • تلك عادة ناشئة عن الانحطاط •



سنيجيريف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة متحرجة :

ـ نعم . ولكن هل يتعود المرء هذه العادة عامدا أم هو يتعودها على غير ارادة منه ؟

ـ بل على غير ارادة منه ، شهد الله ! يمينا ما كنت أتكلم بهذه الطريقة في الماضي ! ولكن حرف «س» قد هبط على لساني أثناء سقوطي، كهبوط الذباب على القاذورات . ذلك يحدث بتأثير قوة عليا . ولكني أراك تهتم بشئون الحياة الحديثة ، فهل لي أن أعرف السبب الذي جعلني أستحق شرف زيارتك ؟ انني أعيش هنا في ظروف لا تؤهلني للقيام بواجبات الضيافة .

قال أليوشا :

ـ أنا انما جئت ... من أجل ذلك الامر الذي ...

فقاطعه الرجل سائلا :

ـ أي أمر ؟

فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلا :

ـ أمر لقائك ذاك بأخي دمتري فيدوروفتش ...

ـ أي لقاء تعني ؟ ها ... ذلك اللقاء ! هو اذن موضوع الليفة ؟

قال الضابط المتقاعد ذلك ، وازداد اقترابا من أليوشا حتى صدم في هذه المرة ركبتيه .

ودقّت شفتاه في تلك اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل .

تمتم أليوشا يسأله :

ـ أية ليفة ؟ لست أفهم !

فصاح من وراء الستارة صوت عرف أليوشا فورا أنه صوت الصبى الذى لقيه منذ قليل ، صاح صوت الصبى يقول :

ـ بابا ! لقد جاء يشكونى أنا . أنا الذى عضضت اصبعه !

وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه فى الركن تحت الايقونات مضطجعا على السرير الذى يتألف من دكة وكرسى . كان الصبى مغطى بمعطفه الرث وبلحاف عتيق . كان واضحا أنه مريض ؟ واذا صدق ما يدل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حمى . انه يحدق الى أليوشا بغير خوف ولا وجل ، واثقا ثقة لم تظهر عليه فى الشارع ، كأنه يريد أن يقول : « أنا الآن فى بيتى ، فى بيتى ، فلن تستطيع أن تصنع بى شيئا . . » .

سأل الضابط المتقاعد وهو ينتفض :

ـ عضك فى اصبعك ؟ أأنت من عضه فى اصبعه ؟

ـ نعم أنا . كان يقتتل فى الشارع مع أطفال آخرين بتراشق الحجارة . وكان واحدا وكانوا ستة . فاقتربت منه ، فرمانى بحجر ، ثم رمانى بحجر آخر مستهدفا رأسى ، فلما سألته ماذا فعلت له ، انقض علىّ فجأة فعضنى فى يدى ، لا أدرى لماذا !

صاح الرائد يقول وهو يثب عن كرسيه :

ـ لأجلدنّه ، لأجلدنّه !

ـ ولكننى لم أجىء لأشكوه ، ولا رويت لك الحادث لتعاقبه . اننى لا أحب أن تعاقبه قط . ثم انه مريض فيما يبدو .

ـ أفصدّقت حقا أننى سأجلده ؟ أفصدّقت أننى سأجلد عزيزى

الطيب الشهم ايليوشا * ، هكذا ، فورا ، لأسرك وأبهجك ؟ أأنت تحرص على هذا اذن حرصا شديدا ؟

كذلك قال الضابط السابق ملتفتا نحــو أليوشا وقد لاح في وجهه التهديد كأنه يهم أن ينقض عليه . ثم أضاف :

ـ يؤسفني ، يا سيدي العزيز ، ما نال اصبعك من أذى . ولكني أوثر على ضرب ايليــوشا ، اذا شئت ، أن أبتر الآن أمامك أربعاً من أصابعي بهذه السكين ، ارضاءً لك ... أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعي كافيا لارواء ظمئك الى الانتقام ، وأن تسمح لي بالابقاء على الاصبع الخامسة !

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه اختنق ، وكانت عضــلات وجهه جميعا ترتعش ، وكانت نظرته تفيض تحــدياً واستفزازاً . لقد أصبح عاجزاً عن كبح جماح نفسه والسيطرة على سلوكه .

قال أليوشا بصوت خافت حزين ، دون أن يتحرك عن كرسيه :

ـ أحسب أنني فهمت كل شيء . ان لابنك قلباً طيباً ، فهو يحب أباه ، وقد هجم عليّ لأنني أخو الرجل الذي أساء اليك ... فهمت الآن ... (كذلك استأنف كلامه يقــول مطرقاً مفكرا) ... ولكن أخي دمتري نادم على فعلته ... أنا أعرف ذلك ... فاذا أذنت له أن يجيئك الى هنا ، أو حتى أن يلقــاك في ذلك « الكاباريه » نفسه مرةً أخرى ، فسيكون مستعداً لأن يعتذر اليك أمام جميع الناس ... متى رغبت في ذلك ...

ـ أهكذا اذن ؟ تُنتف لحية الانسان ، ثم يُعتذر اليه ، فينتهي كل شيء ويسوّى كل شيء ، أليس كذلك ؟



نينوتشكا ابنة سنيجيريف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ كلا ••• كلا ! ••• انه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه ، على النحو الذى يرضيك •

ـ معنى هذا أن فى وسعى أن أطلب من « سموه » أن يجثو على ركبتيه فى ذلك « الكاباريه » نفسه ـ كاباريه « العاصمة الكبرى » ـ أو حتى فى الميدان العام ، فاذا هو يلبى طلبى اذا صدق ما تقول •

ـ نعم ، يجثو على ركبتيه !

ـ كلامك يهز قلبى ، ويؤثر فى نفسى ، حتى ليكاد يفجر الدموع من عينى ! اننى أقدر هذا الكلام حق قدره ••• فاسمح لى اذن أن أقدم اليك أفراد أسرتى • هــذه أسرتى : بنتاى ، وابنى ••• هذه ذريتى المحترمة • فمن ذا الذى يُعنى بأمرهم ، من ذا الذى يلاطفهم ويداريهم، اذا أنا مت ؟ ومن ذا الذى يمكن أن يحبنى ، أنا الانسان الشقى ، من ذا الذى يمــكن أن يحبنى ما دمت حياً ، من ذا الذى يمــكن أن يحبنى غيرهم ؟ ان الرب قد شاءت رحمته أن يكون لأمثالى عزاء كهذا العزاء•• ذلك أنه لا بد لأمثالى أن يجدوا ، هم أيضا ، شيئا من الحب فى هــذا العالم •••

ـ صحيح ، هذه حقيقة كبرى •

كذلك هتف يقول أليوشا •

فصاحت الفتاة الواقفة قرب النافذة ، وهى تلتفت نحو أبيها معبِّرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز ، صاحت مستاءة تقول :

ـ ألا تستحى أن تصطنع هذا التهريج ؟ أيكفى أن يظهر معتوه ما حتى تظهروا جميعا بمظهر أناس مضحكين ؟

فأجابها أبوها بلهجة قاسية صارمة ، وهو ينظر اليها مع ذلك نظرة تأييد وتشجيع واستحسان :

ـ مهلاً يا بربارا نيكولايفنا ••• تذرعي بشيء من الصبر ••• دعيني أكمل ما أريد أن أقوله •••

ثم أضاف يقول ملتفتا الى أليوشا :

ـ ان لها طبعا صعبا ••• يصدق عليها قول الشاعر :

ليس في الطبيعة كلها ما يرضيها*

ولكن اسمح لى أن أقدم اليك زوجتى : ايرين بتروفنا ، سيدة مقعدة ، عمرها ثلاثة وأربعون عاما ، فقدت استعمال ساقيها تقريبا ؛ هي من أصل وضيع جدا • يا ايرين بتروفنا ، هلاً بسطت أسارير وجهك قليلاً ! هذا ألكسى فيدوروفتش كارامازوف • وأنت يا ألكسى فيدوروفتش ، هلا نهضت ! (قال ذلك وأمسك ذراع أليوشا بقوة لا يُتوقَّع مثلها منه ، وأنهضه عن كرسيه وتابع كلامه) ••• اننى أقدمك الى سيدة ، فعليك أن تنهض ••• اسمحى يا عزيزتى ، هذا ليس ليس نفس كارامازوف الذى ••• الذى ••• هِمْ ••• هذا أخوه ••• شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعاً ومسالمة ووداعة • اسمحى لى يا ايرين بتروفنا ، اسمحى لى يا امرأتى الكريمة المحترمة ، اسمحى لى أن أقبل يدك أولا •

وقبل الضابط المتقاعد يد امرأته باحترام ، بل وبحنان • فرفعت الفتاة الواقفة قرب النافذة كتفيها وأشاحت بوجهها حتى لا ترى بعد ذلك شيئا • غير أن وجه الزوجة الذى كان يعبِّر عن تساؤل واستعلاء ، هش وبش على حين فجأة •

قالت :

ـ تفضل فاجلس يا سيد ألكسى تشرنومازوف ! *

فقال زوجها مصححاً :

ـ بل كارامازوف ... اسمه كارامازوف .

ثم أضاف يقول لأليوشا همساً :

ـ هي من أصل وضيع ، وضيع جدا .

قالت المرأة :

ـ طيب ... كارامازوف ... فليكن اسمه كارامازوف ما دمت تحــرص على ذلك . كارامازوف أو تشرنومازوف ، الاســمان عندي واحد . تفضل فاجلس يا سيدي . أما لماذا أنهضك ؟ فلأنني مقعدة ، كما قال لك ذلك . صحيح أن لي ساقين ، ولكنهما متنفختان انتفاخ قادوسين، أما باقي جسمي فهو يصوّح . كنت في الماضي سمينة جدا ، وهأنذا الآن نحيلة مثل ابرة ...

ردّد الضابط قوله :

ـ هي من أصل وضيع ، من أصل وضيع جدا .

فصاحت الفتاة الحدباء الظهر التي كانت الى ذلك الحين صامتة على كرسيها ، صاحت فجأة تقول :

ـ بابا ! أوه ! بابا !

وغطت وجهها بمنديلها .

وقالت الفتاة الواقفة قرب النــافذة ، قالت بلهجــة احتقار شديد عنيف :

ـ جبان !

وقالت الأم وهي تمد ذراعيها مشيرةً الى ابنتيها :

ـ أنظر ما يحدث لنا . سحائب ثم تنقشع . وستنقشع . وستعود الموسيقى . فى الماضى ، حين كنا فى الجيش ، كنا نستقبل فى كثير من الأحيان زيارات كزيارتك . لا أقصد أن أجرح شعورك بهذا التشبيه . يجب على الانسان أن يحب جميع الناس . وفى ذات يوم جاءت امرأة الشماس فقالت : « الكسندر ألكسندروفتش رجل ممتاز ، أما ناستازيا بتروفنا فهى نفثة من نفثات جهنم ! » قلت لهـا : « لكل امرىء أذواقه الخاصة . وما أنت الا كرة صـغيرة ، ولكنك كرة عفنة نتنة » قالت : « سنعرف كيف نؤدبك ونردك الى الصواب » ، فأجبتها : « يا سوداء ! من أباح لك حق المجىء الى هنا لتلقى دروساً ؟ » فقالت لى عندئذ : « أنا أجيئكم بهواء نقى ، على حين أن الهواء الذى تنفثينه أنت موبوء يفسد الجو » ، فأجبتها : « اذا كان هوائى كـريه الرائحة ، فاذهبى واسألى أولئك السادة الضباط » . ومنذ ذلك الحين بقى هنا فى قلبى لايبارحه. وهكذا حدث لى منذ قليل ، أن رأيت ، وأنا جالسة هنا ، ذلك الجنرال الذى أتى يزورنا فى عيد الفصح » ، فقلت له : « يا صاحب السعادة ، ان من حق امرأة مرموقة أن تدخل هواء نقياً الى منزلها ! » فقال لى : « هذا صحيح ، ليس الهواء هنا نقياً . يجب فتح الباب أو النـافذة . » . هم جميعا سواء ! لماذا يكرهون هوائى ؟ ان الأموات ينشرون رائحة كريهة أكثر من رائحتى . قلت : « لن أفسد الهواء الذى تستنشقه ؟ سأشترى لنفسى حـذاءين ، ثم أمضى ، مادام الأمر كـذلك . » . يا أولادى ، يا صغارى ، لا تدينـوا أباكم . يا نيكولا ايلتش ، يا زوجى الطيب ، أأصبحت لا أرضيك ولا أعجبك ؟ لم يبق لى الا ايليوشا ... فهو الذى ما يزال يحبنى . يعود من المدرسة ، فيغمرنى بملاطفاته . وقد جاءنى أمس بتفاحة . ارحمونى يا صغارى ، يا أولادى الذين أعبدهم ، اشفقوا

على أمكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة • بماذا أفسد الهواء الذى تستنشقونه ؟

وأخذت المرأة التعيسة تبكى منتحبة على حين فجأة ، فتسكب سيولاً من دموع • اسرع اليها الضابط •

ـ عزيزتى ، عزيزتى ، حمامتى ، هدئى روعك ، أرجوك ، أتوسل اليك • الجميع هنا يحبونك ، نحن جميعا نعبدك !

قال لها ذلك وغمر يديها بالقبل، ثم دغدغ خديها فى رفق ولطف• ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذى أغرقتــه الدموع • وتراءت لأليوشا فى تلك اللحظة دموعٌ فى عينى الضابط السابق أيضا • والتفت هذا فجأة نحو أليوشا ، فهتف يسأله مشيرا الى امرأته ، وقد استبد به يأس شديد :

ـ هل رأيت وهل سمعت ؟

فدمدم أليوشا يقول :

ـ رأيت وسمعت •

وصرخ الصبى وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يحدق الى أبيه بعينيه الملتهبتين ، صرخ يقول :

ـ بابا ! بابا ! أتراك ستعقد الآن صلةً بهــذا الـ ••• قل له أن ينصرف !

وهتفت بربارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة ، وقد استبد بهـا فى هذه المرة غضب شديد فقرعت الأرض بقدمها ، هتفت تقول لأبيها :

ـ دعك من هذه التهريجات المستمرة والتمثيليات الهزليـة البلهاء التى لا تؤدى الى شىء ! كفى كفى ! •••

فقال الأب :

ـ حقاً ان لحنقك ما يسوّغه الآن يا بربارا نيكولايفنا ، وسألبى أمرك على الفور . يا ألكسى فيدوروفتش ، خذ قبعتك ، وسآخذ أنا قبعتى ، فنخرج . أريد أن أكلمك جاداً ، ولكننى لا أستطيع ذلك هنا . ان هذه الفتاة القاعدة هناك هى ابنتى نينا نيكولايفنا التى نسيت أن أقدمها اليك . انها ملاك تجسد وهبط على الأرض ... ملاك حق نزل من السماء ... هل فى وسعك أن تفهم هذا الكلام ؟

وعادت بربارا نيكولايفنا تتكلم ، فقالت مستاءة :

ـ ها هو ذا يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزته هزاً قوياً ! ...

ـ أما هذه التى قرعت الأرض بقدمها ووصفتنى بأننى مهرج منذ هنيهة ، فهى أيضا ملاك من السماء ، وهى على حق اذ تعاملنى هذه المعاملة . لنخرج يا ألكسى فيدوروفتش ، يجب أن نفرغ من هذا الأمر ...

قال الرجل ذلك ، وأمسك ذراع أليوشا ، وجرّه الى الشارع .

٧

وفى الهواء الطلق

قال الضابط المتقاعد :

ـ هنا يتنفس المرء ، أما فى مسكنى فيختنق، بجميع معانى هذه الكلمة . سنمشى الهوينى . أرجو أن لا تبعث أحاديثى السأم والضجر فى نفسك !

قال أليوشا :

ـ هناك أمر أريد أنا أن أحدثك فيه ... ولكننى لا أعرف من أين أبدأ .

ـ لقد تصورت أن هناك شيئاً تريد أن تقوله لى . ولولا ذلك لما جئت الى مسكنى بغير سبب ... اللهم الا أن يكون الهدف الوحيد من مجيئك هو أن تشكو الىّ الصبى ؟ ولكن هذا قليل الاحتمال ! ... وعلى ذكر هـذا الصبى ... اننى لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شىء بحضوره . فسأشرح لك الأمر الآن . لقد كانت الليفة منذ أسبوع أكثف مما هى الآن ... أعنى بالليفة لحيتى ... وأولئك التلامذة هم الذين سموا لحيتى ليفة ... فمنذ أسبوع أمسك أخوك دمترى فيدوروفتش لحيتى هذه ، فى ذلك « الكاباريه » ، وجرنى الى الميدان . وكان التلاميذ

راجعين من المدرسة في تلك اللحظة نفسها ، وكان ايليوشا بينهم ، فما ان رانى على هذه الحال حتى ارتمى علىّ صارخا : « بابا ! بابا ! » ، وأمسكنى بذراعيه الصغيرتين ، وشدنى بجماع قواه ليخلصنى ، وتشبث بى ، باكياً صائحاً مناشدا المعتدى بقوله : « دعه ! هذا أبى ، هذا أبى ، اتركه ، اغفر له ! » نعم قال هكذا : « اغفر له ! » . وأمسك أيضا ذراع أخيك ، حتى لقد قبّل يده ، يده تلك نفسها التى كانت قابضةً على لحيتى . ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبى فى تلك اللحظة . لم أنسه ولن أنساه ما حييت ! ...

هتف أليوشا يقول منفعلاً :

ـ أحلف لك ، أحلف لك أن أخى سيعبر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله ، ولو اضطر أن يجثو أمامك على ركبتيه في ذلك الميدان نفسه ... سأجبره على أن يفعل ذلك ، والا فلن يكون أخى .

ـ آ ... آ ... فهذا الاعتذار ليس حتى الآن اذن الا مشروع اعتذار ؟ وهذه النية ليست صادرة عنه ، بل عنك أنت ، عن قلبك النبيل الحار . كان عليك أن تذكر لى هذا فورا . أما وأن الأمر كذلك ، فاسمح لى أن أصف لك روح الفروسية التى أظهرها أخوك فى ذلك الظرف . انه بعد أن جرّنى من هذه الليفة ، تركنى وقال لى : « أنت ضابط ، وأنا ضابط أيضا ، فاذا استطعت أن تعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهدا ، فأرسله الىّ : اننى أهب لك فرصة استرداد اعتبارك بالسلاح ، رغم أنك حقير دنىء » . هذا ما قاله أخوك ، كفارس حق . انصرفت بعد ذلك مع ايليوشا ، ولكن هذا المشهد العائلى الجميل النبيل قد استقر فى نفس الصبى الى الأبد ، فهو لا يبارح ذاكرته فى لحظة من اللحظات . كيف يمكن أن يخطر ببالنا بعد الآن أن نستطيع المحافظة على مركزنا كأناس شرفاء ؟ واقض فى الأمر بنفسك على كل حال ، ما دمت

قد رأيت مسكننا ! مسكن جميل ، أليس كذلك ؟ ثلاث سيدات، احداهن عاجزة ومجنونة ، والثانية مقعدة وحدباء ، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء . انها طالبة ، وليس لها من حلم الا أن تعود الى سان بطرسبرج لتدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا . ولن أقول شيئاً عن ايليوشا . انه لم يتجاوز التاسعة من عمره ، وهو وحيد ليس هناك أحد يحميه . فاذا مت أنا ، فما الذي سيحدث لهم جميعاً ؟ انني ألقى عليك هذا السؤال . اذا دعوت أخاك الى المبارزة فقتلني ، فما هو الوضع الذي سيصيرون اليه ؟ من الذي سيعنى بهم وسيهتم بأمرهم ؟ والأنكى من ذلك أن لا يقتلني ، وانما يصيبني بعاهة تقعدني : لن أستطيع بعدئذ أن أعمل ، بل أصبح فماً لا فائدة منه ، أصبح عالةً عليهم . من ذا الذي سيطعمني وسيطعمهم عندئذ ؟ وقد أضطر أن أُخرج ايليوشا من المدرسة ، وأن أرسله الى الشوارع كل يوم يستعطي الصدقات . ذلك ما يمكن أن تجره على مبارزةٌ من عواقب . هي كلمة سخيفة ، لا أكثر ...

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهبت نظرته ناراً :

ـ ليستغفرنَّك ، ليرتمين على قدميك في وسط ذلك الميدان .

ـ خطر ببالي أن أشكوه الى القضاء . ولكن يكفي أن نرجع الى نصوص القوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تثأر لي من الاهانة التي ألحقها بي. زد على ذلك آجرافين ألكسندروفنا استدعتني وقالت لي غاضبة أشد الغضب : « اعدل عن هذه الفكرة ، فلئن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية ، لأكشفنَّ اختلاساتك للقضاء ، فأبرهن على أنه انما ضربك معاقبة لك ، وستكون أنت الملاحَق يومذاك ! » والله يعلم هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بارادتي ، أم أنني أُمرت بها فكنت أداةً لا أكثر ! انني لم أفعل ما فعلت الا بأوامر منها ، وبأوامر من فيدور بافلوفتش ! وقد أضافت

تقول لى : « واعلمْ عدا هـــذا أننى سأطردك من خـدمتى عندئذ طرداً حاسماً ، فما تجنى منى بعد ذلك قرشاً واحداً • وسأقول كلمة لصاحبى التاجر (بهذا الاسم تسمى عجوزها) ، فيطردك هو أيضا » • فتساءلت حينذاك : ما عسى تصير اليه حالى اذا استغنى التاجر عن خدماتى ؟ ماعسانى أصنع بعد ذلك فى سبيل أن أكسب رزقى ؟ ذلك أنه لم يكن قد بقى لى الا هذان الزبونان بعد أن أصبح أبوك لا يثق بى ، لسبب آخر ••• حتى أن أباك يفكر فى جرّى الى المحاكم مستندا الى الايصالات التى وقعتها بامضائى • فلهذه الأسباب مجتمعةً ، انما ارتضيت أن لا أشرع فى شىء•• لقد رأيت بنفسك الظروف التى نعيش فيها • ولكن قل لى الآن : هـل أوجعتك كثيرا عضة صغيرى ايليوشا ؟ اننى لم أجرؤ أن ألقى عليك هذا السؤال أمامه •

ـ نعم • أوجعتنى كثيرا • فقد كان غاضبا غضبا شديدا • لقد ثأر منى أنا للاساءة التى أُلحقت بك ، لأننى واحد من آل كارامازوف • لقد اتضحت المسألة الآن • ولكنــك لم تر كيف اقتتــل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة • ذلك خطر جدا • ان من الممكن أن يقتلوه • هؤلاء أطفال ، لا يفكرون • رب حجر يُقذف بقوة فاذا هو يصيب رأسه فيشق جمجمته •

ـ أصيب اليوم بحجر ، ولكن لا على الرأس بل على الصـــدر • أصابه الحجر فى موضع يعلو القلب قليلا ، فوصل الى البيت مزرقاً باكيا يئن أنينا شديدا ، وها هو ذا الآن مريض •••

ـ يظهر أنه هو الذى يبادىء رفاقه بالهجوم • ان غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار • والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبى كراسوتكين فى جنبه بطعنة من موسى •••

ـ قيل لى هذا • شىء مزعج • ان كراسوتكين هذا هو ابن موظف من الموظفين ، وأخشى أن يجرّ علينا هذا الحادث وبالاً •••

تابع أليوشا كلامه قائلا :

ـ أنا أنصح بأن تخرجه من المدرسة الى حين ، الى أن تهدأ نفسه ، الى أن يخف هذا الغضب الشديد الذى يتقد فى قلبه •

قال الضابط المتقاعد مؤمّناً :

ـ الغضب ! الغضب ! تلك هى مشكلته • غضب كبـير فى كائن صغير • وأنت لمّا تعرفْ بعدُ كل شىء • فاسمح لى أن أقصّ عليـك كيف جرت الأمور فى الواقع • بعد ذلك حادث « الكاباريه » ذاك أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويغيظونه ، ويسمونه ليفة • ان الأطفال الذين هم فى هذه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة • هم ملائكة اذا نظرت الى كل واحد منهم على حدة ، ولكنهم متى اجتمعوا ولا سيما فى المدرسة أصبحوا وحوشاً لا ترحم • لقد أخذوا اذن يشاكسونه ، فثار طبع ايليوشا الصغير النبيل وتمرد • رب صبى آخـر ، رب ولد فاتر المـزاج ، كان يذعن ويستسلم ويرضخ ، وكان يشعر بالخزى والعار من أبيه ، أما هو فقد هبّ وحيدا ضدّ جميع الأطفال ، يدافع عن أبيه ، يدافع عن أبيـه ، ويدافع عن الحقيقة أيضا ••• نعم ، عن الحقيقة ••• ما من أحد يعرف فى الواقع ، ما من أحد يعرف الا الله وأنا ، كم قاسى من ألم حين قبّل يد أخيك متوسلاً اليه « أن يغفر لأبيه » • فانظر كيف يعرف أطفالنا ـ أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم ، أقصد أطفال الفقـراء الهينين عليـكم الكرام على أنفسهم ـ أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الارض منذ السنة التاسعة من عمرهم ! ان الأغنياء لا يستطيعون ذلك • فهم مهمـا يعيشوا ويكبروا لن يروا أعمـاق الهـوة فى يوم من الايام ! أما ابنى

ايليوشا فقد غاص الى قرارة الحقيقة في تلك اللحظة التي قبّـل فيها يد أخيك بالميدان ••• لقد نفذت الحقيقة كلها اليه عندئذ ، وانحفرت في كيانه الى الأبد •

انتعش الضابط المتقاعد وهو يقول هذا الكلام ، وألمت به حماسة مفاجئة وحميًّا قـوية ، حتى أنه ضرب بقبضـة يده اليمنى راحة يده اليسرى كأنما ليوضح مزيدا من التوضيح كيف انغرست «الحقيقة» في نفس ايليوشا •

وتابع الرجل كلامه فقال :

ـ وفي الليلة التالية انتابته حمى ، فظل يهذى طوال الوقت • ولم يكلمنى في الغداة ، وانما التزم صمتا يشبه أن يكون مستمرا ، ولكننى لاحظت أنه كان يرقبنى ويرصدنى من الركن الذى هو فيه ، رغم ميله على النافذة وتظاهره بأنه يهىء واجباته المدرسية • لقد أدركت أنه لم يكن يفكر في دروسه في تلك اللحظة • حتى اذا جاء اليوم التالى شربت فأصبحت لا أتذكر شيئا ••• يا لى من شقى ! ••• نعم لقد شربت ، من شدة ما استولى علىّ الكرب والكمد واليأس • وأخذت زوجتى عندئذ تبكى ـ اننى أحبها كثيرا ـ ولكن ماذا تريد ؟ لقد أنفقت آخـر كوبك أملكه لأسكر فأنسى • لا تحتقرنى يا سـيدى • ان أصحاب القلوب الحسَّاسة هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم في بلادنا روسيا • ونمت، ولم أحفل بايليوشا • وفي ذلك اليوم بعينه انما أخذ الصبية يعيِّرونه ، صارخين : « يا ليفة ! أُخـرج أبوك من الكاباريه مشدودا من لحيته ، فأخذنَ تركض الى جانبه تستغفر له وتستعفى عنه ! » • وفي اليوم الثالث حين عاد من المدرسة ، لاحظت أنه شاحب اللون ، مهشم الوجه • سألته: « ماذا بك ؟ » ، فلم يجب • وكان يستحيل علينا التحدث في الغرفة ، فلو قد تحدثنا في الغرفة لتدخلت الأم والبنات في الحديث ••• وكانت بناتى

على علم بالقضية منذ أول يوم • كانت بربارا نيكولايفنا ما تنفك تبدي استياءها وغضبها قائلة : « مهرجون ! جبناء ! ما عسى يُنتظر منكم ؟ » • قلت لها : « أنت على حق ، مانحن بقادرين على شيء غير ارتكاب الحماقات تلو الحماقات • • » • وبذلك أرحت نفسي منها • وفي نحو المساء خرجت أتنزه مع الصغير • يجب أن أذكر لك أنني كنت قد تعودت أن أقوم بنزهة مع ابني كل مساء • وكنا في العادة نسلك هذا الطريق الذي نسير فيه الآن أنا وأنت : نخرج من البيت ونصل الى تلك الصخرة الكبيرة التي تراها على الطريق قرب السياج • ان البرية تبدأ هنا • المكان خال جميل • سرت في ذلك اليوم وابني الى جانبي • يدي في يده • ان يده صغيرة ، وأصابعه نحيلة باردة • انه يشكو من داء في صدره ، ابني هذا• قال لي فجأة : « بابا ! بابا ! » ، فسألته : « ماذا ؟ » قال : « في ذلك اليوم، حينما شدّك ••• » قلت : « ما العمل يا صغيري ايليوشا ؟ » ، قال : « لا تصالحه يا بابا ! لا تصالحه أبدا ! ان الأولاد في المدرسة يدّعون أنه أعطاك عشر روبلات تعويضا لك عما فعله بك » • قلت له : « لا ، لا يا صغيري ايليوشا ، لن أقبل منه مالاً في يوم من الايام ! » • أخذ الصبي يرتجف جسمه كله ، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين، وغمرها بالقبل• ثم عاد يقول : « بابا ! اطلبه الى المبارزة ! فالأطفال يدعون في المدرسة أنك جبان ، وأنك لن تطلبه الى المبارزة ، وانما ستقبل منه عشر روبلات • » • فشرحت لابني عندئذ كيف أنني لا أستطيع أن أبارز أخاك ، وأطلعته بايجاز على الاسباب التي تعرفها ، فأصغى الىّ بانتباه ، ثم هتف يقول وقد اشتعلت نظرته : « بابا ! لا تصالحه أبدا • ولأطلبنه أنا الى المبارزة حين أكبر ، فأقتله ! » • وأنا أبوه على كل حال ••• فاعتقدت أن من واجبي أن أقول له كلمة حق • قلت له : « انه لاثم أن يقتل انسان انسانا ولو في مبارزة • » • فصاح عندئذ يقول : « لسوف



ايليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أقاتله في مبارزة حين أكبر ، فألقيه على الأرض بعد أن أُسقط له سلاحه بضربة من سيفي ، ثم ارتمي عليه وأشهر سيفي فوق رأسه قائلا له : انني أستطيع الآن أن أقتـلك ، ولكنني أعفـو عنـك ، فذلك كل ما تستحقه ! » • فانظر يا سيدي في أي شيء قد فكّر هذا الصبي طوال يومين ، انظر الى الخواطر التي شغلت رأسه الصغير طوال ذينك اليومين! لقد ظل يفكر خفيةً في هذا الثأر الفروسي ، ولا شك أن هـذيانه في الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر • ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروبا ، مضروبا ضربا قاسيا • ولم أعلم بأمر اشتباكاته هـذه مع رفاقه الا أمس الاول • وأظن أنك على حق : يجب أن لا يعود الى هذه المدرسة • لقد خفت عليه خوفا شـديدا حين بلغني أنه واجه كل تلاميذ فصله وناصبهم العداء وأنه هو الذي تحداهم أولا • ان الغضب يعصف في قلبه ، ويحضه على الاعتداء والهجوم • لقد خرجنا تتنزه مرة أخرى في يوم من الايام ، فاذا هو يسألني : « بابا ، هل الأغنياء أقوى من غيرهم اذن في هذا العالم ؟ » فقلت له : « نعم يا ايليوشا ، ان الرجل الغني يملك قدرة لا حدود لها » فقال لي بعد ذلك : « بابا ، سأصبح غنياً أنا أيضا في يوم من الايام ، وسأصبح ضـابطا ، أغلب الأعداء ، فيكافئني القيصر ، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن ••• » • وصمت بضع لحظات، ثم أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل ، وأضاف يقول : « أليست هذه المدينة مدينة شريرة ؟ » قلت له : « نعم يا بني ايليوشا ، ليست هذه المدينة محببة الى القلب كثيرا » ، فقال : « فلماذا لا نتركها الى مدينة سكانها خير من سكان هذه المدينة ، لماذا لا نتركها الى مدينة أخرى لا يعرفنا فيها أحد ؟ » ، فأجبته بأن هذه هي نيتي في الواقع وأننا سنغادر هذه المدينة متى جمعت قليلا من المال • لقد أسعدني أن أصرفه بذلك عن خواطره السـوداء ، وأخذنا نتحدث عن هـذا الرحيل ، ونناقش

تفاصيله . قلت له : « سنشترى حصانا وعـربة كارّة ذات عجلتين . نركب ماما والأختين على العربة ونغطيهما جيدا ، ونمشى نحن الاثنين الى جانبهما . وقد أُركبك أنت أيضا من حين الى حين ، أما أنا فسأمشى على قدمى ، لأن علينا أن نراعى الحصان وأن نداريه ، والا فستهد قواه اذا اضطر أن يجر الأسرة كلها . سنرحل قريبا » . بهـذا وعدته . تحمس الصبى تحمساً شديداً ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يقوده وأن يركبه هى التى تلهب حماسته أكثر من أى شىء آخر . ان الصبيان فى روسيا يولدون فرسانا كما تعلم . وقد ثرثرنا مدة طويلة فى ذلك المساء . قلت لنفسى : « الحمد لله على أنه استرد طمأنينته وهدأت نفسه ، وسُرِّى عنه . » . حدث هذا فى مساء أمس الأول . ولكن كل شىء تغير أمس من جديد . لقد عاد من المدرسة فى الظهر مظلم الوجه مكفهر الأسارير أكثر من أى يوم مضى . وفى المساء أمسكته من يده لنقوم بنزهتنا اليومية . كان مصراً على الصمت فما ينطق بكلمة . الريح تهب قليلا ، والسحب تغطى الشمس ، والغسق يهبط . ان المرء يحس قدوم الخريف . كنا نسير دون أن نتكلم ، وفى قلب كل منا حـزن دفين . قلت له آملاً أن نستأنف حديث الليلة البارحة : « هيه ! يجب علينا يا بنى أن نفكر قريبا فى الاعداد لسفرنا » . فلم يجب . ولكننى شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف فى يدى متشنجة . قلت لنفسى : «حالته سيئة ... لا شك أن هناك جديدا . » . ومضينا الى تلك الصخرة التى تراها هناك . جلست على الصخرة . كان فى السماء طيارات كثيرة من طيارات الورق التى يطلقها الأولاد . انها تهمهم فى الفضاء وتقرقع . كان فى السماء يومئذ ثلاثون طيارة من هذه الطيارات على الأقل . ذلك هو الفصل الذى تطلق فيه هذه الطيارات فى الفضاء . قلت له : « لقـد آن لنا يا ايليوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضا ، طيارة العام الماضى . سوف

أتولى أنا اصلاحها . أين وضعتها ؟ » . لم يجب بشيء ، وانما أدار لى ظهره ناظراً الى جانب . وفجأة هبّت علينا ريح مثقلة بسحابة كبيرة من غبار ... فاذا هو يرتمى علىّ ، ويحيطنى بذراعيه الصغيرتين ، ويشدنى اليه بجماع قواه . تعلم أن هذا النوع من الاطفال الصموتين المتكبرين يستطيعون أن يكظموا ألمهم وأن يحبسوا دموعهم مدة طويلة ، ولكن حين ينفجر بكاؤهم أخيرا ، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم ، فان عبراتهم تتدفق عندئذ كالسيول . فما هي الا طرفة عين حتى كان وجهه غارقا فى هذه الدموع المنهمرة الحارة . كان ينتحب فى تشنج ، ويرتعد ارتعادا قويا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ويشد جسمه الىّ وهو جالس على الصخرة . قال لى منتحباً : « بابا ! ما أشد ما أذلّك ! » . فأجهشت أبكى أنا أيضا . وتعانقنا عناقا شديدا والدموع تهزنا كلينا . فكان ما ينفك يردد قوله : « بابا ... حبيبى بابا ! » ، وكنت أجيبه : « بنى ... بنى الطيب ايليوشا ! » .لم يرنا أحد فى تلك اللحظه ... لم يرنا الا الرب من علياء سمائه ... الرب الذى قد ينتصف لى . أشكر أخاك يا ألكسى فيدوروفتش . لا يا ألكسى فيدوروفتش ، لن أجلد ابنى لأسرّك وأرضيك ! ...

عاد الضابط المتقاعد ، حين ختم قصته ، الى سخريته المرة الحانقة الوضيعة . ومع ذلك أحس أليوشا أنه قد حظى بشيء من ثقة هذا الرجل، وأن هذا الرجل ما كان له أن « يتحدث » الى غيره بهذه الطريقة ، وأن يقص على غيره ما قصّه عليه هو . وسُرّ أليوشا من ذلك . كان يرتعش من شدة التأثر ، وكانت دموعه تهم أن تسيل .

قال أليوشا :

ـ أوه ! لشدما أتمنى أن أصالح ابنك ! ليتك تستطيع أن تهيىء ..

فدمدم الضابط المتقاعد يقول :

ـ كما تشاء ... طبعاً ...

وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة :

ـ يجب عليّ الآن أن أكلمك في شيء آخر . اصغ الى . ان أخي ذاك نفسه ، ان دمتري ذاك نفسه ، قد أهان خطيبته أيضا ، وهي فتاة نبيلة جدا أغلب ظني أنك سمعت عنها. ومن حقي أن أكلمك عن الاهانة التي ألحقها بها ، بل ان ذلك واجبي أيضا ، لأن هذه الفتاة ، بعد أن علمت بالاساءة التي نالتك ، وبعد أن عرفت الظروف البائسة التي تعيش فيها.. قد كلفتني ... قد عهدت اليّ منذ قليل بمعونة صغيرة طلبت مني أن أقدمها اليك . اعلم أن هذه الفتاة هي التي ترسل اليك المعونة لا أخي دمتري الذي هجر الفتاة من جهة أخرى ... والمعونة ليست من دمتري على كل حال ، ولا مني أنا أخيه ، ولا من شخص آخر ، بل منها هي وحدها . وهي تتوسل اليك أن تقبل معونتها ... ألم يذلكما كليكما شخص واحد بعينه ؟ ثم انها لم تتذكرك الا بعد أن أُلحقت بها الاهانة نفسها التي أُلحقت بك (الاهانة نفسها بضخامتها) . فهي اذن أخت تريد أن تساعد أخاها ... لقد كلفتني أن أطلب اليك قبول هاتين المائتين من الروبلات ، معونةً من أختٍ لأخيها . ولن يعلم أحد بالأمر ، ولن تروج أقاويل شريرة حول هذا الموضوع . اليك المائتي روبل ... عليك أن تقبلها ... أحلف لك ... والا كان على البشر أن يعدوا أنفسهم أعداء على هذه الأرض ! ولكن الأخوة موجودة في هذا العالم.. انها موجودة أيضا ... ان لك نفساً نبيلة ... فلسوف تفهم ... لسوف تفهم حتماً ! ...

قال أليوشا ذلك ومدّ الى الرجل ورقتين نقديتين جديدتين كل

الجدة ، كل منهما بمائة روبل • وكانا في تلك اللحظة قد وقفا قرب الصخرة الكبيرة الى جانب السياج ، ولم يكن حواليهما أحد • بدا أن الورقتين النقديتين قد أحدثتا في نفس الضابط المتقاعد أثرا خارقا • ارتعش في أول لحظة ، ولكن ارتعاشه كان من الدهشة خاصة • انه لم يحلم بشيء من هذا ، ولا كان يتوقع أن ينتهي الحديث بهذه الخاتمة• انه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات ، حتى ولا أثناء النوم ، أن أحدا يمكن أن يهب الى مساعدته ، ولا سيما بمبلغ ضخم كهذا المبلغ • تناول الورقتين النقديتين ولبث قرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم • وطاف في وجهه تعبير جديد كل الجدة •

ـ أهذا لي ، لي أنا ، كل هذا المال ؟ مائتا روبل ؟ يا رب السماء ! انني لم أر مبلغا ضخما كهذا المبلغ منذ أربع سنين ! أوه ! رباه ! وهي تعطيني هذا المبلغ كما تعطي أخت أخاها ؟ أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟

هتف أليوشا يقول :

ـ يميناً ما قلت لك الا الحقيقة !

ـ قل لي يا صديقي العزيز : أأكون جبانا اذا أنا قبلتها ، هذه الروبلات المائتين ؟ لن أكون جبانا ، أليس كذلك ؟ أأكون جبانا في نظرك ؟ اصغ الي يا ألكسي فيدوروفتش ، اصغ الي حتى النهاية (كذلك أضاف يقول محموما وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه في كل لحظة) : انك تشجعني على قبول هذا المال ، لأنه مرسل الي من أخت ، ولكن ألن تشعر نحوي باحتقار وازدراء ، في قرارة نفسك ، سراً ، اذا أنا أخذته؟ قل •••

ـ يميناً لا ••• أحلف لك على هذا أغلظ الأيمان • ثم ان أحدا لن يعلم بالأمر ، لن يعلم به أحد قط الا نحن ، أعني أنا وأنت وسيدة أخرى هي صديقتها الكبرى •••

ـ لا تهمني السيدة • دعني أقول لك كل شيء • انني في لحظة كهذه اللحظة أشعر بحاجة الى الافصاح عن كل ما بنفسي •

ثم أضاف الرجل البائس الذي أخـــذت تغزوه شيئا فشيئا حماسة مضطربة مشوشة توشك أن تكون وحشية :

ـ انك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذه الروبلات المائتين بالنسبة الىّ اليوم •

كان يبدو على الضابط المتقاعد أنه فقد السيطرة على أفكاره ، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى أن لا يســـمح له باتمام كلامه ، وتابع يقول :

ـ ان هذا المبلغ ليس مالاً حلالاً ترسله الىّ « أُخت » محترمة مبجلة فحسب ، وانما أنا أستطيع أن أستعين به أيضــا على مداواة الأم المسكينة وعلى معالجة بنتي الحبيبة ، ملاكي الحدباء ، نينوتشكا التي يمكنني أن أداويها ! لقد جاء الينا الدكتور هرتسنشتوبه في ذات يوم ، شــهامةً منه ونبلاً ، ففحصهما كلتيهما خلال ساعة كاملة ، فبعد أن قال « انه لم يفهم من الأمر شيئاً » ، ذكر أن الماء المعدني (الذي وصفه للأم العزيزة) قد ينفعها كثيرا ، ويمكن شراؤه من الصيدلية • وقد وصف لها أيضــاً حمامات للرجلين بأملاح طبية • وسعر الماء المعدني ثلاثون كوبكا ، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة • لقد أخذت الوصفة من الطبيب ، واذ كنت لا أستطيع أن أسمح لنفسي بهذا البذخ والترف ، فقد وضعتها على الرف تحت الأيقونات ، وما تزال راقدةً هناك • وقد وصف كذلك لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل ، قائلاً ان عليها أن تستحم مرتين في اليوم ، مرةً في الصباح ومرة في المساء • فكيف يكون في وسعها أن تتبع هذا العلاج في مسكننا الفقير ، بغـــير خادم ، بغير أحد

يساعدها ، وليس عندنا لا ماء ولا حوض ؟ ان نينوتشكا المسكينة تشكو من الروماتزم ـ لم أذكر لك هذا من قبل ـ وهي تشعر في الليل بآلام شديدة في كل الجانب الأيسر من جسمها . ولكن هل تصدق ؟ ان هذه الملاك تغالب عذابها حتى لا تقلقنا ، وتمسك عن التوجع والأنين حتى لا تعكر علينا صفو نومنا . ونحن نأكل بقدر ما تتيح له مواردنا الضئيلة أن نأكل ، وذلك يختلف باختلاف الايام . فهل تصدق أنها تختار لنفسها في كل مرة أسوأ قطعة من الطعام ، قطعة يتردد المرء أن يرميها لكلب ؟ وكأن عينيها الملائكيتين تقولان حينذاك : « أنا لا أستحق حتى هذا . أنا أحرمكم من نصيبكم ، وأنا عبء عليكم جميعاً » . ونحن نساعدها ماوسعنا أن نساعدها ، فيؤلمها أننا نكلف أنفسنا عناءً في سبيلها ، وكأنها تقول لنفسها: « أنا لا أستحق هذا ! فما أنا الا مقعدة بلهاء لا خير فيها ولا فائدة منها » أهي تستحق ؟ هي ؟ مع أنها هي التي تفتدينا عند الرب بطيبتها الملائكية ! ألا ان الحياة لتصبح في بيتنا جحيما بدونها ، وبدون الكلمات الحلوة الرقيقة العذبة التي تعرف كيف تقولها في اللحظة المناسبة ! لقد استطاعت أن تليّن حتى فاريا ! واياك أن تظلم فرفارا نيكولايفنا ! انها هي أيضا ملاك .. هي ضحية ... مثلنا جميعا ... لقد وصلت الينا هذا الصيف وفي جيبها ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من اعطاء دروس خاصة ، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها الى سان بطرسبرج ، التي يجب أن تكون في شهر ايلول (سبتمبر) ، أي الآن . ولكننا أخذنا هذا المال وأنفقناه في سدّ رمقنا . فبأية وسيلة يمكنها أن تعود الآن الى سان بطرسبرج لاتمام دراستها ؟ هأنت ذا عرفت كيف تجري أمورنا . ثم انها لن تستطيع أن تسافر ، لأنها تعمل في خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة : تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة، وتصلح ما يحتاج الى اصلاح ، وترقع ما يجب ترقيعه ، وتغسل الثياب ،

وتنظف الارض ، وترقد الأم فى سريرها ، والأم ذات نزوات وبدوات، تبكى لأيسر سبب ، تبكى لغير سبب ، فهى مجنونة ... هى مجنونة ، الأم العزيزة ! وهأنذا سأستطيع بهذه الروبلات المائتين أن أستخدم خادما ... هل تفهم يا ألكسى فيدوروفتش ؟ سأستطيع أن أدارى المريضتين العزيزتين ، وتستطيع الطالبة أن تملك ما تسافر به الى سان بطرسبرج ، وسوف أشترى لحماً ، فأحسِّن ما نصيبه عادةً من طعام . آه ... يارب السماء ! ما أجمله من حلم !

أسعد أليوشا كثيرا أنه استطاع أن يفرح الرجل المسكين هـذا الفرح كله ، وهنأ نفسه على أن الرجل قد ارتضى قبول هذه السعادة .

ولاحت للضابط المتقاعد رؤية جديدة فأوقدت فى نفسه حماسة جديدة ، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة جياشة :

ـ لحظةً يا ألكسى فيدوروفتش ، لحظة أخـرى ! هل تعلم أننى أملك الآن أن أحقق أمنية ايليوشا وأن أفى بوعدى له ؟ لسوف نشترى حصانا وعربة كارّة . وسيكون الحصان أكحل . ان ايليوشا يصرُّ على هذا اللون . وسنسافر ، كما وصفت له سفرنا أمس الاول . اننى أعرف فى مدينة «ك» محاميا هو من أصدقاء الطفولة . وقد علمت من شخص موثوق به أن صديقى هذا سيعيننى كاتبا فى مكتبه اذا أنا ذهبت الى تلك المدينة . من يدرى ؟ قد يستخدمنى فعلا ! سأُقعد الأم اذن على العربة ، وسأُقعد عليها نينوتشكا أيضا ، ثم يمسك ايليوشا بزمام الحصان فيجره، وأسير أنا على قدمى الى جانب العربة . وهكذا نرحـل جميعا ! يا رب السماء ! ليتنى أستطيع أن أسترد ذلك المبلغ الصغير الذى يدين لى به أحدهم هنا ، اذن لملكت من المال ما يكفينى لهذه الرحلة !

صاح أليوشا يقول :

ـ ستملك ما أنت فى حاجة اليه ! سترسل اليك كاترين ايفانوفنا من المال كل ما ستحتاج اليه . وأنا أيضا عندى بعض المال ، هــل تعلم ذلك ؟ خذ منى ما أنت فى حاجة اليه ، خذه منى كما يأخذ أخ من أخيه، كما يأخذ صديق من صديقه . وسترده الىّ فى المستقبل (ذلك انك ستغتنى ، هذا مؤكد) . صدقنى اذا قلت لك ان فكرة السفر الى اقليم آخر هى خير فكرة يمكن تخيلها . ان فيها خلاصك ، وخلاص ابنــك خاصةً . وأؤكد لك أن الاسراع أفضل شىء . سافر قبل حلول الشتاء، سافر قبل اشتداد البرد . وستكتب الينا من هناك ، وسنظل اخوة . ليس هذا حلماً ، ليس هذا حلماً البتة !

ودّ أليوشا لو يقبله وهو فى غمرة الفرح هذه. ولكنه أمسك فجأةً حين نظر اليه . لقد مدّ الرجل عنقه ، وقدّم فمه ، شاحب اللون منقلب السحنة . ان شفتيه تختلجان ، كأنما هو يهمس بشىء أو يحــاول أن يتكلم . ولكن لم يخرج من فمه أى صوت ، وظل يحرك شفتيه صامتاه منظر غريب مقلق .

سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدرى لماذا ؟ :

ـ ما بك ؟

فتمتم الضابط المتقاعد يقول بصوت متقطع ، محدقا الى أليوشا بنظرة غريبة شاردة ، وقد بدا كأنه يهم أن يهوى فى فراغ ، بينما شــفتاه تصطنعان ابتسامة :

ـ ألكسى فيدوروفتش .. اننى .. أ .. نعم .. اننى أ ...

ثم قال فجأة بهمس سريع ، ولكن بلهجة جازمة ليس فيها الآن شىء من تقطع :

ـ هل تريد أن أريك براعة صغيرة من براعاتى ؟

ـ براعة ؟

ـ نعم ، براعة من نوع براعة الحواة !

كذلك أجاب الضابط المتقاعد فى همس أيضا .

فهتف أليوشا مذعورا كل الذعر :

ـ ولكن ماذا بك ؟

فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد :

ـ نعم .. هى براعة .. أنظر .

قال ذلك ثم أراه الورقتين النقديتين اللتين ظل طوال الحديث يمسكهما مشدودتين بين السبابة والابهام من يمناه ، ثم اذا هو يقبض عليهما فما يزال يدعكهما فى قبضة يده بعنف وقوة حتى سحقهما سحقا وقد أخذ منه الحنق كل مأخذ .

ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ثاقب :

ـ فهل رأيت ؟ هل رأيت هذه المرة ؟

ثم رفع قبضة يده شاحبَ الوجه مرتعد الجسم ، فرمى الورقتين المسحوقتين على الرمل .

وعاد يعول من جديد قائلاً وهو يشير اليهما باصبعه :

ـ هل تراهما ؟ اليك هما ! ..

ثم رفع قدمه اليمنى ، فأخذ يدوسهما بحنق مسعور وحشى ، وهو يصرخ بصوت لاهث بعد كل دوسة عليهما :

ـ أنظر ماذا أفعل بمالك ، أنظر ماذا أفعل به ! انظر اليهما ، ورقتيك ...

ثم تراجع خطوة الى وراء ، على حين فجأة ، ووقف أمام أليوشا مشدود الجسم منتصب القامة • كان وجهه يعبر عندئذ عن كبرياء لا تغلب •

وهتف يقول وهو يمد ذراعه :

ـ قل للذين أرسلوك ان ليفة الحمام لا تبيع شرفها !

ثم استدار فجأة ، ومضى راكضا • ولكنه ما ان قطع خمس خطوات حتى التفت نحو أليوشا ، وحرك له يده مودعاً • ثم ما ان قطع خمس خطوات أخرى حتى توقف ملتفتاً نحو أليوشا مرة ثانية • كانت الابتسامة الساخرة قد اختفت من وجهه وحلت محلها دموع • وبصوت مختلج تقطعه شهقات انتحاب ، صاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يحاول أن يكظمها فتشطر كلماته شطرين :

ـ ماذا كان يمكنني أن أقول لابني لو قبلت مالكم ثمناً لعارنا ؟

قال ذلك وانصرف راكضا دون أن يلتفت مرة أخرى • تابعه أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق • وأدرك أليوشا أن هذا الرجل لم يكن قد خطر بباله ، حتى آخر لحظة ، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وأنه سيرميهما • انه الآن يركض ، ولن يرجع• ذلك أمر كان منه أليوشا على يقين • ولم يشأ أليوشا لا أن يناديه ، ولا أن يجرى وراءه ليدركه، لأنه أحس أن عليه أن لا يفعل ذلك • حتى اذا غاب الرجل عن بصره ، تناول الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين فى الرمل ، ولكن دون أن يصيبهما أى تمزق ، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان • حتى اذا أزال عنهما ما نالهما من دعك ، عاد فطواهما ودسهما فى جيبه • ثم سار فى طريقه ليبلغ كاترين ايفانوفنا ثمرة مسعاه فى انفاذ ما عهدت اليه بانفاذه •

حواش

الصفحة

١٢ ★ « الحق الحق أقول لكم ... » : يرى بعضهم أن تصدير دوستويفسكي كتابه بهذه الآية من الانجيل يعبر عن اقتناع دوستويفسكي بأن النفس الانسانية (والنفس الروسية) لن تبعث بعثا جديدا الا بعد أن تجتاز أزمة عميقة .

١٩ ★ ان اسم كارامازوف ، كغيره من أسماء بعض الأسر النبيلة ، يرجع الى أصل تترى . ولكن بعض النقاد يرون ان اختيار دوستويفسكي هذا الاسم لأبطال روايته قد تأثر خاصة باسم دمترى كاراكوزوف ، الثورى الذى حاول يوم ٤ نيسان (أبريل) ١٨٦٦ اغتيال القيصر الاسكندر الثانى بينما كان القيصر يتنزه فى حديقة الصيف . ويقال ان دوستويفسكي قد هزته كثيرا محاولة الاغتيال هذه . ويشير آخرون الى ان كلمة كارا (قره) تعنى فى اللغة التترية الاسود ، ويرون فى ذلك رمزا .

١٩ ★ «ووقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة ...» يشير النقاد الى أن معنى ذلك أن دوستويفسكي يضع أحداث رواية « الاخوة كارامازوف » فى خريف ١٨٦٦ ، وبذلك يكون قد أخطأ فى الحساب حين أشار فى الفصل الثامن من الباب الثانى من هذه الرواية الى مقتل فون سون الذى وقع فى نهاية سنة ١٨٦٩

٢٧ ★ « ميتيا » تصغير اسم دمترى ، تحببا

٢٨ ★ بيير – جوزيف برودون (١٨٠٩ – ١٨٦٥) وميشيل باكونين (١٨١٤ – ١٨٧٦) : من أقطاب حركة « المذهب الفوضوى » منذ ١٨٤٠

٢٨ ★ « الايام الثلاثة الاولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ » : هى الايام التى تمتد من ٢٢ الى ٢٤ فبراير ، والتى أدت الى تنازل لويس فيليب عن العرش .

٢٨ ★ يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر «بألف نفس»: ألف نفس ، أي ألف قن ، وهذا يدعو الى افتراض أن الاراضي المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار ٠

٣٥ ★ « كليكوشي » : الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسي ومعناه صرخ ، وهو اسم يطلق على النساء الهستريات اللواتي يأخذن في صراخ كان بهن مسا من جن ٠

٤٠ ★ « لقد تناول المقال مسالة القضاء الاكليركي » : ان مسالة المحاكم الاكليركية (التي كانت تفصل في شئون الطلاق خاصة) ترتبط باصلاح المحاكم المدنية سنة ١٨٦٤ ، وقد نوقشت في الصحافة مناقشة حادة في ذلك العهد ٠

٤٤ ★ « الشيخ » : بالروسية « ستارتس » ، وهو اسم يطلق تعظيما وتبجيلا على الرهبان الطاعنين في السن ٠ اما العجوز العادي فاسمه بالروسية « ستاريك » ٠

٥٤ ★ « الشيخ زوسيما » : ان هذه الشخصية تذكر بشخصية الشيخ أمفروسي الذي زاره دوستويفسكي في أوبتينا سنة ١٨٧٨ ، ولكن دوستويفسكي قد استوحي أيضا كتابا بعنوان : « حياة الشيخ الراهب زوسيما وأعماله المجيدة » ، وقد نشر هذا الكتاب في موسكو سنة ١٨٦٠ ، ان هذا الراهب (١٧٦٧ ــ ١٨٣٥) هو ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخوفسكوي ، وقد كان في شبابه ضابطا في حرس كاترين الثانية ، ثم ترهب وأصبح شيخا يعيش حياة نسك قاسية ٠ وقد جمع أحد مريديه أقواله ومواعظه ونشرها ، فاستخدمها دوستويفسكي في اعداد الباب السادس من روايته « الاخوة كارامازوف » ٠

٥٦ ★ « رأيت طيف حوذي ٠٠٠ » : عرض بتصرف لمقطع من النشيد الرابع من « الانياذة المزورة » (التي تصف الجحيم) ، وقد نشرها سنة ١٦٤٣ الاخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو ٠

٥٩ ★ « أعلن الرسول توما ٠٠٠ » : ان ما يذكر عن هذا الرسول من

عـــدم تسرعه في التصديق قد أشـير اليه في انجيل يوحنا (الاصحاح العشرين ، ٢٤ ـ ٢٩) ٠

٦٢ ★ بائيسي فيليتشكوفسكي (١٧٢٢ ـ ١٧٩٤) : ناسك يرجـع أصله الى روسيا الصغرى ، كان راهبـــا في جبـل آثوس ، وفالاشيا ، ومولدافيا ، وهو الذي أدخل نظام « المشايخ » الى روسيا ، ترجم كتب اسحاق السورى وتيودور ستوديت ٠ وقد نشرت مؤلفاته سنة ١٨٤٧

٦٣ ★ كوزلسكايا اوبتينا (بوستين) ، منسك أوبتا : دير يقع قرب كوزلسك في مقـــاطعة كالوجا ، أنشأه رجل من قطاع الطرق تائب ، اسمه اوبتا ، وقد اشتهر هذا الدير في القرن التاسع عشر بتقوى رهبانه ٠ وزاره دوستويفسكي في شـهر حزيران (يونيه) سنة ١٨٧٨ بصـحبة الفيلسوف الشـــاب فلاديمير سولوفييف (١٨٥٣ ـ ١٩٠٠) بعد موت ابنه أليوشا ٠ وكان في هـــذا الدير الشيخ أمفروسى ، الذى اتخذه دوستويفسكى نموذجا للشيخ زوسيما في هذه الرواية ٠

٦٤ ★ « راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون في عصرنا ٠٠٠» ٠ هو الراهب بارتين نيبوزا (١٦٤٨ ـ ١٧٠٤) الذى قضى حياته في الاديرة بتركيا وفلسطين ، ثم اصبح أسقف هولوجورى ، ومات في روسيا ٠ كان دوستويفسكى مطلعا على حجات هذا الراهب الى الشرق ٠

٧٢ ★ يطلق على كبير الرهبان أو رئيس الدير في الكنيسة الارثوذكسية اسم « ايجومين » ، والكلمة يونانية ٠

٨١ ★ «فون سون» موظف مسن قتل وسرق ماله سنة ١٨٦٩ في ماخور بموســكو ، ووضعت جثته في صندوق وارسل الصندوق الى سان بطرسبرج بالقطار ٠

٨٢ ★ « لكل دير قواعد ٠٠٠ » : هناك مثل روسى يقول : « لا تذهب الى دير أجنبى لتفرض عليه قواعدك أنت » ٠

٨٧ ★ « يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق » : أى الى سنة ١٦٦٠ ، حين حدث انشقاق « قدامى المؤمنين » في روسيا ٠

٨٩ ★ « هلا تنازلت يا سيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك٠٠»:
ها هنا لعب لعظى على كلمتى ايسبرافنك ونابرافنك ، فأما كلمة ايسبرافنك التى يسمى بها رئيس الشرطة فهى مشتقة من فعل ايسبرافت ومعناه أدب أو عاقب ، وأما نابرافنك فهو اسم ادوار نابرافنك (١٨٣٩ ـ ١٩١٦) رئيس الاركسترا الشهير فى دار الاوبرا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة ١٨٦٩ ، وهو من أصل تشيكى ، وقد شاءت المصادفة أن يكون اسمه هذا مشتقا من فعل نابرافيتى ومعناه : وجه ، أدار ، أصلح ٠

٩١ ★ الفيلسوف الشهير دينيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) ، دعته كاترين الثانية الى سان بطرسبرج سنة ١٧٧٣ ، وقد ركب الناس هذه النادرة عن محاورته مع ذلك الواعظ الممتاز أفلاطون لفشين (١٧٣٧ ـ ١٨١٢) ، الذى كان مربى الدوق الاكبر ولى العهد باقل ، ثم أصبح رئيس أساقفة موسكو ٠

٩١ ★ الاميرة كاترين داخكوفا (١٧٤٣ ـ ١٨١٠) لعبت دورا كبيرا فى الفتنة التى أوصلت كاترين الثانية الى العرش سنة ١٧٦٢ ، وهى امرأة مثقفة ثقافة واسعة ، وقد كانت فى وقت من الاوقات رئيسة الاكاديمية الروسية للآداب ٠

٩٥ ★ « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك »:
كلام قالته امرأة من الشعب ليسوع المسيح (انجيل لوقا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٢٧) ٠

٩٨ ★ هل صحيح ٠٠ ان كتاب أسماء الشهداء ٠٠ يروى ٠٠٠ قصة قديس ٠٠ قطعوا رأسه ٠٠ فتناوله من الارض ٠٠» : هذه القصة لا وجود لها فى كتاب الشهداء الروسى ، وانما هى تحكى عن شهيد سان دينيس اسقف باريس ، وهى رائجة جدا فى فرنسا:

١٠٧ ★ ناتاسيوشكا : تصغير اسم ناستازيا ، ويستعمل تحببا ٠

١٠٧ ★ « ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر » : في هذه السن تماما مات اليوشا ابن دوستويفسكي · وقد كتبت أرملة دوستويفسكي تقول : « هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابننا اليوشا الذى مات سنة ١٨٧٨ وعمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر · ففى تلك السنة انما شرع فيدور ميخائيلوفتش فى كتابة الرواية » ·

١٠٧ ★ نيكيتوشكا : تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحببا ·

١١٠ ★ « هذه راشيل ··· تبـكى صـغارها ··· » : تروى زوجة دوستويفسكى أن هذه الكلمات هى الكلمات التى وجهها الشيخ أمفروسى الى دوستويفسكى محاولا مواساته عن موت ابنه ·

١١٢ ★ « سأذكره فى صلواتى » : علقت زوجة دوستويفسكى على ذلك قائلة : ان فيدور ميخائيلوفتش قد نقل الى أقوال الشيخ هذه حين عاد من أوبتينا بعد حديثه مع أمفروسى ووصفه له مدى ما نعانيه من لوعة لموت ابننا ·

١١٥ ★ النص فى انجيل لوقا (الاصحاح الخامس عشر ، ٧) كما يلى : « أقول لكم انه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة » ·

١٢٢ ★ « أوبدورسك » : مدينة صغيرة فى أقصى شمال سيبريا الغربية، بين الأورال والمحيط المتجمد ·

١٣٤ ★ « كان احد رجال الدين قد نشر كتابا ضخما فى هذه المسالة » : ان أستاذا فى القانون الكنسى هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتـابا عنوانه : « بحث فى الاسس العلمية للقضـاء الاكليركى » ، وكانت مكتبة دوستويفسكى تضم هذا الكتاب ··

١٣٥ ★ « ولكن هذا ليس الا عقيدة ممـا وراء الجبال » : المقصود بما وراء الجبال هو ايطاليا ، والكلام ينطبق على العقيدة اللاهوتية التى تتفق ودعاوى بابا روما · وهكذا تفهم النكتة التى ترد فى الحوار بعد ذلك « ــ نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال » ·

١٤٦ ★ كان البابا جريجوار السابع (١٠٧٣ ــ ١٠٨٥) أكبر ممثل لفكرة الحكم القائم على السلطة الدينية ، وقد خاصم الامبراطور هنرى الرابع وغلبه ٠

١٥٠ ★ «باتيوشكا» : بهذا اللقب ينادى رب الأسرة والكهنة وغيرهم من الاشخاص المحترمين ، من باب الملاطفة ٠

١٥٦ ★ « تعرف هذين البطلين من أبطال قصة شيللر ٠٠٠ » : فى هذه الدرامة التى كتبها شيللر سنة ١٧٨١ ، أخرج المؤلف على المسرح اخوين متنافسين هما ابنا الكونت دى مور ٠ فأما الاول وهو كارل مور فيترأس عصابة من قطاع الطرق ، وأما الثانى وهو فرانتس مور فيهيىء مقتل أبيه ٠

١٦٤ ★ « المسيح نفسه غفر للمرأة التى أحبت » : اشارة الى غفران المسيح للخاطئة « من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها لانها أحبت كثيرا » (انجيل لوقا ، الاصحاح السابع ، ٤٧) ٠

١٧٦ ★ « جروشنكا » : لقب ملاطفة ، ومن عجب أن يشتق من اسم أجرافين تصغيرا ٠

١٧٧ ★ «ان شاعرنا بوشكين ٠٠٠ قد مجد ساقيها الصغيرتين فى شعره»: ذلك فى الفقرتين ٣٠ ، ٣٤ من النشيد الاول من قصة بوشكين « اوجين أونيجين » ٠

١٨٠ ★ « كاتنكا » : تصغير اسم كاتيا (كاترين) توددا وملاطفة ٠

١٨٨ ★ كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم أبدا ٠

١٩٦ ★ « ملة الخلستيس » : ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وكان لها انبياؤها واجتماعاتها التى تتسم برقص محموم واعمال خليعة ٠

١٩٨ ★ « قبلة على الشفتين وطعنة فى القلب » : كلمات كارل مور فى المشهد الثانى من مسرحية شيللر « قطاع الطرق » ٠

١٩٨ ★ أحسن متجر لبيع المواد الغذائية في سان بطرسبرج .

٢٠١ ★ « فانيا » : تصغير اسم ايفان

٢١١ ★ « اسحاق السورى » : ناسك من القرن السابع نشرت ، مجموعة من مواعظه سنة ١٨٥٨ في موسكو . وقد ضمت مكتبة دوستويفسكي هذا الكتاب .

٢١٢ ★ « اليزابت سمردياستشايا » : اسم مشتق من فعل سمرديت ، ومعناه النتنة . وقد روى أخو دوستويفسكي الاصغر (وهو آندره دوستويفسكي) في مذكراته التي نشرت سنة ١٩٣٠ ان امرأة معتوهه اسمها أجرافين كانت تسكن في أراضي أبيهما أيام شبابهما : « كان عمرها ٢٠ ـ ٢٥ سنة . وكانت قليلة الكلام ، فاذا تكلمت تكلمت كارهة على مضض ، وقالت كلاما غامضا مفككا . فاذا سمع السامع ما تقول فهم أنها تتذكر ابنها المدفون في المقبرة . ويظهر أنها كانت معتوهة منذ ولادتها، وقد اغتصبت فولدت ولدا مات في سن مبكرة . فحين قرأت قصة اليزابت في رواية الاخوة كارامازوف تذكرت تلك المرأة المعتوهة أجرافين» .

٢١٤ ★ « يوروديعايا » : اسم يطلقه الشعب على بعض ضعاف العقول ممن يعدون « مجذوبين الى الله » .

٢٢٤ ★ « ان مدينتنا مبعثرة جدا ... » . ان دوستويفسكى يسمى هذه المدينة في روايته بهذا الاسم الساخر: سكوتوبريجونيفسك المنحوت من كلمتين (قاد ـ بهائم) . وفي المسودات يسميها توبولسك ، وفي رأى زوجة دوستويفسكى أنه وصف ستارايا روسا ، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوادعة ، باقنيتها ، وحفرها وحدائقها ذات الاسيجة الخشبية .

٢٢٧ ★ هذان الشطران هما من نظم دمترى نفسه ، وسينشدهما مرة أخرى (الجزء الثانى ، الباب الثامن ، الفصل الخامس) .

٢٢٨ ★ « اكاذيب يروجها اناس لا خلاق لهم ، فلا تسمح لها ابدا وبدد

كل أوهامك » : بيتان من قصيدة للشاعر نكراسوف ، نشرت سنة ١٨٤٦ ، وفيها يخاطب الشاعر فتاة ضائعة يريد اصلاحها وبعثها بحبه • وقد استشهد المؤلف بأبيات من هذه القصيدة في غير هذه الرواية («قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها» ، و «في قبوي ») •

٢٣١ ★ « كن نبيلا يا أيها الانسان » : مطلع قصيدة للشـــاعر جوته عنوانها : « الالهي » ، وقد نظمها سنة ١٧٨٣

٢٣٢ ★ «سيلين ذو الوجه المزهر» : من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها . «آلهة اليونان» ، في ترجمة قام بها ليخاتشيف ، وهنا يتلاعب دمتري بالالفاظ مستغلا الجناس بين كلمة سيلين ، وكلمة سيلون (ومعناها قوي) •

٢٣٣ ★ « سكان الكهوف الخائفون الوجلون » : ان دمتري لا يتلو هنا نشـــيد الفرح بل قصيدة أخرى للشـــاعر شيللر هي « عيد ايليثوزيس » (١٧٩٨) في ترجمة روسية قام بها ف • آ • جوكوفسكي (الفقرات ٢ ، ٣ ، ٧) •

٢٣٥ ★ « روح العالم التي خلقها الله » : هاتان همـــا الفقرتان الثالثة والرابعة من قصيدة شيللر الشهيرة «الى الفرح» ، في الترجمة الروسية التي قام بها ف•اي• تيوتشيف، وقد استخدم بتهوفن هذه الابيات لخاتمة سمفونيته التاسعة •

٢٧٠ ★ « الكولبياكا » : فطائر بالسمك •

٢٧١ ★ « حمارة بلعام » : ان الأتان التي ركبها الرسول بلعام قد نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة ، الاعداد ٢٢ ، الآيات من ٢٣ الى ٣٠) •

٢٧٣ ★ « سهرات في المزرعة قرب ديكانكا » : مجموعة أقاصيص خيالية رومانسية كتبها نيقولا جوجول (١٨٣٢) •

٢٧٤ ★ « التاريخ العام » من تاليف سماراجدوف : هو موجز في التاريخ للمدارس الابتدائية ، طبع مرارا منذ سنة ١٨٥٤

٢٧٦ ★ « ثلاث أوراق نقدية ملونة » : هما أوراق نقدية من فئة المائة روبل •

٢٧٧ ★ « هناك لوحة جميلة رسمها الرســام كرامسكوى » : هو ايفان كرامسكوى (١٨٣٧ ـ ١٨٨٧) ، زعيم الحركة الواقعية في ذلك العصر ، وقــد رسم وجوه تولستوى وتكراسوف وغيرهما في لوحات رائعة •

٢٨٦ ★ « جاء في الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ٠٠٠» : تحوير لما ورد في الأناجيل : « الحق أقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ، ولا يكون شيء غير ممــكن لديكم » (انجيل متى ، الاصحاح السابع عشر ، ٢٠) •

٢٩٢ ★ « ولكن الفـلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم » : ان الاصلاح القضائي الذى صدر ســنة ١٨٦٤ قــد الغى العقوبات الجسدية في محاكم الدولة ، ولكنه تســامح في تطبيقها في محاكم القرى •

٢٩٧ ★ ليس المقصود هنا الشاعر الانجليزى بايرون ، بل الشاعر الهجاء الكسى بيرون (١٦٨٩ ـ ١٧٧٣) •

٢٩٧ ★ « آربنين » : ان الاب كارامازوف ، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة «بطل من زماننا » ، واسمه في الواقع هو بتشورين ، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها « التنكر » ، وبطل هذه المسرحية هو الذى اسمه آربنين •

٣٠٦ ★ « فانيا ، ليوشا » : تصغير اسمى ايفان وأليوشا •

٣٠٨ ★ « لا تقل لايزوب كلمة واحدة» : ان دمترى يسمى أباه هنا باسم الشاعر اليونانى الشهير ايزوب في معرض الاحتقار ، ومعروف

أن هذا الشاعر قد ولد عبدا ، وأنه كان دميم الوجه عي اللسان أحدب •

٣٦٠ ★ « ايكاتيرنبورج » : مدينة في منطقة المناجم من الاورال ، على طريق سيبريا • وتسمى الآن سفردلوفسك •

٣٧٨ ★ « ميتكا » : تصغير تحقيري لاسم ميتيا (دمتري) •

٣٨٠ ★ « جروشكا » : تصغير تحقيري لاسم جروشنكا (أجرافين) •

٣٨٢ ★ « فانكا » تصغير تحقيري لاسم فانيا (ايفان) •

٣٨٨ ★ « ابدى اليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية » : روت أرملة دوستويفسكي أن هذه الطريقة هي التي كان يستعملها زوجها في مخاطبة أطفال لا يعرفهم •

٤٢٤ ★ « بالشكر ياسيدتي لا احفل » : آخر بيت من قصيدة شيللر « القفاز » (١٧٩٧) • ان كاترين قد عذبت ايفان كثيرا وسببت له آلاما شديدة ، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها دولورج •

٤٣٨ ★ « الرائد سينجيريف ــ س » : يشير سينجيريف هنا ، باستعمال حرف السين (س) ، الى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن • فهكذا يتكلم الحقراء امام العظماء ، مضيفين هذا الحرف الى أواخر الكلمات •

٤٤٢ ★ « ايليوشا » : تصغير اسم ايليا ، تحببا •

٤٤٥ ★ « ليس في الطبيعة كلهـا ما يرضيها » : استشهاد بقصيدة ليرمونتوف التي عنوانها «الشيطان» • وهاهنا تحريف ، فالنص الاصلي لهذا البيت يجب أن يكون هكذا : « لا تريد أن تبارك شيئا في الطبيعة باسرها » •

٤٤٥ ★ « تشرنومازوف » : لعب لفظي على اسم كارامازوف الذي يعني نصفه (كارا) : أسود (تشرني) فيكون معنى تشرنومازوف : «المسود» أو «الملطخ بالسواد» •

فهرس

الموضوع	الصفحة

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهِّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف